جزيرة العرب

في

القرن العشرين

طبيعة جزيرة العرب وحالتها الاجتماعية الحاضرة . دعوة الوهابيين وتاريخهم ومبادئهم . الحكومات العربية التي تعاقبت على الجزيرة في العصور الحديثة . الثورة العربية . آل سعود وتاريخهم وأعمالهم . مؤتمرات الصلح والمعاهدات . الوثائق الرسمية التي دارت بين الأشراف وآل سعود وبريطانيا . . الخ

تأليف

حافظ وهبة

سفير المملكة العربية السعودية بلندن



رقم الإيداع	٩٩/١١٩٤٨
I.S.B.N الترقيم الدولى	977-5797-46-4

اهداء الكتاب

إلى شباب العرب الناهض ؛ عدة المستقبل ومناط الأمل .

حافظ وهبه

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة الطبعة الأولى

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على رسوله الأمين .

في يوم الخميس ٢٣ ربيع الثاني سنة ١٣٤٣ هـ — ٢٧ نوفمبر سنة ١٩٢٤ م وصل بريد الحجاز إلى عظمة السلطان عبد العزيز . وكنا على المَضْلُوم[1] أحد المياه النجدية ، في طريقنا إلى الحجاز ، فرأى عظمة السلطان أن نتقدم رَكْبه . فتركنا المعسكر السلطاني في طريقنا إلى مكة . وكُنَّا : الدكتور عبد الله الدملوجي بك وأنا . والشيخ عبد الله السليمان « كسكرتير » وكان الغرض من تقدمنا : أن ندرس أحوال مكة وحاجات أهلها والتفاهم معهم ، وإزالة سوء الأثر الذي تركته حملة الطائف .

كنا نتردد على دار الإمارة ومقر الحكم ، الذي أقام فيه الشريف خالد بن منصور ابن لؤي ، أمير مكة من قبل السلطان عبد العزيز . وكنا نتذاكر معه ونتبادل وإياه الرأي فيما يجدّ من الشئون الإدارية . ولفت نظري ما رأيته من أكداس الورق المهملة في فناء دار الإمارة . فدفعني حب الاستطلاع إلى معرفة ما تحويها . وما كنت أعتقد أن من بينها أوراقاً ذات أهمية تذكر ، غير أني وجدت الأمر على خلاف ما ظننت .

وجدت السجلات الإدارية للحكومة الهاشمية ، كما وجدت كثيراً من الأوراق السياسية الهامة التي لها علاقة بالثورة العربية والحركة العربية في أطوارها المختلفة .

فرأيت — خدمة للتاريخ العربي — أن أضع كتاباً أضمنه أهم الحوادث في جزيرة العرب من سنة (١٣٣٣ — ١٣٥٣هـ) — (١٩١٥ — ١٩٣٤م) أضمنه هذه الوثائق ومعلوماتي

---

(١) دعانا عظمة السلطان إلى خيمته لمباحثتنا في البريد الواصل إليه من مكة من قناصل الدول ومن الأمير خالد بن لؤي . فرأى عظمته بعد البحث أن نتقدم الركب إلى مكة .

الخاصة فى الانقلابات الخطيرة التى حدثت فى هذه الحقبة من الزمن . فأكون بذلك قد قمت بشيء من الواجب الحقيقة والتاريخ .

ولقد رأيت — بعد استعراض كثير من الآراء — أن أضم إلى هذه الفصول التاريخية السياسية بعض الفصول الجغرافية ، وبضعة فصول أخرى عن عوائد السكان — البدو والحضر — وطرق معايشهم ، والعلوم والمعارف فى جزيرة العرب ، والنهضة الدينية التى قام بنشرها الشيخ محمد بن عبدالوهاب رحمه الله ، وأحياها فى العصر الحديث الملك عبد العزيز وأحفاد الشيخ محمد بن عبد الوهاب .

كما رأيت أن أضم إلى ذلك فصولا أخرى عن الحكومات العربية ، وحكم الأشراف فى مكة ، وآل صبّاح فى الكويت ، وآل خليفة فى البحرين ، والصراع بين آل سعود والأشراف قديماً وحديثاً . لاتصال الحوادث ببعضها ، ولشرح بعض الحوادث الأخرى .

وإنى أعترف أن تدوين التاريخ من أصعب الأشياء . فالإنسان قد يتأثر كثيراً بالمحيط ، وقد يكون حبه أو سخطه ذا أثر عظيم فيما يكتب .

ومع هذا فيجب أن أقرر أنى لا أرمى بتدوين هذا السفر القيام بأية دعوة لأى شخص ، ولا النيل من أحد . فرائدى الأسمى : خدمة التاريخ والحقيقة ، وكل شيء سيفنى سوى الحق .

وإنى — وإن لم أصل إلى درجة الكمال فى البحث ، لنقص بعض المستندات التاريخية — فقد قمت بما يمليه علىّ الواجب نحو الشعب العربى الذى وقفت حياتى لخدمته ، وأبرأت ذمتى نحو الجيل القادم الذى له فى رقابنا الشيء الكثير من الواجبات .

وفى الحديث : « من كتم علماً ألجمه الله يوم القيامة بلجام من نار » .

ويجب علىّ أن أذكر هنا مزيد الشكر على ما أسداه إلى أصدقائى من العرب والإنجليز من المعونة ، سواء بالصور ، أو بإعارتى كثيراً من الكتب القيمة .

وأسأل الله أن يسدد خطانا ويعصمنا من الزلل ؟

لندن { رمضان ١٣٥٤ هـ
ديسمبر ١٩٣٥ م }

حافظ وهبه

مقدمة الطبعة الثانية

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على رسوله الأمين

***

لقد استقبل العالم العربى فى مختلف الأقطار (جزيرة العرب فى القرن العشرين) استقبالا حماسياً محموداً، يفوق ما كنت أقدره . استقبلته الصحف والمجلات — عربية وغير عربية — بالترحيب والإطراء، وقدرت المجهود المضنى الذى بذل فى جمع الحوادث وتنسيقها، والعدل فى الأحكام، وعدم التحيز فى التعليق على الحوادث، والقصد فى الثناء والنقد .

لقد نفدت جميع النسخ التى طبعت فى وقت أقصر مما كان ينتظر لكتاب مثله، لم يتناول سوى موضوعات تاريخية واجتماعية، أو قضايا سياسية لا يهتم بها إلا فريق خاص من قراء العربية .

ولكن الحقيقة الظاهرة الباهرة : أن العالم العربى — فى العشرين سنة الأخيرة — أخذ يظهر اهتماماً عظيما بكل ماينشر أو يكتب عن العرب والعربية، من شئون سياسية، أو اجتماعية أو تاريخية أو أدبية، وساعد على ذلك ازدياد القراء ازدياداً مطرداً بكثرة المدارس وازدياد عدد المتعلمين .

ولقد شجعتنى هذه الروح الناهضة وكثرة الرسائل — من الكتاب والساسة — على إعادة طبع الكتاب، مع إضافة بضعة فصول أخرى فى موضوعات لها صلة وشيجة بموضوعات الكتاب . وتسجيل ما جد من الحوادث الجسام فى السنوات التى تلت الطبعة الأولى .

وأرجو أن أكون قد وفقت لأداء واجبى نحو الأمة العربية التى وهبتها أعز ما أملك، وهى حياتى .

هذا وأسأل الله الهداية إلى السبيل القويم .

مقدمة الطبعة الثالثة

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين . وصلى الله وسلم وبارك على خاتم المرسلين

وبعد ، فإنه ليس لى ما أضيفه على ما كتبته لمقدمة الطبعة الثانية ، فإن نفاد الطبعة الثانية وكثرة الطلبات على الكتاب ، اضطرنى لإعادة طبعه المرة الثالثة ، وهو إقبال يرجع إلى الوعى القومى ، ورغبة القراء من الأمة العربية فى الوقوف على حالة البلاد العربية والسعودية وإمارات الخليج الفارسى ، وتطورها فى العشر السنوات التى تلت الحرب الأخيرة .

وسأضيف إلى هذه الطبعة فصلا فى قصة الزيت العربى . وتسجيل ماجد من الحوادث فى السنوات التى تلت الطبعة الثانية ؟

وأسأل الله التوفيق والسداد

القاهرة { جادى الآخرة سنة ١٣٧٥ هـ .
يناير سنة ١٩٥٦ م .

حافظ وهبه

فهرس الكتاب

صفحة

صفحة

جزيرة العرب

بلاد العرب أو جزيرة العرب كما تعرف عند علماء العرب هى الأراضى المحاطة ببحر الهند ، والبحر الأبيض المتوسط ، ثم دجلة والفرات [1] . أما علماء الفرنج فيجعلون النفود الشمالى الفاصل بين نجد الشمالية ، وصحراء سوريا هو الحد الطبيعى لجزيرة العرب من الشمال

يبلغ متوسط عرض الجزيرة ٧٠٠ ميل ، ومنتهى طولها ١٢٠٠ ميل ، وتزيد مساحتها عن مساحة الهند ، وبلاد العرب من البلاد القليلة التى حافظت على تقاليدها وعاداتها وطرق معايشها منذ أقدم عصور التاريخ ، وإن ما انتابها من التغير لا يكاد يذكر ، وذلك بسبب العزلة التى يفضلها العرب على كل شىء سواها

وجزيرة العرب مشهورة بصحاريها الواسعة ورمالها التى يقصر الطرف عن مداها ، وتشغل هذه الصحارى قسماً كبيراً من مساحتها

وأهم هذه الصحارى : الدهناء ، النفود ، الصحراء الجنوبية أو صحراء الربع الخالى ، وهذه الصحارى وإن كانت رملية إلا أن تربة بعضها خصبة بحيث تصبح بعد الأمطار من أفضل المراعى للحيوانات ، وقد اخترقنا الدهناء بضع مرار من الشمال فقطعناها فى ١٣ ساعة على الإبل ، ومن جهة الأحساء فقطعناها فى ست ساعات ، كما أنى قطعت النفود من بعض نواحيه من جنوب الزلفى إلى شقراء وهو أشق من عبور الدهناء ، وقد قطعت الدهناء بالسيارة فى ثلاث ساعات

أما اليوم فالجزيرة العربية تقطع من جدة على البحر الأحمر إلى الظهران على الخليج الفارسى فى نحو أربع ساعات بالطائرة

وليست طبيعة التربة فى الدهناء والنفود متجانسة من كل وجه ، فهناك بعض الجهات لا ترى فيها غير الرمال المرتفعة التى تركاد تبتلع المارة لنعومتها وعدم تماسكها ، فيتجنبها المسافرون ابتغاء سلامة أرواحهم وأموالهم

ويوجد ببلاد العرب هضاب يبلغ ارتفاع بعضها أكثر من ثمانية آلاف قدم فى شمالى

---

(١) يسميه العرب بحر الشام . ياقوت : جزيرة العرب ، والقاموس : مادة جزر

وجنوبى منطقة البحر الأحمر — مدين واليمن — أما قلب الجزيرة فالارتفاع فيه تدريجى — فمستوى البلاد فى نجد يبلغ حوالى ٢٥٠٠ قدم . بينما يصل فى بعض الجهات كأجا فى الشمال إلى خمسة آلاف قدم ، وفى نهاية الجنوب الشرقى توجد هضبة عالية يتكون منها الجبل الأخضر ، وفى الوسط الشرقى يوجد مرتفع طويل يقابل الغرب يسمى جبل طويق ، ويبلغ ارتفاعه نحو ٦٠٠ قدم

الوديان

لا يوجد فى بلاد العرب أنهار بالمعنى المعروف ، ولكن بعض مجار أو نهيرات صغيرة دائمة فى عسير واليمن وجهات عدن والأحساء ، وعمان ونجد ، ووديان لا عداد لها مما تجرى فيها المياه إبان المطر ، وهى فى الغالب طويلة وغير عميقة . وأطول هذه الوديان وادى الرمة الذى يبدأ قريباً من المدينة ويمر فى القصيم ، ثم إلى شط العرب . ووادى حنيفة الذى يبدأ من منحدرات جبل طويق الغربية إلى اتجاه الخليج الفارسى (وهو لا يصل إليه) فهذان الواديان يمكن أن يُعبر مجراهما أثناء فيضانهما الواطىء والمتوسط بدون صعوبة ، وهما يحفظان الماء فى باطن مجراهما ؛ حيث يمكن الوصول إليه بحفر آبار تختلف أعماقها باختلاف المكان ، وفى بعض الأماكن كما فى القصيم (وادى الرمة) والخرج ووادى حنيفة تعلو المياه سطح الأرض ، وهنالك تتكون سلسلة من الواحات

أما الوديان التى تتجه نحو البحر الأحمر ، فإنها ذات مجرى أعمق وأكثر انحداراً ، وهى تكاد تكون معدومة النفع وهى عقبة فى سبيل المرور من الشمال إلى الجنوب ، وهى لا تكون واحات مثل مياه الأودية الأخرى بسبب ما تجلبه المياه فى انحدارها من الأتربة وغيرها مما يتراكم بعضه فوق بعض بسرعة ، بحيث لا تستطيع حرارة الشمس أن تؤثر فى صلابته . ووديان غربى اليمن ومنطقة قسم البحر الأحمر من هذا النوع — من مدين إلى حضرموت

المناطق الداخلية الخصبة

بين الصحارى المترامية الأطراف ، وبين الأودية والمنحدرات توجد مناطق خصبة عامرة بالسكان ، وتجود بقسط من حاجات السكان الضرورية وأهمها :

١ — جبل شمر :

هو إلى جنوبى النفود الشمالية ، وتنحدر إليه المياه من جبلى طى الشهيرين « أجا وسَلْمى » اللذين يمتدان من الجنوب الغربى إلى الشمال الشرقى

وتشغل مدينة حايل ، ومدينة فَيْد[1] القديمة ، وعدة قرى أخرى صغيرة وكبيرة فى المنطقة المجاورة لسلسلتى الجبال

٢ — القصيم :

واقعة إلى ما بعد المنحدرات فى جنوبى جبل شَمَّر ، فالقسم المنخفض ترجع خصوبته إلى المياه الموجودة فى باطن الأرض باستمرار ، وإلى المياه التى تفيض عليه أحياناً من وسط مجرى وادى الرُّمة . وتمتد منطقة القَصيم فى خط يبلغ طوله أكثر من مائة ميل ، تتخلله بعض ألسنة النفود فتفصله عن بعضه . وفى هذا الخط تقع أكبر مدينتين تجاريتين فى قلب الجزيرة ، وهما : عنيزة و بُرَيْدَة ، وعدا هاتين المدينتين يوجد أكثر من خمسين بلدة كبيرة وصغيرة

والقسم المرتفع غنى بمراعيه الواسعة ، ويعتمد على الآبار التى توجد فى أكثر من أربعين بلدة

٣ — نجد :

وهذه بلا نزاع أكبر مجموعة من المناطق الخصبة ، وتبلغ مساحتها بما فى ذلك بعض المنحدرات أكثر من عشرة آلاف ميل ، وهى تتكوّن من سلسلة مناطق واقعية عند أطراف جبل طويق ، وتمتد سلسلة من البلدان والقرى من سُدير فى الشمال وتنتهى فى الجنوب إلى وادى الدواسر . ومجموعة المناطق الخصبة تحيط بها الدهناء شرقاً وجنوباً ، والنفود ، والمنحدارت من الشمال ، ومنحدرات من الغرب . ومنطقة الخصوبة أوسع على جانب شاطئ البحر الأحمر وفى الجنوب الشرقى ، ففى الشرق تجد أن هذه الحلقة رقيقة

---

(١) انظر ياقوت

وتفصلها حواجز واسعة ، فثلث شاطئ الخليج الفارسى من الكويت إلى القطيف أرض جرداء ، و بعد ذلك تبدأ سلسلة عيون فى الداخل حيث منطقة الأحساء ؛ ولا يوجد على الشاطئ إلا مناطق صغيرة قليلة الخصوبة . ومن نقطة رأس الجبل تبدأ عُمان التى تنحدر إليها المياه من مرتفعات الشاطئ الشرقى وجبال عمان غرباً ، كما ينزل المطر فيها فى فصول معينة . كذلك الجبل الأخضر الممتد على الشاطئ تجاه رأس الحدّ . وكذلك فى المنطقة الواقعة شمالاً خلف شاطئ الباطنة توجد وديان خصبة وغنية وسلسلة عريضة من الأراضى الخصبة ؛ وفى الجنوب توجد الصحراء ممتدة على طول الشاطئ حتى رأس الحد . ولكن لما كانت الأرض تأخذ فى الارتفاع تدريجياً تجاه خط تقسيم المياه الغربى ، فإن ودياناً وأرضاً خصبة تبدأ فى الظهور ولكنها غير متصلة . و بعد عبور مدخل وادى حضرموت تأخذ الأرض الخصبة فى الظهور بشكل متقطع

ومن مدخل وادى حضرموت فصاعداً يعتبر القسم الغربى من شبه الجزيرة ، ونجد أمامنا عند ما ندور حول الزاوية الجنوبية الغربية للجزيرة منطقة ساحلية منخفضة خصبة فى المواضع التى تنحدر منها الوديان من المرتفعات . ويوجد وراء هذه المرتفعات مرتفع خصب (صنعاء ٧٥٠٠ قدم) ، تكتنفه جبال عالية هى خط تقسيم المياه ، وتمتد هذه المناطق الخصبة إلى ٢٠٠ ميل من الشاطئ الغربى . ثم تأخذ المنحدرات تتلاشى حتى تختفى فى الربع الخالى . وهذه المنطقة هى ما كان يطلق عليها قديماً العربية السعيدة ، والتى يطلق عليها الآن اسم اليمن ، وعَدن والمَكَلّا من جهة ، وعسير من جهة أخرى . وعلى أية حال فإن الخصوبة تنتهى عند مدينة الليث على شاطىء البحر الأحمر . ومن هذه النقطه شمالاً لا تشمل رياح المُونْسُون هذه المنطقة ؛ ومن هنا تبدأ مناطق الواحات منفصلة عن بعضها وعليها قوام حياة السكان . وفى بعض المنطقة الواقعة بين مكة والمدينة يوجد بعض مناطق خصبة صغيرة فى باطن بعض الوديان ، و إلى مائة ميل شمالاً من المدينة تنتهى سلسلة المناطق أو الواحات المنعزله بمنطقة خيبر والعلا . أما بالنسبة للشاطىء من جدة فليس فيه إلا مداخل الوديان التى عند ما تنحدر فيها المياه وتتخلل باطن الأرض تمكن بعض السكان من حفر آبار للارتواء

الجـــو

يعتبر الجو فى الجزيرة على العموم ، ما عدا بعض نقط على الشواطئ صالحاً للحياة — فالحرارة التى تشتد نهاراً والبرودة التى تشتد ليلا تقتل أغلب الميكروبات التى تحارب بنى الانسان فى جهات أخرى ؛ والحياة على وجه العموم فى لجزيرة ، وبالأخص فى المناطق الخصبة طويلة ، ولـكن حياة البدو الرحل الذين يعيشون على المنحدرات شـاقة تقصر الأجل ، وكذلك الحال فى هضبة اليمن التى يبلغ ارتفاعها ما بين ٧ — ٨ آلاف قدم

والشىء الذى يميز الجو فى الجزيرة هو الجفاف ، فان بلاد العرب واقعة بين البحار . ومع هذا فليس لها أى أثر فى جو الجزيرة ، وتستفيد اليمن من رياح المونسون فى الصيف وينزل فى عمان قدر كاف من الأمطار بينما المنطقة الواقعة إلى غربى خط تقسيم المياه لا ينزل فيها المطر إلا نادراً

أما باقى الأقسام فإن أكبرها حظا من المطر النفود الشمالى وجبل شمر ، فالأمطار تهطل فى الشتاء ، وكذا رياح البحر الأبيض المتوسط تسبب المطر فتنبت أعشاب الربيع . وأما الصحراء الجنوبية فربما لا يصيبها الرذاذ ساعة واحدة كل ثلاث أو أربع سنوات .

ومن ظواهر الجو أيضاً فى الجزيرة الحرارة : فالنصف الجنوبى من الجزيرة تبلغ الحرارة فيه نهايتها فى شهرى يوليو وأغسطس . أما تأثيرها فى الإنسان فيختلف تبعاً لارتفاع المنطقة التى يعيش فيها

وأشـد المناطق حرارة شاطئ عمان وتهامة اليمن ، ولـكن الجو فى شاطئ الخليج والمحيط الهندى ليس طيباً

السكان

عددهم — الحضر والبدو

لم يعمل إحصـاء للسكان فى جزيرة العرب ؛ ولذا لا يمكن معرفة عددهم بالضبط ، وإذا قلنا إن عدد السكان لا يقل عن سبعة ملايين ، فربما كنا إلى الصواب أقرب . وهم موزعون فى مناطقهم كما يلى :

ثلاثة ملايين فى منطقة البحر الأحمر من مـدين إلى اليمن ، ومليون ونصف فى المنطقة الجنوبية والساحل البحرى ، بما فى ذلك حضرموت وعمان ومليونان ونصف فى وسط الجزيرة

الحضر

إن كثرة ارتحال القبائل وغزواتهـا العديدة ، ترك عند الناس فكرة خاطئه عن عدم وجود مدن وبلاد فى جزيرة العرب ومناطق زراعية ، وكثير من الناس لا يعلم بوجود مدن سوى مكة والمدينة وجدة وصنعاء

إن المناطق الساحلية فى الجنوب الشرقى والجنوب الغربى من الجزيرة أراض زراعية آهلة بالقرى والمدن ، والأهالى يشتغلون بالزراعة والتجارة ، ويوجد علاوة على ذلك مستعمرات أو واحات عديدة فى وسط الجزيرة ، يتجاوز سكان الواحدة منها سبعة آلاف نسمة ، وهذا عدا الأماكن الأخرى المبعثرة المملوءة بالسكان . ومما لا شك فيه أن حياة الحضر فى داخل الجزيرة متأثرة إلى درجة ما بحياة البدو الرحل لاتصال الفريقين فى كثير من المرافق ، فان الفريقين كثيراً ما يتصلان بالمصاهرة والتجارة

والحضر تختلف طباعهم باختلاف المناطق التى يعيشون فيها ، وظروف الحيـاة التى تحيط بهم ، فأهل حايل أقرب مظهراً إلى البداوة ، وأهل مكة والمدينة واليمن العالية أبعد مظهراً عن البداوة من البلاد الأخرى العربية ، وأهل القصيم ألين عريكة من أهل العارض ، لأنهم كثيرو الأسفار ، كثيرو الاختلاط والتعامل مع البلاد الأخرى كالشام وفلسطين ومصر ، ولذا فترى موظفى ديوان الملك المـكلفين بالمقابلات والتشريفات من أهل القصيم أو حايل

وأهل الرياض أرق بكثير من أهل الدواسر الذين لم يفارقوا بلادهم ، ولم يعرفوا شيئاً عن أحوال العالم الخارجى

والحضر فى تنافس وتفاخر دائم ، فأهل القصيم يفضلون أنفسهم على سائر سكان نجد بالعلم والمعرفة وسماحة الخلق والإحاطة بأحوال العالم . وأهل العارض يفضلون أنفسهم

بالشجاعة والصبر على المكارة والمحافظة على شمائل العرب وأنهم جند التوحيد الموالون لأهله فى أوقات الشدة

وأهل البحرين يفاخرون أهل الكويت بكرمهم فيقولون : إذا حضر عندنا الكويتى دعوناه وذبحنا له ولم نقبل له عذراً ؛ ودعونا معه أصدقاءه ومعارفه . أما الكويتى فإذا قابلك فى بلده قال لك مرحباً ! متى الوصول ؟ كيف حالك ؟ فى أمان الله ! ثم انصرف - وإذا لم يجد مفرًّا من الدعوة لروابط العمل والصداقة المتينة فانه يدعوك ويشترى اللحم من السوق ، أى لا يذبح لك الخروف

وأهل الكويت من جهة أخرى يرمون أهل البحرين بالبساطة ؛ وحضر نجد وبدوهم ينالون من أهل الكويت والإحساء والبحرين ، ويقولون لقد أضاعوا مفاخر العرب ، لا يعرفون الخيل والجمال ولا الكر ولا الفر ، ولا يحسنون إلا قيادة السفن

والحضر يعيب بعضهم بعضاً بلهجاتهم ، وربما كانوا مجمعين على النيل من لهجة أهل الإحساء والبحرين لما فيها من الرخاوة والميل إلى الامالة

ويغلب على الحضر الخلق التجارى ، وبعض الجهات يمتاز عن بعض فى هذا الخلق ، فأهل القصيم والزلفى وشقرا أنشط من أهل نجد فى التجارة ، فقوافلهم تقصد سائر الجهات العربية ، وتجارهم كثيراً ما يسافرون إلى الهند ومصر فى سبيل التجارة ، والتجار النجديون المعروفون فى الهند ومصر والعراق من أهل هذه البلاد . أما أهل الكويت فنشاطهم فى التجارة البحرية ، وقد كانت لهم أساطيل بحرية فى الماضى لنقل الحاصلات العربية إلى الهند وبعض سواحل الخليج الفارسى وجلب السلع الهندية والأوروبية إلى بلاد العرب ؛ وقد قضت السفن البخارية على هذه الأساطيل وقللت من أهميتها ، ومع ذلك فلا تزال للكويت بعض السفن تنقل عليها تمر العراق إلى الهند ، وتأتى من الهند حاملة الأرز وأدوات السفن وسائر الحاجيات الأخرى . أما فى فصل الصيف فتكاد السفن تقتصر على الغوص لاستخراج اللؤلؤ

ويمرّن الحضر أولادهم على التجارة من الصغر : يمنح الوالد ابنه الصغير مبلغاً من المال ليتعامل به تحت إشراف أبيه وإرشاده ، وكثيراً ما يشارك الوالد ابنه فى بعض السلع التى يراها

رابحة ، فيشب الفتى وقد مرن على الأعمال التجارية وشعر بكثير من المسئوليات ووقف على الطرق التي تدر عليه النقود وعرف المشقات والصعوبات التي قد تعترض التاجر والتي عاناها أهلوهم ، فإذا مات رب العائلة حل محله ابنه الذي لم يصبح غريباً في محيطه الجديد

ويغلب على حضَر الجزيرة — وعلى الأخص أهل خليج فارس — التعاون التجاري سواء بين الأهالي بعضهم مع بعض أو بين الأمراء والأهالي ، فمن التعاون المألوف في الكويت أن يدع تجار اللؤلؤ نقودهم بعد بيعه عند أصدقائهم في التجارة لاستثماره على مسئوليتهم الخاصة . وحكام الكويت : جابر وسالم والشيخ الحالي له مبالغ طائلة عند رعاياه التجار لا يتقاضى من ورائها ربحاً أو فائدة ؛ وقد كان حكام البحرين كاخوانهم حكام الكويت عند ما كانت يدهم مطلقة في شئون البحرين الداخلية والمالية . وحكام نجد وقطر لهم مثل هذه الأيادي على رعاياهم البدو

أما البدو فهم القبائل[1] الرحل المتنقلون من جهة إلى أخرى طلباً للمرعى أو الماء ، والطبيعة هي التي تجبر البدوي على المحافظة على هذه الحياة

وحياة البدوي حياة شاقة مضنية ، ولكنه وهو متمتع بأكبر قسط من الحرية يفضلها عن أي حياة مدينة أخرى

هذه الحياة الخشنة هي التي جعلت القبائل يتقاتلون في سبيل المرعى والماء ، وهي التي جعلت سوء الظن يغلب على طباعهم ، فالبدوي ينظر إلى غيره نظرة العدو الذي يحاول أخذ ما بيده أو حرمانه من المرعى

إن البدوي في الصحراء لا يهمه إلا المطر والمرعى ، فأزمته الحقيقية انحباس المطر وقلة المرعى ، ولا يبالي بما يصيب العالم في الخارج ما دامت أرضه مخضرة ، وبعيره سميناً وغنمه قد اكتنزت لحماً وقد طبقت شحماً

أما إذا نما السكان وضاقت بهم الأرض أو لم تجد أراضيهم بالمرعى ، فليس هناك سبيل إلا الزحف والقتال ، أو الهجرة إن كان هنالك سبيل إليها ، وكذلك القبيلة التي غلبت على أمرها وحرمت من مراعيها وأراضيها ، ليس أمامها سبيل آخر سوى الهجرة ،

---

(١) سنكتب فصلاً في الجزء الثاني عن القبائل العربية وأنسابها وأماكن إقامتها .

وهذا يفسر الهجرة من وقت لآخر إلى العراق وسوريا ومصر واستعمار الجزء الشمالى الغربى من أفريقيا ، وتدفق شمر إلى ما بين النهرين ، وقبائل عنزة إلى الحماد ، فكلها نتيجة تغلب غيرهم عليهم من القبائل ، واضطرارهم إلى ترك أراضيهم التى لم يعد لهم سبيل فى الإقامة بها لضيق وسائل الحياة .

ومن الحوادث البارزة فى القرون الأولى ، والتى تشبه ما يجرى فى بلاد العرب من وقت لآخر إغارة الساميين على بابل ، والكنعانيين على سوريا ، والهكسوس على مصر والعبرانيين على فلسطين .

لقد كان البدو قبل أربعين سنة فى غارات وحروب مستمرة ؛ كل قبيلة تنتهز الفرص للاغارة على جارتها لنهب مالها ، وتعدد الإمارات وتشاحن الأمراء وتخاصمهم مما يشجع البدوى ولهذا كان للعصبية قيمتها فى بلاد العرب — فالإنسان يقوى بأبنائه وأبناء عمومته الأقربين والأبعدين ، وإذا كانت العصبية ضعيفه أمكن تقوية القبيلة بالتحالف مع سواها حتى يقوى الفريقان ويأمنا شر غيرهما من القبائل القوية .

وقد جرى العرف أن القبائل تعتبر الأرض التى اعتادت رعيها ، والمياه التى اعتادت أن تردها ملكا لها ، لا تسمح لغيرها من القبائل الأخرى بالدنو منها إلا بإذنها ورضاها ، كثيراً ما تأنس إحدى القبائل من نفسها القوة فتهجم بلا سابق إنذار على قبيله أخرى ، وتنتزع منها مراعيها ومياهها .

إن قبائل العرب ليسوا كلهم سواء فى الشر والتعدى على السابلة والقوافل ، فبعضها قد اشتهر أمره بالكرم والسماحة والترفع عن الدنايا ، كما اشتهر بعضها بالتعدى وسفك الدماء بلا سبب سوى الطمع فيما فى أيدى الناس .

ومع أن الدين الإسلامى أبطل كثيراً من العصبيات القديمة وأحل محلها الأخوة فى الدين (لا تجد قوماً يؤمنون بالله واليوم الآخر يوادون من حادَّ الله ورسوله ولو كانوا آباءهم أو أبناءهم أو إخوانهم أو عشيرتهم) فقد عادت العصبيات بشرورها فى بلاد العرب مرة أخرى . والفضل الآن فى استتباب الأمن والضرب على أيدى المفسدين يرجع إلى المرحوم الملك عبد العزيز وسهره وإقامة أحكام الشريعة ، وسرعة تنفيذها .

ليس للبدوى قيمة حربية تذكر؛ ولذا كان اعتماد الأمراء على الحضر، فهم الذين يصمدون للقتال ويصبرون على بلائه وبلوائه . وكثيراً ما كان البدو شراً على الأمير المصاحبين له، فإن ذلك الأمير إذا ما بدت منه الهزيمة كانوا هم البادئين بالنهب والسلب؛ ويحتجون بأنهم هم أولى من الأعداء المحاربين؛ ولقد جرى كثير مثل هذا فى الحرب الانجليزية العراقية مما كان يندهش له الضباط الانجليز، لأنهم لم يعرفوا أن صديقاً ينهب صديقاً؛ ولكن البادية لا تعرف شيئاً غير النهب والسلب، وعندها الغنيمة مقدمة على كل شىء. والبدوى لا يرى حياة أسعد من حياة البادية، ويرى الحاضرة حبساً لحريته وتنقله حيث يريد، كما أن أهل الحاضرة يرون البداوة شقاء لا يعاد لها شقاء، ويصفون البدو بأنهم جفاة غلاظ القلوب .

والبدوى إذا لم يجد سلطة تردعه أو تضرب على يده يرى من حقه نهب الغادى والرائح، فالحق عنده هو القوة يخضع لها، ويخضع غيره بها . على أن لهؤلاء قواعد للبادية معتبرة عندهم كقوانين يجب احترامها، فالقوافل التى تمر بأرض قبيلة وليس معها من يحميها من أفراد هذه القبيلة معرضة للنهب، ولذا فقد اعتادت القوافل قديماً أن يصحبها عدد غير قليل من القبائل التى ستمر بأرضها، ويسمون هذا رفيقاً .

والبدوى يحتقر الحضرى مهما أكرمه، كما أن الحضرى يحتقر البدوى، فإذا وصف البدوى الحضرى فإنه فى الغالب يقول . حُضيرى تصغيراً لشأنه .

ومن عادة البدوى الاستفهام عن كل شىء، وانتقاد ما يراه مخالفاً لذوقه أو لعادته بكل صراحة، فإذا مررت بالبدوى فى الصحراء استوقفك وسألك من أين أنت قادم؟ وعمن وراءك من المشايخ والحكام؟ وعن المياه التى مررت بها؟ وعن أخبار الأمطار والمراعى؟ وعن أسعار الأغذية والقهوة(١)؟ وعمن فى البلد من القبائل؟ وعن العلاقات السياسية بين الحكام بعضهم وبعض .

ومع أن البدو قد اعتادوا النهب والسلب، فإنهم كثيراً ما يعفون عن أهل العلم خوفاً من غضب الله عليهم، وبعض البدو لا يحلف كاذباً مهما كانت النتيجة .

---

(١) القهوة : البن .

لقد شاهدت كثيراً من القضايا فى الأحساء وغيرها كان البدوى ينكر إذا وجد مجالا للانكار ، ويفلت بمهارة من الإجابة عما يسأل ، ولكن إذا وجه له اليمين وكان لا مفر له اعترف بجرمه إذا كان مذنباً ولا يحلف بالله كاذباً ، وهذا أمر يدعو إلى الغرابة والإكبار أيضاً ، فإنه يدل على شعور عميق بالخوف من الله ، وإن هذا الشعور إذا أحيط بالعناية والرعاية ، فإنه ربما يوجه إلى الخير ، أو على الأقل إلى الاقلاع عن الشر

وقبائل نجد على العموم لا يزال فيهم الكثير من الصفات الطيبة التى اشتهر بها العرب الأقدمون : يعرفون حقوق الصحبة والرفقة ويشر معهم عمل المعروف ، فلا تسمع فى نجد أن جمالا قتل رفيقه فى السفر كما اعتاد الناس أن يسمعوا فى الحجاز

وليس أعدل من البدوى فى تقسيم الغنيمة حتى قد يتلفون الشيء تحريا للعدل يقسمون السجادة بينهم كما يقسمون القميص أو السروال ، كل هذا إرضاء لضمائرهم ودفعاً للظلم . إنهم يعرفون الخيام حق المعرفة لأنها بيوتهم التى يعيشون فيها ، ومع ذلك فهم يقسمونها مراعاة للعدل — أما الإبل والغنم فإنهم يقسمونها إذا أمكن القسمة ، أو يقومونها بثمن إذا لم يكن هنالك سبيل للقسمة

والبدو لا يفهمون الحياة حق الفهم كما يفهمها الحضرى ، لا يفهمون البيوت وهندستها ، ولا يفهمون فائدة الأبواب والنوافذ الخشبية ، حتى إن البدو الذين كانوا فى جيش الملك حسين فى الثورة العربية كان عملهم بعد الاستيلاء على الطائف نزع خشب النوافذ والأبواب ، لا لبيعها والانتفاع بثمنها بل لاستعمالها وقوداً إما للقهوة أو الطبخ أو التدفئة ، وبدو نجد قد فعلوا مثل ذلك تماماً ، فعند ما أسكنت الحكومة بعض القبائل ثكنة جرول ، اكتشفت الحكومة أن النوافذ الخشبية والأبواب تنقص بالتدريج ، وأنها استعملت للطبخ وتحضير القهوة فأخرجهم جلالة الملك توا من الثكنة وأسكن الحضر فيها ، والحضر بطبيعتهم يفهمون ما لا يفهمه جهلة البدو عن النوافذ والأبواب

وللبدو مهارة عظيمة فى اقتفاء الأثر ، وكثيراً ما كانت هذه المعرفة سبباً فى اكتشاف كثير من الجرائم ، ولا تكاد تخلو قبيلة من طائفة منهم ، وأشهر القبائل براعة قبائل آل مرّة ، ولهم قصص كثيرة لا تخلو من المبالغة ، فانهم يزعمون أن الخبير له من الخبرة

ما يمكنه من معرفة الذكر والأنثى ، والبكر والثيب ، والحامل والحائل

والقبائل العريقه المشهورة من حضر وبادية تحافظ على أنسابها تمام المحافظة وتحرص عليها كل الحرص ، فلا تصاهر إلى من يساويها فى النسب ، والقبائل المشكوك فى نسبها لا يصاهرها أحد من القبائل المعروفة

أما حكام العرب فيترفعون عن سائر الناس حضرهم وبدوهم ، لا يزوجون بناتهم إلا لقربائهم . أما هم فيتزوجون ممن يشاءون ، وطبقات الحكام يترفع بعضها عن بعض : الأشراف يرون أنفسهم أرفع الخلق بنسبهم ، وآل سعود يرون أنفسهم أرفع من الأشراف ، وأرفع من سواهم من حكام العرب الآخرين ، ومع أن العرب المحفوظة أنسابهم كلهم أكفاء لبعض ، فلا تزال أمثال هذه العادات متأصلة فى البادية أكثر من الحاضرة

وهنا ترى الروح الصحيحة البدوية التى لا تملك شروى نقير ترفض الزواج من غنى لأنه ابن صانع أو أنه من سلالة العبيد ، أو لأن نسبه القبلى يحوطه شيء من الشك ، فسلطان المال لاقيمة له عند العرب . ومع وجود هذه الروح الارستقراطية التى تتجلى فقط فى الزواج ورياسة القبيلة والحكم ، فإنه لايكاد يوجد فارق فى طرق المعيشة الأخرى ، فالفرد وشيخ القبيلة والأمير يأكلون جميعاً الأرز واللحم واللبن والتمر ، ويلبسون جميعاً الثوب والعباءة والعقال والقُتَر (الكوفية) ، ويتمتع أفرادهم بحرية لا حد لها ، فالبدوى يقف أمام الحاكم فيجادل فى سبيل حقه) ويستعمل كل الأساليب التى يراها موصلة إلى ما يريد

التقسيمات الإدارية

يجمع العرب وحدة اللغة والدين والنسب أيضاً ، وهم إن اختلفوا فى بعض العوائد وفى نظام المعيشة ، فهنالك صفات عامة وسجايا تكاد تكون مميزة للشعب العربى

لقد اصطلح القدماء على تقسيم البلاد العربية إلى خمس ولايات أو مناطق : الحجاز . نجد . اليمن . وتهامة . اليمامة . . . ولكن حدود هذه الولايات موضع اختلاف الباحثين بين القدماء ؛ وكما قدمنا أن العرب بالرغم من تعدد إماراتهم وتنازعهم فيما بينهم ، فإن

هـذا كله لا يقضى على ما بين الشعب العربى من مميزات الوحدة ولا سيما اللغة والدين وكثيراً من الصفات الأخرى

أما الحوداث التى سنعرض لها فهى خاصة بالحجاز ونجد وملحقاتهما ، أو ما يطلق عليه اليوم البلاد العربية السعودية ، والكويت والبحرين على الخليج الفارسى . والحوادث التى وقعت فى هـذه البلاد فى الأربعين سنة الأخيرة هى أهم الحوادث فى التاريخ العربى الحديث ، فقد غيرت الحالة العربية عما كانت عليه تماماً قبل الحرب العامة الأولى ، واوجدت للعرب شخصية دولية محترمة يرعاها الآن الملك سعود بعد والده العظيم المرحوم الملك عبدالعزيز

الحجاز

يقع الحجاز من جزيرة العرب فى ناحيتها الشمالية والغربية ، وهو يمتدّ من معان ماراً برأس خليج العقبة إلى نقطة بين اللّيث والقُنْفُدَة[1] على شاطىء البحر الأحمر . أما حدوده من الجهة الشرقية فلم تكن معروفة تماماً ؛ بل كانت تمتد وتتقلص تبعاً لقوة الأتراك والأشراف ، ومبلغ سيطرتها على البلاد.

وفى البادية يطلقون الحجاز على المنطقة الجنوبية للطائف ، فإذا قالوا : إن هذا البدوى حجازى ؛ يعنون أنه من جنوبى الطائف ، وهذه التسمية لها وجه ؛ فإن جبال السَّراة الممتدة من اليمن إلى الشمال هى حجاز ؛ بمعنى أنها فاصلة بين الغَوْر وهو تهامة ونجد

والمساحة التقريبية للحجاز تبلغ زهاء ٧٠٠ ميل طولا (من الشمال للجنوب) و ٢٥٠ ميلا عرضاً (من الشرق للغرب)

طبيعة البلاد

تتكون الحجاز من عدة مناطق طبيعية محاذية بعضها البعض وهى :

١ — المنطقة الساحلية : الممتدة بمحاذاة شاطئ البحر الأحمر (تهامة) ، وتحفها شعاب مرجانية

٢ — منطقة جبلية عالية : تأخذ فى الانخفاض التدريجى حتى تصل إلى ما بين جدة ومكة ، إذ لا يزيد ارتفاعها هنالك عن ألفىْ قدم

٣ — منطقة نجدية : (واقعة بين جبال) مرتفعة جداً فى الشمال ؛ ومغطاة بالحُمم (السائل البركانى) من الحُوَيْرِض ، ولكنها تأخذ فى الانخفاض فى اتجاهها للجنوب ؛ فيصل ارتفاعها فى غربى مكة والطائف إلى نحو ألف قدم[1]

---

(١) فى الحرب الحجازية الأخيرة ضمت العقبة ومعان الى شرق الأردن ، ولكن الحكومة العربية السعودية لم تعترف بهذا الضم ، واتفقت مع الحكومة البريطانية صاحبة الانتداب على شرق الأردن على حل هذه المشكلة بالمفاوضات السياسية .

ولم تثر الحكومة العربية السعودية موضوع العقبة وعمان بعد إعلان استقلال الأردن فإن وجود إسرائيل كاف لإزالة أى خلاف بين العرب فإن خطر إسرائيل مهدد للجميع على السواء .

٤ — الأخدود الرئيسى : الأجزاء المرتفعة منه مغطاة بالحَمَم كما هو الحال فى الحرمة العُوَيْرِض ، خَيْبَر (٦٠٠٠ — ٨٠٠٠) ، ولكنه لا يزال محتفظاً بارتفاع لا يقل عن خمسة آلاف قدم خلف مكة

٥ — المنطقة الأخيرة : وهى أعلى حافة المنحدر الشرقى فى اتجاه قلب الجزيرة ، ففى المنطقة الأولى والثالثة تقع المدن الآهلة بالسكان ، فميناء العقبة والمُوَيلح والوجه ، وأملج ، و يَنْبُع ، ورابغ ، وجدة ، والليث واقعة فى المنطقة الأولى

وميناء العلا ، والمدينة ومكة واقعة فى المنطقة الثالثة

ويوجد فى الحجاز واحات خصبة متفرقة هنا وهناك ، وهى على الأغلب واقعة على خط بين المنطقة الرابعة والخامسة ، ومنها الحائط ، والحُوَيط فَدَك وخيبر والحِنَاكية ، والطائف ، ووادى فاطمة (مرّ الظهران) ، والصفراء

الجـــو

إن كميات المطر التى تنزل فى الحجاز قليلة وغير كافية بالمرة ؛ ولهذا فإنه يكاد جميعه يكون قاحلا ؛ إلا حيث توجد الواحات . وفى الطائف بخاصة فى الجنوب لا توجد أمطار دورية تنزل فيه ، كما هو الحال فى عسير واليمن

ودرجة الحرارة فى أجزاء الحجاز الواطئة أخف منها فى تهامة اليمن ؛ ومتوسطها هو من ٨٠ — ٩٠° ف ، والهواء رطب ، ونظراً لأن مكة منخفضة الارتفاع (٧٠٠ — ٨٥٠ قدما) ومحاطة بمرتفعات صخرية جرداء ؛ فإنها شديدة الحر صيفاً ، بخلاف المدينة ؛ فإن درجة الحرارة فيها لا تزيد عن ٧٠ وهى بلد صحى

والطائف أحسن بلاد الحجاز قاطبة ، جاف الهواء — والمرتفعات فيما وراء مكة والطائف جوها بارد

السكان

يمكن تقدير عدد سكان الحجاز : بدو وحضر بمليون نسمة ونصف ؛ ثلثهم يشتغلون بالزراعة أو يقيمون المدن ، والثلثان قبائل متنقلة

التجارة والصناعة

تكاد تنحصر التجارة فى الحجاز فيما يحتاجه القاصدون للبلاد المقدسة من الحاجيات ، وكلها ترد إلى الحجاز من الخارج . ويصدر الحجاز بعض حاصلات من التمر والجلود والحناء والصمغ ولكنها قليلة جداً بالنسبة للواردات

وترد البضائع من كل الجهات إلى مكة التى تعتبر أهم مركز تجارى فى قلب الجزيرة ؛ نظراً لموقعها الجغرافى والدينى

وتعتبر جدة لقربها من مكة أهم موانى الحجاز . وفى غير موسم الحج تشتغل جدة بالتجارة مع سوريا والهند ومصر ؛ وأفريقيا وبريطانيا ، وممالك جنوب أوربا . وإلى جدة يصل أكبر عدد من الحجاج ، ومنها يقضون أغلب ما يلزمهم فى سفرهم إلى مكة

وشركات البواخر التى تمر بميناء جدة فى الوقت الحالى هى شركة مصر للملاحة البحرية ، والخديوية ، والإيطاليه ؛ وهنالك شركات أخرى تمر بواخرها كلما مست الحاجة

ينبع :

هى الميناء الثانية للحجاز ، ومنها يصدر للداخل جزء غير قليل من التجارة مع أواسط الجزيرة . وهى الميناء الطبيعية للمدينة المنورة وما جاورها ، وتمر على الميناء البواخر السابقة

المدينة :

وتسمى طيبة أيضاً ، هى العاصمة الأولى للمسلمين فى عهد الرسول وخلفائه الثلاثة ، وهى معقل الإسلام ، وبها قبر النبى صلى الله عليه وسلم ، ولمنزلتها الدينية ومركزها فى الحركة الإسلامية الأولى فضلها بعض العلماء على مكة

تبعد المدينة عن ينبع ١٣٠ ميلا ، وعن مكة ٣٠٠ ميل تقطع بالإبل فى عشرة أيام ، وبالسيارة فى نحو ثلاثين ساعة وتقطع المسافة بين جدة والمدينة فى ساعة وربع بالطائرة

يبلغ طول المدينة ميلاً واحداً ، وهى قسمان : المدينة القديمة ويحيط بها سور ، وهى فى الشمال الشرقى ؛ والبلدة الحديثة ، وتفصِل المناخةُ بينهما ، والمدينة خمسة أبواب

والمدينة محاطة بالمزارع من جهاتها الأربع إلا الجهة الغربية ، وتمتد المزارع حولها إلى عدة أميال ، وبها عين الزرقاء ، منبعها من قُباء على ميلين من المدينة .

تبلغ سكان المدينة عشرين ألفاً ، وقد بلغ سكانها قبل الحرب العظمى بعد اتصال السكة الحديدية بها ٨٠ ألفاً ، ولكن مصائب الحروب أقفرت المدينة من السكان ومن العمران . وبالمدينة كثير من قبور الصحابة وآل البيت ، وأئمة الحديث والفقه ؛ وقد كان مشيداً على قبور هؤلاء القباب والمبانى ، فهدمتها الحكومة الحالية فى السنة الأولى من فتح الحجاز سنة ١٣٤٤ هـ — سنة ١٩٢٦ م تنفيذاً لوصايا الرسول وأوامره بتسوية القبور ، ولقد أثار هذا العمل ثائره المتعصبين للقبور ، ولكن الحكومة لم تأبه لاحتجاجاتهم ، ولقد عرض كثير من الأمراء والجمعيات الإسلامية فى الهند وغيرها استعدادهم لإرجاع القباب و بناء القبور ، ولكن الحكومة فى سبيل رضاء الله رفضت جميع الاقتراحات الخاصة بهذا الموضوع .

مسجد الرسول :

هو أهم ما فى المدينة من المساجد ، وقد بنى على عهد الرسول صلى الله عليه وسلم باللبن ، وسقفه الجريد ، وعمده جذوع النخل ، وقد كانت مساحته سبعين ذراعا فى ستين ، وزاد فيه عمر ، و بناه على بنيانه فى عهد النبى باللبن والجريد وأعاد عمده جذوعاً ؛ ثم غيّره عثمان فزاد فيه زيادة كبيرة ، و بنى جداره بالحجارة المنقوشة والقُصّة (أى الجص) ، وجعل عمده من حجارة منقوشة وسقّفه بالساج ؛ وامتدت الزيادة حتى دخلت فيه بيوت أزواج النبى ، ومنها بيت عائشة الذى دفن فيه النبى وصاحباه ، فبنوا على القبر حيطاناً مرتفعة مستديرة حوله لئلا يظهر فى المسجد .

وزاد فيه الوليد بن عبد الملك من ٨٨ — ٩١ هـ ، والمهدى (سنة ١٦٦ هـ) من جهة الشمال ، والمأمون (سنة ٢٠٢) ، وفى سنة ٦٥٤ هـ إحترق المسجد ، فاهتم الخليفة العباسى المعتصم بالله بن المنتصر بالله ، فبدأ تجديد المسجد سنة ٦٥٥ هـ .

وما زال المسجد موضعَ عناية ملوك وأمراء المسلمين بناء وترميما وتجديداً . والبناء الحالى هو بناء السلطان عبد المجيد العثمانى ، بدأ بناءه سنة ١٢٦٥ هـ وانتهى البناء

سنة ١٢٧٧ هـ ؛ وهو بناء بديع جمع بين الفن والجمال ، وهو يفضل بناء المسجد الحرام بمكة كثيراً ؛ وقد حدث بالبناء الحالى تصدع ، فاهتم المرحوم الملك عبد العزيز بالأمر وأمر أن يعاد بناؤه على نفقته الخاصة كما أمر الملك سعود بتوسعته أيضا .

ولقد كان بالحجرة النبوية والمسجد الحرام كثير من الهدايا الثمينة ، تقدّر بثلاثة ملايين من الجنيهات ، نقلها قائد المدينة فخرى باشا إلى الآستانة خشية أن تقع فى أيدى الملك حسين .

وفى مباحثات مؤتمر لوزان طلب اللورد كروان بالنيابة عن الملك حسين رد الأمانات التى وضع الأتراك يدهم عليها ؛ ولكن الأتراك أجابوا بأن هذه المسألة من المسائل الإسلامية الخاصة بالمسلمين .

ولم نعرف أن الملك حسيناً بعد ذلك دخل فى مفاوضات مع الأتراك لاسترداد هذه الأمانات الخاصة بالحرم النبوى والمهداة إليه من ملوك المسلمين .

الأقاليم الشمالية

ينحصر هذا القسم الواقع فى شمال الحجاز ما بين خط العرض ٣٠ شمالا ، وهو قسم جبلى ، لا يقيم به من السكان إلا نفر قليل ممن يعيشون فى أكواخ صغيرة ؛ وخط سكة الحديد الحجازية المار فى هذا القسم لا يوجد به مدن فى المحطات الواقعة عليه ، فمن معان إلى دار الخضراء (٢٥٠ ميلا تقريبا) لا يوجد فيه مدينة أو قرية إلا فى تبوك ، فإن بها نحواً من ٨٠٠ ساكن .

والساحل فى هذا الجزء عبارة عن أرض منبسطة يبلغ عرضها من ٧ أميال إلى ١٥ ميلا ، وليس به مزروعات إلا فى فم الوديان ؛ ولكن به بعض الآبار القديمة التى كان يردها حجاج مصر قديماً .

وأهم المدن والقرى هى :

١ — العقبة :

تقع على الشاطئ الشرقى من خليج العقبة ، قريباً من رأس الخليج الذى يشبه نصف دائرة قطرها ثلاثة أميال ، وبها قلعة قديمة على شكل مربع ، وهى تحتوى على ١٠٠ منزل ، وبها بساتين ومزارع نخيل

٢ — المَوَيْلِح[١] :

قرية وقلعة على بعد ١٦٠ ميلا إلى الجنوب ، وبها سوق للحبوب ، ونحو مائة عائلة يسكنون الأكواخ ، وبها بساتين ومزارع نخيل ، ومياهها من الآبار . ومن المويلح توجد طريق قوافل لتبوك والمدينة المنورة

٣ — ضُبَا :

تقع إلى جنوب المَوَيْلح وهى المحل الرئيسى لقبيلة الُحوَيْطات ، اتخذها الأتراك قديماً مركز دفاع عن الشاطئ . بها آبار ومزارع نخيل

المنطقة الوسطى

يقع ضمن هذا الجزء جميع البلاد الواقعة بين خطى عرض ٢٧° و ٢٤° شمالا ويمتد هذا الجزء نحو مائتى ميل ، وجميع الوديان ومجارى المياه فى هذ المنطقة تنفذ إلى البحر الأحمر بواسطة منفذ واحد ، وهو وادى الحمض الذى يقع فمه إلى جنوبى الوجه بثلاثين ميلا

ووادى الحمض نفسه ينحدر إلى البحر من العُوَيْرِض وخيبر

والبلاد الرئيسية فى هذه المنطقة هى :

الوجه :

وهى بلدة صغيرة تحتوى على بضعة بيوت مبنية من الحجر ، سكانها نحو ألفى نسمة ، بها قلعه وسوق ، ومياهها تميل إلى الملوحة

(١) إليها ينسب صاحب سيرة ابن هشام

أُمْلُج :

قرية بها نحو مائة منزل ، بها قلعة صغيرة ، وأمامها تقع جزيرة حَسّان التى من رملها يصنع الزجاج ، بها مزارع نخيل ، ومنها تمتد طريق فى الداخل إلى اصطبل عَنتر، إحدى محطات سكة حديد الحجاز (١٢٠ ميلا) ؛ وإلى المدينة المنورة (١٤٠ ميلا) والأراضى هنا خصبة وبخاصة فى وادى عين الواقع إلى شمال جبل رَضْوَى

ينبع البحر :

مبنية على سهل واقع بين البحر والجبل ، وهى مسورة من جهة الداخل ؛ بيوتها مبنية من الحجر الجيرى ، سكانها نحو ٥٠٠٠ نسمة ، والمسافة بينها وبين المدينة تقطع بالسيارة فى ست ساعات ، ويجلب إليها الماء من مياه تسمى المُسَيْجِلى تبعد عن البلدة نحو أربع ساعات . وقد أنشأت الحكومة الحالية (كنْدَانسا) لتقطير المياه من البحر محافظة على صحة الحجاج وتوفير وسائل الراحة لهم

وفى ضواحيها كان الاجتماع التاريخى ١٩٤٥ بين الموحوم الملك عبد العزيز وبين ملك مصر السابق فاروق

ينبع النخل :

هى واحة نخيل مياهها كثيرة ، وهى مقر عرب جهينة وحَرْب ، ويتبعها نحو عشرين قرية آهلة بالسكان

العَـــلَا :

تقع فى شمال سكة حديد الحجاز وسكانها نحو ٣٠٠٠ نسمة ، والبلدة نفسها صغيرة وضيقة ؛ ولكن الواحة تمتد حولها إلى ثلاثة أميال ، وبها نهير صغير درجة حرارة المياه فيه ٩٢ ف . ومحاصيلها كثيرة يشتريها البدو الرحل فى الشمال ، وبها بساتين قليلة

خيـــــبر :

هى قرية أو مجموعة قرى فى واحة تسمى باسمها ، واقعة فى حرة على مرتفع يبلغ ٢٨٠٠ قدم فوق سطح البحر ، وهى على بعد ستين ميلاً من شمالى المدينة المنورة

والبلدة نفسها تقع فى وادى زَيْدِيَّة أكبر وديان خيبر ، وبها قلعة قديمة تسمى الحصن ، وبها عيون ماء جارية كثيرة

وخيبر اسم مشهور من قديم فى الإسلام ؛ فقد وقعت فيها معارك . وسكانها ٣٠٠٠ نسمة أكثرهم مولدون ، والعرب لا يحبون الإقامة فيها خوف الحمى

والواحة غير صحية ، وقد كانت خيبر موطن اليهود فى صدر الإسلام

الحِناكيَّة :

موطن صغير فى جنوب خيبر ، وعلى مقربة من رأس وادى الحَمْض ، وقد كانت قديماً تابعة لقبيلة الرُّوَلَة ؛ ولكنها الآن أصبحت موطناً للموالى ، وبها نحو خمسين منزلاً ، وبها مزارع للنخيل . وهى واقعة على إحدى الطرق ما بين المدينة وبُرَيْدَة

القسم الجنوبى

يمتد هذا القسم من خط عرض ٢٤° إلى خط عرض ٢٠° شمالاً حيث تبتدئ حدود عسير من هذا الخط . وأهم مدنه :

رابغ :

وهى عبارة عن مجموعة من البيوت الصغيرة ، ولكن بها مزارع نخيل واسعة تمتد فى الداخل إلى بضعة أميال

جُدَّة :

هى مدينة كانت مسورة . ولكن سورها قد أزيل واتصلت البلدة القديمة بالمبانى الجديدة التى زاد عددها عن دور المدينة القديمة وتقع ميناؤها فى منتصف طول البحر الأحمر

تقريباً ، وهى ميناء مكة ، والمسافة بينهما خمسة وخمسون ميلاً ؛ ويبلغ سكانها الآن نحو مائة وخمسين ألفا

أسس جدة الخليفة الثالث عثمان . ومدخلها خطر على السفن لكثرة الشعوب الموجودة فيها وقد شيدت الحكومة السعودية مرفأ حديثاً للبواخر زودته بجميع الآلات الحديثة لتفريغ السفن بسرعة

وكان بجدة قبر ينسب إلى حواء أم البشر ، وقد كان الحجاج يزورون هذا القبر ويتبركون به ، كما أن أهل جدة أنفسهم كانوا يقصدون هذا المكان للتعظيم ، وقد هدمت الحكومة الحاضرة القبة الموضوعة على القبر ، كما أزالت البنيان الذى على القبر ، ومنعت الناس من التمسح به أو إتيان أى عمل لا يتفق مع الشريعة الإسلامية

واقد زار العلامة ابن جبير الأندلسى جدة فى حجة (سنة ٥٧٩ هـ) فذكر بعض آثار جدة ، ومنها الموضع الذى شيد عليه « قبة عتيقة » يقال إنه كان منزل حواء أم البشر عند توجهها إلى مكة ، ولم يذكر ابن بطوطة شيئاً عن قبة حواء عند مروره بجدة فى طريقه إلى اليمن (سنة ٧٣٠ هـ) ولم نقف على تاريخ تشييد القبة ؛ وعلى كل حال فليس هنالك حجة تاريخية على صحة هذه النسبة

ويحيط بجدة قرى صغيرة فى الجنوب والشمال ، وأكثرها مؤلف من بيوت صغيرة أو أكواخ يسكنها البدو ، والجالون وكثير من الزنوج

وجدة ليس بها نهر أو عين لشرب السكان ، ولكن بها آبار كثيرة خارج البلد ، يملك أكثرها الأشراف والأهالى ، وهى تملأ بماء الأمطار ؛ كما أن البيوت بها صهاريج تملأ بماء ينحدر إليها من سقوف البيوت ، وهذه المياه غير صحية ؛ ولذا فقد كان الأغنياء يجلبون ماءهم من الآبار البعيدة

وقد شيدت الحكومة التركية آلة على البحر لاستخلاص الماء الحلو؛ فساعد أهل جدة والأوربيين المقيمين بها على الحصول على ماء صحى نقى ؛ وقد اشترت الحكومة السعودية فى سنة ١٩٢٦ ماكينتين كبيرتين لهذه الغاية بالنظر إلى قدم العهد على الآلة الأولى ، فتوفرت المياه العذبة للسكان وللحجاج ؛ وقد مدت الحكومة الحاضرة الماء من وادى فاطمة إلى جدة فى أنابيب ويسرت على السكان أمرا كان عائقا فى زيادة السكان وقد ازدادت حركة البناء

زيادة تدعو إلى الدهشة كما زينت أكثر البيوت بالحدائق الغناء وإذا كانت السيدة زبيدة قد خلدت اسمها بالعين المشهورة فإن المرحوم الملك عبد العزيز قد خلدا اسمه بهذه العين وهذا العمل الجليل . وقد كانت جدة فى القرن الماضى مركزاً تجاريا هاما ، تجلب البضائع إليها من الهند وغيرها ؛ ومنها توزع إلى بلاد العرب ومصر والسودان وغيرها ، ولكن شأنها ضعف بعد أن وضع محمد على باشا يده على الحجاز ، وفتح السويس للتجارة . وقد أضعف شأنها كثيراً فتح ميناء بور سوادن ، فأصبح هو الميناء الأول فى البحر الأحمر . ولكن جدة بعد وصول الماء إليها و بعد بناء المرفأ قد عاد إليها نشاطها وكثر مرور البواخر بها

الليث :

قرية تبعد عن الميناء نحو ميل ونصف ، بيوتها من الطين ، شاطئها منخفض ورملى ؛ وفى الداخل تبدأ الأرض فى الارتفاع إلى الشمال حيث تتحول إلى جبال عالية بعد مسافة .

مكة :

وتسمى بكة وأم القرى ، أشهر مدن الحجاز ، بها بيت الله والمسجد الحرام ؛ وتقع مكة فى واد ضيق عميق يتجه شمالا مع ميل قليل إلى الشرق ، والتلال المحيطة به ترتفع إلى مئات من الأقدام ، وتحيط بالوادى إحاطة كاملة ، أغنت السكان والأمراء عن بناء سور لحمايتها ؛ وقد شيدت عدة ضواح شمالى مكة .

يبلغ سكانها نحو ٢٠٠ ألف نفس ؛ وقد عمل إحصاء لمكة (سنة ١٣٥١ هـ — ١٩٣٢ م) ولكن النساء[1] لم يدخلن فى هذا الإحصاء ، وعلى كل حال فالإحصاء تقريبى ؛ وجو مكة حار جداً وجاف ولكنه صحى .

وأهم ما فى مكة من المبانى والآثار : الكعبة المشرفة ، والمسجد الحرام .

فالكعبة أو بيت الله أو البيت العتيق ، بناء مربع تقريباً ، بنى فى أوسع نقطة من الوادى ، والآن يحيط بها المسجد ، والمسجد من حيث السعة والبناء والجمال والفن المعمارى لا يفوق غيره

---

(١) وتذكرنا حوادث استثناء النساء من الإحصاء بما حاولته إدارة الصحة من وجوب الكشف على الأموات قبل الدفن ، فاحتج أهل مكة على سريان هذا القانون على النساء وساعدهم علماء نجد على رأيهم فلم تستطع الحكومة تعميم الكشف ، واضطرت أخيراً لاستخدام بعض السيدات الملمات بأصول الطب لهذا الغرض وبعض الأغراض الأخرى الخاصة بالسيدات .

من المساجد الأخرى الموجودة فى الشرق ، ولكن الاحترام والتقديس إنما هو للكعبة .

يبلغ ارتفاع الكعبة ١٥ متراً ، وطول جدارها الشمالى ٩,٩٢ متراً ، والجنوبى ١٠,٢٥ متراً ، والغربى ١٢,٢٥ متراً ، والشرقى ٨٨ ، ١١ ، وفى الجدار الشرقى بابها ، ويرتفع عن الأرض مقدار مترين وعتبته مصفحة بصفائح الفضة ، وكذلك مصراعا الباب ، إلا أن صفائحه الفضية مطلية بالذهب .

ويلاصق جدار الكعبة من أسفلها بناء من الرخام ، يسمى بالشاذروان ، أقيم تقوية الجدران ، وهو محيط بها من جميع جوانبها ، ولا يعلم بالضبط متى بدىء البناء على أصل الشاذروان ، وقد جدد البناء عليه مراراً ؛ وفى الركن الجنوبى الشرقى للكعبة من الخارج الحجر الأسود ، وهو مبدأ الطوائف ، ويرتفع عن الأرض متراً ونصفاً ، وهو كاسمه أسود ، وقد عمل له غطاء من الفضة (سنة ١٢٩٠ هـ) بسبب التشقق الذى حدث فيه ؛ وقد قال سيدنا عمر فى تقبيل الحجر : إنك حجر لا تضر ولا تنفع ، ولولا أنى رأيت رسول الله يقبّلك ما قبلتك .

أما تاريخ تشييد الكعبة والغرض الأساسى من بنائها ، فإنه يشغل قسما هاما من التعاليم الإسلامية ، والتاريخ العربى والدينى ؛ غير أن الروايات الكثيرة التى وردت فى ذلك يحتاج أكثرها إلى بحث علمى دقيق ؛ فإن الروايات الخاصة بهذا الموضوع كثيرة ومتناقضة ، و بعضها لا يتفق مع قواعد العلم[1] .

إذ أن المكان الذى شيدت عليه الكعبة قد أرجعه الرواة إلى آدم أبى البشر ، ومع أن هذا لا يستند إلى خبر صحيح ، فإنه يدل على أن بناء الكعبة قديم يرجع إلى ما قبل التاريخ .

والتاريخ الحقيقى للكعبة يبتدىء من عصر إبراهيم عليه السلام ، وسنخلص فيما يلى ما رواه البخارى لما له من المركز الممتاز عند مؤرخى المسلمين وللدقة التى كان يتوخاها فى تمحيص الروايات :

قال البخارى : أول ما اتخذ النساء المنطق من قبل أم إسماعيل ، اتخذت منطقاً لتعفى أثرها على سارة ، ثم جاء بها إبراهيم وبابنها إسماعيل ، وهى ترضعه حتى وضعهما عند البيت ،

---

(١) مقدمة ابن خلدون

عند دوحة فوق زمزم فى أعلى المسجد ، وليس فى مكة يومئذ أحد ، وليس بها ماء ، فوضعهما هنالك ، ووضع عندهما جراباً فيه تمر ، وسقاء فيه ماء ؛ ثم قفل إبراهيم منطلقا ، فتبعته أم إسماعيل ، فقالت : يا إبراهيم ! أين تذهب وتتركنا بهذا الوادى الذى ليس به أنيس ولا شيء ؟ وقالت له ذلك مرارا ، وجعل لا يلتفت إليها ، فقالت : آلله أمرك بهذا ؟ قال : نعم ، قالت : إذن لا يضيعنا ، ثم رجعت . فانطلق إبراهيم حتى إذا كان عند الثنية حيث لا يرونه ، استقبل بوجهه البيت ثم دعا بهذه الدعوات ، ورفع يديه فقال : (ربنا إنى اسكنتُ من ذريتى بوادٍ غير ذى زرع عند بيتك المحرّم) حتى بلغ (يشكرون) . وجعلت أم إسماعيل ترضع اسماعيل وتشرب من ذلك الماء ، حتى إذا نفد ما فى السقاء عطشت ، وعطش ابنها ، وجعلت تنظر إليه يتلوى ، فانطلقت كراهية أن تنظر إليه ، فوجدت الصفا أقرب جبل فى الأرض يليها ، فقامت عليه ، ثم استقبلت الوادى تنظر : هل ترى أحداً ؟ فلم تر أحدا ؛ فهبطت الوادى ، ثم أتت المروة فقامت عليها فنظرت هل ترى أحداً فلم تر أحداً ، ففعلت ذلك سبع مرات ؛ فلذلك سعى الناس بينهما ، فلما أشرفت على المروة سمعت صوتاً ، فإذاهى بالملك عند موضع زمزم ، فبحث بعقبه أو قال بجناحه حتى ظهر الماء ، فجعلت تحوضه[1] ، وجعلت تغرف من الماء فى سقائها وهو يفور بعد ما تغرف ، فشربت وأرضعت ولدها ، فقال لها الملك : لا تخافى الضيعة فإن هاهنا بيتاً لله يبنيه هذا الغلام وأبوه ، وإن الله لا يضيع أهله . وكان البيت مرتفعاً من الأرض كالرابية تأتيه السيول فتأخذ من يمينه وشماله . فكانت كذلك حتى مرت بهم رفقة من جرهم ، أو أهل بيت من جرهم ، مقبلين من طريق كداء[2] ، فنزلوا فى أسفل مكة ، وأرسلوا إلى أهليهم فنزلوا معهم ، حتى إذا كان بها أهل أبيات منهم ، وشب الغلام وتعلم العربية منهم ، وأعجبهم حين شب ، فلما أدرك زوجوه امرأة منهم ، ثم طلقها وتزوج من أخرى ، ثم جاء ابراهيم واسماعيل يبرى نبلاً له تحت دوحة من زمزم ، فلما رآه قام إليه وصنعا كما يصنع الوالد بالولد . ثم قال : يا إسماعيل ! إن الله أمرنى أن أبنى هاهنا بيتاً ، وأشار إلى أكمة مرتفعة على ما حولها ، فعند ذلك رفعا القواعد من البيت ، فجعل اسماعيل يأتى بالحجارة ، وابراهيم يبنى ، حتى إذا ارتفع البناء جاء بهذا الحجر فوضعه له ، فقام عليه وهو يبنى واسماعيل يناوله الحجارة ، وهما يقولان : ربنا تقبّل منا إنك أنت السميع العليم

(١) أى تجعل موضعاً يجتمع فيه الماء

(٢) جبل بأعلى مكة

* ولما بنيا القواعد و بلغا مكان الركن ، طلب ابراهيم من ابنه حجراً فأظهر كسله ، فانطلق إبراهيم يطلب الحجر ، فجاءه جبريل بالحجر الأسود من الهند ، وكان أبيض من ياقوتة بيضاء ، وكان آدم هبط به من الجنة فاسودّ من خطايا الناس

وقد همت قريش ببناء الكعبة سنة أن بلغ رسول الله خمساً وثلاثين سنة ، ولكنهم كانوا يهابون هدمها ، وإنما كانت رضما فوق القامة ، فأرادوا رفعها وتسقيفها ، فلما أجمعوا أمرهم فى هدمها و بنيانها ، قام ابن وهب ، أو أبو وهب بن مخزوم ، أو المغيرة بن مخزوم ، وقال : يا معشر قريش ! لا تدخلوا فى بنيانها من كسبكم إلا طيباً ، ولا يدخل فيها مهر بغى ولا بيع ربا ، ولا مظلمة أحد من الناس

فأخذت قريش تجمع الحجارة كل قبيلة على حدتها ، حتى بلغ البنيان الحجر الأسود ، فاختصموا فيه : كل قبيلة تريد أن تمتاز بهذا الشرف ، حتى كاد الأمر يفضى بهم إلى القتال ، وأخيراً أشار عليهم أبو أمية ابن المغيرة أن يتركوا الفصل فى هذا النزاع إلى أول داخل من الباب ، فكان أول داخل رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قالوا : هذا الأمين ، رضينا ، هذا محمد

فلما انتهى إليهم وأخبروه الخبر ، قال صلى الله عليه وسلم : هلم إلىّ ثوبا ، فأتى به ، فأخذ الحجر الأسود فوضعه فيه بيده ، ثم قال : لتأخذ كل قبيلة بناحية من الثوب ، ثم ارفعوه جميعاً ، ففعلوا حتى إذا بلغوا موضعه وضعه هو بيده ، ثم بنى عليه .

ولم تزل الكعبة على بناء قريش حتى احترقت فى أول إمارة عبد الله بن الزبير ، وفى آخر ولاية يزيد بن معاوية لما حاصر ابن الزبير فى مكة ورماها بالمنجنيق ، فحينئذ نقضها ابن الزبير إلى الأرض ، و بناها على قواعد إبراهيم ، وأدخل فيها الحجر وجعل لها باباً شرقياً و باباً غربياً ملصقين بالأرض ، كما سمع ذلك من خالته عائشة عن رسول الله . ولم تزل كذلك مدة إمارته حتى قتله الحجاج ، فردها إلى ما كانت عليه بأمر عبد الملك بن مروان . وقد أراد هارون الرشيد أو أبوه المهدى ردها إلى بناء عبد الله بن الزبير ، فاستفتوا الإمام مالكا فى ذلك ، فقال : يا أمير المؤمنين ، لا تجعل كعبة الله ملعبة للملوك ، لا يشاء أحد أن يهدمها إلا هدمها ، فترك ذلك الرشيد .

---

* هذه الزيادة ليست من رواية البخارى ، وإنما ذكرها المؤرخون والمفسرون ، وهى بلا شك أشبه بالأساطير . (صحيح مسلم)

وقد عملت ترميمات عديدة فى أيام الخلفاء العباسيين ، وسلاطين مصر المماليك ، وسلاطين آل عثمان ، بسبب السيول والأمطار ، وتجد فى داخل الكعبة وخارجها ما يشير إلى ذلك .

وتغسل الكعبة من الداخل مرتين فى السنة : فى رجب وذى الحجة ؛ يقوم بهذا العمل الشيخ الشَّيْبِي سادن الكعبة ؛ ويدعو لحضور هذا العمل الذى يعد من حفلات مكة الهامة حكام البلد وأعيانها ، و بعض البارزين من الحجاج ، ويزدحم الناس حول الكعبة فى ذلك اليوم ازدحاماً يدل على ذلك الأثر الدينى العميق فى النفوس ، على أن هنالك بعض أشياء تحدث من العامة وغير الواقفين على العقيدة الإسلامية الصحيحة ، من شرب ماء الغسيل والاغتسال به ، ولكن الجهل آفة كل شىء ؛ وقد حضرت هذا الاحتفال مراراً أثناء إقامتى بالحجاز .

ويجمع الشيخ الشَّيْبى ماء الغسيل ويضعه فى قوارير يهديها مع المكانس للحكام وكبار الحجاج ، وتكسى الكعبة كل سنة ؛ وليس من موضوع الكتاب التوسع فى وصف الكسوة وتاريخها فى الجاهلية والإسلام ، فقد أفردت كتب كثيرة فى العربية واللغات الأخرى فى وصف مكة والمدينة وكل ما يتعلق بهما .

مقام إبراهيم :

لا يعلم بالضبط هل موضع المقام الحالى هو موضعه الأصلى أو كان ملصقاً بجدار الكعبة ، ثم نقل إلى موضعه الحالى .

فبعض الرواة يرجحون أن المقام كان ملصقاً بجدار الكعبة ، ونقل من مكانه فى خلافة عمر ؛ وروى الأزرقى أن موضعه الحالى هو موضعه فى الجاهلية وفى عهد أبى بكر وعمر ، إلا أن السيل ذهب به فى خلافة عمر ، فجعل فى وجه الكعبة ، إلا أن عمر رده إلى موضعه بمحضر من الناس ؟ ويذكر ابن جبير أن الذى صرفه إلى موضعه الحالى هو النبى صلى الله عليه وسلم .

والناس يصلون خلف مقام إبراهيم ركعتين بعد الانتهاء من الطواف ، وكثير من الحجاج مَن يقبِّل الحجر المسمى مقام إبراهيم ويتبرك به ، حتى المنتسبين إلى العلم منهم ؛

فالرحالة ابن جبير الأندلسى الذى حج فى (٥٧٩ هـ) يذكر مقام إبراهيم ويصفه ويقول : عاينناه وتبركنا بلمسه وتقبيله وصب لنا فى أثر القدمين المباركين ماء زمزم فشربناه نفعنا الله به .

ولقد فعل فعلته السيد السنوسى سنة ١٣٤٤ هـ — سنة ١٩٢٥ م ، فقامت عليه قيامة الإخوان النجديين ونهره الملك ابن السعود على فعلته رحمه الله ، لأن الملك عبد العزيز فى سبيل التوحيد والأمر بالمعروف لا يراعى أحدا ؛ فإن مبدأه الدين قبل كل شىء ، ورضاء الله مقدم على رضاء الخلق .

المسجد الحرام :

إن ساحة البيت وهو المسجد كان فضاء للطائفين ، ولم يكن عليه جدر أيام النبى صلى الله عليه وسلم ، وأبى بكر من بعده ، ثم كثر الناس فاشترى عمر دوراً هدمها وزادها فى المسجد ، وأدار عليها جداراً دون القامة ، وفعل مثل ذلك عثمان ، ثم ابن الزبير ، ثم الوليد بن عبد الملك وبناه بعُمُد الرخام ، ثم زاد فيه المنصور ، وابنه المهدى ؛ وما زال المسجد موضع عناية الحكام والملوك والسلاطين من عباسيين ومماليك وأتراك وعرب وغيرهم ، يتولونه بالتعمير والترميم من وقت لآخر كلما مست الحاجة إلى ذلك .

بئر زمزم :

قد تقدم فى قصة بناء الكعبة أن الملك فجرها لإسماعيل بعقبه ، وقد طمرها الحارث ابن مضاض ، وجدّدها عبد المطلب جد النبى صلى الله عليه وسلم ؛ ويروون فى ذلك قصة تشبه القصص الأخرى التى تروى عن أمثال هذه الأماكن التى لها ما لزمزم من الاحترام فى نفوس الناس . ويقولون : إن عبد المطلب رأى رؤيا منامية[1] ، فسمع هاتفاً يهتف فى أذنه أن احفر طيبة ، فاستيقظ من نومه ، ثم غلب عليه النوم فسمع للمرة الثانية أن احفر برة ، فاستيقظ ثم غلب عليه النوم فسمع للمرة الثالثة ، احفر المضنونة ، ضننت بها على

(١) مسالك الأبصار ج ١

الناس إلا عليك ، بنقرة الغراب الأعصم ، وإنها بين الفَرْث والدم ، وعند قرية النمل ، إنها لا تنضب أبداً

فلما قام ليحفرها رأى ما رسم له من قرية النمل ، ونُقْرة الغراب ، ولم ير الفَرْث والدم ، فبينما هو كذلك نَدَّت بقرة لجازرها فلم يدركها حتى دخلت المسجد الحرام فنحرها فى الموضع الذى رسم له ، فسال هنالك الفرث والدم ، فحفر عبد المطلب حيث رسم له ، وقد عثر على غزالين من الذهب كانتا مهداتين من الفرس للكعبة ، وكان قد دفنهما الحارث بن مضاض

وذكر الزهرى أن عبد المطلب اتخذ حوضاً لزمزم يستقى منه ، وكان يخرب بالليل حوله ، فلما غمه ذلك ، قيل له فى النوم ، قل : لا أحلها لمغتسل ، وهى لشارب حل و بل ، وقد كفيهم ، فلما أصبح قال : نعم ، وكان بعد من أرادها بمكروه رمى بداء فى جسده حتى انتهوا عنه ، والمسلمون يعتقدون فى ماء زمزم البركة ، وقد كانوا يحملونه إلى بلادهم بعد الحج ؛ لإهدائه إلى أصدقائهم وأقاربهم ويعدون ذلك من أفخر الهدايا ، ولكن إدارة (الكورنتينات) تمنع دخول ماء زمزم إلى البلاد التى يفدها الحجاج

ولا يزال الماء يستخرج من زمزم بالدلاء الجلدية حسب العوائد القديمة . ولقد فكر جلالة الملك عبد العزيز (سنة ١٣٤٥ هـ ١٩٢٧ م) فى الاستعانة بالآلات الحديثة لتكثير الماء وتوزيعه بطريقة صحية ، وصيانة الحرم مما يتعرض له فى موسم الحج من الازدحام والمخاصمة ، وما يتبع ذلك من فقدان النظافة ، فأمر جلالته فى تلك السنة بتركيب آلة رافعة للماء ، وأحضر مهندساً من مصر لهذه الغاية . ولكن لما كان هذا العمل يؤثر فى كسب طائفة الزمازمة والسقائين ، وعملهم محصور فى إخراج الماء بالدلو من البئر وتوزيعه على الحجاج ، ولا يرضى الجامدين الذين لا يرضون بجديد ولو كان نافعاً ، قامت قيامتهم ضد هذا المشروع النافع . ولقد ابتدأ العمل بالفعل وجرى الحفر بالحرم لوضع الأنابيب ، وأرسل إلى مصر لشراء الآلة والأنابيب والأحواض الكبيرة التى يوزع منها الماء ، وأخيراً أثار الزمازمة أهل نجد وألبسوا عليهم الأمر ، وأن بئر زمزم سينضب ماؤها بعد تركيب هذه الآلة الرافعة ، ولا شك أن هذا العمل سيجلب عليهم سخط المسلمين ، فألَحّ أهل

نجد المقيمون بمكة على الملك بإلغاء هذا المشروع ، و إبقاء القديم على قدمه ، حتى لا تجرى هذه المصيبة فى أيامهم . فلم ير الملك من المصلحة إغضابهم فى هذا الوقت الذى بدأت فيه حركة الإخوان ، فأمر بإيقاف المشروع والعدول عنه . ولعل الحكومة تبعث المشروع من جديد لتضمن توزيع ماء زمزم بطريقة صحية .

بيوت مكة :

ولقد كان فى مكة كثير من الآثار التاريخيه مثل : مولد النبى ، بيت خديجة ، بيت أبى بكر ، وغيرها من الآثار . ولكن الإخوان هدموا هذه الآثار مع ما هدموه من القباب والقبور ، لأن هذه الأماكن اتخذت مصدراً لابتزاز أموال الحجاج ، فسداً للذريعة أزالوا كل أثرها . ويقول المؤرخون للحركة السعودية الأولى : إن مكة والمدينة فى أثناء الحكم السعودى فى القرن التاسع عشر الماضى ، قد أزيل منهما كل الآثار التاريخية التى كان يتبرك بها الحجاج .

و بيوت مكة من الحجارة ، وهى فى نظافتها خير من سائر بيوت جزيرة العرب ؛ غير أن نظام المراحيض لا يتبع النظام الصحى . وقد عمل سلاطين الأتراك مجرى كالمجارى التى تعمل فى المدن ، ولكنه ليس عامًّا من جهة ، وغير واف تماماً من الوجهة الفنية .

ونظام الشرب على الطريقة القديمة ؛ فالسقاءون هم الذين ينقلون الماء إلى البيوت ، إما بالقِرَب أو صفائح الغاز .

ومكة كالبصرة والقَطِيف فى كثرة البعوض ، ولكنه من النوع الذى لا يحمل جراثيم الملاريا كما هو الحال فى بعض المدن الحجازية الأخرى ، ولم تعمل إدارة الصحة أو البلديات حتى الآن عملاً جدِّياً لإبادته ؛ فلعل هذه الإدارات تشمر عن ساعد الجد وتقوم بحملة عنيفة لتلخيص البلاد من هذا العدو الخبيث ؛ ولا شك أن جلالة الملك سعود المهمة القعساء سيكون أكبر معوان للعاملين

ومكة مملوءة بالحمام لحرمة صيده وتجد فى الحرام منه أسراباً أسراباً ، وهو يشبه فى

إلفه للناس أنواع الطيور التي توجد في الحدائق العامة في أوروبا . وكثير من الحجاج يعتقد أن مكمّلات الحج تقديم الحبوب لحمام الحرم ؛ كما أن الكثير من الناس اعتقاداً بأن الحمام لا يعلو الكعبة ، ولا يقف على سطحها ، ولا يقذرها . أما المسجد ولا سيما الأروقة المحيطة به ، فكلها أعشاش الحمام ، ولا يخلو حاج من أن يصل إليه شيء من أقذار الحمام ؛ ويعتقد بعض الجهلة أن من أصابه شيء من أقذار الحمام سيكسى كسوة جديدة ، وهي تعزية لطيفة !

وأهل مكة والمدينة يعنون بنظافة بيوتهم ، كما يعنون بنظافة أبدانهم وملابسهم أكثر من سواهم من سكان جزيرة العرب . ويعيش أهل مكة على ما يكسبونه من وفود الحجاج ، وهو مصدر خير عظيم إذا كثر الحجاج ، أما إذا قلّ عددهم فلا يتصور أحد ما يعانيه هؤلاء من صنوف الضيق .

لقد أولى المسلمون عنايتهم بمكة والحجاز وأهله عناية عظيمة في القرون الأولى والوسطى ، فلا تزال عين زُبَيْدَة وغيرها من العيون ناطقة بتلك المكرمة التي أسداها أهل الخير لسكان البلاد المقدسة والوافدين .

وكان الخلفاء والسلاطين يولون الحجاز عنايتهم فكانوا يمدّونه بالصدقات والأوقاف على اختلاف أنواعها ، مما لا يزال بعضه باقياً حتى الآن ؛ ولكن بلغ الإهمال بالمسلمين في القرون الأخيرة ما جعل الحجاز في مستوى أقل مما يجب له من العناية والإجلال ؛ فالمسجد الحرام الذي يؤمه المسلمون من كل ناحية ليس في جمال مساجد الآستانة والقاهرة والهند

ومدينة مكة في طرقها ومبانيها ونظامها الصحي ليست كالقاهرة أو دمشق أو بغداد ، وهذا التقصير تقع تبعته على المسلمين عامة ، وعلى الحكومة التركية التي حكمت البلاد قروناً عديدة ؛ ولا شك أن أشراف الحجاز يتحملون قسطاً من التبعة ، لأنهم كانوا الحكام الحقيقيين لمكة ؛ فقد كان بوسعهم لو كانوا ذوي بصائر نافذة ، وعقول راجحة ، وعلم بتطورات العالم ، أن يجعلوا الحجاز وسكانه في مستوى خير من مستواه الحالي ؛ ولكن الأشراف سلطوا مطامعهم على الحجاج وعلى سكان بلد الله الحرام ، وحالوا في كثير من الظروف دون ترقية البلاد . ولسنا نرمي فئة خاصة من الأشراف ، فإن الأشراف الذين

حج فى أيامهم الرحالة ابن جبير فى القرن السادس ، وابن بطوطة بعده ، كانوا مثل أشراف القرون الأخيرة .

الرقيق فى مكة :

كانت مكة أكبر سوق الرقيق فى جزيرة العرب ، وكان العرب يحرصون على شراء الجوارى والعبيد منها ، لأن لأهل مكة عناية خاصة بتربية الجوارى والعبيد ، وتمرينهم على الخدمة المنزلية ، وقد تتجاوز قيمة العبد ستين جنيهاً والجارية مائة وعشرين جنيهاً ، وأفضل العبيد والجوارى المجلوبون من الحبشة ، لأنهم أخلص فى الخدمة وأوفى لسادتهم

والرقيق الذى يرد للحجاز وجزيرة العرب ، هو الغنيمة من الغزوات والغارات فى بلاد الحبشة الواسعة الأطراف . فالتجار يشترون الرقيق هنالك من الغزاة ، ثم يجلبونه إلى بلاد العرب بوساطة السَنَابيك[1] إلى السواحل العربية ، وبالرغم من مطاردة هؤلاء التجار ، وإنزال أشد العقوبات بمساعديهم ، فإن التجار لا يزالون يُغامرون فى هذا النوع من التجارة . والغالب شراء الرقيق للخدمة المنزلية أو الخدمة فى البساتين ، وقد تشترى الجوارى لأغراض أخرى ، وهذا على الأكثر فى عسير . وأمراء العرب يكثرون من الرقيق رجالاً ونساء ، فالرجال للخدمة على اختلاف أنواعها وللحراسة الخاصة ، والجوارى للخدمة المنزلية وغيرها .

على أن تحرير الرقيق من الأعمال المحبوبة شرعا ، والتى لا يزال العرب يعدونها من أفضل القربات إلى الله ، فقلما يموت أحد ولا يوصى بتحرير بعض عبيده وجواريه مع شىء من المال يساعدهم . وفى الغالب يفضل الرقيق الذى يحرر أن يبقى فى بيت أهله ويأبى أن يغادر من عاش فى كنفهم .

لقد جرت محاولات لإبطال الرق فى بلاد العرب . ففى سنة ١٢٧٢ هجرية أمرت الدولة العثمانية بمنع الرقيق ، فحصل هرج ومرج بمكة ، جعل الحكومة التركية تعدل على أمرها .

---

(١) نوع من السفن الشراعية .

وفى أيام الملك حسين جرت مخابرات بينه و بين الحكومة البريطانية لإبطال سوق الرقيق فى الحجاز، ولكن الملك حسيناً كان يحتج بأن الرقيق ليس مصدره مكة ، فإن امتنع وروده إلى الحجاز بطل بالتدريج .

وفى سنة ١٣٤٥ هـ ١٩٢٧ م اتفقت الحكومة البريطانية والملك عبد العزيز على التعاون على القضاء على الرقيق ، فوضع الملك عبد العزيز بعض القيود للاتجار فيه فضعفت هذه التجارة .

والمسألة فى الواقع اقتصادية ، فلو أن الخدم يتوفرون فى مكة و بلاد العرب ما لجأ الناس إلى الرقيق ، ولكن أهل مكة يفضلون خدمة الحجاج ، لأنها تدر عليهم من المال مالا تدره عليهم الخدمة الأخرى ، وقلما نجد خادماً فى مكة للخدمة المنزلية .

وأعتقد أنه ليس فى إمكان أية حكومة أن تأمر بإلغاء الرقيق ، وتحرير العبيد فى جزيرة العرب دفعة واحدة ، فإن ذلك قد يؤدى إلى ثورة أهلية ، ولكن إذا قضى على التجارة فى السواحل العربية ضعفت فى الداخل . وعلى كل حال فإن الرقيق يتناقص عدده فى كل سنة ، وسيقضى عليه لا محالة . ومن الغريب أن بعض الأوروبيين فى إقامتهم فى بلاد العرب تصل إليهم عدوى الرقيق ، فيحوزون الرقيق ، كغيرهم من العرب و يستعملونه فى الوجوه التى يستعملها فيه العرب .

منع غير المسلمين من دخول الحجاز :

لقد جرى العرف على ألا يدخل البلدين المقدسين : مكة والمدينة غير المسلمين . ومنشأ هذا ما روى عن ابن عباس أنه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول فى مرض موته : أخرجوا المشركين من جزيرة العرب . وأن عمر سمع الرسول صلى الله عليه وسلم يقول : لأخرجن اليهود والنصارى من جزيرة العرب حتى لا أدع فيها إلا مسلما . وأن عائشة زوج النبى صلى الله عليه وسلم قالت : آخر ما عهد النبى أنه قال : لا يترك بجزيرة العرب دينان ، وأن ابن عمر قال : إن عمر أجلى اليهود والنصارى من أرض الحجاز ، وإنه أجلى يهود خيبر إلى تيماء وأريحا وحكى الحافظ ابن حجر فى الفتح فى كتاب الجهاد ، أن

الذى يمنع منه المشركون من جزيرة العرب هو الحجاز خاصة ، وهو مكة والمدينة واليمامة وما والاها ، لا ما سوى ذلك مما يطلق عليه جزيرة العرب ، لاتفاق الجميع أن اليمن لا يمنعون منها مع أنها من جملة جزيرة العرب . وعن الحنفية يجوز مطلقاً إلا المسجد . وعن مالك يجوز دخولهم الحرم للتجارة . وقال الشافعى : لا يدخلون الحرم أصلا إلا بإذن الإمام لمصلحة المسلمين .

وذكر فى المغنى أنه لا يجوز لغير المسلمين دخول الحرم للتجارة . وبهذا قال الشافعى . وقال أبو حنيفة : لهم دخوله كالحجاز كله ، ولا يستوطنون به ، ولهم دخول الكعبة . والمنع من الاستيطان لا يمنع الدخول والتصرف .

وذكر صاحب المغنى أيضاً أنه يجوز لهم دخول الحجاز للتجارة ، لأن النصارى كانوا يتجرون إلى المدينة فى زمن عمر .

ويؤيده ما ورد فى كتاب أخبار مكة للأزرقى ما نصه :

« . . . . . وأخبرنى جدى قال : أول من عمل القبة التى بين زمزم وبيت الشراب ، المهدى فى خلافته ، عملها لهم أبو بحر المجوسى النجار ، وكان جاء به عيسى بن على بن عبد الله بن عباس رضى الله عنه إلى مكة من العراق » .

وما ورد فى تاريخ المدينة للمطرى :

« . . . . . وأرسل الوليد إلى ملك الروم فقال : إنا نريد أن نعمر مسجد نبينا الأعظم ، فأعنّا بعمال وفسيفسياء . فبعث إليه بثمانين عاملاً : أربعين من الروم وأربعين من القبط ، وثمانين ألف مثقال ، وبأحمال من الفسيفسياء وبأحمال من سلاسل للقناديل » .

وقد وضعت الحكومة الحالية تشريعاً ، من مقتضاه ألاّ يدخل الحجاز من يدخل فى الإسلام إلا بعد مضى سنة على إعلان إسلامه ، منعاً لبعض الأوروبيين، الذين يدّعون الدخول فى الإسلام بقصد زيارة مكة أو المدينة فقط .

الطائف :

هى مدينة مسورة واقعة فى سهل رملى محاطة بتلال منخفضة ، وتقع على بعد ٧٥ ميلاً إلى الجنوب الشرقى من مكة ، على ارتفاع خمسة آلاف قدم من سطح البحر ؛ وهى مصيف الأعيان ورجال الحكومة ، و بيوتها مبنية من الحجر ؛ والمدينة تغص بالسكان زمن الصيف فقط ، وجوّها أبرد بكثير من مكة ، والمياه فيها غزيرة وهى فى جوها وتربة أرضها تشبه الأراضى العالية فى عسير واليمن . والأمطار الغزيرة تسقط هناك فى فصل الخريف ، والآبار كثيرة ، ومنها تروى الأراضى الزراعية البعيدة عن مجارى المياه

يبلغ عدد السكان نحو عشرة آلاف نسمة ، وأغلبهم من ثقيف وعُتَيْبة ، ويشتغلون بزراعة البساتين والخضر . وفاكهة الطائف مشهورة بجودتها فى سائر البلاد العربية ، ففيها العنب والرمان والخوخ والليمون الحلو والمشمش والسفرجل . أما زراعة النخيل فى الطائف فلا تجود لشدة البرد .

وينمو الورد فى الطائف ، ويستخرج منه عطر فاخر يباع على الحجاج فى موسم الحج

عسير

يطلق « عسير » على الجهة الغربية من بلاد العرب الواقعة إلى جنوب الحجاز وشمال اليمن . وقد كان هذا القسم أيام حكومة الأتراك غير محدود تحديداً واضحا ، فمع أن الأتراك قد كوّنوا متصرفية[1] عسير وجعلوها تابعة لولاية اليمن فقد كان أشراف الحجاز يدّعون تبعية بعض المناطق المجاورة للحجاز ، كما كان أمراء نجد أيضاً يدّعون ملكية بعض المناطق من الجهة الشرقية . أما اليوم فإن عسيراً أصبحت من المملكة العربية السعودية ، حسب معاهدة الطائف الأخيرة

ومنطقة الحجاز الرملية الموازية للشاطئ تمتد إلى بلاد عسير بعرض يختلف من ٢٥ — ٣٠ ميلا ، ثم تتصل بتهامة اليمن . أما المنطقة الثانية والثالثة والرابعة فى الحجاز[2] فإنها لا تظهر بجلاء فى بلاد عسير ، ويكاد لا يكون هناك تمييز بين هذه المناطق الثلاث

وعلى بعد نحو ثمانين ميلا من الشاطئ توجد سلسلة مرتفعات عالية ، يبلغ ارتفاعها نحو ٦,٠٠٠ إلى ٧,٠٠٠ قدم ، ومن هنالك تأخذ الأرض من جانبها الشرقى فى الانحدار شيئاً فشيئاً ، حتى تتصل بصحارى نجد

ونظراً لما يصيب بلاد اليمن من المطر الموسمى فى الخريف ، ونظراً لقرب عسير منها ، فإنه يصيبها من هذا المطر غير قليل . ولذا فإن وديانها الكثيرة الشاسعة تعتبر من الدرجة الأولى فى الخصوبة . وأهم هذه الوديان هو :

وادى رانِيَة — وادى بِيشة — وادى شَهْران — وادى عقيق

وأغلب الوديان الكبيرة تجرى فيها المياه ، إما فوق سطحها أو قريباً منه . وحالة الوديان تختلف عنها فى الحجاز ، لأن البلاد خالية من النُفُود[3]

وتجرى الوديان الرئيسية فى اتجاه وادى الدَّوَاسِر الواقع فى جنوبى نجد ، والبلاد

---

(١) متصرفية : مديرية فى عرف مصر

(٢) راجع التقسيم الطبيعى لولاية الحجاز

(٣) النفود جبال رملية

الداخلية فى غاية الخصوبة ، وخصوصاً من تَنُومَة إلى تَمَنِيَّـة . وهى تضارع أحسن وأخصب البلاد العاليـة فى اليمن . والمزروعات على اختلاف أنواعها من حبوب و بقول وفاكهة تجود فى الوديان

والجزء المجاور لشاطىء البحر و إن كان رمليًا ، فإنه أحسن بكثير من نظيره فى الحجاز ففى أجزاء كثيرة منه تنبت المزروعات ، ويعيش كثير من السكان عليها . وينزل مطر غير غزير فى جنوبى تهامة وتهامة الوسطى فى شهرى فبراير ومارس . وفى شهر يونيو تنزل أمطار غزيرة . أما فى الشمال سواء فى الداخل أو فى البلاد الساحلية ، فإن المطر ليس دوريا جليل الفائدة .

السكان

يبلغ عدد السكان تقريباً حوالى مليون ونصف . والأهالى كلهم شافعيّو المذهب ؛ إلا النادر القليل جداً فى الشمال الشرقى ؛ فإنهم حنابلة سلفيون . ويشتغل غالب الأهالى بالزراعة والبدو الرحل قليلون جداً فى عسير . والاختلاط فى الأنساب قليل فيها ، إلا ما كان منه فى المدن الكبيرة ، وحدود القبائل بعضها من بعض معينة تعييناً دقيقاً ليس له نظير فى غير عسير . وأقوى القبائل وأكثرها عدداً يحتل صلب البلاد ، ورءوس الوديان الداخلية ، والجزء الأعلى من العقبات

الزراعة

تتوقف الزراعة فى تهامة على أمرين : الأول نزول الأمطار المحلية ، والثانى سيول المياه من الوديان المنحدرة إلى البحر . وفى مجرى أغلب الوديان الكبيرة تقام السدود لحجز المياه ، وتوجيهها فى اتجاه الأراضى المراد زراعتها . وتحصد الأرض مرتين ؛ فى الربيع وفى الصيف . وثلاث مرات فى بعض الأحيان

والمزروعات هى الدخن والأذرة والسمسم والقطن . وكل أنواع الخضرة المحلية . وأخصب الأجزاء فى تهامة هو الجزء الواقع بين حلِيّ والبِرْك . وفى الداخـل يزرع القمح والشعير

والاذرة والفواكه ؛ وشجر البن ؛ ولكن بكمية قليلة لا تفي بالقدر الذي يستهلك في داخل البلاد
والماشية والغنم والماعز والجمال تربى بكثرة في عسير ، سواء في تهامة أو في الداخل

التجارة

وموانئ الواردات إلى عسير هي : القُنفُذة ، والبِرْك ، والشُّقيق ، وَجِيزَان الجَعَافِرَة ، والمَضَايَا ، ونَفشَر ، والمُوسَم ، والقُرَنيّة

وواردات عسير قليلة ، وأهمها البضائع القطنية ، والسكر ، والبترول ، والأرز وأدوات الطبخ ، والأسلحة والذخائر

أما الصادرات فإنها أقل وهي : القمح ، والدخن ، والأذرة ، والسمسم ، والسمك المقدد ، ويصدر إلى جدة أثناء موسم الحج . كما يصدر إلى مصوع وعدن السمن والجلود والسمسم والصوف والتمر والصمغ وبعض الدواب

البلاد

بلاد عسير المشهورة هي ما يلي : —

١ — بيشة :

بلدة زراعية مكونة من جملة قرى ، واقعة في الوادي المسمى باسمها ، وهي على بعد ٢٤٠ ميلا من شرق الجنوب الشرقي لمكة ، وهي نقطة هامة على الطريق من وادي الدّواسر إلى الحرمين ، وأهم مكان بين الطائف وصنعاء ، ويعتبرها العرب مفتاح اليمن . وتروى الواحة بوساطة نهير صغير يسير متجهاً نحو الشمال الشرقي حيث ينحدر إلى وادي الدواسر مع سواه من النهيرات الأخرى الصغيرة ، وقد حكم الأشراف قديماً هذه المنطقة ؛ قبل الحركة الإصلاحية ، في نجد . ففي تاريخ العصامي ، كثير من أخبار الأشراف في بيشة ، وللاتصال الشديد بين بيشة ووادي الدواسر كانت هذه المنطقة موضع نزاع بين الأشراف ونجد

٢ — تُرْبَة :

تقع على بعد تسعين ميلاً من جنوب شرق الطائف ، وهى على الطريق العام من نجد إلى اليمن ، وهى مدينة مسورة ، وتقع فى حجم الطائف ، وتحيط بها الأراضى الزراعية ، ومزارع النخيل ، وتروى بمياه غزيرة . وبجوارها عدة تلال ؛ يزرع على سفوحها الشعير والأذرة . وقد اشتهرت تُرْبَة بمقاومتها المنيفة لقوات محمد على سنة ١٨١٥ م ، كما اشتهرت بمعركتها الشهيرة بين جنود نجد والملك حسين تحت قيادة الأمير عبد الله (الملك عبد الله) فى ٢٤ مايو سنة ١٩١٩ م .

٣ — أَبْهَا :

مدينة بيوتها مبنية من الحجر ، على تل فى وسط عسير ، وهى على بعد نحو ١٣٩ ميلا من قلعة بيشة ، وكانت مركزاً للمتصرِّف[1] زمن حكم الأتراك ، وهى مركز هام للمواصلات وطرق القوافل فى عسير .

٤ — مَحايِل .

بلدة فى داخلية عسير تبعد عن القُنْفُذة بنحو ٧٢ ميلا ، وهى ملتقى عدة طرق : من أبْهَا ، ومن القنفذة ، ومن حِلِي ، ومن البِرْك .

٥ — خَمِيس مُشَيط .

هى أكبر مدينة فى أخصب جزء من جنوبى عسير ، وهى واقعة بين التلول إلى جنوب وادى بيشة ، وهى على بعد ١٢٥ ميلا من شرق الجنوب الشرقى للقنفذة التى تتصل بها بوساطة درب للقوافل ، مياهها وفيرة ، وهى مركز لتصريف تجارة التمر .

٦ — أبو عَرِيش .

أشهر بلدة فى تهامة ، ولها تاريخ هام فى القرن التاسع عشر عصر النهضة الدينية الأولى ، وكانت عاصمة للشريف حُمُود الذى لعب دوراً هاما فى ذلك العصر ، وهى على بعد ٧٠ ميلا

---

(١) المدير فى عرف مصر .

شمال اللحَيَّة ، وهى مقر المركز المسمى باسمها ، وأكثر بيوتها مبنى بالحجر ، مياهها غزيرة وزراعتها واسعة .

٧ — صَبْيا .

على بعد عشرين ميلا فى الداخل ، وهى الجنوب الشرقى من جيزَان ، وكانت عاصمة الأدارسة ، وبها قلعة قديمة بنيت أيام الحكومة الأولى وقد أصلحتها الحكومة الحالية بعد القضاء على ثورة الأدارسة الأخيرة (سنة ١٣٥١ هـ ١٩٣٢ م) وسكانها نحو عشرة آلاف نسمة ، مياهها غزيرة ومزروعتها واسعة .

٨ — القنفذة .

بلدة صغيرة مسورة ومكونة من جملة بيوت وأكواخ على شاطىء البحر الأحمر وهى على بعد ٢٠٠ ميل إلى جنوب جدة ، وسكانها زهاء أربعة آلاف ، وتجلب المياه من حَفَائر على بعد ميلين ونصف فى الداخل ، وهى ميناء أَبْها ، وتقع على بعد ٧٢ ميلا من محَايل .

٩ — حِلِيّ .

هى الرأس الغربى لخليج مَحْمِيّ من رياح الشمال والشرق ، وتقع على بعد أربعين ميلا من جنوب الجنوب الشرقى للقنفذة ، وهى قرية صغيرة قرب الشاطىء وبقربها توجد قمة حِلِيّ المشهورة وهى على شكل مخروطى .

١٠ — جيزَان .

ميناء صغيرة على بعد ٢٠٠ ميل من جنوب الجنوب الشرقى للقنفذة ، وهى واقعة أمام مجموعة جزائر فِرْسان ، ويحيط بها من جهة الداخل جبل جيزان ، وبالبلد بعض مبان بالحجر ، ولكن الجزء الأكبر من بيوتها مبنى باللبن ، والمياه فى البلدة قليلة جداً ، ولكن على بعد ثلاثة أميال ونصف من شمال شرقى البلدة توجد آبار مياه وحفائر ، وسكانها يبلغون ألف نفس ، وهم يشتغلون باستخراج اللؤلؤ ، وبقرب جيزان جبل ملح حَجَرى .

ميدِي :

قرية مكونة من بيوت قليلة وأكواخ ، ومنها تذهب القوافل شرقاً إلى صعْدَة وصنعاء ، وهى الآن من حدود اليمن ، ويتبع منطقة عسير جزائر فِرسان .

خلاصة تاريخية عن حكومة عسير

كانت مقاطعة عسير متصرفية ، تابعة لولاية اليمن أثناء الحكم التركى ، ولكن الحقيقة أن هذه المقاطعة كان يتنازعها نفوذ شريف مكة وإمام اليمن والإدريسى وبعض الأمراء المحليين ، الذين كان يتمتع بعضهم بشبه استقلال ، غير أن الجميع كانوا يعترفون بسلطة الحكومة التركية .

فأمير مكة كان نفوذه يمتد إلى قبائل غامد ، وبنى شِهْر وشِهْران . وكان على أتم صلة بمشايخ هذه القبائل غير أن هذا النفوذ لم يَعْدُ التأثير المعنوى . أما طريقة الإدارة والحكم ، فلم يعرف أنه لأمير مكة أى أثر فى ذلك . وفى سنة ١٣٢٩ هـ ١٩١٠ م اتصل بالقبائل الضاربة بين اللَّيث وأبْها أثناء الحملة التركية ضد الإدريسى ، تلك الحملة التى كان للشريف يد ظاهرة فيها ، وعلى كل فإن الأتراك أنفسهم لم يكن لهم نفوذ على غير القنفدة على الساحل ، ومحايل وأبْها فى الداخل ، وبعض البلدان الصغيرة القريبة منهما ، والطرق الموصلة بينها .

أما المنطقة التى كان يمتد نفوذ الإدريسى عليها فتشمل قبائل قحطان فى القسم الجنوبى من عسير ، والقسم الأكبر من تهامة ، من البَرْك إلى الحُدَيْدَة حيث يبلغ طول هذه المنطقة من الشمال إلى الجنوب نحو ٣٥٠ ميلا وعرضها نحو ٧٠ ميلا .

واتخذ الإدريسى مقاطعة صَبْيَا كعاصمة ، وميدِى وجيزان ميناءين . وقبل أن يقوم محمد على الإدريسى بحركة تأسيس حكومته فى عسير كان القسم الأعظم من المنطقة الممتدة من ظهران إلى الطائف خاضعاً لنفوذ عائلة بنى مُغيط (Mugheid) وعاصمتهم مُنَاظِر ، أو أبْهَا كما تسمى اليوم . واشتهر من بنى مُغيط فى القرن الماضى عايض بن مَرْعِى الذى كانت له مواقف مشهورة فى الحملة المصرية فى عسير سنة ١٨٣٤ م ، وبقيت

البلاد حرة من هذه السنة حتى سنة ١٨٦٩ م حيث رجع إليها النفوذ التركى ، فتقلص نفوذ آل عايض وأصبح سلطانهم لا يكاد يعدو منطقة أبها .

أما ما يطلق عليه المخلاف السليمانى ، فكان مستقلا مدة طويلة ، وبقى محافظاً على هذا الاستقلال ضد الحكومة التركية ، والقبائل اليمنية من جهة ، وضد القبائل الضاربة فى الجبال الداخلية من جهة أخرى .

وبين سنتى ١٨٣٠ و ١٨٤٠ م خضعت أبُوعَرِيش للشريف على ، الذى اتفق مع المصريين على التخلص من نفوذ عايض بن مرعى ، وفى أثناء حكمه وصل السيد أحمد الإدريسى المغربى — أحد رؤساء الطرق — إلى صَبْيا (وكان قبل ذلك مقيما بمكة منذ سنة ١٧٩٩ م واعظاً ومرشداً إلى طريقته) وأقام بها إلى أن توفى سنة ١٨٣٧ م . وفى أثناء إقامته فى صَبْيا نشر فيها وفى عسير الطريقة تلك التى تلقّنها فى مكة سنة ١٨٢٣ . وقد ترك السيد أحمد لأولاده من بعده ثروة مادية ومعنوية لا يستهان بها ، ظهر أثرها فى أيام ولد السيد أحمد وحفيده ، بعد انهزام الشريف حسين ، حاكم أبو عريش ، وقد تصاهر الإدريسى مع العائلة السنوسية المنتشرة فى السودان ومصر قرب الأقصر . والحقيقة أن نفوذ الإدريسى لم يقتصر فقط على المخلاف السليمانى ، بل امتد شمالاً وجنوباً حتى إن بعض القبائل الضاربة حول صَعْدة انتشرت بينها تعاليم الإدريسى . هذا ما تركه السيد أحمد الإدريسى الكبير من الأثر فى عسير والذى استغله من بعده السيد محمد على الإدريسى حفيده .

ولد السيد محمد على الإدريسى فى صبيا سنة ١٨٧٦ م وتلقى تعاليمه ما بين الأزهر والكفرة مقر السنوسى ، ثم رجع إلى صبيا واضعاً نصب عينيه انتزاع عسير من يد الأتراك ، والاستقلال بها . وفى سنة ١٩١٠ م طرد الترك من كثير من البلاد ، غير أنه لم يوفق فى الاستيلاء على أبْها ، حيث لم يقو على الوقوف فى وجه الحملة التى سيرها الأتراك بقيادة أمير مكة الشريف حسين بن على . على أن ذلك لم يفل من عزمه ، فإنه انتهز فرصة اشتغال الأتراك بمحاربة الإيطاليين فى طرابلس ، فقام محاولاً الوصول إلى غرضه الذى

وضعه نصب عينيه ، مستعيناً بالإيطاليين . إلا أن هذه المحاولة لم تثمر الثمرة المطلوبة ، فإن أمير مكة الذى كان له بالمرصاد ، كان أكبر عقبة فى سبيل الوصول إلى ما يريد ؛ ومع ذلك فإن الإدريسى قد استطاع أن يبسط نفوذه الأدبى وبعض نفوذه المادى فى أثناء الحرب البلقانية ، وقد حاول أن ينال من الأتراك اعترافاً بحكومته ففشل ، ولم يعترفوا به إلا كقائمقام[1] على صبيا ، وأبى عريش ، فاكتفى بذلك متحيِّناً الفرص الملائمة ؛ وفى أثناء الحرب العالمية الأولى انضم إلى الحُلفاء ضد الأتراك ، وعقد معاهدة مع المقيم فى عدن فى شهر مايو سنة ١٩١٥[2] ، وأخذ يغير على الأتراك فى المناطق الجنوبية حتى وصل إلى اللُّحَيَّة ؛ وبعد إمضاء الهدنة ترك له الانجليز الحُدَيْدَة ؛ التى احتلوها أثناء الحرب اعترافاً بخدماته التى قام بها أثناء النضال العالمى . وقد استطاع السيد محمد على الإدريسى أن يقف فى وجه الشريف حسين من الشمال ، والإمام يحيى فى الجنوب ، مدة حياته بالتحالف مع سلطان نجد سنة ١٣٣٩ هـ (١٩٢١م) .

توفى محمد على الإدريسى فى شعبان سنة ١٣٤١ هـ ، وولى الأمر بعده ولده السيد على الإدريسى ، فوقعت البلاد فى فوضى ، وحاول الملك حسين والإمام يحيى أن يوسع كل منهما منطقته على حساب الإدريسى فلم ينجح الملك حسين ، لأن الفرصة لم تساعده كما ساعدت الإمام يحيى .

وفى ربيع الأول من سنة ١٣٤٣ هـ (١٩٢٤ م) دخلت جيوش الملك عبد العزيز مكة ظافرة ؛ وظلت الجيوش سنة وبضعة أشهر تتعقب الأشراف لإجلائهم عن الحجاز ، فانتهز الإمام يحيى هذه الفرصة السانحة فاحتل الحُدَيدة ، وتابع زحفه شمالاً حتى وصل مِيدِى ؛ فلما وجد الأدارسة ما حل بهم عزلوا السيد على الإدريسى ، وولوا مكانه عمه السيد الحسن الإدريسى أخَا السيد محمد على .

لم يجد السيد الحسن نفسه قادراً على الوقوف فى وجه الإمام يحيى ، فأرسل من قِبَله

---

(١) نظير مأمور فى عرب مصر .

(٢) تجد نص هذه المعاهدة فى ذيل الكتاب .

السيد مرغني الإدريسي مندوباً إلى مكه للاستنجاد بالملك عبد العزيز ، فاجتمعتُ بالمرغني ووضعنا معاً معاهدة الحماية في سنة ١٣٤٥ ﻫ (١٩٢٦ م) لإنقاذ ما بقي من ملك الأدراسة .

وفي سنة ١٣٤٩ ﻫ (١٩٣٠ م) طلب السيد الحسن أن تضم البلاد إلى مملكة جلالة الملك عبد العزيز ، وأن يكون حكمه فيها مباشراً . ومن ذلك التاريخ أصبح ذلك القسم من عسير ملحقاً بمملكة نجد والحجاز ؛ التي يطلق عليها الآن المملكة العربية السعودية ، وطويت صحيفة الأدراسة كما طويت صحيفة آل عايض من قبلهم .

نجد

وهى أكبر قسم من بلاد العرب ، ويشمل صحراء العرب الوسطى ، ومع أن حدود نجد غير معروفة تماماً فى الجغرافية العربية لكثرة الأقوال وتعدد الآراء . فإن نجداً اليوم تشمل الأراضى الممتدة من قُرَيَّاتِ المِلح شمالاً ، إلى وادى الدواسر جنوبا ، ومن حدود الأحساء شرقا ، إلى حدود الحجاز غرباً

وفيها كثير من الجبال والأودية والصحارى ، وهى ليست قاحلة كما كان يتصور الناس قديماً . فمن الشمال ابتداء من حُوارَن إلى شواطئ الفرات ؛ أرض منبسطة تسمى الحَمَاد ، ليس بها أقل ارتفاع ، كما أنه لا يوجد بها قرى أو مدن . ويظهر للمارّ بها أحياناً بعض الأعشاب الصغيرة . وهذا القسم لا يزال كما كان منذ ٢٣٠٠ سنة

ويوجد بها من الحيوان : الحُبَارى والنَّعام ، وابن آوى ، وبقر الوحش ، وحمار الوحش . وتقع صحراء الأحقاف جنوبى نجد ، فنجد على هذا محاطة من جميع جهاتها بسهول رملية ، مترامية الأطراف ؛ ونجد مشهورة بمراعيها الجيدة ، وبها كثير من العيون الغزيرة المياه ، وبها كثير من الأطلال القديمة التى لم تمسها حتى الآن يد البحث والتنقيب

وأشهر إيالاَتِ نجد من الجنوب إلى الشمال : وادى الدواسر ، الأَفْلَاق ، الحَرِيق ، الخَرْج ، العارض ، الوَشم ، سُدَيْر ، القَصِيم ، جبل شمّر ، الجَوْف ، قُرَيَّات المِلح . ويبلغ امتداد نجد من الشمال إلى الجنوب ، أى من قريات الملح إلى وادى الدواسر نحو ٨٠٠ ميل ، ويبلغ عرضها من الغرب إلى الشرق ، أى من الوشم إلى سدير نحو ٢٢٠ ميلا

الجو

تغنى الشعراء قديماً بهواء نجد ، وأسهبوا فى وصف نسيمه ، وهو على العموم جاف معتدل ، غير أن إقليم نجد يختلف هواؤه باختلاف المنطقة ، وموقعها الجغرافى ، فالحريق كاسمها شديدة الحر . ووادى الدواسر كذلك

أما العارضُ فهواؤها معتدل جاف فى السهل ، شديد البرد فى مرتفعات طوَيْق . والجو فى القَصِيم جاف بارد فى الشتاء ، ومعتدل فى الصيف ، وليالى القصيم فى الصيف كليالى الصحراء ، نسيم عليل ، وسماء صافية ، ونجوم تسطع فى السماء ، تلذ رؤيتها للشعراء والموامين بالهدوء الصحراوى البديع

أما هواء جبل شمر فشـديد البرودة ، ولذا فإن بشرة سكان نجد الشمالية تميل إلى البياض عكس سكان الجنوب

والأمطار فى نجد لها الشأن الأول فى الحياة ، وهى قليلة على العموم إذا قيست ببعض المناطق الجنوبية ، وكثيراً ما تـكون الأمطار محلية ، وقلما تـكون عامة . فالأمطار شمالى النفود قلما تمتد إلى جنوبى جبل شمر ، وحديث الناس ، أمرائهم وبدوهم وحضرهم ، هو المطر . وسؤال القادم يبدأ بالمطر والمرعى . ومن يعيش فى بلاد العرب يعرف الأثر العظيم الذى يحدثه المطر ، والتعاسة التى يسببها تأخره ، فأهل نجد لا يأبهون لشىء إذا رزقهم الله المطر ، تحيا به زروعهم وحيواناتهم ، وتشملهم السعادة بكل معانيها

وأما إذا انقطع المطر ، فلا يمكنك أن تتصور ما يصيب الحيوان من الضعف والموت أحياناً

والرياح التى يكثر هبوبهـا ، الرياح الغربيـة ، وتميل إلى الجنوب فى الجهات الشمالية القصوى

السكان

يبلغ سكان نجد من حضر وبدو ثلاثة ملايين من النفوس تقريباً ، فالحضر هم سكان المدن . وهم فى الأصل من البدو ، وتوطنوا فى مساكنهم من قديم

وأهم العشائر النجدية آل مُرّة . وبنو خالد ، والعِجْمَان فى الشرق ، وقحطان فى الجنوب ، والجنوب الغربى . وسُبَيْع والسهول فى الغرب . ومُطَيْر فى الشمال الغربى وشمر فى الشمال ، وعُتَيْبَة فى الشمال الغربى ، وحَرْب فى الشمال الشرقى . وعَنَزَة فى الشمال الشرقى أيضاً

وأهل حايل ينتمى أكثرهم إلى شمر. وأهل القصيم يرجعون فى الغالب إلى بنى خالد وبنى تميم ، وأهل الجنوب ينتمون فى أنسابهم إلى عَنَزَة ، وأهل الوسط إلى الدواسر وبنى تميم ، وأهل الجنوب الغربى ينتمون إلى الدواسر وقحطان .

الأدوات المحلية والمصنوعات

هذه الأدوات قديمة العهد فى نجد ، كما هى فى باقى بلاد الجزيرة العربية لم يشملها التحسين والتجديد .

وفى مقدمة السكان حضارةً أهلُ عُنَيْزَة[1] فى القصيم ، والرياض وآخرهم حضارة سكان وادى الدواسر والسُّلَيِّل .

جميع المبانى من اللبن ، ويقل سمك الحائط فى مرتفعه ، إلا فى القرى الموجودة فى الجنوب ، فإنهم يستعملون جذوع النخل . والسقوف مسطحة وهى من الطين الموضوع على جذوع النخل ، أو فروع الأَثْل . والنوافذ عبارة عن فتحات صغيرة على شكل مثلث لإدخال النور ، وفى كل منزل فناء كبير يستعمل لحفظ الدواب المنزلية ولحفظ السَّماد والمنازل ذات الطابقين قليلة جداً ؛ والأثاث فى البيوت بالمعنى المعروف فى البلاد المتمدنة غير معروف إلا فى بيوت العائلات الكبيرة . فالرجال يجلسون وينامون على الحصير المصنوع من خوص النخل ، ونصف أرضية المكان تبقى عارية ؛ والملاعق والسكاكين والشوك لا تكاد تستعمل فى نجد ، والنور الكهربائى غير معروف إلا فى قصر الملك وعائلته ، وأغلب السكان يستعملون مصابيح تضاء بالبترول وهى واردة إليهم من الخليج أو الحجاز ؛ وأوانى الطبخ من النحاس غالباً ، وقد يستعمل الألمونيوم أحياناً ولا سيما فى القصيم ، ويصنع بعض أنواع الفخار فى نجد ، ويصنع الخبز على شكل مسطح رقيق ، وهو إما أن يسوى على الجمر ، أو يسوى على لوح من الصاج ؛ أما أوانى القهوة فترد من الأحساء والشام ، وتصنع الخناجر والسكاكين فى حايل أو الخليج ، أما الأسلحة النارية فترد من الخارج .

وأما خامات الملابس فكلها ترد من الخارج . إلا ما يصنع من الصوف ، ويستعمل

---

(١) عَنَزة : اسم القبيلة ، وعُنَيزة : اسم البلدة .

فى عمل العباءات والعقالات ، ويصنع من الصوف الخيام ، وأخراج الجمال ، وأحسن أصناف العباءات ترد من الأحساء ، ويكتفون من الملابس الداخلية بقميص من القطن ، ولا يستعملون النعال كثيراً . وأغلب المصنوعات الجلدية ترد من الخارج إلا ما يلزم لقِرَاب المياه والدلاء ، والسروج ، والنعال ، فإنها تصنع فى نجد . ويصنع أيضاً الحصير والمراوح من الخوص ، ولكن هذه الصناعة متقدمة نوعاً ما فى القصيم ، ولا سيما عُنيزة . ومع ذلك فإن أنواعها أقل بكثير مما يصنع فى موانىء الخليج الفارسى .

والطعام العادى فى نجد هو التمر واللبن والخبز ، وأحياناً الأرز واللحم .

هذا ما كان قبل عشرين سنة أما الآن فقد تطورت الحياة تطورا سريعاً فى المبانى والحياة المنزلية فالبيوت فى الرياض وجدة لا تختلف عن مثيلاتها فى البلاد الأخرى بل قد تمتاز عنها فى كثير من مرافق الحياة .

إيالات نجد

العَارض :

ويعرف فى الجغرافية القديمة بجَوّ ، والعَرُوض ، واليمامة ، ويقع بين سُدَير شمالا ، والخَرْج والحريق جنوبا ، وهو يكوّن القسم الأوسط من طُوَيْق الشّهير .

ووادى حنيفة هو قلب العارض ، وفى جنوبه الغربى يقع سهل ضُرْما ، وفى شماله المِحْمَل ، والقسم المعمور من العارض مساحته ١٠٠ ميل مربع .

وأهل العارض مشهورون بالشجاعة والإقدام ، واحتمال المكاره ، والحماسة الدينية ، وقوة الإرادة ، والدهاء ، وهم شديد والإعجاب بأنفسهم ، يميلون إلى العزلة ، ويفضلون عدم الامتزاج بسواهم ، يغلب عليهم سوء الظن ، وربما كان ذلك بسبب الفتن الكثيرة وما جرته عليهم من المصائب . ولكنهم مع ذلك طيبو القلب لا يحملون حقداً لأحد ، إن وثقوا بأحد صموا آذانهم عما يقال فيه ، وهم عدة آل سعود وجندهم ، يرجعون إليهم عند الملمات . ويستندون عليهم عند اشتداد الكروب ، ولغلبة الخلق الحربى عليهم ترى فى طباعهم شيئاً من الخشونة والصلف .

أشهر بلدان العارض :

أشهر بلدان العارض فى الشمال — الرياض ، وشمالها : لِبن القُرَشيَّة عِرْقة ، الدِّرْعِيَّة ، الْمَلْقَى ، العَمّاريّة ، أبو الكِبَاش .

وفى الشمال الغربى : الجُبَيْلة ، العُيَيْنة ، الشِّعيب .

وفى الشرق : صَلْبُوخ ، مِلْهَم ، القُرَيْنِيّة .

وفى الجنوب الغربى : سَدُوس ، حُرَيْمِلة ، المِحْمَل ، ثَادِق ، المحَرّقة ، رَغَبَة ، الرَّوضة .

الرياض :

عاصمة نجد كلها ، اتخذها آل سعود عاصمة لهم بعد تخريب الدِّرْعية سنة ١٢٣٣ هـ (١٨١٨ م) ، وقد عمرت الرياض وكثرت مبانيها وسكانها فى أيام الإمام فيصل جد الملك الحالى ، ثم أهمل أمرها بعد جلاء آل سعود عنها ، فعلا شأن حايل فى الشمال ؛ وقد استردت الرياض مكانتها ، واشتهر أمرها ، وأصبحت كعبة آمال العرب ، ومقصد الوافدين من جميع الأنحاء العربية ، بعد أن ساد الملك عبد العزيز نجداً كلها وقضى على منافسيه فيها ؛ وتنخفض الأرض المشيّدة عليها عن المستوى العام بنحو ١٠٠ قدم ، حتى أن القادم من الشمال أو الشرق لا يراها إلا من قريب ويحيط بالرياض بساتين النخيل ، وهى وضواحيها تمتد من الشمال إلى الجنوب نحو ميلين ، حيث تقف عند قاع وادى حنيفة أوالباطن

والرياض كسائر البلدان النجدية : كانت محاطة بسور محصن بأبراج عديدة لحماية البلدة من غارات البدو وعدوان الأعداء .

وأكثر مبانى الرياض من الطين أو اللبن ، وهى قليلة النوافذ على الطريق العام ، فإن ذلك معدود من العيوب فى البلاد العربية . ويشغل قصر الملك ومنازل العائلة الحاكمة قسما عظيما من المساحة وهى تشبه فى بنائها قصور القرون الوسطى من جهة السعة وإقامة الأبراج عليها ؛ والقصر الحالى بناه الملك عبد العزيز على أنقاض القصر القديم .

والرياض هى مقر آل الشيخ ، أو خلفاء الشيخ محمد بن عبدالوهاب المصلح الدينى العظيم ، وهم فى مركزهم الدينى أشبه بأعضاء المحكمة العليا فى البلدان الأخرى ، وهم المرجع الأخير فى جميع المشكلات الدينية ، ويقومون فى الوقت نفسه بوظيفة تدريس العلوم الدينية والآداب العربية فى بيوتهم ؛ التى يقصدها طلبة العلم ويجدون فيها ما يساعدهم على الانقطاع لطلب العلم .

والرياض تزخر بالزائرين ، وتعج بالوافدين من الحضر والبدو وقت إقامة جلالة الملك بها ، وقد يبلغ عدد الضيوف عشرة آلاف ، ولا يقل عدد الضيوف عن ٨٠٠ فى الأيام العادية ، وكلهم تهيأت لهم سبل الضيافة ، وتوفرت لهم جميع وسائل الراحة على نفقة جلالة الملك

وأهل الرياض أشد أهل نجد صلابة فى الدين وغيرة على حرماته ، وشأنهم شأن أهل نجد فى المحافظة على صلاة الجماعة والضرب على أيدى المتساهلين فى أدائها

ويبلغ عدد سكان الرياض نحو مائتى ألفاً ، وقد أمر جلالة الملك فى سنة ١٩٣٣ بإنشاء بلدية للإشراف على تنظيف البلد وتوسيع طرقها ، وقد ربطت بيوت العائلة الحاكمة بعضها مع بعض بأسلاك التليفون ، وأصبحت بعد إنشاء المحطة اللاسلكية فيها سنة ١٩٣١ مرتبطة مع سائر البلدان العربية ، وأصبحت على اتصال وثيق بالعالم الخارجي بعد ما كانت فى عزلة تامة عن العالم

وإذا قورنت الرياض اليوم بالرياض سنة ١٩٢٣ حيث زرتها لأول مرة وجدت الفارق العظيم فى كثرة السكان والمبانى المشيدة بالحجارة المزودة بتكييف الهواء وقد ربطت الرياض بالخليج الفارسى بخط حديدى حديث فاقتحم صحراء الدهناء الخط الحديدى كما اقتحمتها السيارة من قبل

الدِّرْعية :

وهى العاصمة الأولى لآل سعود تخربت سنة ١٢٣٣ هـ سنة ١٨١٨ م . أما الدرعية الجديدة فتقابل البلدة القديمة ، وهى فى الجهة الشمالية من وادى حنيفة ، تقع فى غربى الرياض ، وتبعد عنها نحو ٢١ ميلا

ويبلغ سكانها الآن نحو ١٥٠٠ نفس ، وبها كثير من أشجار النخيل والفاكهة يرويها نحو ٤٠٠ بئر غزيرة المياه ، وأشهر ضواحيها الطِّريف فى الجهة المقابلة من الوادى وَتَرِيحة والغُصَيْبة ، وهى منفصلة عن بعضها بأسوارها الخاصة

سَدُوس :

بلدة صغيرة فى موقع كثير المياه ، خصب التربة ، وفيها كثير من أشجار الفاكهة

والنخيل ، وقد اشتهرت سدوس بما فيها من الآثار ، وقد عثر فيها على تمثال يبلغ قطره ثلاث أقدام ، وارتفاعه ٢٢ قدماً ، ويبلغ سكان سدوس نحو ألف نفس

حُرَيملة :

فى طُوَيْق أيضاً ، وفى الشمال الشرقى من سدوس ، وتبعد عنها نحو ١٢ ميلا ، وهى أيضاً فى منطقة خصبة كثيرة المياه ، بها كثير من أشجار النخيل والفاكهة ، وآبارها عميقة ، وبها قلعة كبيرة مخربة بناها المصريون فى أوائل القرن التاسع عشر ولكنها تداعت بعد ذلك . والقسم المنخفض من البلدة فيه كثير من المنازل المتداعية ، ترى كأنها أطلال ، والطريق العام الشمالى إلى سدوس يمر بحريملة ، ويبلغ سكان حريملة ٣٠٠٠ نفس

ثادِق :

بلدة صغيرة فى الشمال الغربى من حريملة ، تقع على جانب الوادى فى الجهة الغربية من منحدرات طويق ، يبلغ سكانها نحو ٢٠٠٠ نسمة ، وكانت من المدن الشهيرة فى العارض وعدا عليها عادى الدهر

العُيَيْنَة وَالجُبَيْلة :

وقد كانت الأولى زاهية زاهرة فى أيام النهضة الأولى لآل سعود ؛ وهنالك قصص كثيرة عن أسباب خرابها وهجر الناس لها ، ليس هنا محل ذكرها ، والجُبَيْلة مشهورة بقبور كثير من الصحابة الذين اشتهروا فى حرب مسيلمة الكذاب

الخَرْج :

أشهر بلدان الخرْج : الدَّلَم وهى العاصمة ، منفوحة فى الجنوب ، نَعْجَان السَّلمِيَّة ، اليمامة ، المَنَاصف ، الضَّبْعِية البِدْع ، فِرْزَان

تقع هذه المقاطعة فى الجنوب الغربى من العارض فى وادى حنيفة ، وتمتد من الضفة اليمنى للوادى قرب الرياض إلى الصحراء الكبرى الجنوبية ، ومن حدود الحَريق والحُوطَة فى الجنوب الغربى إلى الصحراء الشرقية .

والمنطقة المسكونة من المقاطعة يبلغ طولها من الشمال إلى الجنوب نحو ٨٠ ميلاً ، ومن الغرب إلى الشرق ٥٠ ميلاً ، والخرج من أغنى المقاطعات النجدية[1] وأخصبها ؛ فيها كثير من العيون الجارية والمناطق المزروعة .

وقد اعتاد آل سعود من قديم أن يُسيموا خيولهم وإبلهم فى الخرج . وأشهر بلدان الخرج هى :

منفوحة :

تقع فى أقصى الطرف الشمالى من وادى حنيفة ، ومنازلها بعضها مبنى بالطين والبعض الآخر بالحجر . وقد كان لمنفوحة شأن يذكر فى نجد فى الماضى لما كانت الرياض قوية ، فقد كان سكان منفوحة أكثر من سكانها الحاليين ، إذ كانوا يجاوزون الخمسة عشر ألفاً . أما الآن فمنفوحة لا يتجاوز سكانها عشرة آلاف ، وبها كثير من أشجار النخيل التى تزيد عن ٤٠ ألف نخلة ، وآبارها يبلغ عمقها من ٢٥ — ٧٠ قدماً حسب بعدها عن الوادى

السَّلَمية :

بلدة صغيرة على مجرى عين فِرْزَان الذى يفيض من الدَّلَم على بعد ٥٠ ميلا من الرياض وهى فى بقعة منخفضة كثيرة المياه ، بها كثير من البساتين ، ويبلغ سكانها نحو ألف نفس

اليمـــامة :

مدينة صغيرة أيضا تقع على مجرى العين السابقة ، وفى بقعة خصبة أيضاً ، كثيرة المياه ، بها كثير من البساتين ، ويبلغ سكانها الآن نحو ١٢٠٠ نفس

وقد كانت اليمامة قديماً تطلق على منطقة واسعة

الدَّلَم :

هى المدينة الرئيسية للمقاطعة فى الوقت الحاضر ، وتقع على عين فرزان الشهيرة ، ويبلغ

---

(١) انظر ياقوت .

سكانها نحو ٦٠٠٠ نفس يشتغلون بالزراعة ، وأراضيها خصبة وعامرة بزراعة النخيل والحبوب والأرز ، ويبلغ عمق الآبار من ٣٥ — ٥٠ قدماً

الحَرِيق :

تقع منطقة الحريق غربى الخرج وجنوبى العارض ، وتبعد عن الرياض بنحو خمسين ميلاً ، وآبارها بعيدة الغور قد تبلغ نحو ١٠٠ قدم ، ويبلغ سكانها نحو ٤٠٠٠ نفس ، وقد اشتهرت الحريق بالثورة التى أثارها أبناء عم الملك عبد العزيز عليه سنة ٩١٠ م فى الوقت الذى كان شريف مكة يهدد إمارة نجد من جهة الحجاز

الْحُوطَة :

بلدة صغيرة فى جنوبى الحريق ، بها كثير من البساتين يبلغ سكانها ٤٣٠٠ نفس

الأَفْلاَج :

تقع منطقة الأفلاج غربى الخرج وشمال الحريق ، وهى سهل واسع ، وهى فى الجغرافية القديمة قسم من اليمامة ، كثيرة المياه والنخيل ، عامرة بالسكان ، وأشهر بلدانها هى :

لَيْـــلَى :

فى القسم الشمالى من المنطقة ، وهى الآن أعمر بلدان الأفلاج ، ويبلغ سكانها وسكان القرى التابعة لها نحو ٥٠٠٠ نفس ، منهم نحو ٤٠٠ من الأشراف

البِدَيِّع :

فى القسم الجنوبى من القاطمة ، ويبلغ سكانها نحو ٣٥٠٠ نفس

الرَّوضَة :

شمال البِـدَيِّع ، وتبعد عنها ١٠ أميال ، وبها كثير من بساتين النخيل ، والمنطقة كثيرة المياه ، ويبلغ سكانها نحو ١٦٠٠ نفس

وادى الدواسر

يمس الوادى حافة الرُّبع الخالى عند نقطة تبعد نحو خمسين ميلاً من جنوب شرق السُّلَيِّل ، وعلى بُعد خمسين ميلاً أيضاً من جنوب غربى المكان نفسه الطريق ومجرى الدواسر ينعدم شرقاً فى الرمال . وإلى الغرب من هذا توجد سلسلة جبال اليمن ، ويوجد على منحدراتها الشرقية كثير من الواحات العامرة ، ثم تنعدم هذه المنحدرات تدريجيًّا فى الرمال ، بينما وديان التثليث وبيشة ورانيا تتجه شمالاً فى أعالى عسير ، حيث اجتماعها فى السهل يكون وادى الدواسر نفسه

منطقة السُّلَيِّل :

هذا الجزء واقع إلى الجنوب الشرقى لوادى الدواسر ومنخفضات الْقَرْن ، وإلى جنوبه فيما وراء المرتفعات تمتد أطراف الصحراء

واحة السليل :

يبلغ طول الواحة حوالى ميلين ؛ فى واد رملى مكوّن من التقاء الوديان فى قلب أعالى الطويق[1] ، وأحد هذه الوديان هو وادى الدواسر الذى شق حاجز النجد إلى شطرين من الغرب إلى الشرق

ومستعمرة السليل تتكون من أربع قرى مربعة الشكل ، وكثير من الأكواخ المبعثرة هنا وهناك ، وبضعة قصور منتشرة على حافة مزارع النخيل على الضفة اليسرى لوادى الْجَمع . ومساحة المستعمرة ميل طولاً ، وربع ميل عرضاً

وعند طرفها الشمالى الغربى تقع قرية « فَرْعة » ، وسكانها نحو ٣٠٠ نسمة

وعلى الطرف الآخر تقع قرى صَبْحة أو المحمّد ، ودَهْلا ، والخَنَش

والقرية الرابعة هى آل سُوَيْلم ، وسكانها نحو ٣٠٠ نسمة . وهى واقعة فى منتصف الواحة ومجموع سكان الواحة لا يزيد عن ألفى نسمة ، بعضهم أرقاء تحرروا ، وهذا التقدير

---

(١) طويق : جبل فى نجد الوسطى .

لا يضم العرب الرحل الذين يفدون على الواحة زمن موسم التمر لأخذ حاجتهم منها

وما تنتجه الواحة من القمح والتمر يكفى سكانها مؤونة العام ، وعدا ذلك فتزرع فيها أغلب أنواع الفواكه ، وفيها يزرع القطن أيضاً

ومنطقة السليل بما فيها « حَمّا » فى الشمال ، وواحة « تمْر » فى الشرق هى جزء من إمارة الدواسر

واحة الوادى :

تقع مزارع نخيل الشُّرَافَة فى مدخل الواحة من جهة الشرق ، وهى غنية بشجر الأثل والكروم ؛ وسكانها نحو خمسمائة نسمة من الدواسر ، ثم يتلوها لِحَاف أومَسَرَّة . ويفصلها عن مزارع نخيل الشرافة حواجز رملية يبلغ عرض الواحدة منها حوالى نصف ميل

وتكثر مزارع النخيل فى الجهة الشرقية من الواحة بدرجة كبيرة ، وفيها توجد خمس قرى منها : « نِعَيْمة » و « القَيْظ » ، وهما قريتان متلاصقتان ، وواقعتان على ضفة الوادى اليمنى ؛ وسكانهما معاً حوالى ثمانمائة نسمة

وعلى بعد نحو ربع ميل من شمالى هاتين القريتين ، وعلى سفح الضفة اليسرى للوادى تقع قرية « نَزْوا » وسكانها نحو ٣٠٠ نسمة

يلى ذلك مستعمرة مَخَادِم ومُقْتَلَة ، وهما غنيتان بمزارع النخيل . وسكانهما نحو ألفى نسمة

يتلو ذلك الدَّام ومِشْرِف ، وهما واقعتان على حافة الوادى القبلية ، ويفصلهما عن بعضهما مسافات صغيرة

وإلى الغرب تقع مزارع نخيل القَرْعة وكرومها ، وهى تكون الحد الغربى للواحة . ففى هذه الواحة يجرى مجرى نهر الدواسر . ومجرى الوادى نفسه طينى التربة ، ولكنه مغطى بطبقة خفيفة من الرمل

وإلى الجنوب تمتد صحارى قاحلة لا نبات فيها ، وبها تلال رملية تتلاشى رويداً حتى تتلاشى فى رمال الصحراء ، وتتجه من جهة إلى الجنوب الشرقى حيث توجد التُّوَيْج

بلدان الوادى

دَام :

هى عاصمة الإقليم ، وتقع على سفح المنحدر فى الجهة اليمنى من الوادى . وهى على شكل مربع تقريباً ، مبنية على مرتفع تقع على قمته أحسن البيوت والمساكن ، وكانت محاطة بسور ولكن أغلبه اليوم متهدم . وأحسن بناء فيها هو « قصر حسين » وهو على شبه قلعة يملكه أحد الشيوخ . وليس بالبلدة سوق عام ، ولكن بضعة حوانيت ترى هنا وهنالك

وسكانها نحو ثلاثة آلاف نسمة من الرُّجْبَان ، وهم قسم من الدواسر أشدَّاء البطش والقوة ، ويعنون كل العناية بنخيلهم وكرومهم

وفى الفضاء الذى يفصل « دام » من نظيرتها « مِشْرِف » يقع « البَرْزَان » وهو القلعة وقصر الحاكم العام

مِشْرِف :

هى المركز التجارى العام للواحة ، وهى تنافس « دام » فى الأهمية والشهرة ويبلغ سكانها نحو ١٥٠٠ نسمة ويحيط بالبلدة سور فى حالة أحسن من سور مدينة « دام »

وَلَامِين :

واقعة إلى الشمال الغربى من مشرف ، وسكانها نحو ألف نسمة ، ويفصلها عن مشرف حائط يسمى الفُرَيْخ

الجُوَيْز :

فى الجنوب الشرق من دام ، ويبلغ سكانها نحو ١٥٠٠ نسمة

تَمَامِيّه :

فى شرق دام ، ويبلغ سكانها نحو ٢٠٠٠ نسمة

وفى الجهة الغربية من الواحة توجد مزارع نخيل واسعة النطاق يتخللها بعض أشجار الأثل ، وتسمى هذه الجهة « الفرعة » ، وبها عدة قرى بعضها إلى جانب بعض ، ويطلق عليها اسم « الحمراء » ، وهى واقعة إلى الجهة اليمنى من الوادى .

ويبلغ مجموع سكان إقليم الدواسر زهاء ثلاثين ألفاً من حضر وبادية ، ويمكن الوصول من وادى الدواسر إلى رَنْيَا فى خمسة أو ستة أيام بالإبل ، ومنه إلى وادى بيشة فى نحو أسبوعين .

الوَشْم :

أشهر بلدان الوَشْم : شقْرَا (العاصمة) ، ثَرْمَدَا ، وُشَيقِر ، القَصَب ، غِسْلَة ، الوَقْف ، أُثيثَة (بلدة جرير الشاعر) ، الفرعَة ، الحُرَيفَة ، الدَّاهنة .

يحده من الجنوب والشرق العارض وسُدَير ، ومن الشمال القصيم ، وأما من الجهة الغربية فليس هنالك شىء بارز يحدد نهايته ، ويفصله من الجهة الجنوبية الحاد عن ضرُمة من العارض ؛ ويبلغ امتداد هذا السهل من الشمال إلى الجنوب حوالى ١٠٠ ميل ، ومن الشرق إلى الغرب نحو ٩٠ ميلا — أما خط تقسيم المياه — فهو السهل الرملى الواطئ الذى يبلغ عرضه نحو ١٥ ميلا .

وينتهى النفود إلى جنوب ثَرْمَدَا حيث الحد الفاصل ما بين الوشم والعارض ؛ والجنوب الشرقى من الوشم آهل بالقرى والسكان والمياه ، وفيه تقع أكبر بلدتين فى الوشم شقْرَا العاصمة ، وثَرْمَدَا . أما وسط الوشم وشماله فأرضه غير خصبة ؛ ويبلغ عدد سكان الوشم نحو ١٥٫٠٠٠ نسمة ينتمون إلى بنى تميم وعنزة وهم يقطنون حوالى عشرين بلدة وقرية عدا القرى الصغيرة . وأشهر البلدان هى :

شقَرَا :

فى الجهة الجنوبية الشرقية ؛ يبلغ سكانها سبعة آلاف وسورها وأبراجها متهدمة منذ الحصار الذى أقامه عليها محمد الرشيد فى سنة ١٨٩١ م ، وبساتينها صغيرة بالنسبة إلى

مساحة المدينة ، وآبارها عميقة : ٦٠ — ٧٠ قدما ، ولكن ماءها لا ينضب حتى فى أيام الجفاف الشديد .

وقد كان لشقرا فى القرن الماضى مكانه تجارية عظيمة مع الهند وسوريا والعراق ؛ ولا يزال أهلها يجوبون مختلف الأقطار فى سبيل التجارة .

ثَرْمَدَا :

فى الجنوب الشرقى من شقرا ، وهى تكاد تكون مخربة مما حلّ بها فى سنة ١٩٠٣ ، حيث انحازت إلى ابن الرشيد . يبلغ سكانها نحو ١٥٠٠ نفس ، وبها قلعة وسوق ، وكثير من البيوت الجميلة ، وبها كثير من البساتين الواسعة ، وهى تروى من آبار عمقها من ٦٠ — ٧٠ قدما .

وُشَيقِر :

فى الجهة الشرقية بين وسط حافة النفود وواجهة طويق ، وهى على بعد بضعة أميال إلى الشمال الشرقى من شقرا . بها مزارع تروَى من آبار عمقها من ٥٠ — ٦٠ قدما .

المِذْنَب :

فى منتصف الطريق بين شقراء والقصيم ، وهى جملة قرى آهلة بالسكان منضم بعضها إلى بعض ، يبلغ سكانها نحو ٢٥٠٠ نفس ، وآبارها غير عذبة ، وبها كثير من القصور ، ولقربها من الوشم عُدت قسماً منه ، وبعض النجديين يعتبرها قسما قائماً بنفسه .

سُدَير :

هو القسم الواقع إلى شمال نجد الأصلية ، وتقع القصيم إلى شمالها وشمالها الغربى ، وخط الحدود يقع فى الصحراء على بعد عشرين ميلاً من وادى الرُّمَة بين الزِّلْفِى والمِذْنَب ، وإلى غربها تقع الوشم وخط الحدود ، ويمكن تقدير أبعادها بمائة ميل من الشمال للجنوب ، و ٩٠ ميلاً من الشرق إلى الغرب .

وسدير فى الواقع هى الجزء الشمالى من « طويق » وتحتوى على أول السلسلة التى تتجه نحو الجنوب الشرقى ، والجزء الرئيسى الذى يكوّن أغلب سدير هو السهل المرتفع الواقع فى الشمال فوق السلسلة الممتدة إلى الجنوب الشرقى . والقسم الأهول بالسكان هو المنخفض من هذا السهل

وهذه الوديان منفصلة بعضها عن بعض بحواجز صخرية ؛ والقرى هى فى الواقع واحات صغيرة منفصلة بعضها عن بعض ، وغير ذلك توجد مزارع مأهولة خارج الحد الشرقى من المرتفع ، وهى واقعة إلى شمالى وشرقى الزِّلْفِى والمجْمَعَة ، وأيضا يوجد بعضها إلى الجنوب

ولا يمكن تقدير عدد السكان بأكثر من خمسة وعشرين ألف نسمة ، وكل البلاد ذات الأهمية واقعة على الطريق الرئيسى وأهمها :

المجْمَعَة ، الزِّلْفِى ، الغاط ، جَلَاجِل ، التُّوَيْم ، الدَّاخِلة ، الروضة ، الحصون ، حَوْطَة ، سُدَيْر الجنوبية ، العطار ، العُودَة ؛ الخطامة ، عُشَيْرَة ، تَمَيْر

المجْمَعَة :

واقعة فى الشمال ، وهى فى الجانب الجنوبى من واد يجرى فى وادى المِشْجَر ؛ ويبلغ عدد سكانها نحو ٤٥٠٠ نفس ، وهى مسورة ، وفيها قلعة وأبراج ، وعمق آبارها يختلف بين ٣٥ — ٧٠ قدما ، وبها سوق فيه ٥٠ دكانا ، ويكثر فيها أشجار النخيل ، ويقيم الأمير فى بيت قريب من السور

الزِّلْفِى :

واقعة فى نهاية الطرف الشمالى فى سهل واقع بين الطويق فى الشمال الشرقى وأعالى النفود غربا ، وتنقسم إلى بلدتين يحيط بكل واحدة منهما سور . فالأولى واقعة فى عراء السهل ، والأخرى واقعة بين بساتين كبيرة واسعة على بعد ميل من الأولى . ويبلغ ارتفاع السور المقام حولها نحو ١٦ قدما ، وعليه ثلاثة أبراج يزيد ارتفاعها عن ارتفاع الحائط بنحو عشرة أقدام ، والبوابة مرتفعة وواسعة بحيث تسمح لراكب الجمل أن يدخلها وهو راكب جمله

والقسم الشمالى الشرقى منها دارس ، وفى والجزء الباقى تمتد الشوارع من الشمال إلى الجنوب ، والبيوت ذات الطبقتين قليلة ، وبها مسجد واحد .

ومجموع سكان البلدتين يبلغ نحو ٤٠٠٠ نسمة

الغاط :

سكانها نحو ١٥٠٠ نفس ، وفيها كثير من البساتين الكبيرة ، وهى على مسافة مسير يوم جنوباً من زلفى ، ونحو يوم إلى شمال المجمعة

جَلاجِل :

تقع على بعد ١٨ ميلا إلى جنوب المجمعة ، وتعلو عنها نحو مائتى قدم ، وهى مدينة مسورة ، وبها قلعة ، وبها بعض البيوت ذات الطبقتين ، وبها بساتين كثيرة جداً فاقت بساتين التُّوَيم التى تبعد عنها نحو خمسة أميال إلى الجنوب الشرقى ، ويبلغ سكانها نحو ٣٠٠٠ نفس

القَصيم :

وتقع الوشم فى جنوبها الشرقى ومنحدرات عُتَيْبة فى الجنوب الغربى ، ويحفها جبل شمر من الغرب والشمال والصحراء الشمالية ، وتبلغ أبعادها نحو تسعين ميلا من الشمال إلى الجنوب ، وستين ميلا من الشرق إلى الغرب

ويطلق على القسم الواقع فى الشمال الشرقى القصيم العليا ، وتتسرب المياه إلى آبارها من المرتفعات المحيطة بها ، وبخاصة من جبل شمر ، والقصيم ملأى بالقرى الآهلة بالسكان ومزارعها كثيرة جداً حتى أنها تشبه حديقة تحيط بها صحراء ، وتجود فى هذه الواحة المزروعات على اختلاف أصنافها ، ويقدر عدد القيمين فيها بصفة دائمة بمائة ألف نسمة

وتقع القصيم فى طريق القوافل من مكة إلى بلاد ما بين النهرين ، وسوقها التجارية نافقة ، وتعتبر بلاد القصيم أكثر بلاد العرب الداخلية اتصالا بالعالم الخارجى ، وأهلها من أذكى أهل نجد ، وأرقهم طباعا ، وأكرمهم خلقاً ، وأسخاهم يداً ، وأكثرهم أسفاراً

الخارج ، وأكثر التجار النجديين المعروفين فى مصر وسوريا والهند والعراق من أهل القصيم ، وبها بعض المدارس التى تعنى بالعلوم الدينية ، وبها بعض العلماء المتبحرين فى فنون الفقه والعربية .

ويبلغ عدد قرى القصيم نحو ٥٠ قرية ، والمدينتان الرئيسيتان للقصيم هما بُرَيْدَة وعُنَيْزَة ، وأغلب القرى تعتمد على بريدة ولذا تسمى بأم القصيم .

بريدة :

تقع فى الطرف الشمالى من القصيم العليا على الجانب الأيسر من وادى الرُّمة ، وهى من أكبر المدن النجدية وأحسنها نظاماً ونظافة ، وطرقها أوسع من الرياض ومن طرق أكثر البلدان النجدية واسكنها ملتوية ، ومبانيها من اللبن ، وهى كسائر البلدان العربية محاطة بسور يحمى البيوت والأسواق يبلغ ارتفاعه ١٥ قدماً ، وبساتينها خارج السور تمتد أكثر من ثلاثة أميال فى اتجاه وادى الرمة إلى قرية الخَبْرَا ، والمياه فيها متوفرة وغزيرة ولكنها ليست خالصة العذوبة ، وعمق الآبار يتفاوت من ٢٠ — ٤٠ قدماً ، وتطفو الرمال من وقت لآخر على البساتين .

ويقع سوقها فى الجهة الجنوبية من البلدة ، وبه نحو ٣٥٠ حانوتاً وهو مقسم إلى أقسام حسب نوع البضاعة ، وبها أيضاً سوق للجمال والغنم وبها ستة مساجد .

وبالشمال الشرقى القلعة الرئيسية للبلدة ، يبلغ ارتفاع الجدار ٤٠ قدماً ، بنيت بناء هندسياً جميلاً قبل ٦٠٠ سنة ، ويسمونها القصر أيضاً ، يسكن بها الأمير (العامل) ويسكن بها أيضاً الملك عبد العزيز وقت إقامته فى بريدة ويُرَبَّى فى بريدة وما يليها الإبل والغنم ، وهى تُكوِّن جزءاً من ثروة البلاد ، ويصدرون للخارج الزائد عن الاستهلاك المحلى ، وكذلك نعنى فيها بتربية الخيول وتصدر إلى الشرق والشمال .

ويبلغ عدد سكانها ٣٠ ألفاً أكثرهم من بنى تميم ، وهم ليسوا كأهل عنيزة فى الكرم ولين الجانب .

وتقع المدينة على مرتفع رملى ؛ وهى صحية جداً ، وأرضها خصبة ، وبساتينها كثيرة وتروى بسهولة .

عنيزة :

تقع إلى يمين وادى الرمة على بعد ميلين منه ، وتبعد عن بريدة نحو ١٢ ميلاً فى مكان خصيب يحفه النفود من الشمال ، ويحيط بالقسم الآهل من السكان من البلدة حائط داخلى ، وبه بساتين عامرة تمتد إلى الشمال نحو ميلين . وبيوت عنيزة أنظف وأحسن من بيوت بريدة .

وقد اشتهر أهل عنيزة بلين الجانب وبشاشة الوجه وحسن لقائهم للأجانب وهم مشهورون بالشجاعة والاستعداد التجارى بفطرتهم .

يبلغ عدد سكانها ٢٠ ألفاً — اشتهرت عنيزة ببعض الصناعات المدنيـة وتجارتها واسعة ، وبها عدد غير قليل من الأجانب (غير نجدى) .

وقد كانت عنيزة تنافس بريدة فى الأولوية والأهمية ، ولـكن بريدة سبقت عنيزة الآن .

ومن أشهر مدن القصيم :

الرَّسّ :

تقع فى القسم الجنوبى من القصيم على بعد ٥٠ ميلاً من بريدة فى الجنوب الغربى منها ، وعلى بعد ٤٠ ميلاً من عنيزة ، وفى جنوب غربى عنيزة على الحافة اليمنى لوادى الرمة ؛ تحيط بها البساتين من جميع جهاتها ما عدا الجهة الشرقية ، ولها مزارع واسعة فى بطن وادى الرمة وفى جهات أخرى .

ويبلغ سكانها نحو ٤٠٠٠ نفس ، وقد قاومت إبراهيم باشا سنة ١٨١٧ م مقاومة شديدة ، وبقيت مدة طويلة تحت الحصار قبل التسليم .

الْخَبْرا :

تقع على الحافة اليسرى من وادى الرمة على بعد نحو تسعة أميال شمالاً من الرس ، وهى بلدة مسورة نحو ٣٥٠٠ نفس ، وبها ســـوق يعقد كل يوم جمعة ، وبها ميدان كبير يجتمع به الناس فى وسط المدينة ، ويبلغ عمق آبارها حوالى ٥٠ قدماً .

العيون :

فى القصيم العليا على بعد ٢٨ ميلاً من شمالى غربى بريدة وهى واقعة فى منخفض. وتمتد نحو نصف ميل من الشمال إلى الجنوب

يبلغ سكانها نحو ٥٠٠٠ نفس ، وهى مكونة من قريتين متجاورتين ، تجارتها واسعة بها كثير من مزارع النخيل ، تروى من آبار يبلغ عمقها ٣٠ قدماً

قصَيْبَة .

تقع فى الشمال الشرقى من القصيم العليا فى مكان منخفض ، وبها مياه غزيرة ولكنها تميل إلى اللوحة ، وبها أيضاً عين حارّة ، وبها كثير من البساتين الواسعة المساحة ، وثمرها من أجود الأنواع فى نجد . يبلغ عدد سكانها ٣٠٠ نفس يسكنون فى أربع محلات متجاورة

جبل شَمَّر :

يطلق اسم جبل شمر على السهل الواسع الممتد بين جبلى أجا وسلمى ، والذى تسكنه قبائل شمر المشتغلة بالزراعة — ففى شعاب هذه الجبال توجد منابع عديدة للمياه ، والأرض خصبة صالحة للزراعة ، وفيها أشجار النخيل بكثرة حيث تنمو هنالك نمواً عظيماً .

وفى السهل الكبير المنبسط بين هاتين السلسلتين توجد منابع المياه بوفرة تحت طبقة الرمال والصخور ، فتجعل الأرض صالحة لأنواع شتى من المزروعات ، ولكنها فى موسم الحر تحتاج إلى ريها باستمرار .

وإمارة جبل شمر هى نجد يعلو عن سطح البحر ٢٢٠٠ قدم ، وبه رؤوس مرتفعات عالية أيضاً ، والنجد منحدر من الجنوب الغربى إلى الشمال الشرقى ، والمياه تنحدر فى أغلب الأوقات إلى وادى الرمة . وأهم الظواهر فى بلاد الإمارة هى سلسلة الجبلين المحاذيين لبعضهما : جبل أجا وسلمى ، وهما واقعتان فى شمالى الإمارة وتمتدان حتى طرف القاطعة أى أن اتجاههما من الجنوب الغربى إلى الشمال الشرقى ، وهما مكونان من حجر الجرانيت وارتفاعهما شاهق ؛ فإن جبل أجا يعلو عن سطح النجد نفسه بنحو ألف قدم . ويبلغ

ارتفاعه الأعلى فى أحد المواقع إلى ٥٥٠٠ قدم ، وتبلغ مساحة السلسلة حوالى ١٠٠ ميل طولاً وعشرين ميلاً عرضاً

أما جبل سلمى فإنه لا يقل ارتفاعاً عن جبل أجا ، ولكن مساحته أقل ، والمنطقة الجبلية تتجه غرباً إلى حدود النفود الجنوبية

ويوجد فى جبل أجا كثير من الحيوانات الوحشية والطيور ، والهواء فى الإمارة معتدل وصحى ، وتنزل أمطار غزيرة على أعالى الجبال ، وبذا توجد المراعى الخصبة الكثيرة . وينزل أوائل المطر فى شهر نوفمبر ، ودرجة الحرارة فى فصل الشتاء منخفضة

السكان

هم خليط من الحضر والبدو يبلغون نحو ٤٢ ألفاً . ويبلغ عدد الحضر منهم نحو اثنين وعشرين ألفاً ، والبدو نحو عشرين ألف نفس ، والسكان كأهل القصيم يميلون إلى التأنق ويغلب على طباعهم لين الجانب وإكرام الأجانب

المحصولات والتجارة

لا ينتج الجبل من المحاصيل الزراعية ما يكفى لقوت سكانه بالرغم من أن أكثر سكانه يشتغلون بالزراعة وتربية الماشية

وتصدر الولاية عدداً كبيراً من الخيول الجيدة والجمال والغنم التى تنتج نوعاً جيداً من الصوف

ويزرع فى الجبل النخيل وبعض أصناف أخرى من الفواكه

البلاد المشهورة

هى — كما سبق — الجزء الواقع بين جبلى أجا وسلمى ، وفيه تقع العاصمة « حايل » وعلى قرب منها إلى الجنوب الغربى تقع « قِفار » ، وهى قرية قديمة مشهورة واقعة على المنحدر الجنوبى لجبل أجا ، وبالقرب من جبل سلمى تقع مجموعة قرى منها : « فِيد » العاصمة القديمة . وفى شمال جبل أجا — بينها وبين النفود — توجد بعض واحات متفرقة

ولكنها غير مهمة . وتوجد أجزاء كثيرة فى المنطقة الجبلية ولكنها لا تسكن إلا وقت موسم الزراعة ، ولا توجد منطقة مأهولة باستمرار فى الجبال إلا منطقة واحدة فى جبل أجا تسمى « عُقْدة » ، وهو واد به جملة قرى ؛ ومزارع النخيل فيها كثيرة .

حايل :

تقع إلى الشمال الغربى من الوادى بين جبلى أجا وسلمى عند طرفه الشمالى ؛ والقسم الرئيسى من حايل يحيط به حائط من الطين ارتفاعه ١٥ — ٢٠ قدما ، عليه أبراج ذات شكل مستدير ؛ وقد بناه الأمير عبد العزيز الرشيد ، ويبلغ طول محيطه نحو ٣ أو ٤ أميال ، ولكن جزءاً كبيراً من الأراضى التى تقع داخل السور مزروعة قمحاً ومغروسة تيناً ، بينما يوجد جزء آخر ليس مزروعاً ولا مقاماً عليه أى بناء ؛ ولهذا السور خمسة أبواب .

وعلى بعد نصف ميل إلى شرق حايل وميلين أو ثلاثة من الجنوب تحت جبل أجا توجد بعض بساتين النخيل والقمح مسورة . وعدا النخيل يزرع الرمان والليمون الحلو والنارنج والبرتقال والبرقوق والتفاح .

والمياه اللازمة للبساتين أو للاستعمال تستخرج من آبار عمقها حوالى ٩٠ قدما بوساطة الجمال . وفى شمال المدينة حيث توجد مزارع النخيل تميل مياه الآبار إلى الملوحة قليلا ؛ وليس للمدينة مصدر آخر غير الآبار للحصول على المياه . وقد حلت الماكينات الرافعة للماء محل الحيوان فى كثير من الأماكن .

ويبلغ عدد السكان نحو ٥٠٠٠ نفس . ويجلب الأرز وباقى الحبوب إما من الهند أو من العراق .

فيد :

تقع على بعد ٤٥ ميلاً من شرق جنوب شرقى حايل على طريق بريدة ، وهى واقعة على منحدر جبل سلمى الجنوبى الشرقى ، وتمتد مزارع النخيل إلى ميلين أو ثلاثة ، وتزرع الحبوب بكثرة ، وسكانها نحو ١٥٠٠ نفس خليط من بنى تميم وشمر .

قِفار :

وهى ثانى مدينة فى الأهمية فى جبل شمّر ، وهى مساوية لحايل فى عدد السكان ، وواقعة فى البطن إلى الجنوب الغربى من العاصمة تحت منحدرات جبل أجا . والواحة كبيرة ، وشجر النخيل فيها كثير جداً حتى إنه يفوق نخيل حايل نفسها . وهى مأهولة ببنى تميم ، وهى واقعة على طريق تيماء .

عُقْـــدَة :

مجموعة قرى منتشرة فى مزارع النخيل فى وادٍ واقع إلى الجنوب الغربى من حايل ، يبلغ سكانها ١٨٠٠ نفس .

مُوقَق : بها نحو ١٢٠ بيتاً	مُسْتَجَدَّة : بها نحو ١٢٠ بيتاً
سَيْفان : بها نحو ٧٠ بيتاً	الغزالة : بها نحو ٦٠ بيتاً
الجُفْنَة : بها نحو ٥٠ بيتاً	الروضة : بها نحو ٦٠ بيتاً

تيماء :

بلدة صغيرة فى وسط (واحة) باسمها واقعة إلى الجنوب الغربى من النفود على بعد ٦٥ ميلا من شمالى العلاَ ، وهى واقعة فى منخفض من السهل المرتفع الذى يبلغ ارتفاعه ٣٤٠٠ قدم . والواحة مسورة بحائط من الطين ، وبها أبراج للدفاع مبنية من اللبن . وبالواحة أشهر عَيْن ماء فى بلاد العرب ، إذ يبلغ اتساع فُوهَتها أكثر من خمسين قدماً ، ومركب عليها سَوَانى من جميع الجوانب ، ومياهها غزيرة . وقد أمر جلالة الملك سعود بتركيب آلة كبيرة لرفع المياه توسيعا للمناطق القابلة للزراعة وتشجيعا للمزارعين .

وأرض تيماء خصبة وصالحة للزراعة ولزراعة النخيل ، ويزرع فيها القمح والشعير والأذرة والفواكه على اختلاف أصنافها ، وتمر تيماء جيد ويعتبر من أجود أصناف التمر .

عدد سكانها نحو ٢٥٠٠ نسمة ، وأغلبهم من ولد سليمان ، وبها بعض الموالى وبعض التجار من جبل شمر ، وبعضهم يحضرون لتصريف تجارتهم التى يجلبونها من بغداد وساحل الخليج ، والأهالى يبيعون محاصيلهم للبدو الرحل ، والهواء فى تيماء جيد جداً وصحى .

الجَوْف[1] :

هى المدينة الرئيسية وسط منطقة زراعية كبيرة واقعة إلى شمال النفود على رأس وادى السِّرْحان ، والواحة واقعة فى منخفض يقع نحو ٥٠٠ قدم تحت سطح الصحراء المحيطة بها

وتوجد واحات صغيرة أخرى تابعة لواحة الجوف ، واقعة إلى الشمال الشرقى منها فهى : سِكاكه ، وقادة ، والطَّوَيْر ، وجاوَه ؛ وسكاكه هى الأكبر ، ومزارع النخيل فيها تكثر جداً حتى أنها تفوق تلك التى فى الجوف نفسها

ويبلغ طول واحة الجوف نحو ٣ أميال فى نصف ميل عرضاً ، وهى تمتد من الشمال الغربى إلى الجنوب الشرقى ، وكلها حدائق وبساتين ، وبينها نحو ١٢ قرية وبها نحو ٤٠٠ منزل ، وليس بالقرية شوارع ولا أسواق

ومن مظاهر القرى هنا أن بعض بيوتها يقام إلى جانبه برج يبلغ ارتفاعه حوالى ٤٠ — ٥٠ قدما و ١٢ قدما عرض حائطه ، وله مدخل صغير وبه منافذ صغيرة ، وفى بعض البيوت يكون البرج جزءاً من البيت نفسه

وموقع الجوف الجغرافى مهم جداً ، لأنه يقع على الطريق المباشر ما بين سوريا ووسط بلاد العرب ، وهى منفصلة إذ تقع فى المنتصف ما بين الفرات وطريق الحجاز الحديدى ، وبين جبل شمر وجبل الدروز ، وعلى بعد نحو ٣٠٠ ميل من كل من هذه المواقع وهى الواحة الوحيدة الواقعة ما بين العقبة وبغداد

---

(١) الجوف : هو المسمى قديما دومة الجندل

الاحساء

كانت هذه المنطقة تسمى قديماً البحرين وهجر ، وكانت تطلق على المنطقة الممتدة من البصرة إلى عُمان . أما اليوم فتطلق الاحساء على المنطقة الممتدة على الساحل الغربى من خليج فارس ، من حدود الكويت الجنوبية إلى حدود قَطَر وعُمان وصحراء الجافُورة ، حيث يحدها من الغرب الصُّمَّان

الوصف الطبيعى

القسم الأكبر من الإحساء سهل صحراوى ، يرتفع فى الجهة الغربية عن ساحل البحر ، حيث تتشابه البلاد مع تهامة . ويوجد كثير من التلال غير المتصلة بعضها ببعض تستخدم كحدود للمناطق ، وترتفع الأرض فى القسم الداخلى إلى غربى المنطقة عن باقى السهل

ويوجد خط من التلال على طول وادى المياه وجبل الطّف ، ممتدة إلى الجنوب ، ويمتد مرتفع الصُّمّان الصخرى موازياً لساحل الخليج الفارسى ، متوسطاً بين الاحساء وبين الدّهْنا حيث يفصل هذا القسم عن نجد

وأهم أودية إقليم الاحساء هو وادى فَرُوق فى الجنوب الغربى ، وهو قسم من وادى المياه

والمنطقة الساحلية سبخة على العموم ، ويوجد بها عدد عظيم من الآبار ماؤها قريب من سطح البحر ، والمراعى وافرة أيضاً ، والأقسام الصحراوية من المنطقة آهلة بالبدو ، وأغنى بقاع المنطقة واحتا الاحساء ، والقَطِيف فى الجنوب حيث تكثر المياه من آبار وعيون وأنهار صغيرة تشبه البحيرات

---

(١) هذه المنطقة مشهورة بعيونها الفوارة (ارتوازية طبيعية وقليل وجود أمثالها فى العالم)

جو الاحساء

يشبه جو المناطق المنخفضة ، والقسم الشرقى من الاحساء يشبه جو تهامة ، وتزداد الحرارة فى بعض المناطق كالقطيف منها فى بعض المناطق الأخرى ، وتتراوح درجة الحرارة فى منطقه الاحساء ما بين ٤٠° إلى ١١٠° ف وتبدأ الحرارة فى الارتفاع من إبريل حتى تصل نهايتها فى شهرى يوليو وأغسطس ، وتهبط ابتداء من سبتمبر وموسم البرد ما بين نوفمبر ومارس

والقسم الأكبر من هذه المنطقة غير مزروع ، والقسم الخصب المأهول بالسكان المشغول بالزراعة يبلغ امتداده نحو ١٢ ميلاً إلى شرق الهُفوف والمبَرَّز ؛ غير أن هنالك مناطق أخرى مزروعة فى الشمال غير متصلة بعضها ببعض محاطة بالعيون

ومنطقة الاحساء مشهورة بمياهها الكثيرة فى المناطق المزروعة وعيونها العديدة الدافئة والحارة ، وجميع المنطقة تكاد تغص بالعيون ، والأرض لا تكاد تشكو الظمأ من كثرة المياه ، والطرق تمتد على شواطئ العيون ، والأشجار والخضرة أينما سار الإنسان . وقد ساعدت كثرة المياه على زراعة الأرز وغيره من الحبوب .

أما المحصول الرئيسى فى الاحساء فهو التمر : وهو أنواع كثيرة أفضلها النوع المعروف بالخلاص ، ويزرع بها أيضاً الحنطة والشعير .

وأشهر فواكه الاحساء : الأُتْرُنْج ، والليمون ، والخوخ ، والمشمش ، والرمان ، والعنب ، والتين . وفى الاحساء كثير من الخيل العربية ، وأفضل الحمير والبقر ، وفيها الإبل والغنم بكثرة . وفى الاحساء يطعمون البقر أنواع من الأسماك الصغيرة ، كما يعلفون بعض الحيوانات التمر القديم . وأشهر بلدان الاحساء هى :

الهُفُوف :

وهى قاعدة المنطقة فى الزاوية الجنوبية الشرقية من المنطقة المزروعة ، وتنقسم البلدة إلى ثلاثة أقسام : الكُوت فى الشمال الشرقى ، والرَّفْعة فى الشرق ، النّعاثل فى الجنوب والغرب .

والـكُوت[1] هو مقر الإمارة ، محوط بسور عظيم يبلغ ارتفاعه ٢٤ قدماً ، مشيد عليه أبراج عديدة بناها إبراهيم باشا لحماية البلدة . وقد كان الـكُوتُ مقراً للحامية التركية حتى سنة ١٣٣٠ هـ سنة ١٩١٣ م . ويبلغ عدد بيوت الـكوت نحو ١٥٠٠ بيت و بيوت الرِّفْعَـة نحو ٢٣٠٠ بيت ، وهى أعلى منطقة وأصحها ويسكن بهـا أهل الثراء والنبل من أهل الاحساء . أما النَّعَاثِل التى فيها نحو ٢٠٠٠ بيت ، فتحتوى على القسم الأكبر من الطبقات الفقيرة ، وتضم أكبر مسجد للشيعة ، وفى الجهة الشرقية من الـكُوت السوق وحوانيت التجارة ، ويفصل الـكوت عن النعاثل من جهة الجنوب غابة من النخيل .

ويحيط بباقى البلدة سور آخر يبلغ ارتفاعة ١٢ قدماً . وتبنى بيوت الاحساء فى الغالب من الحجارة والجص ولـكل بيت بئره ، وحائطه المرتفع لحمايته ، وطرق الاحساء ضيقة .

ويوجد خارج البلدة من جهة الشمال سوق الخميس وهو مكان يجلب إليه أهل البلد والبدو حاصلاتهم ومصنوعاتهم حيث تعرض فيه يوم الخميس .

يبلغ سكان الهُفُوف ٣٠٠٠٠ نفس ، وهم ما عدا النجديين المقيمين فى الاحساء مزيج من العرب ومن أجناس أخرى فارسية وتركية وكردية ، ويبلغ أهل السُّنَّة ثلاثة أرباع السكان والشيعة نحو الربع

٢ — المُبَرَّز :

يقع المبرز على بعد ميلين من شمال الهفوف ، مزروعة كلها من الغرب ، ومحاطة بسور متهدم ، له بابان من جهتى الشمال والجنوب . وتوجد خارج السور لجهة الغرب قلعة صَاهُود وتشتمل المبرز على خمسة أقسام : أكبرها العيون فى الوسط ، وفى الجنوب الغربى السوق والحوانيت التجارية ، ومبانى المبرز كمبانى الهفوف من الحجارة فى الغالب ويبلغ عددها ١٨٠٠ بيت ، يسكنها نحو ٩٥٠٠ نفس . والعمل الرئيسى لأهل المبرز هو الزراعة . وهنالك سوق يقصده البدو المجاورون كل يوم جمعة لقضاء حوائجهم الضرورية

واشتهرت الهفوف والمبرز بمركزهما العلمى والأدبى مدة طويلة فـكانتا مقصداً لطلاب

---

(١) الـكوت : القلعة (كلة برتغالية) كثر استعمالها بعـد دخول البرتغاليين خليج فارس واستيلائهم على بعض الأماكن

العلم من سائر أنحاء الخليج الفارسي ، وعلمائها مركز ممتاز في جميع بلدان الخليج الفارسي يقابلون بالإجلال والترحيب ، ويكرمون بأحسن أنواع الإكرام أينما حلوا

ومن العائلات التي اشتهرت بالعلم في تلك المنطقة عائلة آل مبارك ، ولا يزال أفرادها يحافظون على تقاليد العائلة من دراسة العلوم الدينية والأدبية

السكان

يبلغ سكان منطقة الاحساء نحو ٣٥٠ ألفاً ما بين حضر وبادية ، ويبلغ البدو نحو ثلاثة الأرباع ، والمميز الرئيسي بين السكان هو المذهب ، فالسكان ينتمون إلى المذهب الشيعي ، وإلى مذهب أهل السنة والجماعة حيث يكونون الأكثرية الساحقة في القطيف وتاروت وحيث يبلغون النصف في الاحساء

ولقد اختار بعض القبائل العربية الإقامة في بعض الأماكن بصفة مستديمة ؛ فعددٌ من قبائل بني خالد يبلغ نحو ستة آلاف يقيمون في جزائر المُسَلَّمِيَّة وجِنَّة وتاروت وفي قصر الصُّبيح والـكلابيّة والجشَّة في الاحساء ، وفي أم الساهك في القطيف ، وفي وادي المياه يقيم نحو ١٤٠٠ نفس من قبائل شتى ؛ وأهم العشائر الضاربة في منطقة الاحساء .

العِجْمان :

ويقيم منهم في منطقة الاحساء نحو ٤٥٠٠٠ ويقيمون في جنوب المنطقة .

آل مُرَّة	٨٠٠٠
بني خالد	١٢٠٠٠
بني هاجر	٦٠٠٠

العَوَازِم : الرَّشايدة : وهؤلاء يقيمون في شمال المنطقة .

أما قبائل الدواسر : السهول ، مُطَير ، سُبَيع ، عُتَيبة ، قحطان ، فإنهم ليسوا من قبائل الاحساء بل يأتون إليها لأغراضهم الخاصة .

نبذة تاريخية

كان يسكن هـذه المنطقة قبل الفتح الإسلامى خلق كثير، من عبد القيس و بكر بن واثل وتميم [1] ، وكانت إذ ذاك تحت حكم الفرس ، فوجه إليها الرسول صلى الله عليه وسلم العلاء بن عبد الله الحضرى حليف بنى عبد شمس ليدعو أهلها إلى الإسلام أو الجزية فأسلم أهلها العرب و بعض المجوس ، وصالحه الباقون على الجزية

وأول من عمر الاحساء وجعلها قصبة هجر أبو طاهر القرمطى [2] و بقيت الاحساء تتنازعها الأيدى الحاكمة ، وتعبث بها أيدى البدو إلى أن فتحها آل سعود فى دولتهم الأولى فساد الأمن وانقطع الفساد ، و بقيت فى حكمهم إلى أن انتزعها منهم المصريون بعد دخولهم الدرعية سنة ١٢٣٣ ، ثم استردها منهم الإمام فيصل ، و بقيت فى حكمه زمن ولايته وصدر ولاية ولده عبد الله ، ثم استولى عليها مدحت باشا فى سنة ١٨٧١ م وألحقها بولاية البصرة . وفى ٥ مايو سنة ١٩١٣ انقض عليها الملك عبد العزيز واستولى عليها وطرد الحامية التركية منها ؛ وباستيلائه عليها ساد الأمن وانقطعت غارات البدو على القوافل والسكان

٣ — القطيف :

تقع واحة القطيف فى الجهة الشمالية الشرقية من الاحساء ، ويحدها شمالاً وغرباً صحراء بَياض ، وجنوباً برّ ظَهران ، و يبلغ طول هذه الواحة ١٨ ميلا ، ومتوسط عرضها ٣ أميال ، وتقع مدينة القطيف فى الوسط ، و يرتفع سطحها بضع أقدام فقط عن سطح البحر

القسم الأعظم من المساحة رملى مشبع بمياه العيون العديدة فى المنطقة . أما القسم المزروع فينتهى بستة أميال جنوبى مدينة القطيف ، غير أن هنالك مناطق أخرى مزروعة غير متصلة ببعضها ، سيأتى الكلام عنها

وهواء القطيف كثير الرطوبة غير صحى و ينتشر فيها حمى الملاريا ، ولذا فإن العشائر التى تقصدها فى الصيف تفر منها أول الخريف ؛ لأنه فصل الحميات حسب تجاربهم

يبلغ سكان القطيف نحو ٣٠٠٠٠ نسبة ، وكلهم من الشيعة تقريباً ، وهنالك بعض

---

(١) و (٢) ياقوت .

العرب من بنى خالد يسكنون أم الساهك ، وقليـل من العرب الخلط — يطلق عليهم حُوَلَه — يسكنون فى مدينة القطيف

والزراعة وبالأخص زراعة النخيل هى العمل الرئيسى للسكان . والقسم الأعظم منه يصدر إلى عمان والبحرين والهند وفارس ؛ وأشهر بلدان القطيف :

١ — مدينة القطيف :

وهى (Giparro) القديمة التى كانت مخزناً كبيراً مشهوراً للأفاويه والعطريات الواردة من تاروت (Taroot) [(١)] ؛ تقع مدينة القطيف على خليج يشمل أيضاً جزيرة تاروت ، وتمتد المدينة على الساحل مسافة عشرة أميال ، منها ميلان شرقى المدينة خاليان ، وبهما أطلال قلعة قديمة ، وفى الشمال يوجد ثلاث قنوات متصلة بالبحر ، منها ممر يوصل إلى المدينة ، والبحر غير عميق ؛ ولذا فالسفن الكبيرة تلقى مراسيها بعيداً عن الساحل

ومن أقسام المدينة القلعة : وهو القسم المحصن من البلدة ، ويبلغ سكان المدينة وضواحيها ١٢ ألف نفس ، كلهم من الشيعة تقريباً ، وليس بها من أهل السنة إلا الأمير وحرسه وموظفو الحكومة وبعض التجار النجديين والاحسائيين

وقد مر الرحالة ابن بطوطة بالقطيف[(٢)] سنة ٦٣٢ هـ فوصفها بأنها مدينة كبيرة حسنة ذات نخيل كثير يسكنها طوائف من العرب وهم رافضة غلاة

٢ — سيهات :

على الساحل فى الجنوب الشرقى من عَنَك ، وهى كغيرها من المدن العربية مسورة بسور ضخم يضم نحو ٧٠٠ بيت ، وبها كثير من العيون الغزيرة ، وسكانها يعيشون على الزراعة

٣ — العُقَير :

ميناء فى الجنوب الغربى من مدينة القطيف ، تبعد عنها أربعة وستين ميلا وليس

---

(١) مدينة صغيرة شرقى القطيف

(٢) ضبطها ابن بطوطة بالتصغير . أما القاموس وياقوت فضبطاها بغير تصغير كما يلفظها أهلها الآن.

بالعُقير بيوت ولا سكان ، وكل ما فيها من المبانى هو الجمرك ، و بناء آخر (خان) لسكنى وكلاء التجار ، و يعتبر العقير ميناء الاحساء ونجد الجنوبية ، وأهم الواردات التى ترد إليه من طريق البحرين : الأرز والسكر والبن والمنسوجات بأنواعها

القبائل المجاورة للعقير هى النِّجبان ، آل مُرَّة ، بنو هاجر . وقد اشتهرت العقير فى السنوات الأخيرة بالاجتماعات السياسية التى كانت بين الملك عبد العزيزة والسير برسى كوكس المندوب البريطانى

٤ — جبَيْل :

ميناء فى شمال القطيف سكنه قبائل بُوعَيْنَين أصهار بنى خالد سنة ١٩١٠ على أثر مهاجرتهم من قَطر ، ولم يكن لهذا الميناء شأن يذكر حتى سنة ١٩٢١ م فإن الحرب الاقتصادية التى أعلنتها نجد على الكويت جعلت هذه الميناء تنمو نموا سريعاً ، وكثرت مبانيها ، وأضعفت شأن الكويت من الوجهة التجارية ، ويبلغ سكانها ٢٠٠٠ نفس

و بقرب جبيل جزيرة المسلمية على خليج بهذا الاسم ، على بعد خمسة أميال من رأس البدَيّع ، بها نحو ٤٥٠ بيتاً ، وسكانها من العمائر (فرع من بنى خالد) وهم يعيشون على استخراج اللؤلؤ والاتجار به

جزيرة جِنَّة :

جنوب المسلمية ، وسكانها كسكان سابقتها من بنى خالد ، يعيشون على استخراج اللؤلؤ والاتجار به

جزيرة بُوعَلى :

فى الجنوب الغربى من رأس البديع ، وهى غير مأهولة بالسكان ، تمتد ١٢ ميلا من الشرق إلى الغرب ، محاطة بمغاصات اللؤلؤ ، ويطلق على الساحل الغربى من الكويت إلى ظَهران اسم عَدَان ، كما يطلق اسم قَطَر على الساحل الممتد من العقير إلى اخوار بنى ياس ، كما يطلق أحياناً على القطيف اسم الخط

أشهر قرى مستعمرة القطيف عَنَك على الساحل تبعد أربعة أميال عن جنوب شرقى مدينة القطيف ، ونخيلها مملوك لبنى خالد

العَوَّامِيّة :

قرية محاطة بسور يضم نحو ٣٥٠ بيتاً فى الشمال الغربى من مدينة القطيف ، وفيها كثير من العيون الغزيرة المياة

الجَشّ :

جنوب مدينة القطيف ، وتبعد عنها أربعة أميال ، كما تبعد عن الساحل ثلاثة أميال محاطة بسور يضم نحو ٣٠٠ بيت ، وبها ثلاثة عيون تروى المنطقة

صَفْوَة :

فى الشمال الغربى من مدينة القطيف تبعد عنها ثمانية أميال ، محاطة بسور يضم نحو ٤٥٠ بيتاً ، وبها عين كبيرة تسمى دَارُوش يتفرع منها سبعة أنهر .

الدَّمَّام :

على الساحل الجنوبى الشرقى ، تبعد تسعة أميال عن مدينة القطيف ، وقد خربت فى القرن التاسع عشر ، ولكن عاد إليها العمران مرة أخرى بعد هجرة الدواسر من البحرين سنة ١٣٤٠ هـ ١٩٢١ م

حاكم منطقة الاحساء العام : هو الأمير عبد الله بن جُلُوى ابن عم الملك عبد العزيز ، وأحد صحبه المختارين الذين رافقوه فى مخاطراته العديدة ، ولا سيما فى انتزاع الرياض من آل رشيد ، وهو مشهور بالشدة والقسوة على المجرمين وأشرار البدو . وبعد وفاته عين جلالة الملك ولده الثانى سعود بن عبد الله حاكما على الإمارة ، ولقد كان إقليم الاحساء يضرب به المثل فى اختلال الأمن وفساد الإدارة فى أيام الحكم التركى ، فأصبح بعد حكم آل سعود كسائر البلدان النجدية يسوده العدل والأمان

ولقد طرأ على هذه المنطقة تطور عظيم بعد اكتشاف الزيت بها فشيدت المدن وشقت الطرق ونشأ عمران عظيم لم تعهده المنطقة من قبل كما ربطت المنقطة بالرياض بواسطة الخط الحديدى كما سيأتى شرح ذلك فى قصة الزيت .

الـكويت

اشتهر اسم الـكويت قبل الحرب العظمى بسنوات ؛ بسبب النزاع السياسي بين بريطانيا وألمانيا على السكة الحديدية التي كان الألمان يريدون أن تنتهي إلى الـكويت ، والبريطانيون يحاولون إحباط المشروع أو وقفه عنـد حدود ولاية البصرة ؛ صيانة لنفوذهم في خليج فارس ، ودفاعاً عن إحدى طرق الهند . وإن مركز الـكويت التجاري الحربي ، وقربها من مجرى الدجلة والفرات ، واتصالها الوثيق بنجد جعل لها مركزاً ممتازاً ذا أهمية خاصة

حدود الإمارة

تكون إمارة الـكويت[1] نصف دائرة على الساحل الغربي من رأس الخليج الفارسي ، وتقع جنوبي مملـكة العراق ، وشمالي مقاطعة الاحساء التابعة للدولة العربية السعودية ، تمتد حدودها الشمالية من أم قَصْر إلى سَفَوَان مارة قرب جبل سَنَام إلى الباطن . أما الحدود الغربية فتتبع الباطن إلى قرب الحَفْر ، حيث تتصل بالحدود العراقية والنجدية ؛ ومن هنا لك تتجه إلى الجنوب الغربي حيث تتصل أيضاً بالحدود النجدية . يبلغ طولها من الشمال إلى الجنوب نحو ١٨٠ ميلا ، ومن الشرق للغرب نحو ٢٥ ميلا

الوصف الطبيعي

تربة القسم الشمالي من خليج الـكويت خصبة ، وتربة القسم الجنوبي بعضها رملي وبعضها طيني ؛ وهي على العموم مقفرة خالية من الزراعة ، يوجد بها بعض التلال مثل تلال واره في جنوب مدينة الـكوَيت ، وتبعد عنها نحو ٣٥ ميلا ؛ وتلال مَنَاقِيش في غرب مدينة الـكويت ، تبعد عنها نحو ٢٥ ميلا

---

(١) في بروتوكول العقير ١٩٢١ عينت حدود الـكويت ونجد والمنطقة المحايدة بينهما .

وليس بمنطقة الكويت ماء جار ، ولكن بها آبار مبعثرة فى الصحراء يبلغ عمقها ٢٠ قدماً ، ولكنها ضاربة إلى الملوحة ؛ وربما كانت منطقة الجَهْرَة هى أغزر المناطق مياهاً .

وأهم أشجار الكويت السدر والنخيل ، وهناك أشجار متنوعة تستعمل للوقود ولمرعى الإبل ، أما الأعشاب فتجود إذا جاد المطر .

وأما الحيوانات فقليلة فى الكويت ، ويوجد منها الذئب والثعلب والغزال والأرنب .

الجو

جو الكويت على العموم معتدل ، يميل إلى البرودة إذا هبت الرياح الشمالية الغربية ؛ أما الصيف فيخفف وطأته نسيم البحر وبرودة الصحراء المجاورة السريعة ليلا ، وأعظم درجة الحرارة هى ١١٤° ف ، وأقل درجة هى ٣٥° ، وتشتد الحرارة من مايو إلى نوفبر ، والبرودة من ديسمبر إلى فبراير .

أما المطر فقليل فى الكويت ، وقد يجود بعض السنين فتخضر الأرض ، وينعم البدو ، ويخرج الأهالى للبر استجماماً للراحة واستمتاعاً بالخضرة .

السكان

يبلغ سكان الكويت الآن نحو ١٨٠ ألفاً ، يسكنون — عدا عمال النفط — مدينة الكويت ، ومنطقة الكويت التى تبلغ مساحتها نحو عشرين ألف ميل مربع قاحلة ، يسكنها عدد قليل من السكان فيما وراء المدينة .

أما عشائر الكويت فقد كانوا قبل سنة ١٩٢١ يبلغون نحو ١٥ ألفاً ، وقد التحق أكثرهم بنجد بعد بناء الهِجر وذيوع التعاليم الدينيه . وتنتمى العشائر إلى قبائل العَوَازم والرَّشايدة ، وقليل من الصُّلَبَة ، وبنى هاجر ، والعِجمان ، وبنى خالد ، ومُطَير ؛ وقد كان النجديون من حضر وبدو يقصدون الكويت لبيع الغنم والسمن والصوف وسائر الحاصلات النجدية ، وشراء جميع حاجاتهم منها ، ولكن الخلف دبَّ بين البلدين منذ سنة ١٣٣٩ هـ (١٩٢٢ م) لأسباب اقتصادية جعلت ملك البلاد العربية السعودية يأمر رعاياه بمقاطعة الكويت ، ولكن أعيدت العلاقات الاقتصادية والروابط الودية القديمة بين البلدين سنة ١٩٤٠ وهى الآن تحتل مكاناً مرموقاً بعد اكتشاف الزيت فى أراضيها ، وقد تضاعف عدد سكانها بسبب كثرة الوافدين عليها حتى بلغ ١٨٠ ألفاً أو يزيد

الصناعة والتجارة

البلاد الكويتية غير زراعية ما عدا الجَهْرة التى سيأتى وصفها فيما بعد ، وأهم ما يشتغل به السكان هو صيد الأسماك ، وأجود الأسماك ما يسمى بالزُبَيْدِى ، وهو يصطاد بالشبك الطويل ، وكثير من الأسماك أيضاً تصطاد بوساطة ما يسمى بالُحظور ، وهو عبارة عن حواجز من القصب تنصب على الساحل ، تدخلها الأسماك فى وقت المد فإذا جاء الجزر استطاع الصيادون إمساكها بسهولة — وطريقة الحظور منتشرة على طول الساحل البحرى

وقد كان للكويت شأن يذكر فى الغوص على اللؤلؤ حتى سنة ١٩٢٢ ، فقد بلغ عدد العمال ١٠٫٠٠٠ فى سنى الرخاء ، كما بلغ عدد السفن التى تستعمل فى الغوص نحو ٨٠٠ ، ولكن عدد السفن والعمال نقص كثيراً فى عشر السنوات الأخيرة ، بسبب التقاطع التجارى بين الكويت ونجد من جهة ، وللكساد الذى حل بتجارة اللؤلؤ ، ولا أظن عدد العمال الآن يبلغ ثلاثة آلاف .

وصناعة بناء السفن الشراعية من الصناعات التى اشتهرت بها الكويت ، وقد نافستها البحرين فى السنوات الأخيرة ، والخشب والحبال اللازمة لبناء السفن تجلب كلها من الهند ولا سيما من إقليم مليبار . وأكثر السلع التجارية تنقل بالبواخر ، غير أن السفن الشراعية لا تزال تقوم بقسط كبير من النقل بين الكويت والبصرة ، وبينها وبين السواحل العربية الأخرى .

وأهم هذه السفن البَغْلَة (wolaffuB) والبُوم والشُّوعِى . وتُحمل البغلة عادة نحو ٢٥٠٠ طرد بضاعة من التمر ، أو من أكياس الأرز . وتحمل البوم عادة نحواً من ٥٠٠ — ٦٠٠ طرد أيضاً ؛ وسفن الكويت الآن من هذا النوع . وقد بلغت قيمة تجارة الكويت قبل الحرب العظمى ٥٧٠٠٥٨ جنيهاً ، منه مبلغ ٣٧٠٨١٧ جنيهاً للوارد والباقى للصادر ، وللهند منه النصيب الأكبر والباقى موزع على جهات مختلفة .

وأهم الواردات : المنسوجات القطنية والحريرية ، والأفاوِيه ، والسكر والبن ، والشاى ، والحبال التى تستخدم فى السفن ، والزيوت ، والدخان ، والشعير ، والماء ويجلب إليها بالسفن الشراعية من شط العرب ، التمر ، والأخشاب .

أما الصادرات فهي : اللؤلؤ ، والسمن من البادية ، والخيول ؛ وقد قلّت الأنواع الأخيرة في السنوات الأخيرة : الجلود ، والصوف ، والتمر

وقد أسست الإدارة الجمركية في عهد الشيخ مبارك الصّباح ، فكانت مورداً للحكومة لم يكن موجوداً من قبل ؛ وقد زاد هذا المورد زيادة عظيمة أثناء الحرب العالمية ، غير أنه نقص في الخمس عشرة سنة الأخيرة بسبب المقاطعة التجارية التي وضعها ملك نجد على جارته الكويت وقد عادت الحالة الإقتصاديه إلى ما كانت عليه بعد زوال الجفاء بين البلدين وبعد العثور على البترول في صحاريها

وقد أسس في الكويت أثناء الحرب العالمية الأولى ، إدارة البريد والتلغراف ، فارتبطت الكويت بالعالم الخارجي ، وأصبحت تجارتها تتبع الحركة التجارية العالمية صعوداً وهبوطا

مقاطعات الكويت

ليست المقاطعات التي سنذكرها فيما يلي أماكن مسكونة كما يتبادر إلى ذهن القارئ ، بل هي صحارى مسكونة بالذئاب أحيانا ، وبالغزلان أحياناً أخرى ؛ ولولا أن الإفرنج عنوا بكتابة أسمائها على الخرائط المصورة ما اهتممنا بها . وأكثر هذه المقاطعات مَراعٍ طيبة إذا جاء المطر ، وأشهر هذه المقاطعات في الشمال : هي البَاطِن — في الزاوية الشمالية ، وهي قسم من الوادي العظيم المسمى بهذا الاسم ، وهي ملتقى الحدود العراقية والنجدية ؛ والشق ، والشُّقَيق ، والبَياح ، وقَرْعَة ، والمَرْو ، والزَّجْلة . وهذه كلها مقاطعات قفراء

والزَّوْر في الجهة الشمالية من خليج الكويت ، وهي عبارة عن تلال تمتد من الشمال الشرقي إلى الجنوب الغربي قرب الجَهْرة

وكَبْد ، قَرْعة ، قَارَه ، العَدّان ، الهَزِيم ، الدِّبْدِبَة ، أماكن قفراء أيضاً ، ينزلها البدو إذا جاء المطر

ولا نريد أن نطيل الكلام بذكر باقي المقاطعات أو الآبار التي يردها البدو ، والتي تعد من الكويت ، لأن ذلك يسوقنا إلى التطويل ويخرجنا عن الغرض الأصلي من الكتاب

جزر الكويت

١ — بُونيان :

فى الزاوية الشمالية الغربية ، وهى جزيرة خالية من السكان ، وقد كانت مثار نزاع بين شيخ الكويت والترك فى سنة ١٩٠٢ ؛ ويسكنها فى الصيف أفراد من القوازم لصيد الأسماك بالحظور

٢ — فِيلكه :

وتنطق كافها شيناً شأن أهل الكويت فى النطق بالكاف . فى الجهة الشرقية من خليج الكويت ، وتبعد عن مدينة الكويت نحو ١٥ ميلاً ، والمسكون من الجزيرة هو الساحل الغربى ، وباقى الجزيرة يكاد يكون خالياً من السكان

وسكان الجزيرة بعضهم عرب خلص ، وأكثرهم يغلب عليهم العنصر الفارسى ، وهم يشتغلون بصيد الأسماك واستخراج اللؤلؤ ، ويزرع بالجزيرة الحنطة والشعير ، والخضر ، والماء كثير بالجزيرة ، قريب من سطح الأرض

٣ — كُبَّر :

جزيرة غير آهلة بالسكان ، تبعد عن الساحل نحو ٢٠ ميلا

وبقرب الكويت بندر الشُّوَيْخ وهو أفضل مرسى للسفن فى الكويت ، وهنا لك جزر أخرى غير مسكونة تابعة للكويت لا أهمية لها

بلدان الكويت

١ — مدينة الكُوَيت :

هى عاصمة الإمارة ، على الساحل الجنوبى من خليج الكويت فى الجنوب الشرقى من البصرة ، وتبعد عنها نحو ٨٠ ميلا ، وفى الشمال الغربى من البحرين ، وتبعد عنها نحو ٢٨٠ ميلا ؛ تمتد على الساحل نحو ثلاثة أميال ، مع عرض يختلف ما بين ½ ميل ، وميل ونصف

وأرض الكويت غير مزروعة ، فلا ترى فيها ما تراه فى الاحساء من البساتين والخضرة لقلة المياه ، و بسبب نمو السكان فى الخمسين سنة الأخيرة تُركت مياه الآبار التى كان يعتمد عليها السكان وأخذ الناس ينقلون حاجتهم من الماء من شط العرب ، ولشيخ الكويت آبار خاصة يستقى منها أحياناً .

ومبانى مدينة الكويت كسائر المبانى العربية ، من الطين أو اللبن أو من الصخور البحرية . وأحسن المبانى قصر الشيخ ، وهو مبنى من الآجُر ، ومقام على ساحل فى وسط البلد تقريباً .

وسوق الكويت فى منتصف البلد تقريبا ء وليس فيه ما يستلفت النظر من فن البناء أو جمال العمارة ، و بالكويت مستشفى أسسه محسنو الأمريكان ، ومؤسسة للتبشير . وقد أدى المستشفى للبلد وللبدو الضار بين حول الكويت خدمات عظيمة ، أما التبشير فإنه قد فشل فشلاً عظيماً لا فى الكويت وحدها ، بل فى سائر الشرق الأدنى . وبها أيضاً مستوصف انجليزى يؤدى مهمته الخيرية على أتم وجه ، وبها مدرستان نظاميتان ، و بضع مدارس صغيرة تشبه الكتاتيب فى طريقة التعليم .

وبالكويت نحو خمسين مسجداً ، وأهمها ثلاثة مساجد ، وهى تميل إلى البساطة فى بنائها وأثاثها ، وليس لمساجدها منائر كمنائر القاهرة ، أو بغداد ، وأكثر السكان يسكنون فى المدينة ، وهم ينتمون إلى القبائل العربية الشهيرة ، وبجانب هؤلاء يوجد ٨٠٠٠ من أصل فارسى ، وعدد قليل من الموالى . وطرق الكويت ضيقة كثيرة التعاريج ، وأهم الطرق هو الطريق الذى يبتدئ من قصر الشيخ على ساحل البحر ؛ مخترقا السوق إلى خارج البلدة ، وقد أسست للبلدة بلدية من خمس عشرة سنة لتنظيفها وتنظيمها وإنارتها ، وقد أدت خدمات جليلة للبلدة فى هذه المدة القصيرة .

وفى العشر سنوات الأخيرة اختطت الكويت تخطيطاً جديداً كاد يطغى على المدينة القديمة وربما غدت الكويت فى طليعة البلاد العربية تقدما بما حباها الله من البترول الغزير

٢ — الجَهْرَة

قرية كبيرة على طراز البلدان العربية ، قريبة من خليج الكويت ، وتبعد عن مدينة الكويت بثمانية عشر ميلا بالطريق الغربى ؛ وهى أهم قرية زراعية بالأراضى الكويتية ،

وهى محطة للقوافل القاصدة البصرة ونجـد من طريق الحفر ، وموقعها مرتفع يطل على البحر ، فترى جميع السفن التى تمخر خليج الـكويت .

يبلغ عدد سكانها نحو ٦٠٠ نسمة يشتغلون جميعاً بالزراعة ، غير أن العدد يزيد عادة فى الصيف بما ينزل حولها من البدو .

وقد كانت الجهرة[1] قبل الإسلام مأهولة بالسكان ، غاصة بهم ، ولا تزال أطلال البلاد القديمة موجودة تحت الأنقاض ، وكثيراً ما يعثر على النقود القديمة ، و بعض الآثار عند حفر الآبار . وهـذه التلال القائمة على أنقاض البلاد القديمة تمتد إلى مسافة فرسخين من الشمال للجنوب ، وفرسخ ونصف من الشرق للغرب .

وإلى الشمال الشرقى من الجهرة على بعد أربعة عشر فرسخاً فى اتجاه البحر توجد الصُّبِّيَّة ، وكانت قديماً آهلة بالسكان[2] كما تدل عليه خرائبها ، ويشتق اسمها كما يقال من الصابئة ، ويقال إنها إحدى مدنهم التى بنيت بعد خراب بابل ، ويقال أيضاً إنهـا استمرت آهلة بالسكان والحضارة إلى زمن الخلفاء الأمويين ، حيث تقهقرت منزلتها وهجرها سكانها ، ويؤكد السكان أن بعض سكانها لا يزالون يعيشون فى خورستان ، ويقيم العرب فى هذه المنطقة زمن الصيف لهوائها العليل .

خلاصة تاريخية

ليس الـكويت تاريخ قديم معروف ، ويرجح أن تاريخه لا يتجاوز الثلثمائة سـنة . أما حكامها الحاليون آل صَبّاح ، فتاريخهم فى سكنى الـكويت لا يتجاوز سنة ١٧١٦ م ، وهى السنة التى تحالف فيها الشيخ سليمان بن أحمد رئيس آل صباح ، وخليفة بن محمد رئيس آل خليفة ، وجابر العُتْبى رئيس الجَلاَهِمَة ، فاستخلصوا الـكويت من الفرس وسكنوها ، وسيأتى فى الفصل الخاص بالبحرين ذكر انفصال آل خليفة عن الحلف ، واستقلالهم بالزُّبَارة وحكم البحرين .

أما المـكان الذى وفد منه هؤلاء الحلفاء ، فيظن أنه كان قريباً من شط العرب فى أم

(١) انظر تقرير حكومة الهند سنة ١٨٥٤ ، ولمع الشهاب النسخة الخطية بدار الـكتب البريطانية
(٢) لمع الشهاب .

قصر ، حيث كانوا يعملون هنالك للقَرْصَنَة ونهب السفن البحرية ، فقد كان هذا العمل هو السائد فى ذلك الوقت فى خليج فارس ، وهو يشبه غزو القبائل بعضهم لبعض فى البر .

وفى الخمسين سنة الأولى من تأسيسها نمت البلدة نمواً سريعاً فى السكان وفى الثروة وفى الأهمية . وتمكن آل صباح وحلفاؤهم ومؤازروهم من القبائل المجاورة فى تثبيت مركزهم وتقويته ضد بنى خالد الذين كانت لهم السيادة على جميع الشاطئ الشمالى الشرقى .

وقد زاد فى تقدم الكويت وعمرانها استيلاء الفرس على البصرة سنة ١٧٧٦ فقد كان ذلك مدعاة لهاجرة الكثيرين من السكان إلى الكويت ، والزُبارة وفى أثناء الاحتلال الفارسى تحولت تجارة البصرة الهندية مع بغداد وحلب وأزمير والآستانة إلى الكويت وما جاءت سنة ١٧٩٠ م حتى أخذت الكويت تشارك باقى موانى الخليج الفارسى فى التجارة ؛ وقد ساعد على ذلك احتلال عرب بنى عُتْبة البحرين سنة ١٧٨٣ ، فصارت البضائع ترد إلى الكويت من مسقط والهند والبحرين والقطيف .

وبعد استرداد الأتراك للبصرة انسحب عمال (الفابريكة البريطانية) فيها مؤقتاً إلى الكويت سنة ١٧٩٣ م لقيام بعض المشاكل مع الموظفين الأتراك .

وفى هذا الوقت حاول السعوديون غزو الكويت والاستيلاء عليها ، ففشلوا فى كل محاولاتهم .

وفى سنة ١٨٥١ زار السائح Stocqucler الكويت ، وهو يقول بأنه الأوربى الوحيد الذى زار هذه البقاع منذ أمد بعيد . ويقول إن المدينة فى زمنه كانت تمتد على الشاطئ نحو ميل ، وتحوى نحو أربعة آلاف من السكان ، وهو يظن أن الميناء ربما كانت استعملت أو اتخذت قاعدة للبرتغاليين ، بالنسبة إلى مركز الميناء المطل على مصب نهر العرب . والتى يمكن اتخاذها قاعدة لماكسة التجارة التركية وتجارة فنيس مع الهند . ويقول إن المدينة فى زمنه كانت تحكم بوساطة شيخ ، وليس لديه أية قوة مسلحة ؛ وكان يحصل ضريبة قدرها اثنان فى المائة على جميع الواردات .

عند ما وصل المصريون إلى شواطئ الخليج الفارسى فى محاربتهم للسعودين ١٨٣٨

— ٣٩ وضعوا مندوبا لهم فى الكويت ، وكانت وظيفته سياسية . وكان شيخ الكويت فى ذلك الوقت هو الشيخ جابر ، الذى كان على صلات طيبة مع الحكومة البريطانية إلى أن توفى سنة ١٢٧٦ ، وقد خلفه ابنه الشيخ صباح ، وفى أثناء حكمه قام الكولونيل « بلى (pany) » سنة ١٨٦٥ برحلته الشهيرة من الكويت ليقابل حاكم نجد فى الرياض ؛ وهو أول من لاحظ مستقبل الكويت التجارى . ويقول إن الكويتيين يعتبرون أحسن وأقدر بحارة بلاد الخليج الفارسى ، وهم محل ثقة فى أخلاقهم ومعاملاتهم . ومنذ خمسين سنة لم تكن ميناؤهم ومدينتهم شيئاً مذكوراً ؛ والآن أصبحت أهم موانى الخليج الشمالى ، ورئيسها له سمعة طيبة فى الداخل والخارج ، وإليه يرجع الفضل فى حسن الإدارة الداخلية ، والسياسة الحكيمة . فالضرائب المخفضة على الواردات ، والجو الصحى ، والسكان المتآخون ، وحسن الميناء ، وطرق المواصلات وقربها ؛ كل هذه العوامل حولت كثيراً من المتاجر إلى الكويت ، مما كان يرد بُوشِهر والبصرة[1] . وبالنظر إلى موقعها وحالتها السياسية كانت هذه الميناء هى المخرج البحرى الوحيد لجبل شمر .

وقبل أن تمضى عدة سنوات أخذت شركة الملاحة البريطانية British India Steam Navigation Com تجعل ميناء الكويت إحدى موانى الخليج التى تعرج عليها بواخرها ، فهذه الحركة أثارت غيرة السلطات التركية ، وجددت مخاوفهم من أن يكون تقدم ميناء الكويت سبباً فى إنقاص أهمية البصرة ، وعليه فقد عدلت الشركة عن جعل الكويت إحدى الموانى التى تعرج عليها بواخرها ، ولكن هذا العدول كان إلى حين ؛ فقد علمت بريطانيا أن الروسيا تنوى إنشاء محطة فحم هناك ، والمساعى كانت تبذل لدى الباب العالى للحصول على امتياز باسم الكويت ، كما سعت لبناء سكة حديدية من البحر الأبيض إلى الخليج الفارسى ، وهو مشروع لو تم لجعل للروس حقوقاً فى مياه الكويت الساحلية .

وانقاء لما يسعى إليه الروس ، عقدت بريطانيا سنة ١٨٩٩ م اتفاقاً مع الشيخ مبارك على منوال الاتفاق الذى عقدته بريطانيا سنة ١٨٩١ م مع سلطان مسقط ، فهذه الخطوة

---

(١) خطبة الكولونيل بلى فى الجمعية الجغرافية .

حركت عواهل الأتراك الذين اجتهدوا فى أن يثبتوا سلطانهم فى الكويت ، ولكن الشيخ مبارك قاومهم ، واستمر محافظاً على حسن علاقاته مع بريطانيا

وقد تميزت سنة ١٩١٠ بوصول بعثة سكة حديد بغداد إلى الكويت للبحث عن النقطة التى تنتهى إليها السكة الحديدية ، ولولا معاهدة سنة ١٨٩٩ لكان لهذا الحادث تأثير كبير فى تعريض مركز بريطانيا فى الخليج الفارسى لخطر كبير

وفى سنة ١٩٠٢ — ١٩٠٣ زار الكويت بعض الطرادات الروسية والفرنسية ، ولكن هذه الزيارة لم تؤثر فى الحالة المحلية كما أنها لم تؤثر فيما بين بريطانيا والكويت من صلات .

وحكام الكويت الحاليون سلالة جابر بن عبد الله الملقب بجابر الكبير ، الذى جاوز المائة ، وهم أبناء صَباح بن جابر بن عبد الله

واشتهر فى أوائل هذا القرن من هذه العائلة الشيخ مبارك الصباح ، فقد تسَنَّم هذا الأمير حكم الكويت على جثتى شقيقيه (محمد وجرّاح) ٢٥ من ذى القعدة سنة ١٣١٣ هـ — ١٨٩٦ م ، فأثار بذلك نزاعاً داخلياً استمر نحو تسع سنوات ، وقد عظم شأن الكويت فى أيامه ، وزاد عدد سكانها زيادة عظيمة ؛ وفى أيامه خرج الأمير عبد العزيز بن سعود واستولى على الرياض ، وغير مجرى تاريخ الجزيرة كما سيأتى فى تاريخ آل سعود

كان الشيخ مبارك طويل القامة ، أسمر البشرة ، قوى الذاكرة ، صلب الإرادة ، مستبداً ، طموحاً إلى نشر سلطانه ونفوذه على البلاد المجاورة ، ولكن الظروف لم تساعده . وقد اشتهر الشيخ مبارك بالتقلب وعدم الثبات على سياسة واحدة ، فقد كان يساعد آل سعود لإضعاف نفوذ الرشيد وخضد شوكتهم ، كما أنه كان يمد أحياناً إلى تقوية صلاته بالرشيد خوفاً من توسع آل سعود ، وكان لا يعف عما فى أيدى الناس ؛ فقد كان يتوسل بأوهى الأسباب لفرض الضرائب على الناس وابتزاز أموالهم ، ولكنه كان بجانب ذلك غيوراً على مصالح الكويت مدافعاً عنهم أينما حلوا ، وقد خرج فى أخريات أيامه على تقاليد العرب والدين ، فكان يجاهر بالمعصية حتى فى رمضان ، مما جعل أهل الكويت يضجون منه .

لقد حاول الأتراك فى سنة ١٨٩٧ أن يستولوا على الكويت ، وينفوا الشيخ مباركا إلى الآستانة ، ولكنه أحبط هذا المشروع بما بذله من المال فى البصرة وبغداد ، غير أنه فى سنة ١٨٩٨ أرسل إليه الأتراك وفداً مؤلفاً من كبار الموظفين وبعض أعيان البصرة على إحدى السفن الحربية القديمة لنقله إلى الآستانة حيث عين عضواً فى مجلس شورى الدولة ، فالتجأ إلى الإنجليز فأنقذوه من الأتراك ، وأعلنوا فى تلك السنة حمايتهم على الكويت

وقد أخبرنى الشيخ مبارك والسيد رجب النقيب بهذه القصة للدلالة على قصر نظر الأتراك ، وسعيهم الدائم لإضعاف العرب ، مما اضطر هؤلاء إلى الالتجاء إلى الدول الأجنبية غير أن بريطانيا اضطرت إلى إعلان الحماية إبعاداً لكل نفوذ أجنبى على الكويت ، نظراً لظهور الروس فى الميدان

واجه الشيخ مبارك فى أوائل حكمه كثيراً من الصعاب التى يقيمها فى وجهه أبناء شقيقيه الشيخ محمد بن صباح وجرّاح ، والشيخ يوسف بن ابراهيم نصيرهما ، فأوعز الأتراك إلى عبد العزيز بن الرشيد بمناوأة مبارك ، فأخذ يغير على أطراف الكويت ، كما أخذ مبارك نفسه يغير على أطراف البقاع التابعة لأمير حايل ، ففى سنة ١٩٠٠ غزا مبارك بعض جهات تابعة لعبد العزيز آل رشيد ، وسلبهم آلافاً من الجمال ، وفى خريف هذه السنة حاول مبارك أن يقتنص قافلة كبيرة إلى العراق ، كانت مكلفة بإحضار مواد غذائية ، وملابس وذخيرة لفصل الشتاء من السّماوَة ، ولكنه فشل فى ذلك . وفى ذى القعدة سنة ١٣١٨ — ١٧ مارس سنة ١٩٠١ كانت معركة الصَّرِيف ؛ التى انكسر فيها مبارك نفسه بعد أن قتل فيها أخوه وأحد أولاده ، كما قتل فيها عدد كبير من أهل الكويت ، وقد حاول ابن الرشيد فى خريف هذه السنة أن يتقدم ويستولى على الكويت ، ولكن الظروف الداخلية والخارجية لم تساعده على تنفيذ خطته ، فالثورات الداخلية ، وسياسة بريطانيا فى الخليج قضت على هذه المحاولات ، وقد استراح الشيخ مبارك بعد قتل عبد العزيز بن الرشيد سنة ١٩٠٥ ، وموت عدوه الألد الشيخ يوسف ابن إبراهيم سنة ١٣٢٣ فى السنة نفسها ، فلم يَعُدْ له خصوم يؤبه لهم ، وأصبح السيد المطاع فى الكويت

وفى سنة ١٩٠٣ زار الكويت اللورد كيرزون فى رحلته إلى خليج فارس ، وعلى أثر هذه الزيارة عينت الحكومة البريطانية وكيلا سياسياً للكويت ، فاحتج الأتراك على هذا التعيين الماس بسيادتهم على الكويت ، ولكن لم يكن له أى أثر .

وقد توفى الشيخ مبارك فى مساء الإثنين ٢٠ محرم سنة ١٣٣٤ — ٢٩ نوفمبر سنة ١٩١٥ ، فتولى إمارة البلد بعده أكبر أبنائه الشيخ جابر بن مبارك الصباح ، وقد اشتهر بطيبة القلب وحب الخير ، والرفق بالناس ، فخفف الضرائب ، وأزال كثيراً منها مما فرضه أبوه ، وحسن صلاته بابن سعود ، وكان قد أصابها شىء من التصدع أواخر أيام مبارك .

وفى الخامسة من فبراير سنة ١٩١٧ توفى الشيخ جابر بن مبارك ، فأسندت إمارة الكويت إلى أخيه الشيخ سالم بن مبارك .

كان الشيخ سالم شجاعاً يجيد الرماية وركوب الخيل ، ملماً بشىء من الفقه وبعض قواعد النحو ، وكان طبعه يميل إلى العناد والشدة ، ولم يكن موفقاً فى سياسته مع ابن سعود ، ولا مع الحكومة البريطانية لظنه أنها كانت تمالئ ابن سعود عليه .

وقد اشتبك فى معارك حربية مع الإخوان النجديين كانت الغلبة فيها للاخوان ، ففى حمض هاجم الدّويش ومُطَير سنة ١٣٣٧ هـ — سنة ١٩١٩ م معسكر ابن صباح ، واستولى على ما فيه من مال وذخيرة . سنة ١٣٣٨ هـ — سنة ١٩٢٠ م هاجموا الجهرة وحاصروا الشيخ سالما فيها ؛ وكادوا يقبضون عليه ، وفى السنة التالية توفى الشيخ سالم بن مبارك ، فاختار الأهالى ابن أخيه الشيخ أحمد جابر ، وهو رجل فى غاية الذكاء يميل إلى الأناة والتبصر فى أعماله ، كما يميل إلى البساطة ، وقد قابل الأهالى بدء حكمه بحماسة وارتياح وفى أيامه ازدهرت الكويت بما أفاء الله عليها من الزيت الغزير وقد وطد علاقاته مع نجد ومع أمراء الخليج عامة وهو محبوب من رعاياه ومن الحكام المجاورين .

وقد توفى سنة ١٩٥١ فتولى الإمارة ابن عمه الشيخ عبد الله السالم .

لقد كانت العلاقات الاقتصادية بين نجد والكويت على أسوأ ما يكون بين البلدين

واستمرت نحو عشرين سنة . وقد أثرت هذه الناحية الاقتصادية على ما بين البلدين والعائلتين الحاكمتين من روابط تقليدية .

وفى محرم ١٣٥٩ — فبراير ١٩٤٠ أوفدنى جلالة الملك إلى الكويت لحل هذا النزاع الذى طال عليه الأمد . وقد حثنى على بذل الجهد وجميع المساعى للوصول إلى اتفاق يضمن مصالح الفريقين المتجاورين والصديقين القديمين ؛ والكويت لها فى قلب الملك عبد العزيز ذكر ماثل وأثر لا يزال وسكناها فى صغره أصبحت قسما من تاريخه .

ومن جهة أخرى فإن الكويت وأهلها وأمراءها تربطنى بهم صلة ود لا تنفصم ، فقد حانت الفرصة للقيام بواجب نحو أصدقائى ونحو مليكى المحترم .

وقد وفق الله الوصول إلى هـذا الغرض ، فبعد مفاوضات بينى وبين الوكيل السياسى بالكويت استمرت نحو أسبوعين أمضينا فى ٢٦ محرم سـنة ١٣٥٩ — ٥ مارس ١٩٤٠ ثلاثة اتفاقات هامة .

(١) معاهدة صداقة وحسن جوار .

(٢) معاهدة تجارية .

(٣) اتفاقية لتسليم المجرمين .

ويجب أن لا يفوتنى وأنا أسجل هـذه الحوادث للتاريخ التنويه بخدمات وحسن مساعى مندوبى الحكومة البريطانية فى جدة والكويت وموظفى حكومة جلالة الملك عبد العزيز ، فإنهم فى العشرين سنة الماضية ، قد خطوا فى سبيل التفاهم خطوات واسعة لولاها ما تمكنت من الوصول إلى الغاية المنشودة .

ولا شـك أن الروح الطيبة التى كان دائما يمليها جلالة الملك عبد العزيز على مندوبيه كانت أكبر معين .

امارة البحرين

يطلق اليوم اسم إمارة البحرين على مجموعة الجزر الواقعة فى وسط الخليج الفارسى منفصلة عن ساحل قَطَر والقَطِيف ، وهى الجزر التى كانت تسمى (Tylos) ، وهى جزيرة البحرين ، وجزيرة المُحَرَّق وأم نَعْسان وسِتْرَه ، مع عدد من جزر صغيرة صخرية لا أهمية لها .

الجـــو

جو البحرين قرب السواحل وفى المناطق المزرعة حار رطب لا يكاد يحتمل ، ولقد كانت البحرين حتى سنة ١٩٢١ موبوءة كالقطيف بالحميات ، ولكن منذ السنة المذكورة قامت إدارة البلدية بمجهود كبير فى ردم المستنقعات والبرك ، فتحسنت حالها تحسناً محسوساً ، وأقصى درجة الحرارة ١٠٤° فى أغسطس ، وتنخفض الحرارة فى ديسمبر و يناير إلى ٤٨° ، والجو من أكتوبر إلى أبريل مقبول نوعا ، فالحرارة تتراوح من ٦٠ — ٨٠° ف وفى يناير وفبراير تهب الرياح الشمالية فيبرد الجو ، ويستعمل الناس النار فى منازلهم للوقاية من أذاه ، وفى مايو ومنتصف يونيو يهب نسيم البحر فيخفف من شدة الحر ؛ أما من منتصف يونيو إلى آخر سبتمبر فإن الحرارة لا تكاد تنخفض عن ١٠٠° ، وعندئذ تكاد الأنفاس تنقطع ويكاد العرق لا يجف ليلا ولا نهاراً ، ولا يلطف الهواء إلا نسيم البر ولكنه قليل والأمطار قليلة فى البحرين ، وموسم المطر من منتصف أكتوبر إلى منتصف مايو .

والرياح التى تهب على البحرين ، هى البارح ، وهى رياح شمالية غربية ، ومدتها أربعون يوماً تبتدئ من الأسبوع الثانى من يونيو ، وتكون شديدة هوجاء فى الشتاء حين تهب من الشمال ، وهذه تهب على البحرين من وقت لآخر فى غير شدة ثم الرياح الجنوبية الغربية يسمونها القوس ، وهى إذا هبت فى الصيف اشتد الحر ؛ ولا سيما فى شهر أغسطس ، وهى تهب بغير انتظام من ديسمبر إلى أبريل .

السكان

يبلغ سكان البحرين حسب إحصاء ١٩٥٠ : ١٠٩٦٥٠ . الثلثان من أهل السُّنّة والثلث من الشيعة . وأكثر الشيعة من القرويين ، كما أن أغلب أهل السنة من أهل المدن : وأكثر أهل السنة من الحُوَلة الذين يسكنون فى المنامة والمحرّق والبديع والحدّ ، وهم يشتغلون بالتجارة وليس بينهم رابطة اتحاد أو نفوذ على غيرهم .

أما العُتُوب (بنى عتبة) والسادة والدواسر فهم أكثر القبائل نفوذاً فى البحرين ، فبنو عتبة لهم بالعائلة الحاكمة صلة النسب ، والسادة نفوذهم مستمد من اتصال نسبهم بالنبى الكريم ، والدواسر نفوذهم مستمد من سلوكهم الحسن فى الجزيرة ، ومن ثروتهم التى اكتسبوها من التجارة . وهنالك بعض قبائل أخرى تنتمى إلى بنى خالد .

وأغلب السكان السنيين يسكنون على السواحل ومعيشتهم مرتبطة بالبحر أكثر من الزراعة ، وهنالك أيضاً عدد من الموالى لا يقل عن ٦٠٠٠ نفس ، وجالية صغيرة من الإيرانيين والهنود .

والحياة فى البحرين تختلف عنها فى جزيرة العرب ، فليس فى البحرين كما فى جزيرة العرب روح التعصب لعدم مصاهرة غير العرب إلا فى العائلة الحاكمة فقط ، وليس فى البحرين كما فى الجزيرة البعد عن الكماليات ، وتجد فى البحرين أثر الروح الفارسية والهندية فى المأكل والبناء ، وفى الملابس وبعض العادات الأخرى .

الصناعات والتجارة

أهم الصناعات فى البحرين هو الاشتغال باستخراج اللؤلؤ من البحر ، والبحرين تلى عمان فى الأهمية من حيث كثرة السفن وعدد الغواصين . والغواصون وإن كان منهم عدد غير قليل يفد من الاحساء ونجد ، فإن التجار الذين يمدونهم بالمال من تجار البحرين .

لا يقل عدد المشتغلين باستخراج اللؤلؤ عن عشرين ألف نفس ، ويبلغ عدد السفن نحو ٩٠٠ سفينة صغيرة وكبيرة ، وموسم الغوص يبتدئ فى مايو وينتهى فى أكتوبر حيث يبرد ماء البحر .

وقد تداخلت حكومة البحرين فى عشر السنوات الأخيرة فى عمل الغوص والتجارة ؛ فبعد ما كانت التجارة حرة فى السنين الطويلة ، أوجبت الحكومة على التجار تنظيم دفاترهم كما حددت أرباح السُّلف ، وكما حالت دون تحكم التجار فى الغواصين الصغار ؛ والحالة على العموم فى البحرين خير منها فى بعض السواحل الأخرى . وقد جهزت حكومة البحرين سفينة أعدتها بكل المعدات الطبية لمساعدة المرضى وتخفيف آلام الفقراء من سكان البحرين ، والمشتغلون باستخراج اللؤلؤ قد يشتغلون فى غير موسم الغوص بصيد الأسماك إما بالشبك أو بالحَظْرة .

ويشتغل عدد كبير بالزراعة ، ولا سيما فى السنوات الأخيرة حيث أكثر الأغنياء من حفر الآبار الارتوازية .

وأهم حاصلات البحرين : التمر ، الليمون ، الاترنج ، التين ، البطيخ ، ويزرع بها بعض الخضراوات .

وأهم الصناعات اليدوية فى البحرين : نسيج الشُّرع للسفن ، والعباءات وبعض أنواع أخرى من الأقمشة ، الحصر الذى يصنع من سمار الاحساء ، وبناء السفن من الأخشاب التى تستحضر من الهند خاصة لذلك ، وكثير من هذه السفن يصنع لقَطَر وعمان .

ولقد تقدمت التجارة فى البحرين فى الخمس عشرة سنة الأخيرة بسبب بناء رصيف للسفن الشراعية ومستودعات للبضاعة . وقد أصبحت البحرين بالنظر إلى مركزها الجغرافى سوقاً هاماً لتجارة اللؤلؤ وغيره من أنواع المتاجر الأخرى . فتجار اللؤلؤ من الكويت وقطر والقطيف وسائر السواحل العربية يبيعون فيها ما يجتمع لديهم من اللؤلؤ ، حيث يصدر بعد ذلك إلى الهند فأوربا . وقد بلغت قيمة ما صدر منه فى سنى الرخاء مليونين من الجنيهات . وأما المتاجر الأخرى فترد للبحرين من الهند وأوربا ، ومنها يصدر إلى القطيف وقطر والعُقير حيث يرسل للاحساء وجنوب نجد .

وأهم واردات البحرين : الأرز ، والمنسوجات ، والسمن ، والبن والتمر ، والسكر ، والشاى ، والدخان ، والأفاوية ، والوقود ، والأغنام للذبح .

وأهم الصادرات : كان اللؤلؤ أهم صادرات البحرين . أما اليوم فإن البترول قد حل محله وأصبح له المكان الأول فى ثروة البحرين ولا يوجد صادر آخر ذو قيمة غيره ، وتكاد الهند تستولى

على أكثر من نصف الورادات ، والبلاد الأخرى — فارس والعراق وأوربا — تستولى على النصف الآخر .

وتنقل السلع التجارية من الهند بوساطة الشركة الانجليزية الهندية وهى تكاد تحتكر تجارة الخليج وتمر أسبوعياً بالبحرين فى طريقها إلى البصرة ، وفى رجوعها إلى بمباى ، وقد أصبحت البحرين منذ سنين مركزاً من مراكز الطيران المدنى ، فأصبحت الطائرات تمر بها كل أسبوع فى طريقها إلى الهند أو أوربا ، وأصبح فى وسع المسافر أن يصل إليها فى أربعة أيام من لندن ، ويوم ونصف من الهند أو مصر .

جزيرة البحرين

أو (أوال) كما كان يسميها العرب[1] أكبر جزر الإمارة وأهمها ، كثيرة المياه ، خصبة التربة ، قابلة للنمو والتقدم ، ويمكن زيادة المناطق القابلة للزراعة فيها إذا نظم الرى ، وجبيت الضرائب بالعدل ؛ وقد اتسعت المساحة الزراعية فى العشرين سنة الأخيرة ، وأكثر الناس من حفر الآبار الارتوازية . وازدادت حركة شراء الأراضى سواء كان للبناء أو للزراعة ، بعد أن بحثت شركة الزيت الأميركية فى استنباط البترول من أراضيها .

يبلغ طول الجزيرة ٣٠ ميلا ، وهى على العموم مسطحة ومنخفضة ، ولكنها ترتفع تدريجياً إلى نجد داخلى يبلغ ارتفاعه، من ١٠٠ — ١١٠ أقدام .

ويزرع فى الجزيرة ما عدا النخيل ، الليمون ، والرمان ، والتوت ، والتين ، والبطيخ ، والأترج ، وأنواع الخضراوات .

ويقال إنه كان بالبحرين ثلثمائة قرية ، وسواء كان هذا القول صحيحاً أم مبالغاً فيه ، فإن قرى البحرين اليوم لا تتجاوز المائة ، وهى أشبه بالأكواخ . ويوجد فى بعض القرى المملوكة للعائلة الحاكمة ، أو كبار التجار بيوت مبنية بالحجارة ، ومنظمة تنظيما حسناً ، وهى معدة فى الغالب لفصل الصيف .

وقد احتل البحرين البرتغاليون كما احتلوا القطيف ، واحتكروا جزءاً كبيراً من

---

(١) ياقوت . القاموس المحيط .

اللؤلؤ وتجارة الخليج الفارسى ، ولا يزال فى الجزيرة بقايا خزانات مما شيّده البرتغاليون ولكنها تداعت كلها كما تداعى بناء القلعة التى بنوها لحماية الميناء التى هجرت واتخذت بدلا منها المَنَامَة

ويوجد على الشاطئ الشرقى من الجزيرة خرائب مدينة كبيرة يقال لها جَوْ (Jow) كانت مقرًّا لشيوخ البحرين ، ولكنها تركت سنة ١٨٠٠ لأن مرفأها غير أمين ، ورحل سكانها إلى جزيرة المحرق

بلدان البحرين

المنَامَة :

عاصمة البحرين التجارية على الساحل الشمالى الغربى من الجزيرة ، ولكون البحر ضحلا عند المنامة تقف البواخر على بعد أربعة أميال لتفرغ شحناتها فى السفن الشراعية التى بدورها تنقلها للساحل ، وفى وقت الجزر لا تستطيع السفن أن تقرب من الساحل ، وقد أنشئ فى الخمس عشرة سنة الأخيرة رصيف على ساحل البحر يمكن السفن أن ترسو بالقرب منه

وقد أنشئ بالمنامة بلدية سنة ١٩٢٠ م ، فقامت فى الخمس عشرة سنة الماضية بخدمات جُلّى للبلد ، فشيدت طريقاً على ساحل البحر ، وغرست الأشجار على الطريق الخارجى ، ووسعت الطرق الضيقة الملتوية ، كما قامت بنصيب وافر فى سبيل تنظيف البلد ، وقد نجحت البلدية فى إنارة البلدة بالكهرباء كما ربطت المنامة بالبحرين بجسر يسهل الاتصال بين الجزيرتين : وبالمنامة ما يزيد على ٥٠٠ دكان ، وكثير من البيوت التجارية الأوربية والهندية . وبالبحرين أيضاً بعثة أمريكية ، ومستشفى أمريكى قام بخدمات تذكر فى سبيل الإنسانية .

يبلغ سكان المنامة ٣٩٦٩٨ أكثرهم من أهل السنة ، وبها أيضاً نحو ألف من غير المسلمين : هنود ونصارى شرقيين ، وقليل من الأوربيين

ويستقى فقراء المنامة من بئر تسمى عين مُقْبِل ومن مستودع آخر للماء يسمى القفول فى غرب البلدة . أما غير الفقراء فيشربون من ماء الرَّفَّاع الشرقى أو الغربى حيث ينقل

بوساطة الجمال ؛ وأما الماء المستعمل للتنظيف فكل بيت لا يخلو من بئر .
هذا ما كان فى الماضى أما الآن فأكثر البيوت والأماكن التجارية قد وصلت إليها المياه بواسطة الأنابيب محافظة على صحة السكان

البديع :

قرب الزاوية الشمالية الغربية من جزيرة البحرين تمتد ميلا على السواحل ، ويبلغ عدد سكانها نحو ٨ آلاف نفس أكثرهم من قبائل الدواسر ، ويشتغل أكثرهم بتجارة اللؤلؤ والعمل على استخراجه

وقد وقع خلاف بين حكومة البحرين والدواسر فى أواخر سنة ١٩٢٣ م فجلا الدواسر من البديع إلى الدمّام ، وبعد سنتين رجع قسم منهم إلى البحرين بعد استرضاء حكومتها لهم . وأهم قرى البحرين :

البلد القديم :

فى الجنوب الغربى من قلعة المنامة على ميل ونصف منها ، وسكانها من البَحَارنة[1] ، ويشتغلون بالزراعة وتجارة اللؤلؤ والخياطة ، وعدد سكانها نحو ٤٠٠ ، وأكثر بيوتها مبنى بالطين ، وفى الجهة الشمالية الغربية يوجد سوق الخميس نسبة لليوم الذى يقام فيه السوق ، وعلى بعد نصف ميل من القرية فى الجهة الغربية توجد عين أبو زيدان ، وبجوارها مدرسة متهدمة بهذا الاسم ومنارة يهتدى بها ، وبها عدد كبير من أشجار النخيل

عَسكر :

قرية على الشاطئ الشرقى تبعد عن جبل الدُخَان أربعة أميال ونصف ، وسكانها من بُوعَيْنَيْن

بورى :

فى الجنوب الغربى من المنامة تبعد عنها سبعة أميال وسكانها من البَحَارنة ، وبها عدد كبير من النخيل لا يقل عن ١١ ألف نخلة

---

(١) تطلق هذه الكلمة على سكان البحرين

جدّ حَفص :

فى الجنوب الشرقى من القلعة البرتغالية المخربة (قلعة العَجّاج)، تبعد عن المنامة بثلاثة أميال ونصف ، وهى من القرى الكبيرة فى البحرين ، وسكانها من البحارنه المشتغلين بغرس النخيل والتجارة وإحراق الجص وتجارة اللؤلؤ ، وبها من النخيل ما يتجاوز ١٦ ألف نخلة ، وبها أيضاً بساتين جميلة يغرس فيها الأترج والفواكه ، وتزرع الخضر بأرضها كما يزرع (القت) البرسيم ، وبقربها قرية صغيرة تسمى عين الدار .

المَعامِر :

على الساحل الشرقى ، بعض بيوتها مبنى بالحجارة ، سكانها من البحارنة ويشتغلون بالغوص .

رَفاع الشرقى :

قرية كبيرة فى جنوب المنامة على بعد سبعة أميال منها ، وسكانها من العرب الذين يعيشون على بيع الماء المستخرج من آبارها المسمى بالحنينى ، ويقيم بها بعض أعضاء العائلة المالكة ، وقد كان لهم شأن يذكر قبل النظام الحالى فى البحرين ، والرّفاع تعتبر أصح منطقة فى جزيرة البحرين .

رفاع الغربى :

مثل الرفاع الشرقى فى موقعه ويبعد عنه ١½ ميل وهو فى الغرب الشمالى منه ، وسكانها سنيون أكثرهم من قبيلة بنى عُتْبة ، وبعض أعضاء العائلة الحاكمة كانوا يسكنونها ويحكمونها كالرفاع الشرقى ، والسكان يشتغلون بنقل الماء وبيعه فى المنامة ، والمنطقة غير منزرعة .

سَنابِس :

على الساحل الشمالى من الجزيرة بها مسجد ، وسكانها من البحارة الذين يشتغلون ببناء السفن وصيد الأسماك وتجارة اللؤلؤ .

الزّلّاق :

على الساحل الغربى من الجزيرة أسفل البديع ، وسكانها من الدواسر الذين يشتغلون بالغوص وبها قلعة مخربة .

جزيرة المحرّق :

تقع جزيرة المحرق فى الشمال الشرقى من جزيرة البحرين حيث يفصل الجزيرتين مضيق صغير يبلغ طوله ميلا ونصف ميل فقط يعبر بالسفن الصغيرة ، وقد وصلت حكومة البحرين أخيراً الجزيرتين بعضهما ببعض بواسطة جسر .

يبلغ محيط الجزيرة أربعة أميال ، وساحل الجزيرة رملى منخفض محاط بشعوب مرجانية مما جعل الملاحة إلى البحرين محاطة بشىء من الأخطار ، ولكن اللاحين من العرب فى غاية المهارة ، ولذا فالسفن البخارية القادمة من الهند ترسو بعيدة عن الساحل نحو أربعة أميال .

وبالمحرق عدة ينابيع على الساحل تختفى تحت ماء البحر وقت المد وتظهر وقت الجزر ، ويبلغ سكان المحرق والحد ٢٥٥٧٧ .

وبجزيرة المحرق ١٦ قرية صغيرة ملحقة بمدينة المحرق أهمها :

عَرَاد :

على الساحل الجنوبى وسكانها تجارنة ، وبها قلعة متداعية قائمة على خليج عراد ، وبها نحو ١٥ ألف نخلة .

بساتين :

على الساحل الغربى من جزيرة المحرق تبعد نحو ميل عن مدينة المحرق ، وسكانها من أهل السنّة يشتغلون بالغوص ، وبها قليل من النخيل .

الدَّير :

على الجهة الشمالية الغربية من الساحل تبعد ميلين عن مدينة المحرق ، وسكانها بحارنة يشتغلون بالغوص وبها قليل من النخيل .

حالة أبو ماهر :

جزيرة صغيرة جنوبي بلدة المحرق تتصل بالجزيرة وقت الجزر ، وسكانها من أهل السنة يشتغلون بالغوص ونقل الماء إلى المحرق من عين تحت البحر ، وبها قلعة صغيرة على نهاية الجزيرة للدفاع عن الماء .

قَلاَلى :

فى الجهة الشمالية الشرقية من الساحل ، وسكانها من أهل السنة ، وأكثرهم من قبائل المَنانِعة ، يشتغلون بالغوص وصيد الأسماك .

مدينة المحرق :

مقر العائلة الحاكمة الأصلى ، واقعة على الجهة الغربية من الجزيرة ، تبعد عن مدينة المنامة ميلين .

ويستقى أكثر سكان المحرق من عين أبو ماهر الواقعة جنوبي المدينة فى جزيرة صغيرة تسمى بهذا الاسم ، تبلغ مساحتها نحو ٨٠٠ ياردة ، وتحاط مدينة المحرق بالماء وقت المد العالى من الجهة الشرقية والجنوبية والغربية ، فيساعدها ذلك على إزالة الأقذار وتنظيف الساحل .

يبلغ سكان المحرق ٢٠ ألفاً ، نصفهم من الحوَلَة ، وعرب المحرق ينتمون إلى بنى عتبة وبنى على والزَيَايِنة ؛ وبالمحرق عدد لا يذكر من البحارنة ، ويشتغل أهل المحرق بتجارة اللؤلؤ واستخراجه وصيد الأسماك والملاحة وبعض المتاجر الأخرى ، وفى موسم

الصيف يهجر القسم الأعظم من أهـــل المحرق مساكنهم وينتشرون على سواحل جزيرة البحرين .

الحِـــدّ :

فى الجنوب الشرقى من جزيرة المحرق ، يبلغ سكانها نحو ٨٠٠٠ نسمة ، وهم من السادة وقبائل بنى ياس ، وهم يشتغلون بتجارة اللؤلؤ والغوص ، والحِدّ أكبر مركز للغوص .

سِتْرَة :

جزيرة واقعة فى شرق البحرين ، مفصولة عنها بقناة ضيقة ؛ يبلغ طولها من الشمال للجنوب أربعة أميال ونصف ، وعرضها ميل ونصف ، وبها كثير من العيون والآبار ، وسكانها فى الشمال بحارنة ، ويسكنون فى سبع قرى صغيرة ، وبها كثير من أشجار النخيل .

الجزيرة :

أو كما يسمونها — النبى صالح — هى جزيرة صغيرة قريبة من الساحل الشرقى من البحرين ، تبلغ نصف ميل فى كل ناحية ، وهى من الأماكن العامرة بالنخيل ، فيها نحو ١٤ ألف نخلة ، وبها قريتان سكانهما من البحارنة ، يشتغلون بالزراعة والغوص وصيد الأسماك .

أم نَعْسَان :

جزيرة صغيرة فى الجهة الغربية من البحرين تبعد عنها نحو ميلين فقط ، طولها من الشمال للجنوب أربعة أميال ، ونحو ميلين ونصف عرضاً ، وهى جزيرة غير مسكونة ، وبها عين ماء عذبة قرب الساحل الغربى . ويرسل سكان البديع والزلاق من قرى جزيرة البحرين حيواناتهم فى الصيف للرعى فيها .

نبذة تاريخية

لا يعرف شىء كثير عن تاريخ البحرين القديم ، وما يعرف عن تاريخها لا يتجاوز

سنة ٤٢٠ قبل الميلاد ، حيث كانت البلدة تدار بوساطة رؤسائها الوطنيين الوثنيين ، وفى سنة ٦١٥ بعد الميلاد غزا بهرام بلاد العرب وأقام بالجزيرة مندوباً من قبله يدير شؤنها ، وقد بقى بها إلى زمن الفتح الإسلامى ، و بعد الفتح الإسلامى بمدة قصيرة استرد الحكام المحليون استقلالهم ، واستمروا فى حكمهم حتى زمن هشام بن عبد الملك ، حيث استرد الجزيرة مرة أخرى ، وأقام من جانبه حاكما قرشيًا عام ٧٢٣ م ؛ وقد استمر حكم البحرين على هذا النحو حتى آخر حكم العباسيين فى القرن الحادى عشر ، فعاد حكم الوطنيين مرة أخرى ، واستمر حتى القرن السادس عشر ؛ وفى القرن السادس عشر استولى عليها الفرس وعينوا من قبلهم حاكما عليها ، ثم استولى عليها البرتغاليون كما استولوا على هرمز والقطيف سنة ١٥٠٧ ، واحتكروا جزءاً كبيراً من تجارة اللؤلؤ وتجارة الخليج الفارسى . وقد طرد الفرس البرتغاليين سنة ١٦٢٢ بعد سقوط هرمز ، كما أن الفرس بدورهم طردوا منها مرة أخرى ، وما زالت الجزيرة يتقلب عليها الحكام من الفرس تارة ومن العرب مرة أخرى ؛ حتى تمكن عرب بنى عتبة من الاستيلاء عليها ، وهم الحكام الذين تنحدر منهم العائلة الحالية .

آل خليفة

إن تاريخ آل خليفة أمراء البحرين يشمل ضمناً آل صباح أمراء الكويت ، ولذا فإن البحث فى تاريخ إحدى العائلتين لا يخلو من استعراض شىء عن العائلة الأخرى للارتباط الوثيق بين العائلتين فى الماضى .

قدمنا فى الفصل الخاص بالكويت أنه فى سنة ١١٢٩هـ (١٧١٦ م) تحالفت ثلاث قبائل كبرى وهم : بنو صباح ، والجلاهمة ، وآل خليفة . واتخذوا الكويت موطناً لهم ، واتفقوا فيما بينهم على أن يتولى آل صباح شئون الحكم ، وآل خليفة التجارة ، والجلاهمة العمل فى البحر ، على أن يقتسم الجميع الأرباح بينهم بالتساوى . و بعد مضى خمسين سنة من الحلف سنة ١٧٦٦ رأى ابن خليفة أن ينفصل عن الحلف ففرض على حلفائه مبلغ ما يصيبهم من الغنى إذا هم سمحوا له وعشيرته بالانتقال إلى الجزء المجاور لمغاص اللؤلؤ

فيؤسس هنالك محلة تدر الشيء الكثير من الأرباح فيستغنى الحلفاء ، فاستولى جلال الفكرة عليهم وصرحوا لرئيس آل خليفة بترك الكويت مع بعض أفراد عشيرته ، فتركها ونزل الزُّبارة قرب قَطَر والبحرين على الشاطئ العربى .

اكتشف ابن صباح — ولكن بعد فوات الفرصة — الأسباب الحقيقية التى دفعت بحليفهم ابن خليفة إلى مغادرة الكويت ، وشعروا بعظم الخسارة المالية التى منوا بها بفقد عضو من أعضاء التحالف ، ففكروا فى اقتفاء أثر حليفهم ابن خليفة بالتخلص من قيود الحلف مع الجلاهمة ، فامتنعوا من مقاسمتهم الوارد ، ثم انتهى الأمر إلى طردهم من الكويت وميناثها ، فلجئوا إلى إخوانهم آل خليفة فى الزبارة فأجروا لهم من الرواتب ما يتناسب مع مركزهم ، وبعد ذلك جرى بينهم وبين أهل الكويت من المعارك ما كان سبباً للقضاء عليهم وعلى نفوذهم .

يسود الهدوء البحرين ، ويسود الصفاء بين الشيخ محمد الحاكم وأخيه الشيخ على آل خليفة ، ويتعاونان على قمع الفتن وإنماء حركة التجارة ، ويستمر هذا التعاون حتى سنة ١٨٦٧ ، ثم يتنافس الأخوان على الحكم فيتغلب الشيخ علىّ على أخيه وينفرد بالحكم ، فيترك الشيخ محمد البحرين إلى الكويت مقر آبائه الأولين ، فيسعى عبد الله بن صباح حاكم الكويت فى الصلح بين الأخوين فلا يوفق ، فتقوم الحرب بين الأخوين فيتغلب الشيخ محمد علىَ البحرين بعد قتل أخيه الشيخ على ، فيحبسه أبناء الشيخ عبد الله بن طريف فيتداخل الإنجليز فى الأمر ، فيطلقون سراح الشيخ محمد ويحملونه مع بعض الرؤساء إلى سيلان ، ويعيّنون الشيخ عيسى بن على حاكما على البحرين سنة ١٨٧٠ ، ويستمر حاكما عليها حتى سنة ١٩٢٣ ، حيث تغل يده بالنظر إلى كبر سنة ، ثم يتولى ولده الأكبر الشيخ حَمَد بن عيسى . وقد توفى الشيخ عيسى بن على فى شعبان سنة ١٣٥١ هـ ديسمبر سنة ١٩٣٢ م كما توفى الشيخ حمد بن عيسى ، وقد تولى الأمر من بعده ولده الأكبر الشيخ سلمان بن حمد وهو الحاكم الحالى .

الحكومة البريطانية والبحرين

كانت سياسة الحكومة البريطانية فى خليج فارس فى أواخر القرن الثامن عشر والقرن التاسع عشر قائمة على إيجاد عهد من السلم والأمان فى تلك المنطقة ، فأعلنت الحرب على القرصنة وحاربتها بشدة .

وقد أرسلت الحكومة البريطانية مستر بروس Bruce[1] عام ١٨١٤ إلى البحرين لاستطلاع أحوالها ، فوصل إليها فى ١٩ يوليو واستقبله فيها الشيخ عبد الله بن أحمد استقبالاً وديا . ويقول مستر بروس : إن زياراته للبحرين كانت موفقة ومفيدة جداً ، فقد علم أن إمامَ[2] مَسْقَط غرس فى أذهان العرب أشياء كثيرة ضد الإنجليز : فقد أفهمهم أن بريطانيا ستصادر سفن البحرين التى تقصد الموانى الإنجليزية ، ولهذا السبب كانوا معتزمين مشاركة الجواسِم فى القرصنة ، وقد شرح الشيخ عبد الله أسباب الخصام بينه وبين إمام مسقط ونَقْض هذا الأخير المعاهدة التى عقدها معهم ، وإنه هو نفسه وأفراد قبيلته مستعدون للارتباط مع مسقط لأن مصلحته لا تتعارض وهذا الاتفاق .

وقد أبان الشيخ عبد الله للمستر بروس أنه فى الوقت الذى كان إمام مسقط يتظاهر بالتعاقد معهم ، كتب سراً إلى إمام نجد يغريه بالبحرين لإقامة رَحمة بن جابر حاكما عليها ، وقد رفض شيخ بنى ياس الانضمام للإمام فى ذلك كما رفض أمراء العرب المقيمون على الساحل الفارسى ، وقد رحب شيخ البحرين بالسفن الإنجليزية والتجارة البريطانية ، وصرح بأنه مستعد لدفع أى خطر عربى عن الجزيرة ، وأنه لا يشغل باله غير الإنجليز ، وأن الشيخ ينتظر أن تعامل بريطانيا سفنه بنفس المعاملة التى يعامل بها سفنها فى البحرين ، فطمأنه مستر بروس وأخبره — ولو أنه ليس لديه التفويض الكافى — بأنه مستعد أن يضع معاهدة تزيل مخاوف شيخ البحرين ، فوعده الشيخ بأنه سيصدر أوامره الصارمة للتشديد على سفنه باحترام العلم البريطانى حتى فى أشد الأوقات حرجا .

---

(١) سنذكر فى الجزء الثانى تفاصيل الانقلاب فى البحرين وأثره فى سائر البلاد العربية ، ويلاحظ هنا أن خليج فارس فى القرن السادس والسابع عشر كان عربيا من جميع الوجوه ، غير أن هؤلاء الحكام كانوا معاً فى تنازع وخصام دائم حتى أضعفهم ذلك وجعلهم لقمة سائغة لكل فاتح قوى .

(٢) إمام : سلطان .

ازداد نفوذ آل خليفة فى الزبارة وآل صباح بالكويت ، ونمت ثروتهم ولا سيما بعد احتلال الفرس للبصرة سنة ١٧٧٥ م فقد انتقل بذلك جزء كبير من تجارة اللؤلؤ والتجارة الهندية إلى الزبارة والكويت ، وقد انتهز عرب الزبارة وحاكمهم ابن خليفة فرصة موت كريم خان واشتعال الفتن فى خليج فارس ، فهاجم البحرين واستولى عليها سنة ١٧٨٢ ، ولكنه ترك الجزيرة بعد نهبها ، وبعد معارك متعددة بين آل خليفة وأتباعهم ، وبين غيرهم من رؤساء العرب الموالين لفارس ، تم تمكن آل خليفة بمعاونة حلفائهم آل صباح من أن يستولوا نهائياً على البحرين ويخضعوها لحكمهم ، وقد ساعدهم ما وقع فى فارس من التقلبات على الاستقرار فى الجزيرة والتفرغ للتوسع التجارى ، وفى سنة ١٧٩٩ م هاجم إمام مسقط جزيرة البحرين ، وتمكن من الاستيلاء عليها سنة ١٨٠١ م وأرسل إلى مسقط نحو ٢٥ عائلة من كبار العائلات ، ولم يفد عرب البحرين استنجادهم بفارس أو تركيا ؛ لأنه كان لدى الدولتين من المشاغل ما حال دون التداخل فى حوادث البحرين .

وفى نفس السنة تمكن آل خليفة بمعاونة النجديين الذين انتشرت حركتهم وامتد سلطانهم إلى الاحساء من التغلب على قوات إمام مسقط واسترداد البحرين . وفى سنة ١٨١٠ م احتل النجديون البحرين والزبارة ، وعين إمام نجد عبد الله ابن عُفَيْصان وكيلا عليهما وعلى القطيف وقطر ، ولكن شيوخ البحرين استمروا على إدارة الأحكام ، واكتفى مندوب نجد باستلام الجزية وإرسالها إلى مولاه فى نجد .

وفى سنة ١٨١١ م اضطر عبد الله بن سعود إلى سحب قواته من الخليج بعد غارة إبراهيم باشا ؛ فانتهز إمام مسقط هذه الفرصة ، وهاجم الزبارة وأحرقها وقبض على وكيل عبد الله بن سعود وأرسله إلى مسقط ، فاسترد آل خليفة شيئاً من سلطانهم ، ولكن نفوذ النجديين رجع بعد ذلك بقليل ، وفى سنة ١٨١٦ م حاول إمام مسقط أن يستولى على البحرين ، ويقضى قضاء تاماً على آل خليفة . وقد أوضح فى كتاب له للحكومة البريطانية أن الذى دفعه إلى ذلك هو مساعدة عرب بنى عتبة للقرصان واعترافهم بسيادة الوهابيين ، وقد وصل الإمام إلى الجزيرة ، ونزلت الجنود فى عرّاد ونجحت الحلة

بعض النجاح . ولكن عرب البحرين هزموه أخيراً هزيمة منكرة قضت على آماله فى امتلاك الجزيرة ، وقد اكتشف إمام مسقط بعد ذلك أن حكومة فارس التى كانت تحرضه فى ذلك الوقت على امتلاك الجزيرة إنما تعمل للغدر به و بباقى رؤساء العرب .

ومن سنة ١٨١٦ — ١٨٤٢ م أخذ النفوذ النجدى فى الجزيرة فى الظهور تارة وفى الخفاء تارة تبعاً لقوة الدول السعودية وضعفها . وفى سنة ١٨٤٤ م ظاهر الإمام فيصل أصغر شيوخ البحرين محمد بن خليفة ضد عمه وعضّده بإرسال قوة برية ضد الإمام فاستولى عليها وأقام فيها .

وقد وصف مستر بروس عرب بنى عتبة فى البحرين بأنهم من أقوى وأكفأ الملاحين العرب فى الخليج ، وأنهم يملكون جانباً كبيراً من التجارة الهندية ، وهم يفضلون التجارة عن حياة القرصنة . وتعتبر هذه السنة أول سنة وضع فيها أساس التفاهم بين الحكومة البريطانية وبين رئيس بنى عتبة حاكم البحرين . وفى سنة ١٨١٩ عقد معهم السير W. G. Ren معاهدة للتعاون ضد القرصنة ، لأن الجزيرة كانت أكبر مركز لتصريف منهوبات القراصنة وأخذ ما يلزمهم من الحاجيات الضرورية . وفى نفس هذه السنة عقدوا معاهدة أخرى مع إمام مسقط وتعهدوا له بدفع ضريبة سنوية قدرها تسعة آلاف ريال . وفى سنة ١٨٤٧م عقدت معاهدة لمنع الاتجار بالرقيق . وفى سنة ١٨٨٠م عقدت الحكومة البريطانية مع الشيخ عيسى بن على حاكم البحرين معاهدة مثل المعاهدة التى عقدتها مع سلطان مسقط قبل ذلك ، ثم مع شيخ الكويت بعد ذلك ، وهى معاهدة حماية تنص على ألا يقبل الشيخ أى وكيل سياسى غير انجليزى ، وألا يتعاقد الشيخ أو يتنازل عن قطعة من أراضيه لحكومة أجنبية .

وفى سنة ١٨٩٣ أعطى للوكيل السياسى فى البحرين حق الفصل فى قضايا الأجانب ، ثم توسع هذا الحق حتى شمل القضايا التى فيها صالح للأجانب .

لقد طال حكم الشيخ عيسى والد الحاكم الحالى حتى جاوز الخمسين ؛ وفى عهده تقدمت البحرين تقدماً عظيما : فى التجارة ، والثروة ، واستتب فيها السلم بعد أن كانت لا تعرف السلام ، وقد اشتهر الشيخ عيسى بالكرم والتقوى ، ولكنه كان محافظا على القديم

لا يحب التغيير ويكره كل جديد ، ولذا فقد كان يتصادم دائماً مع الوكيل السياسى عند ما يراد القيام بأى عمل عمرانى ؛ وأخيراً اتفقت الحكومة البريطانية مع أبنائه على أن يختم الشيخ حياته السياسية ويعتكف فى بيته وينوب عنه ابنه الأكبر الشيخ حَمَد ، فاحتج الشيخ على هذا العمل الذى لا يتفق مع روح الصداقة ، وغضب على ولده نحو خمس سنوات ، ثم رضى عنه بعد ذلك . وقد ترك عزل الشيخ عيسى من إمارة البحرين أسوأ الأثر فى نفوس أمراء البحرين وأهلها ، وقد أعقب هذا الانقلاب تغييراً فى الإدارة فوضع بجانب الشيخ مستشار إنجليزى لمساعدته فى الأمور الهامة ، وأقيم على الجمارك أيضاً مدير بريطانى ، ووضع للبحرين أيضاً موازنة لموازنة الدخل والخرج ؛ وقد تأسس فى آخر عهد الشيخ عيسى فرع (لمصرف) الإيسترن ، وقد نشطت حركة التعليم فى العشر سنوات الأخيرة نشاطاً يذكر فأسست إدارة للتعليم قامت بإنشاء مدرستين : واحدة فى المنامة وأخرى فى المحرق ، كما أنشئت مدارس للبنات ، وأسست إدارة خاصة للصحة والبوليس ، وأصلحت الأسواق ، وشقت الطرق فى أنحاء الجزيرة فسهلت المواصلات بين أطرافها .

العوائد والأخلاق

ذكرنا شيئاً من العوائد والأخلاق فيما كتبناه فى فصل السكان ، وسنذكر فى هذا الفصل بعض الصفات الأخرى المشتركة بين البدو والحضر ، أو التى يتميز بها البدو عن الحضر ، أو الحضر عن البدو ، مما لم يذكر فى الفصل السابق .

الألقاب

الفريق الأكبر من سكان جزيرة العرب ولا سيما البدو أو القبائل الرحّل لا يعرفون الألقاب الشائعة فى الأقطار الأخرى ، فهم ديموقراطيون بفطرتهم ، يدعون بعضهم بأسمائهم المجردة ، ويخاطبون ملوكهم وأمراءهم بأسمائهم وألقابهم العادية ، فأصغر البدو يخاطب الملك عبد العزيز بيا عبد العزيز ، أو يا أبا تركى ، أو يا طويل العمر ، وإذا سأل عن مليكه فيقول الشيوخ أو الإمام ؛ والملك نفسه قلّما يعبأ بالألقاب ، فالألقاب تعرف فقط فى الحواضر الكبرى مثل الحجاز .

المساواة

إذا استثنينا التفاضل فى الأنساب والإمارة فالناس فيما سوى ذلك يكادون يتساوون فى جميع ما لهم من الحقوق وما عليهم من الواجبات ، والناس جميعاً سواء فى نظر الشريعة الإسلامية ، لا فضل لشريف ولا لسيد ولا لحاكم . إذا تعدى أمير على رجل عادى فالحاكم الشرعى كفيل بإنصافه ورد الحق إليه ، وأول الناس خضوعاً للشريعة ابن السعود نفسه . على أن هذه المساواة لا تكاد تعرف إلا فى نجد ، أما فى غيرها فالعدل يوزن بميزانين : الأعيان والأشراف والمنتسبون إلى العائلات الحاكمة لهم ميزان خاص ، وسائر طبقات الشعب لهم ميزان آخر ، وقلما يجسر أحد من عامة الشعب على مطالبة أو مخاصمة أحد من الأشراف أو العائلة الحاكمة ؛ لعلمه بأن حقه لا يصل إليه من هذا الطريق ، بل لقد يصل الأمر ببعض أعضاء العائلات الحاكمة أن يحمى بعض المجرمين ، ولا يرى الحاكم من واجبه أن يجبر ابن عمه على طرد اللاجئ .

وإنَّ مَن له اتصال بالخليج الفارسى والحجاز ونجد يدرك بسهولة ما نعنى ، وربما كان من المفيد إيراد بعض الحوادث التى لا تزال تعلق بالذاكرة :

فى سنة ١٩١٦ شكا إلى الأمير عبد الله بن جلوى أمير الاحساء رجلٌ من فلاحى الاحساء تعدى بعض الخدم عليه وعلى أبنائه ، فأحضر الأمير جميع خدمه كى يتعرفهم الشاكى ، فلم يجد من بينهم المعتدى ، فأدرك الأمير أن المعتدى قد يكون بعض أبنائه فأمر بإحضارهم فتعرف الشاكى المعتدى ، ولكنه لما علم أنه ابن الأمير تنازل عن الشكوى واعتذر بأنه لم يكن يعرف أنه ولده ، فأنبه الأمير وقال له : لقد أخطأت ، إذا لم نكن نحن مثال العدالة فكيف نطلب من الناس احترام الشريعة ؟ لقد هلك مَن قبلنا من بنى إسرائيل وغيرهم بسبب هذه التفرقة ، أما أنت أيها المجرم (يقصد ولده) فيجب أن تلقى جزاءك . وهنا قام الأمير من مجلسه وانهال عليه بنفسه بالعصا وهو يقول : يجب أن نصلح أنفسنا قبل أن نصلح الناس .

وفى سنة ١٩٢٠ شكا أحد أهل الرياض إلى الملك عبد العزيز أن زوجته — وقد حكم عليها القاضى بالرجوع إلى بيت الطاعة لاذت ببيت فلان من أقاربه ، فأمر الملك توًّا من بلغ قريبه بإلزام المرأة الرجوع إلى زوجها تنفيذاً لأمر الشرع ، وإذا أخذت هؤلاء حمية الجاهلية فإنه سيدخل البيت بنفسه لتنفيذ أمر الشرع ؛ إذا لم نحترم نحن الشرع فكيف نكلف الناس باحترامه ، يجب أن نكون قدوة حسنة للناس فى كل شيء .

وفى جمادى الثانية سنة ١٣٤٣ — ١٩٢٢ كنت زائراً المرحوم خالد بن لؤى فى بيت الإمارة بمكة ، وكان إذ ذاك أميرها فرأيت أمام الشيخ ابن داود (وهو قاضى الخُرْمَة وقاضى مكة فى أول عهد الاستيلاء النجدى) رجلين يتخاصمان أحدهما من الأشراف من سكان الطائف والآخر من صناع الساعات ، وكان هذا الشريف أعطى الساعاتى ناظوراً لإصلاحه ، ولما أصلحه ادعى أن الإصلاح لم يكن طبق الشرط ، والرجل الآخر يدعى بأنه طبق الشرط ، ويطلب تحويل المسألة إلى رجل خبير .

أراد الشريف أن يجلس بجوار خالد بن لؤى ، فنهره الشيخ وأمره أن يجلس أمامه مع خصمه ، وأنهما أمامه سواء ، وبعد أن سمع الشيخ الدعوى حكم على الشريف بما

يقدره صانع خبير . فقال الصانع : وإن لم يقبل الشريف ذلك فأنا مستعد أن أرد إليه الناظور كما كان ، ولا أريد أن أطالبه بشيء مطلقاً جزاء أتعابي . فقال الشيخ : وما تقول في هذا ؟ فارتبك الشريف ، فالتفت إليه الصانع وقال : الحمد لله . إن وقوفي معك جنباً لجنب أمام القاضي يساوي عندي الدنيا وما فيها ، لقد مضى وقت الظلم ، فقد كانوا يكلفوننا بعمل الأشياء ولا يعطوننا أجرة ، بل لا يتنازلون أن يكلمونا ، بل كانوا يضربوننا في بعض الأحيان ، الحمد لله . فقال الشيخ القاضي : إن الناس جميعاً أمام الشرع سواء ، وإن الأشراف أولى الناس باتباع جدهم سيد الرسل محمد صلى الله عليه وسلم الذي يقول : (يافاطمة بنت محمد ، إني لا أملك لك من الله شيئاً) . والله يقول : (إن أكرمكم عند الله أتقاكم) ، ويقول : (فإذا نفخ في الصور فلا أنساب بينهم يومئذ ولا يتساءلون) . وهنا أخذ خالد الناظور من الشريف ، وقال : لا نسلمه لك حتى تسلم الأجرة التي يقدرها الخبير ، فقبل الشريف ذلك مرغماً ، وخرج وهو يطلب السلامة ؛ لأنه كان محوطاً بالإخوان الذين كانوا يؤمنون على أقوال الشيخ ويُسمعون الشريف همساً ما يكره من قوارص الكلم

الكرم

الكرم من الصفات المعروفة عند العرب في الجاهلية والإسلام ، ولا يزال العرب إلى الآن يتفاخرون بها . وفي الحديث الشريف : (من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم ضيفه) ، ولا يكاد يخلو بيت من بيوت العرب من مضيف (مكان يقابل فيه الضيوف) قد يكون حجرة واحدة وقد يكون بيتاً من الشَّعر ، وقد يكون بناء مستقلا

واحترام الضيف وحمايته من المسائل المسلم بها في بلاد العرب ، وحق الحماية ثلاثة أيام ، كما أن حقوق الضيافة ثلاثة أيام أيضاً . لقد كان ينزل القاتل في بيت المطالبين بالثأر فيتجاوزون عن كل شيء ما دام في ضيافتهم ، والنساء لهنّ هذا الحق مثل الرجال ، وإذا أعطيت كلمة للضيف اللائذ بالبيت قبلتها القبيلة كلها ، غير أن أكثر هذه القواعد كاد يقضى عليها الآن بعد ما استتب الأمر للملك عبد العزيز ، فسلطان الشرع فوق كل سلطان ، ولا حق لأي إنسان في إيواء مجرم ، وكلهم احتراماً للشرع يساعدون على القبض على المجرم وتقديمه للشرع .

لقد جرت العادة عند أمراء العرب أن يفتحوا بيوتهم لكل ضيف يقصدهم ، ولكن بعد مضى ثلاثة أيام من إقامته يسأل عن حاجته

وقد يبلغ ضيوف الملك عبد العزيز نحو عشرة آلاف ، فتمتلىء بهم بيوت الرياض و بطحاؤها ، وربما كان عدد الضيوف الدائمين لا يقل عن ٥٠٠ كل يوم

ومن العيوب فى بعض النواحى العربية أن يأكل الرجل و بيته مغلق ، فإن إغلاق البيت من أمارات البخل ، كما أن من العيوب عندهم شراء اللحم من السوق بالرطل ، فالأربعة أو الخمسة يشتركون فى شاة يشترونها ويقسمونها بينهم

والسيد ينادى خادمه : يا ولد أو يا وُلَيْد ، ولا سيما إذا كان لديه خدم كثيرون ، و إذا كان يريد القهوة فإنه يقول : هات قهوة ، فباقى الخدم يصيح هات قهوة ، حتى يصل الصوت إلى عامل القهوة فيحضرها ، وهذه العادة لا تزال تستعمل فى سائر البلدان العربية ؛ والملك ابن سعود يستعمل الأجراس الكهربائية فى قصره بدلا من النداء القديم ، ولكنه يرجع إلى العادة القديمة إذا كان فى الصحراء أو فى أحد الأماكن الأخرى التى ليس فيها أجراس

و إذا كان الملك فى الصحراء للصيد ، ونزل للراحة وأراد بعض خدمه أو أحد أفراد حاشيته ، فليس هنالك وسيلة إلا النداء بأعلى الصوت ، وكل خادم يسمع النداء ينادى بدوره حتى يدوى الصوت فى المعسكر و يسمع الشخص المطلوب ، فيقول : جاك أى جاءك

والخادم ينادى سيده : عمى ، وسيدته ، عمتى

و إذا حضر الطعام وجلسوا جميعاً حول المائدة ، نادى الخادم بأعلى صوته : سمٍّ ، أى باسم الله ابتدئوا

والقهوة تقدم لكل ضيف مهما صغر مقامه ، ولكن إذا سما مقامه فإن القهوة تحضر له جديدة ، ولا يصح الاعتذار عن قبول القهوة

وقد كانوا من عهد غير بعيد يعطون للضيوف بعد القهوة : إما مَغْلِي الزعفران أو مغلى الليمون ، أو القرفة ، أو شيئاً من الحليب محلى بالسكر ، ولكن فى العشرين سنة الأخيرة انتشرت عادة الشاى فى البادية والحاضرة ، و يستعملونه غالباً غير ممزوج باللبن ، والبادية

تستعمله غليظاً مرير الطعم من كثرة غليه على النار . وأهل عمان يقدمون شيئاً من الحلوى أو البسكوت يدعونه الفوّالة .

ومن حق القادم من سفر أن أصدقاءه ومعارفه يزورونه فى بيته ويقولون لأقرب الناس إليه : قرت عينك (أى سررت بحضور فلان) فيقول : قرت عينك ببنيك ، وعند لقائهم يقبل الأصغر أنف أو جبهة الأكبر أو كتفه ، وعادة الكتف فى البحرين والكويت ، والأنف والجبهة فى نجد والبادية — أما تقبيل اليد فغير معروف إلا فى الحجاز ، وقد استنكرها الإخوان والعلماء النجديون عند أول دخولهم الحجاز ، ولكنهم بعد بضع سنوات تسامحوا فيها ، فأهل الحجاز الآن يقبلون يد الملك والقضاة ولا يرون فى ذلك شيئاً ، وقد كان الأشراف فى مكة يترفعون عن مد أيديهم للناس للتقبيل ، فيكتفى الناس بلثم طرف الثوب .

والغالب أن يدعو أصدقاء القادم صديقهم إلى دعوة عَشاء أو غداء أو على القهوة بعد المغرب مع جمع من أصدقائه ، وعادة الدعوة للقهوة نجدها بكثرة عند أهل نجد أينما حلوا فى الكويت أو البحرين أو الهند .

ومن عادة الأمراء زيارة العائلات الكبيرة فى رمضان ، وقد كانت العادة فى الكويت والبحرين حضور الشيخ أو أحد أبنائه المقدمين على رأس الأهالى عند إتمام بناء السفينة الكبيرة وإنزالها إلى البحرين . كما يجرى أمثال ذلك فى أوروبا وأمريكا ، وقد ماتت هذه العادة من البحرين والكويت ، وأصبحت مقتصرة على الأهالى يعين بعضهم بعضاً عند إنزال السفينة إلى البحر .

ومن طرق إكرام الضيف تقديم القهوة ، والعادة فى نجد أن يُصَبّ للضيف بضع قطرات من القهوة ثم يتكرر الصب مرة أخرى حتى يهز الضيف يده مكتفياً . أما فى البحرين والكويت والحجاز فيصب نصف الفنجان تقريباً للضيف ، والقهوة فى جميع البلاد العربية تحضر بلا سكر ، والقهوة من أمارات الكرم تحضر أمام الضيف فى نجد والبادية ، وفى بعض البيوت الكويتية التى تمت بنسب إلى نجد : كما جرت العادة أن يتناول الفنجان الأول صاحب البيت إن كان هو المتولى لخدمة ضيوفه ، أو الخادم المتولى

الصب ؛ فهل هذا للتحقق من أن القهوة محضرة تحضيراً لا عيب فيه من حرق ، أو لا يزال ينقصها شيء من حب الهال أو الزعفران ، أو أن ذلك من بقايا العوائد القديمة : عوائد الاغتيال ؟ إنى أرجح الاحتمال الأول ؛ فإن العرب معروفون باحترام الضيف ومراعاته والدفاع عنه .

والغالب فى الضيافات أن يُرَشّ الضيوف بماء الورد والبخور من قبيل زيادة الإكرام ، وإذا أحضر للضيف ماء الورد وبخور العود فلا يجوز المكث بعد ذلك ، فمن قبيل الأمثال الدارجة على ألسنتهم : ما بَعْدَ العود من قعود ؛ ويطلقون على المِرش قُمْقُم (تركية أو فارسية) إشارة للضيف : قم ولا تجلس ؛ ولذا فإن أكثر المضيفين يؤخرون الورد والبخور حتى يهم الضيف بالانصراف من قبل نفسه ، وفى بعض الأحيان يقدمون الورد والبخور قبل الأكل ليتركوا للضيوف حرية البقاء أو الانصراف بعد الفراغ من الطعام ، ومن العادات الإسلامية التى لا يزال النجديون محافظين عليها الانصراف بعد الأكل بقليل : « فإذا طَعِمتم فانتشروا » .

والدعوة على شرب القهوة كالدعوة على شرب الشاى فى البلاد المتمدنة ، ولا شيء ينال من إحساس العربى أكثر من إهانة الضيف . ولقد رأيت الملك عبد العزيز المعروف بسعة الصدر والحلم ينقلب إلى رجل آخر عند ما علم أن ضيوفه قد أهينوا من رجاله المنوط بهم إسكان الضيوف وخدمتهم وتوفير أسباب الراحة لهم ، ولطرافتها نورد بعضها :

فى صيف سنة ١٣٤٤ هـ — أغسطس سنة ١٩٢٥ م كنت جالساً فى حضرة السلطان عبد العزيز (الملك عبد العزيز) فى مكة فى قصره فى المعابدة (المعروف ببيت السَّقّاف) ، وكان من عادته أن يجلس على شرفة داخل البيت ، ويشرف على الطريق بوساطة نافذة كبيرة ليرى الغادى والرائح ، فمر رجل بدوى حاول أن يتكلم معه فنهره ، فقال الرجل : لعلى لم أذنب يا محفوظ ، لعلى لم أخطئ ، لقد بت من غير عشاء ، فنالت هذه الكلمة الجهة الحساسة منه ، فناداه : ما بالك أيها الرجل ! أدخلوه ، فلما حضر أمام عظمته قص قصته بالتفصيل : من أنه وصل إلى مكة بعد الغروب بساعتين ، ثم طلب شيئاً يأكله ولو تمراً يدفع به غائلة الجوع فلم يسعفه أحد ؛ فنادى عظمة السلطان القائمين بأمر المضيف والمشرفين عليه ،

وهما : إبراهيم بن جُمَيعة وابن إدريس ، وثارت ثائرته حينما رآهما ، ثم أخذ يوسعهما ضرباً بنفسه حتى كادا يهلكان ، ثم أوقفهما عن الخدمة بضعة أيام ردهما بعدها إلى الخدمة بعد توسط بعض المقربين .

وفى شتاء سنة ١٣٥١ هـ ١٩٣٢ م كان جلالته فى الصيد ، وكنت معه ، فما راعنا بعد الغروب إلا زئير جلالته وأمره بضرب الطباخ نَصّار ، والشُّوَيْعِر المشرف على المضيف والمطبخ ، فسألت عن جلية الخبر ، فإذا بعض الضيوف يشكو من قلة الطعام ، وأنه أرز من غير سمن ولا لحم ، فسألت ماذا يضر هؤلاء لو أكثروا للضيوف الأرز واللحم ! إن الخير كثير . فقال لى صاحبي : ليست هذه أول فعلة لنصار وزميله ، لأن العادة الجارية أن ما يبقى من الزاد قل أو كثر بعد انتهاء الصيد سيكون من نصيبهما ، فمن مصلحتهما التقتير على الضيوف ليكون لهما النصيب الأوفر .

ولما حضرنا إلى مجلس الملك ، وكان ولى عهده الأمير سعود هو رئيس الركب أخذ جلالة الملك يعطيه درساً من أنفس الدروس فى المراقبة والملاحظة ، وعدم الاعتماد على الخدم ، ثم أخذ يقص علينا درساً تاريخياً فيما أصابَ أعمامه من تركهم الحبل على الغارب للخدم الذين لم يكونوا يراعون مراكز الناس ومشايخ القبائل ، حتى انفض الناس من حولهم .
وقد اقترح إلغاء هذه العادة ورد ما بقى من الزاد إلى المخزن ، وبذلك نستأصل شأفة العلة ، ولكن العادات غالبات ليس من السهل إلغاؤها .

الأكل

والعادة فى الأكل أن تقدم قصعة واحدة أو عدة قصعات إذا كان العدد كبيراً ، ويحيط عدد قليل أو كثير بالقصعة بدون تفاوت فى منازلهم ، فالملك والشيخ والوزير والخادم يأكلون جميعاً بأيديهم من قصعة واحدة ، ولا يرى الملك غضاضة فى أن يكون بجواره من هو أدنى منه ، لأن الجميع من آدم وآدم من تراب .

والعادة أن الإنسان إذا شبع يكف عن الأكل ، ولا يقوم حتى يقوم الجميع مرة واحدة ، فإذا قام واحد خطأ قام الجميع ، ويعدون بقاء البعض بعد قيام بعض الآكلين من

الشره ، وقد أبطل الملك عبد العزيز هـذه العادة ، فأتاح لمن شبع أن يقوم إذا أراد ، ولـكن لا يزال للعادة أثرها فى كثير من أنحاء نجد .

والنساء فى العادة لا يأكلن مع الرجال بل يأكلن على حدة ، ومن العيوب العظيمة أن تأكل المرأة مع زوجها أو الأم مع أولادها الذكور الـكبار ، أما الأطفال الصغار فيأكلون مع أبيهم أو أمهم ، ولـكن إذا كبرت البنات انفصلن فى الأكل عن أبيهن وصرن يأكلن مع أمهن فقط ، وهذه العادة ليست خاصة بنجد ، بل الـكويت والبحرين وعمان و بادية الحجاز مثل نجد فى ذلك ، أما المدن الحجازية فإنها لا تتمسك بهذه العادة إلا فى البيوت التى يمت أهلها بصلة إلى نجد .

والعادة فى الأكل أن لا يجهز بكمية تناسب الآكلين ، فالبيت الذى يضم ثلاثة أنفار يحضر الطعام فيه لخمسة أو ستة احتيـاطاً للطوارئ ، فإن لم يحضر ضيف أعطى الطعام للفقراء أو ألقى للحيوانات .

وطريقة تحضير الطعام تختلف فى نجد والحجاز وسواحل الخليج الفارسى ، فـكل جهة تقتبس من الجهات القريبة منها طريقه تحضير الطبخ : فى القصيم تجد أثر الطبخ السـورى ولا سيما الحلويات ، فى الـكويت ترى طريقة الطبخ البصرى ، وفى البحرين أثر الطبخ الهندى والفارسى ، وفى الرياض أثر الطبخ الـكويتى ، وفى الحجاز أثر الطبخ الشرقى على اختلاف أنواعه ، على أن لـكل بلد أصنافاً خاصة تفضلها عن سواها .

والطعام الغالب فى البادية التمر والأرز واللحم فى بعض أيام من الأسبوع ، أما فى المدن فالطعام الرئيسى الأرز واللحم والسمك والرّوبيان فى الجهات السـاحلية ، وفى أواسط بلاد العرب يستعمل الجريش (البُرْغل) بجانب الأرز .

المرأة فى بلاد العرب

المرأة على العموم فى بلاد العرب غير متعلمة التعليم المعروف فى البلاد الأوروبية و بعض البلاد الشرقية ، ولكنهن فى الغالب يتعلمن فى صغرهن قراءة القرآن وشئون المنزل ، أما الكتابة فلا تعرف إلا نادراً ، وتعد من العيوب النسائية فى بلاد العرب . ولقد قامت قيامة أهل الزبير و بعض البصريين حينما اعتزمت حكومة العراق فتح مدرسة للبنات فى البصرة ، فعدّوا ذلك من أعظم المنكرات ، ولكن الحكومة العراقية مضت فى سبيلها ولم تأبه لشأن المعترضين هذا ما كان بالأمس أما اليوم فإن مدارس البنات فى الكويت والبحرين فقد زاحمت مدارس البنين ويذكرنا ذلك بالحملة الشديدة التى قام بها المصريون ضد قاسم بك أمين عندما نشر كتابه تحرير المرأة . والمرأة فى الحاضرة تمتاز عن امرأة البادية بالحجاب الكثيف ، فالنساء يمدحن بملازمتهن البيوت وقلة خروجهن منها إلا لضرورة قصوى كزيارة الأقارب وعيادة المرضى ، ولا يكون ذلك غالباً إلا فى الليل ، ومن المفاخر عندهم أن المرأة بعد زواجها لا تخرج من بيت زوجها إلا للقبر . أما البادية فليس هنالك إلا أثر ضعيف للحجاب والبدوية تشارك الرجل فى كل شىء حتى الغزو ، فهى تقوم بقسط وافر من العمل ، وتجد البدوى يصحب نساءه ويتأبطهن فى الحاضرة كما يفعل الغربيون ؛ فتجد البدوى والبدوية فى أسواق الكويت والحجاز يشتركان فى الشراء وفى البيع وفى المشى بدون أن يكون عنده أدنى اكتراث ، بخلاف الحضرى فإنه لا يستطيع أن يفعل ذلك ، والمرأة فى بعض حواضر عمان تشتغل بالبيع وتقابل الضيوف إذا كان زوجها غائباً ، ولكن سائر العرب يعيبون ذلك على أهل عمان . والمرأة فى الحاضرة لا يكاد يكون لها رأى حتى فى الزواج فأهلها يوافقون على الزوج وهى تخبر به على سبيل الإخبار فقط ، وليس لها حق الاعتراض وإن اعترضت فلا يسمع لها رأى .

والغالب فى الزواج التبكير فى الرجل والمرأة تتزوج البنت إذا بلغت ١٣ — ١٤ ، والولد فى ١٥ — ١٦ . ومن أنواع الزواج الشائعة إجبار بنت العم على التزوج بابن عمها ، وليس لها أن تتزوج بأجنبى إلا إذا أذن ابن العم لها بذلك ، وقد يحدث النزاع بين أبناء

العم أيهم أولى بالزواج . ومع أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أذن برؤية الزوجة قبل الزواج، فإن هذا الإذن لا يعرف مطلقاً فى بلاد العرب ، فالزواج يتم بدون أن يرى الزوج زوجته إلا ليلة الزفاف .

أما فى البادية فالأغلب أن الزوج يكون له سابق معرفة بالزوجة ؛ لأن الحجاب فى البادية رقيق وشأنه ليس كشأن الحاضرة .

والعادة فى الزواج بعد قبول ولى الزوجة الزوج أن يرسل الزوج مبلغاً من النقود قد يكون مائتى ريال أو أكثر ، وبضعة ثياب غير مخيطة إلى بيت الزوجة ، ويسمى عندهم (بالدَّزَّة) أى المقدمة ، وهذه الدَّزَّة تعرض فى بيت الزوجة ليراها أقاربها وأصدقاؤها ، ويتفاخرون بها إن كانت تستحق الافتخار ، وهذه العادة معروفة فى نجد وسواحل خليج فارس وبادية الحجاز ، ثم بعد ذلك يتفق على يوم الدخول ، فيعقد العقد قبل يوم الدخول ، فإذا كان اليوم المتفق عليه أعلن الزوج ذلك ودعا أصحابه وأصدقاءه إلى بيته أو بيت أحد أصدقائه أو المسجد ، ومن هنالك يذهب الجميع — الزوج يحيط به أصدقاؤه — إلى بيت الزوجة حيث تعد هنالك حجرة فرشت بوثير الفراش وزينت أرضها بالزرابى الفاخرة ، فيدخلون بيت الزوجة فى وسط صفوف من النساء يحيين الزوج ومن معه بالملاليل[1] ، (وقد يكون بعض المغنيات ، وهذا فى غير نجد) وبعد بضع دقائق من إقامتهم فى الحجرة يطاف عليهم بماء الورد وبخور العود والند ، ثم ينصرفون ويبقى الزوج وحده فى الحجرة ، وبعد بضع دقائق تحضر الزوجة محطوطة بأقاربها وتقدم إلى الزوج .

وفى ثانى يوم يقدم الزوج للزوجة هدية من الهدايا نقوداً أو غيرها ، ويمكث الزوج فى بيت الزوجة سبعة أيام إن كانت بكراً وثلاثاً إن كانت ثيباً ، ثم تنتقل الزوجة إلى بيت الزوج حيث يكون قد أعد فرشه وتحضيره .

ولا يكاد يختلف الزواج فى البادية عن الحاضرة إلا فى المهور ، فالمهر الذى يتفاخر به فى البادية هو قطعة أو قطعتان من السجاد وجمل أشجح (أبيض) ومائة أو مائتان من الريالات ، وهذا أفخر مهر فى البادية .

وقد حدد جلالة الملك عبد العزيز المهر فى نجد بمائة ريال حتى يسهل الزواج للناس ،

---

(١) الزغاريد .

وإذا كان الزوج غنياً استطاع أن يهدى زوجته ما يشاء

أما فى الحجاز : ففى المدينة إذا رغب فتى فى الاقتران بفتاة اتفق أهله مع أهلها ، ثم تذهب أسرة الزوج إلى منزل آل العروس ، فيقوم خطيب من قبل الأولين يخطب خطباً نثرية وشعرية يعدد فيها مفاخر الزوجة ، ويعرض فيها باسمها ، ثم يقوم خطيب من قبل المخطوبة ، فيعدد مآثر الزوج ومفاخر أسرته ، ثم يقبض المهر الذى يستحضر فى صندوق من فضة به ورقة كتب فيها مقدار المهر وقيمة الجارية التى يشتريها والد الزوج لتخدم الزوجة ، ويقدم مع المهر ملابس حريرية للزوجة مشغولة بالفضة والتَّلِّ قد تتجاوز قيمتها مائة جنيه ، وقد يبالغون فى التكة (حزام اللباس) حتى لقد يساوى ثمنها عشرين جنيهاً ، والغالب ألا يكون يوم الدخول قبل سنة من هذه الحفلة ، ويشترط بعض الزوجات فى المهر شِيشَة مرصعة بالفضة والذهب ، وتقام وليمة فى منزل الزوج يوم نقل الجهاز يدعى إليها أقارب العروسين والأصحاب ، ويستكثرون من الأشخاص الذين يحملون الجهاز ، وتزف العروس وقت السحر إلى منزل زوجها ، وحين تصل تزف مع زوجها داخل المنزل بحضور جمع من النساء سافرات يحملن الشموع ، ثم يدخل بها المخدع ، فإذا ما أشرقت الشمس خرج الزوج إلى منزل العروس ليتغذى فيه ثم يرجع إلى زوجته ، ولا يباح للزوجة أن تخرج من المنزل إلا بعد سنة ، وربما تساهلوا إلى ستة أشهر ، وتقام ولائم للرجال والنساء ليلة الزفاف وليلتين قبلها وليلة بعدها ، وقد أبطلت بعض هذه العوائد فى السنوات الأخيرة كما طفت عوائد الشام ومصر على عوائد أهل البلاد

وتعدد الزوجات والتسرى منتشر كثيراً فى بلاد العرب بين الأغنياء والأمراء ، أما الفقراء فحالتهم لا تساعد على تعدد الزوجات ولا على تغير الزوجة ؛ ولذا فإن الخصومات العائلية لا يكاد يكون لها أثر فى بيوت الفقراء ، والزوجة تقوم بنصيبها من الخدمة المنزلية ، وإذا سألت زوجة الفقير عما تتمناه فى حياتها قالت : أن يبقى زوجى فقيراً كما هو حتى نعيش سُعداء ، لأنه إذا استغنى فأول ما يفكر فيه هو الزواج ؛ والغالب أن يخصص المتزوج بأكثر من واحدة لكل واحدة بيتاً ويساوى بينهن فى جميع الحقوق ، فيبيت عند كل واحدة ليلة ، ويكسوهن فى موسم واحد ، إلى غير ذلك من الواجبات المنزلية ،

والمرأة قلما تعترض على هذا الزوج وإن كانت تحقد على ذلك بطبيعة فطرتها ، ولكنها تفهم أن هذا حق من حقوق الزوج يستعمله

والطلاق كثير الانتشار فى البلاد العربية بين الأمراء والأغنياء فقط . أما الفقراء فأكثرهم يحافظ على زوجة واحدة يقنع بها ويعيشان معاً فى ظل السعادة والهناء . وقد يطلق الرجل امرأته فتتزوج من أخيه ، وقد يطلقها هذا فترجع إلى زوجها الأول ، وأمراء العرب وشيوخ البادية على العموم كثيرو الزواج سريعو الطلاق

ويجب أن نذكر هنا بمزيد الإكبار والإجلال أولئك القسوة اللاتى اشتهرن بالعقل والحكمة وسداد الرأى ، وكان لهن دور عظيم فى بناء الملك وسياسة الدولة ، فمن أولئك زوجة الإمام محمد بن سعود مؤسس دولة آل سعود ، فهى التى كان لها الفضل الأول فى التقارب بين الشيخ محمد بن عبد الوهاب وبين الإمام محمد بن سعود ، وتحبيب الدعوة الدينية إليه ، وإليها يرجع الفضل أيضاً فى تثبيت محمد بن سعود وتقوية عزيمته عند اشتداد الكروب وتألب الخصوم والأعداء ، وتذكرنا هذه السيدة بأمثالها من نساء العصر الأول فى إحياء العزائم وإذكاء النشاط والحماسة

وإن شأن المرأة فى نجد خير منه فى الكويت والبحرين ، فقد بلغ الامتهان بالمرأة فى هاتين البلدتين أنه إذا ورد ذكرها فى الحديث قالوا : أكرمك الله أو يكرم من سمع كما لو تحدثوا عن حيوان ، وقد يبلغ الجهل ببعضهم فيقول : أمى أكرمك الله ، كأن أمه شيء خبيث ، على أن هذه العادة قد أخذت تتلاشى ، فالأولاد المتعلمون لا يستعملون هذه الألفاظ

والمرأة فى بلاد العرب على العموم إذا أنس أهلوها خللاً فى سيرتها فلا يصلح هذا الخلل إلا التخلص من حياتها ، والحاكم لا يرى من حقه التحقيق فى هذا الموضوع ، بل يفرض دائماً أن الأقارب محقون فى عملهم ، أما الولد فلا يصيبه شيء من الجزاء ، غير أن الشريعة كفيلة بجزاء المخطىء فى الحالتين فى البلاد التى يسودها سلطان الملك عبد العزيز

ويجب أن نقرر هنا أن ما يجرى فى البلاد العربية من معاملة النساء فى الزواج والطلاق والميراث أكثره متأثر بالعوائد أكثر من تأثير الدين ، فالدين الإسلامى قد أعلى شأن المرأة وجعلها مساوية للرجل فى كثير من الحقوق فى الوقت الذى حرمت فيه المرأة من كثير من حقوقها فى الديانات الأخرى . ولقد نقل لينا كثير من أحكام الدين ، كما نقل كثير من سيرة الرسول صلى الله عليه وسلم وأخلاقه المنزلية بوساطة زوجاته . ولقد نبغ كثير من النساء فى القرون الأولى والمتوسطة فى البلاد الإسلامية الشرقية والبلاد الأندلسية ، ولكن لما أصاب الانحلال الخلقى والدينى المسلمين سرى هذا الانحلال إلى المرأة أيضاً وإلى حقوقها المقررة فى الشريعة .

الطب فى بلاد العرب

لا يزال الاعتماد فى بلاد العرب وسواحل خليج فارس العربية على الطب القديم وتجارب المجربين ، ويرجع الفضل فى إيجاد الأطباء الحديثين فى بلاد العرب إلى الأمريكان ، والإنجليز فى البصرة وخليج فارس ، وإلى الأتراك فى الحجاز واليمن والاحساء ، وللملك عبد العزيز فى نجد ، كما يرجع الفضل للحكومة البريطانية والتركية فى إيجاد نظام الكورنتينات فى جميع السواحل العربية لوقاية السكان من الأمراض الفتاكة وحصر المرض فى دائرة ضيقة ، ومع ذلك فالعرب على العموم لم يقبلوا على التطبيب الحديث إلا فى الجراحة فقط ، وهذا من نحو عشرين سنة فقط . أما فى الأمراض الباطنية فلا يكادون يعترفون بفضل الطب الحديث ، ولا يزال القسم الأكبر منهم يعتمد على الأعشاب وعلى معالجات ابن سينا وتلاميذه .

وقد كان ولا يزال كثيرون يحترفون التطبيب العربى ، وكان منهم رجال مشهورون بإخراج العظام المكسورة وتركيب عظام غيرها بدون استعمال البنج بالطبع ، وهم يستعملون الكى[1] فى كثير من الأمراض ، ولا سيما الكَلَب ، وفى الإصابة بالرماح يستعملون نوعاً خاصاً من الكى ، وهو أن تحفر حفرة صغيرة ثم تشعل فيها النار ، حتى إذا خفت حرارة النار وضعوا العضو المصاب داخل الحفرة بطريقة خاصة ؛ وهى وإن كانت من العمليات الشاقة ، إلا أنها فى الغالب يعقبها الشفاء .

وهنالك نوع خاص من تطبيب الحيوانات فى البادية : فأولها العَزْل ، وهو يستعمل فى الخيل والجمال ، فإذا أصيبت ببعض الأمراض القتالة المعدية عزلوا السليم إلى أماكن بعيدة ، وهذا نوع من الكَرَنْتينة الفطرية ، وهنالك مرض يصيب الغنم يسمونه (أبورُمح) يسعل الحيوان ثم يموت سريعاً ، فالبدو يذبحون الحيوان الميت ويجففون رئتيه ، ثم

---

(١) غير أنهم يفرطون فى استعماله ، فهم يكادون يستعملونه فى كل مرض ، وقد روى عن النبى صلى الله عليه وسلم الاباحة والنهى عنه . فينهى عنه إذا أمكن التداوى بغيره وإذا لم يمكن التداوى فيباح

يأخذون من الرئة المجففة قطعة صغيرة ويشرطون بالمشرط أذن الحيوانات السليمة ، ثم يضعون قطعة مما أخذوه فوق الاذن فتسلم الحيوانات من العدوى ، هذا معروف فى كل البادية تقريباً ، وهنالك مرض فتاك يسمى (الفاقوش) يصيب الخيول ولا دواء لها إلا عزل الخيول الصحيحة فى أماكن بعيدة ، أما التلقيح ضد الجدرى فقد انتشر كثيراً فى البحرين والكويت والإحساء وقد أخذ ينتشر فى السنين الأخيرة فى نجد والحجاز ويرجع الفضل فى انتشاره فى داخلية نجد للمجهودات التى يبذلها الملك عبد العزيز ، وقد كان للعلماء مباحث طويلة فيه ، وفى أنواع التلقيح ضد الطاعون والكوليرا وغيرها ، هل هى جائزة أو غير جائزة ، ولا يفهم من هذا أن هذه المباحث كانت من علماء نجد فقط ؛ بل إن علماء البحرين والإحساء ومصر كان لهم محاولات طويلة فى هذا الموضوع ، ولم يقبل أهل عمان وضع كُرَنْتِينَة عندهم وقاية من القادمين من البصرة حين انتشار الكوليرا ، ولم يقبل أكثرهم التطعيم من الجدرى وقت انتشاره ، ولا تزال هذه الأمراض تفتك بالسكان الجهلاء من وقت لآخر .

ومن البداهة فى بلاد واسعة كجزيرة العرب لم ينتشر فيها ذيوع الطب الحديث أن يسود سوق التجارب وفيها المفيد النافع والضار الذى لا تؤمن مغبته ، فمن الأدوية الشائعة للأمراض المستعصية ، ولا سيما الأمراض العصبية كتابة سورة من القرآن فى صحن ثم محو الكتابة بماء الورد ثم سقيها للمريض ، وفى البحرين والكويت يتخذ بعض الأفاقين هذا النوع من التداوى تجارة رابحة ، ومن الأدوية الشائعة فيها لكثير من الأمراض حتى للقروح المستعصية أن يذهب أحد أقرباء المريض ومعه فنجان مملوء بالماء أو السمن ثم يقف على باب المسجد لينفث فيه كل المصلين عند خروجهم من المسجد ، فنهم من ينفث بلا قراءة ، ومنهم من ينفث بعد قراءة ما يريد من قرآن أو دعاء . وقد كانوا ولا يزالون ينهون عن تنظيف العين المصابة بالرَّمَد الصديدى الذى يسمى « أبو طُبَّيق » ، ويكتفون بمنع الطفل المريض من بعض المآكل ، وقد كانت النتيجة إصابة الكثير بالعمى أو غيره من الأمراض .

وربما كان لأول مرة وصفتُ لأحد المرضى بالكويت سنة ١٣٣٣ هـ (١٩١٤ م)

الغسل المتكرر بالبوريك ، فكانت النتيجة شفاء الطفل بعد أيام قليلة ، فكثر استعمال البوريك بعد هذه الحادثة فى الكويت . على أن للبعثات الأمريكية والانجليزية فى البحرين والكويت والبصرة وسائر السواحل العربية فضلاً كثيراً فى تحبيب الطب الحديث إلى الناس ؛ ولكن هذه البعثات بما يحيط بأعمالها من أغراض دينية جعل الناس يبتعدون عنها ، وجعل فريقاً من الناس يتهمونهم بالغش للعداوة الدينية المتأصلة . ويداوون مرضى الأطفال بالحصبة بحجزهم فى حُجَر مظلمة لا تداخلها الشمس وحِمْية الأطفال حمية تامة عن جميع المآكل . ويداوون اليَرَقَان الذى يسمونه « أبو صُفَيْر » بالكىّ فى أصابع اليد والرجل . ومن العقائد الشائعة فى البلاد العربية أن الجروح تشم أو تتأثر بالروائح العطرية فتنتفخ وتؤذى المريض ، ولذا فالجرحى يضعون قطعة من الحِلْتِيت فى خرقة يسدون بها أنوفهم حتى لا يشموا أو حتى لا يتأثر الجرح بالروائح الطيبة .

ومن الشائع أيضاً أن لحم بقر الوحش يخرج الرصاص من الجروح ، فإذا أصيب أحد برصاصة فى حرب واستعصى عليه إخراجها ، أكل قطعة من لحم بقر الوحش اعتقاداً منه بأنها هى الدواء الوحيد لإخراج الرصاصة من الجرح ، ولذا فمن أفخر الهدايا أن تقدم بقرة وحش ، وما أقلها فى بلاد العرب مقدمة إلى أحد الأمراء لأن ذلك يقوم مقام مستشفى كبير للجراحة .

ومن الأدوية الشائعة المعروفة عندهم أن أكل المرارة سبعة أيام على الريق يشفى من الدمامل ، وفى بلاد العرب استعمال المعاجين لاكتساب الشيخ نشاط الشباب ؛ ولذا فإذا ما قدم أحد من الهند أو من السواحل أو قدم أحد الأطباء لزيارة السواحل العربية ، كان أكثر ما يلقى عليه من الأسئلة ، وما ينهال عليه من الطلبات هو هذا الدواء .

ومما يناسب ذكره فى هذا الموضع قصتان وقعتا على شخص الملك المرحوم عبد العزيز ابن السعود : الأولى فى أواخر سنة ١٣٤٢ — ١٩٢٢ ، والثانية بعد الأولى ببضعة أشهر : أصيب الملك ابن السعود بدمل صغير فى شفته ، ولما أهملت العناية بهذا الجرح الصغير حصل تقيح شديد فى الجرح وسبب حمى شديدة كادت تودى بحياة الرجل ، فاستعملوا له كل أنواع العلاج المستعملة فى نجد من كى وغيره ، فكانت الحالة تزداد كل يوم خطراً ، فدُعى الطبيب الأمريكانى

من البحرين الدكتور (ديم) فعمل له عملية جراحية بسيطة شفى بعدها بعد أسبوعين ، فكان هذا خير شاهد لفضل الطب الحديث .

الحادثة الثانية أصيب جلالته برَمد حاد ، فبعد أن طال علاجه على يد الطبيب ، اقتنع بالعلاج المحلى الذى كانت عاقبته ظهور قرحة فى العين ، غير أن الطب الحديث أصلح ما أفسد العلاج المحلى[1] ، فعاد للعين شىء من قوتها ونورها .

و بعض أمراء العرب وشيوخهم لهم إلمام بالطب الباطنى القديم ، فلكل واحد منهم مستحضرات خاصة يستعملها لنفسه و يشير بها على أصدقائه ومحبيه . وقد كان المرحوم الإمام عبد الرحمن والد الملك عبد العزيز ملماً بكثير من المعارف الطبية المستمدة من قانون ابن سينا وتذكرة داود وأشباهها ، وقد كان يرجع إليه فى بعض الأمراض فيصف لها ما يعرفه من الدواء ، وقد ورث عنه المرحوم جلالة الملك عبد العزيز بعض هذه المعارف ، كما ورث عنه بعض هذه الوصفات ، فهنالك وصفة يستعملها الملك عبد العزيز على الريق حضراً وسفراً ، وهى مزيج من خشب العود والصبر والمصطكا تمزج بالتساوى .

ومن لطائف الطب التجريبى القصة التالية الشائعة فى البحرين ، ولعلها مختلفة الدلالة على بساطة أهل البحرين : كان يسكن جزيرة المُحَرَّق رجل مُسِنّ مصاب بالدوسنتاريا المزمنة حتى يئس منه أهله و بنوه ، ولم يفكروا فى عرضه على الطبيب ، لأنهم ممن لا يؤمنون بفائدة الطب ولا بعلاج الطبيب . طلب هذا الشيخ من ولده وقد كان ملاحاً أن يصحبه فى سفينته ليستنشق الهواء و يودع هذا العالم ، وصلت السفينة المَنَامَة ، وهناك ترك الولد السفينة وفيها والده لقضاء حاجة فى السوق ، وفى أثناء غيابه حضر عبد من عبيد شيوخ البحرين المعينين للسخرة ، فسأل الشيخ المسن عن البحّار لأن لديه قتاً (برسيما) فأخبره الوالد بأن صاحب السفينة فى السوق ، فاستكثر العبد هذا الجواب ، فنزل عليه بالعصا بدون رحمة ولا شفقة ، فقفز الرجل من شدة الألم إلى البحر ، و بقى فى البحر حتى جاء ابنه الذى نقل البرسيم فى سفينته إلى الجزيرة الثانية ، ونقل والده أيضاً إلى البيت ، فأما الوالد فقد شفى بعد هذه العملية من مرضه ، فاعتقد أن ظروف الحادثة هى التى شفته من مرضه

---

(١) ويجب أن نذكر بمزيد الافتخار المهارة التى أبداها أحد الأطباء المصريين المرحوم الدكتور سالم هنداوى ، فلمهارته الفضل الأكبر فى نجاح العملية

المستعصى ، وصار يصف لكل مريض مصاب بالدوسنتاريا أن يذهب فى السفينة ويجرى عليه ما جرى عليه .

وقد أخبرنى على الفهد الخالد من كبار أهل الكويت . أن رجله أصيبت بقرحة استعصت على الدكتور « بنيت » الطبيب الأمريكانى بالبصرة وأشار عليه بقطعها ، فذهب إلى مزرعته بالبصرة يسوده الحزن والغم على هذه المصيبة ، فلما رأته إحدى الفلاحات استكشفت أمره وهى تعهده مرحاً فرحاً ، فأخبرها بأمره و بأمر الطبيب و بأن حياته فى خطر ، فقالت لا تحزن لقد جرّبت الطبيب نحو شهرين أفلا تجرب دوائى أسبوعاً ، فبعد تردد قبل ، فأحضرت له مرهماً من مختلف الأعشاب ، وكم كانت دهشته حين شفى تماماً بعد أسبوعين ، وقد عرض أمره على الدكتور بنيت فوجد القرحة قد زالت تماماً ولم يبق أى أثر للتقيح ، وأخبرنى المذكور أن الدكتور حاول أن يتعرف الأعشاب المذكورة ليختبرها علمياً وعرض جائزة كبيرة على المرأة فلم تبح له بسرها .

وهنالك نوع من الطب له صفة التقديس ؛ وهو ما يسمى بالطب النبوى ، فقد ورد فى البخارى وغيره من كتب الحديث بعض الأدوية التى كان الرسول صلى الله عليه وسلم يستعملها أو يوصى باستعمالها ، فأخذت هذه الوصفات صفة التقديس ، وكثير من هذه الوصفات لا تنكر فائدتها ، ولا يزال الطب الحديث يأخذ بقسم منها . ولقد تكلم العلامة ابن خلدون على الطب النبوى فى مقدمته فقال : وللبادية من أهل العمران طب يبنونه فى غالب الأمر على تجربة مقصورة على بعض الأشخاص متوارثاً عن مشايخ الحى وعجائزه ، وربما يصح منه البعض إلا أنه ليس على فائدته طبيعى ولا على موافقة المزاج ، وكان عند العرب من هذا الطب كثير ، وكان فيهم أطباء معروفون : مثل الحارث بن كلدة وغيره ، والطب المنقول فى الشرعيات من هذا القبيل ، وليس عن الوحى فى شىء ، وإنما هو أمر كان عادياً عند العرب ؛ فإنه صلى الله عليه وسلم إنما بعث لتعليمنا الشرائع ، ولم يبعث لتعريف الطب ولا غيره من العادات ، وقد وقع له فى شأن تلقيح النخل ما وقع فقال : أنتم أعلم بأمور دنياكم ، فلا ينبغى أن يحمل شىء من الطب الذى وقع فى الأحاديث الصحيحة على أنه مشروع ، فليس هنالك ما يدل عليه ، اللهم إلا إذا استعمل على جهة التبرك ، فيكون له أثر عظيم فى النفع ، فيكون من آثار الايمان وليس من الطب المزاجى

ورأى ابن خلدون وإن كان يجد له أنصاراً ممن ضربوا بسهم فى العلوم الطبية الحديثة ، فإن أنصاره قليلون فى جزيرة العرب .

وإن سنة ١٣٤٢ هـ سنة ١٩٢٣ م تعتبر فتحاً جديداً للطب الحديث فى جزيرة العرب ، ففى هذه السنة عين الملك عبد العزيز أحد الأطباء السوريين طبيباً خاصاً له وللقصر أيضاً ، ولما تم لجلالته فتح الحجاز سنة ١٣٤٤ هـ سنة ١٩٢٥ م نظم الإدارة الطبية فيها على أحدث الطرق ، وجعل شُعَباً فى نجد والاحساء وعسير فضلا عن مدن الحجاز المهمة ، وهى تقوم بمهمتها خير قيام حسب ما تسمح به موارد البلاد المادية ، وإذا كنا نأسف لانحطاط المستوى العلمى الطبى فى البلاد العربية فلا يجب أن ننسى فضل العرب وما قدموه للعالم فى فن الطب والعلاج ، وما أسسوه من مستشفيات لمختلف الأمراض فى بغداد والشام والقاهرة والأندلس ، فلقد كانت جامعاتهم فى أم المدن العربية مرجع الطلاب الأجانب كما هى حال جامعات الغرب اليوم ، ولقد ظل الطب العربى مرجعاً للعالم مدة غير قصيرة إلى أن حلت النظريات والتجارب الحديثة محل النظريات القديمة .

ويجدر بنا ونحن نكتب للتاريخ والحقيقة أن نذكر الخطوات الواسعة التى تسير بها إدارة الصحة فى المملكة العربية السعودية ، والبلاد العربية الأخرى مثل البحرين والكويت فقد شيدت المستوصفات فى كثير من البلاد التى كانت محرومة كما أسست بعض المستشفيات فى بعض الأنحاء النائية . وقد سنت سنة حسنة فى إنشاء المستوصفات النقالة أو الطبيب الرحالة المتنقل من بلد إلى بلد آخر فقد أدت هذ الطريقة إلى النهوض بالحالة الصحية نهوضاً لا ينكر .

ويا حبذا لو أن إدارة الصحة تعلن حربا لاهوادة فيها على الملاريا فى المناطق التى تنتشر فيها الملاريا وتقتدى فى ذلك بالأطباء الأمريكيين فى مناطق مناجم البترول على الخليج الفارسى . إنها بلا شك ستجد تعضيداً من السكان ومن الحكام المحليين ومن الحكومة المركزية .

وإذا نهض العرب مرة أخرى وأخذوا بقسطهم العلمى فى الطب وسائر العلوم المادية فإنهم لا يأتون ببدعة ، بل يعتبرون كمحيين لعهد أجدادهم الذين ملكوا ناصية العلم حقبة من الزمن ، وقدموا للانسان خِدَماً لا تنكر — إن ذلك دَين فى عنق العالم العربى يجب عليه وفاؤه . إن النشاط العربى والتطورات السريعة التى نراها فى البلاد العربية تجعلنا متفائلين خيراً من المستقبل — فالهم حقق الآمال .

العلوم والمعارف فى جزيرة العرب

إذا استثنينا بيوت بعض علماء نجد والاحساء فإننا نستطيع أن نقول : إن بلاد العرب كانت خلواً من المدارس بمعناها المعروف ؛ فالأتراك لم يتركوا أثراً يذكر أثناء حكمهم فى بلاد العرب من هذه الناحية ، فكل مجهوداتهم انحصرت فى إنشاء بعض مدارس ابتدائية صغيرة لم يكن الإقبال عليها يذكر لما كان يحوطها من الشبهات ؛ ففى إقليم الاحساء الواسع لم يؤسس إلا مدرسة صغيرة بعد إعلان الدستور العثمانى . وكذلك الحال فى اليمن والحجاز ؛ ولذا فالأمية تكاد تكون سائدة فى جزيرة العرب ، وربما كانت أول محاولة لتثقيف العقول والقضاء على شىء من الأمية كانت من جانب السيد محمد على زَيْنَل رِضَا فى الحجاز ؛ فإنه فى سنة ١٣٢٦ ﻫ وما بعدها قام بإنشاء مدرستين : إحداهما فى جدّة والأخرى فى مكة ، ومع ما وضع فى طريقه من العقبات وما أحيط بمشروعه من الشكوك من الأتراك والأشراف فإن هذه المدارس قد قامت بنصيب وافر فى الحجاز ، وربما كانت الشبيبة الموجودة فى الحجاز اليوم هى من غرس هذه المدارس .

وهذه المدارس وإن كانت تسير فى التعليم على الطريقة القديمه العتيقة التى ترتكز على الحفظ لا على التفكير ، فإنها كانت المدارس الوحيدة فى الحجاز . على أننا لا ننسى هنا بعض المعاهد التى أسسها الهنود فى مكة والمدينة ، فإنها قامت أيضاً بنصيب يذكر ؛ وكل ما كان فى الحجاز هو حلقات الدروس فى المسجد الحرام على نظام التدريس فى الأزهر قديماً ، ولم يكن العلماء يلمّون إلا ببعض العلوم الشرعية واللغوية .

وفى سنة ١٣٣٠ ﻫ أسس أهل الكويت مدرسة سموها المدرسة المباركيّة ، لأنها أسست فى عهد الشيخ مبارك الصباح ، وفى السنين الأخيرة نشطت البلدة نشاطاً عظيما فى فتح دور العلم وإرسال الطلبة إلى مصر وأوربا للانتهال من موارد العلم فى مختلف فروعه .

وفى سنة ١٣٣٩ ﻫ (١٩٢٠ م) أسس أهل البحرين مدرستين : إحداهما فى جزيرة المحرّق ، والأخرى فى جزيرة المنامة ، كان التعليم فيها لا يتعدى تعليم القراءة

والكتابة ومبادئ النحو والحساب والجغرافيا . ولقد أراد المصلحون فى الكويت والبحرين والحجاز إحداث انقلاب فى التعليم يرمى إلى إيجاد شبّان مفكرين متنورين يصلحون أن يكونوا نواة صالحة للمستقبل ، ولكن العقبات كانت كثيرة ، وأكثرها قائم من الجامدين الذين يعتقدون أن كل جديد بدعة وكل بدعة ضلالة .

لقد قام فى الكويت والبحرين ونجد ضجة عظيمة من جانب العلماء على القول بكروية الأرض وحركتها ، وتعليم اللغات الأجنبية ، مما يذكرنا بحوادث العصور الأولى ، ولولا أن السلطة تنقص هؤلاء لأوقعوا من العقوبات بخصومهم ما لا يقل عما وقع فى القرون الوسطى فى أوروبا .

ولقد تطورت حالة التعليم فى الكويت والبحرين وسائر البلاد العربية تطوراً حسناً ، فأنشئت إدارة خاصة للإشراف على التعليم ومنحه العناية الواجبة ، واختير لإدارته فى كلا البلدين أحد أعضاء الأسرة الحاكمة المعروفين بالاهتمام بانتشار التعليم ، ولقد سادت روح التعليم العصرية المبنية على نمو الفكر الطريقة القديمة المؤسسة على الحفظ وتقوية الذاكرة .

وفى السنوات العشر الأخيرة زاد عدد المدارس زيادة كبرى فى كلا البلدين وأرسلت البعثات العلمية إلى العراق وسوريا ومصر للاغتراف من مناهل العلم العذبة ، كما وفد على الخليج الفارسى بعثات منتدبة من حكومتى مصر وسوريا لمساعدة حكومات الكويت والبحرين للنهوض بالعلم والتعليم ، فأدّى هؤلاء الرسالة العلمية والتهذيبية على أتم وجه .

ولقد شاهدت لأول مرة الرياضة البدنية يعنى بها فى تلك البلدان وأصبحت محل العناية اللائقة بها ، فالعقل السليم فى الجسم السليم . ومما لا شك فيه أن انتشار التعليم وتطوره سيكون له أثر فعال فى مستقبل العرب عامة وهو وحده الكفيل بتقارب البلدان العربية وتكوين رأى عام عربى صحيح .

إن الحالة فى الحجاز فى أيام الشريف حسين لم تكن تختلف كثيراً عنها فى أيام الأتراك ، فمع أنه وضعت أسماء كبيرة : مثل المدرسة الراقية والزراعة والحربية وغيرها من المدارس ، فإنها كانت أسماء لا تطابق الحقيقة ، وما هى إلا طلاء لا يحوى من ورائه شيئاً وفى أيام أول عهد الملك عبدالعزيز ابن السعود قامت حركة لا بأس بها فى التعليم ولكنها

أقل بكثير مما كان ينتظره الناس من رجل عظيم مثله ، على أن هذه المدارس التى أسست بالحجاز لا يشمل برنامجها أكثر من برنامج المدارس الابتدائية الأخرى ، والتعليم فيها سائر على الطرق القديمة البالية من الاعتماد على الحفظ دون التفكير .

وإننا نسوق القصة التالية لتعلم مقدار الصعوبة التى يعانيها الملك ابن السعود ويعانيها أى مصلح يريد النهوض بالتعليم :

فى أوائل شهر يونيو سنة ١٣٤٧ — ١٩٢٧ قامت ضجة بين علماء الدين النجديين ، واجتمعوا فى مكة ؛ وبعد التشاور فيما بينهم وضعوا قراراً يحتجون فيه على إدارة المعارف فى مكة ، لأنها قررت فى برنامج التعليم أولاً تعليم الرسم ، وثانياً تعليم اللغة الأجنبية ، وثالثاً تعليم الجغرافيا التى منها دوران الأرض وكرويتها .

ولما كان لى شىء من الإشراف على إدارة المعارف ، فقد تذاكرت مع جلالة الملك فى الموضوع ، فرأى من الحكمة أن أجتمع بكبار المشايخ وأبحث معهم الموضوع ، فاجتمعت معهم ودار الحديث على الصورة الآتية :

حافظ : لقد أمرنى جلالة الملك أن أحضر عندكم لأشرح لكم حقيقة المسائل التى رأيتم إلغائها من برنامج التعليم ، إنكم تعلمون مبلغ حبى لكم لأنكم من أنصار السنة ، الآخذين بالاجتهاد ، الرادين كل قول يخالف القرآن أو السنة الصريحة ، ولقد مضى الزمن الذى كان قول العالم مهما كان حجة ، ولا أعتقد أنكم تريدون منا أن نقبل كل ما تقررون بدون مناقشة ؛ فإن ذلك لا يتفق مع الروح التى تدعون إليها ، ولا معنى لأن نعيب على الناس اتباعهم لعلمائهم من غير حجة أو دليل ، وهنا نسير على نفس النسق .

أحد المشايخ : إن ما قلته حق وصحيح ، ولكن لقد بينا الإمام عبد العزيز الأدلة والمفاسد التى تترتب على تقرير هذه العلوم . أما الرسم فهو التصوير وهو محرم قطعاً . وأما اللغات فإنها ذريعة للوقوف على عقائد الكفار وعلومهم الفاسدة ، وفى ذلك ما فيه من الخطر على عقائدنا وعلى أخلاق أبنائنا ، وأما الجغرافيا ففيها كروية الأرض ودورانها ، والكلام على النجوم والكواكب مما أخذ به علماء اليونان وأنكره علماء السلف .

حافظ : أما الرسم فليس هو التصوير لأن المقرر فى المدارس الرسم أى التخطيط ، وهى

معلومات أولية ، الغرض منها تعليم الأولاد الدقة ومعرفة المسافات على الخرائط ومواقع البلدان ، وهذا أمر لا شيء فيه ، وقد اشتغل به كثير من علماء السلف ولم يبلغ الأولاد درجة تمكنهم من التصوير ؛ لأن علم التصوير هو من العلوم العالية التي تحتاج ممارستها إلى وقت طويل ودراسة واسعة . أما اللغات الأجنبية فقد كان كثير من الصحابة يعرفون لغات عصرهم ، ونحن فى هذا العصر أجبرتنا الحياة على مخالطة الأجانب ، فبدلاً من أن نتخذ لنا مترجمين لا نثق بهم نعتمد على أولادنا ونعلمهم اللغات ، أما علوم الإفرنج : فمنها ما هو صالح يصح أن نأخذ به ونتعلمه ، ومنها ما لا يتفق مع ما نعتقد فنرفضه ، وعلوم الافرنج التى تقولون عنها قد ترجم كثير منها إلى اللغة العربية فى مصر وسوريا والعراق ، فالجهل باللغات لا يمنع الناس من الاطلاع على ما كتب وترجم إلى اللغة العربية . وإن الخوف على العقيدة الإسلامية هو رمى لها بالضعف ، لأن العقائد يجب أن تكون كالبنيان المتين لا تقوى عاديات الزمن على زلزلتها ، ونحن نعتقد أن العقيدة الإسلامية الصحيحة إذا امتزجت بالدم وتملكت مشاعر النفس ، فلن يقوى أى شيء على زعزعتها

أما الجغرافيا فإننا لا نعلم الأولاد منها إلا ما يتعلق بوصف البلدان ومواقعها وحاصلاتها ، وما يهمنا منها من الوجهة التجارية والعلمية ، وما عدا ذلك من المسائل فانه لا يعلم فى المدارس على أنه عقيدة دينية يجب الأخذ بها ، بل على أنه نظرية مقررة

وهنا يحسن قبل أن أختم كلمتى أن أقول لحضراتكم : إن مسألة سد الذريعة قد وسعت بدرجة قضت على كل معنى مقصود منها ، فحضراتكم كلما أردتم منع شيء قلتم سداً للذريعة ، فما قولكم فى العنب والتمر يستخرج الخمر منهما ، والحكومة قد ضبطت فى بلد الله الحرام من يصنع الخمر من هاتين الفاكهتين ، وقد وقع مثله فى عصر الصحابة ، ولم يقل أحد بقطع أشجار الكروم والنخيل

فلما رأى حضرات المشايخ أن البحث طال قالوا : لقد قررنا ما نعتقد ورفعناه إلى الإمام ولسنا فى حاجة إلى الجدل المنهى عنه شرعاً ، فإن قبل الإمام ما رأينا فالحمد لله ، وإن خالفنا فليست هذه أول مرة يخالفنا فيها

لقد وقف جلالة الملك ابن السعود على هذه المناقشة واقتنع بثاقب فكره أن ليس

لدى العلماء دليل دينى يصح الاعتماد عليه ، فلم يوافقهم على رأيهم ، واستمر تعليم اللغات والرسم والجغرافيا كما كان هذا ما كان قبل ربع قرن مضى . أما اليوم فقد أنشئت وزارة للتعليم وضوعف عدد المدارس الابتدائية والثانوية وأرسل إلى الخارج عدد كبير من الطلبة لإتمام دروسهم العالية كما أحضر عدد كبير من الأساتذة للانتفاع بعلمهم

ومع شيوع الأمية فى بلاد العرب فإن بعضهم يتفنن فى طريقة ضبط معاملاته أو حساباته بما يدل على ذكاء كامن أو بساطة فى التفكير

لقد شاهدت فى الكويت رجلا من أهلها الأميين يصور عملاءه (زبائنه) بصور مختلفة : يصور أحدهم جملا ، والآخر حماراً ، والثالث فرساً ، وهو فى ذلك لا يكاد يخطئ ، وهو لو صرف بعض وقته فى تعلم القراءة والكتابة لوفر على نفسه مؤونة الإختراع . أما الآخر وهو يمت إلى العائلة الحاكمة بالكويت فقد كان مشهوراً بالبخل والحرص ؛ ولكى يكون أميناً على نقوده من اختلاس أبنائه كان يضع فى زاوية من زوايا بيته عدداً من الخوص يساوى عدد النقود المخبأة ، ويزيد وينقص بقدر ما ينقص أو يزيد من النقود ، فلما اكتشف أحد أبنائه هذه الحيلة أصبح يأخذ ما يحتاج من الدراهم مع رفع عدد من الخوص مساولها ، وقد لبث على هذه الحال مدة إلى أن ضبطه والده يأخذ النقود ، فأخفى الخوص من الركن إلى مكان آخر كى يأمن شر ابنه .

وقد كان علماء الاحساء والبحرين ينكرون على المدارس تعليم الجغرافيا والقول بكروية الأرض ، بل وينكرون على بعض المتعلمين قراءة الصحف السيارة ، غير أن تقارب الأمم واختلاطها قد قضى على نفوذ هؤلاء فى البحرين والكويت .

علماء الدين فى جزيرة العرب

ليس فى جزيرة العرب علماء بالمعنى المعروف فى أوربا ، وإنما يطلق لفظ العلماء على الدارسين لعلم الدين الملمين بمسائل الفقه الإسلامى .

وفى جزيرة العرب على العموم تُطلق هذه الطبقة على نفسها طلبة العلم من باب التواضع ، ويراد بالعلم فى جزيرة العرب : التفسير ، الحديث ، الفقه ، أصول الدين ، علم العربية ، التاريخ الإسلامى . وعلماء الدين فى نجد أكثر إطلاعا فى الفقه وغيره من العلوم الإسلامية من غيرهم من علماء الكويت والبحرين وعمان ، وسيرتهم فى القضاء والافتاء تشبه سيرة

العلماء المتقدمين ، كما أن حياتهم الشخصية فى الورع والزهد يشبه سيرة علماء السلف المسلمين ، لا تأخذهم فى الحق لومة لائم . وعلماء نجد أشجع علماء جزيرة العرب ولا يبالون فى سبيل الحق ، ولبعضهم وقوف تام على أحوال البلاد المجاورة لنجد . وهم يكادون يصرفون أعمارهم فى سبيل العقيدة الإسلامية ، والرد على مخالفيهم من الطوائف التى لا تنهج نهجهم ، غير أنهم فى بعض الأحيان يعنون كثيراً بالرد على بعض الفرق التى انقرضت ولم يبق لها أثر إلا فى كتب العقائد .

وشأن علماء نجد شأن غيرهم فى هذا القرن ليسوا كطبقة الشيخ ابن عبد الوهاب فى علمهم وتبصرهم ، بل شأنهم كغيرهم من علماء الدين فى البلدان الأخرى يعتمدون فى حياتهم العلمية على من سبقهم من المؤلفين ؛ ولهذا فإن مؤلفاتهم ورسائلهم ليست كرسائل الشيخ محمد و بنيه فى متانة الأسلوب وحسن التصرف وكثرة المصادر التى كان يرجع إليها ، وهم لا يدّعون الاجتهاد المطلق ، فهم مقلدون للإمام أحمد وللامام ابن تيمية وتلاميذه كابن القيم وغيره . ولعلماء الجزيرة على العموم المقام الأول عند الأمراء ، والنفوذ العظيم فى نفوس العامة ، ومع أن أكثر العلماء فى جزيرة العرب أميل بطبعهم إلى الهدوء والبعد عن مظاهر الدنيا ، فإن بعضهم قد يغلو فى حب الدنيا بل وقد يستعمل مركزه للثراء .

وعلماء الرياض أشد علماء نجد بغضاً ومقتاً للكفار والمبتدعة من المسلمين .

فى سنة ١٣٤٦ ﻫ (١٩٢٨ م) كنت مع الشيخ عبد الله بن حسن كبير علماء نجد ورئيس القضاء الآن فى زيارة التفتيش فى المدينة المنورة ، فنزلنا على ماء فى وسط الطريق يدعى آبار بنْ حَصَانى ، وهنالك التقينا بمستر فلبى (قبل إسلامه) وكان آتياً من ينبع ، فبعد التحية دعوته للأكل معنا فعند ما جلس معنا على المائدة سأل الشيخ : من هذا الرجل ؟ فقلت له : هذا فلبى . فقال أهو نصرانى ؟ قلت له : نعم . فقال : أعوذ بالله . أتقوم للنصرانى وتصافحه وتهش فى وجهه وتدعوه للأكل معنا ؟ إن هذا كثير ، فلما سمع مستر فلبى ذلك قام منعاً للمشاحنة ثم أخذ الشيخ يؤنبنى على عملى .

فقلت : أيها الشيخ مهلاً . إننا نطمع فى إسلام الرجل ونريد أن نستميل قلبه ولا ننفره من الدين ، وإن الرسول صلى الله عليه وسلم جذب الناس إليه بخلقه الحسن ولين جا[نبه]

(ولو كنت فظاً غليظ القلب لا نفضوا من حولك) وإن الملك عبد العزيز كثيراً ما يقوم له ولغيره تأليفاً لهم ودفعاً لشرهم ؛ وكثيراً ما يدعوهم إلى مائدته ، فقال : أما القسم الأول فحسن ، وأما الثانى فالملك قد يفعل الشيء لمصلحة يراها وهو غير حجة فى عمله وتصرفاته ، وكثيراً ما أنكرنا عليه هذا وأمثاله .

على أنى أرى من الواجب علىّ أن أذكر أن هـذا الرجل كانَ لى نعم الرفيق المواسى أثناء مرضى فى المدينة ؛ لقد كان لا يرضى إلا أن يَسْقِيَنِى الدواء بنفسه كما أنه كان يصرف قسطاً من وقته فى تخفيف آلامى وأسقامى مما يدل على ما فطر عليه هؤلاء من الإخلاص وطيب القلب ، لا يحملون حقداً لأحد . ولا يغضبون إلا حيث يعتقدون أن منكراً اقْتُرِفَ أو أن حقاً من حقوق الله قد ضيع أو أهمل .

وعلماء نجد يحرمون التصوير ودروس المنطق والفلسفة ، ولا يوجد لديهم من يعرف هذه العلوم ، وقليل من علماء نجد من يحيط بأسرار اللغة العربيـة وآدابها إحاطة تامة ، وقليل جداً من يعرف علوم البيان والاشتقاق أو أسرار البلاغة ، وقليل منهم المحيط بحوادث التاريخ الإسلامى أو التاريخ القديم ، فمعلوماتهم التاريخية لا تتجاوز السيرة النبوية وسيرة الخلفاء الراشدين ، والتاريخ القديم لا يعدو علمهم فيه الطبرى وابن الأثير ، أما الاكتشافات الحديثة وما غير معالم التاريخ القديم ، فلا يكاد يعرف فى جزيرة العرب كلها ، على أن هنالك روحاً جـديدة فى الأسرة المالـكة فى أبناء الملك وبعض أشقائه فى اقتناء الـكتب الحديثة وحب الاطلاع على المؤلفات الحديثة فى التاريخ والقانون وآداب اللغة العربية .

ونرى واجباً علينا أن نقول : إن الملك عبد العزيز لولا ما يحيط به من الصعوبات من جهة استعداد شعبه لسار ببلاده خطوات واسعة فى سبيل نشر الثقافة وتعميم التعليم ، وهو يفضل السير التدريجى على قدر استعداد الأمة ، ولهذه الاعتبارات فإن الحالة العلمية فى الحجاز ونجد أقل مما يجب أن يكون وينتظر من ملك حكيم كالملك عبد العزيز ، ومع هـذا فإن حالة العلم فى الحجاز ونجد أفضل من حالة بعض البلاد المجاورة كعمان واليمن . وعلماء نجد محافظون على القديم جداً ولا سيما ما يتعلق بالدين ، فهم يرون بقاء العقيدة سليمة كما وردت فى الـكتاب والسنة من غير حاجة إلى تأويل ، ويقولون :

ليـحفنا ما وسع عصر النبوة وخير القرون ، وترى كتبهم ورسائلهم مشحونة بالرد على الفرق التى تجنح إلى التأويل أو تطبيق النظريات الفلسفية فى العقائد .

ومع أن للعلم والعلماء منزلة فى نفوس شيوخ العرب وعامة العرب ، فإن الشيوخ قلما يعنون بتعليم أبنائهم وتثقيفهم ، وقلما يعنون بغير الرماية والفروسية والصيد والقنص ، و بعضهم يرى طلب العلم عيباً لأن ذلك قرين الجمود والخمود وانتظار الصدقات . أما الإمارة فقرينة الحركة والنشاط والتفـكير .

والقصة التالية تروى فى الـكويت عن جابر الـكبير جد الشيخ مبارك الصباح : فإنه حينما رأى أحد أبنائه يحضر مجالس العلم وصفه باختلال العقل لأن الإمارة لا تجمع مع طلب العلم ، ولـكن هذا الفتى الذى اشتهر أول أمره بالتقوى وحب العلماء تغير سلوكه ، فاستبدل بحلقات الدروس مجالس الأنس والطرب ، وبالعلماء أهل الخلاعة ، فسر والده من هذا التبدل وقال إن دم الصباح قد تغلب عليه ، فصغيرهم للـكلاب وكبيرهم !! . . .
قد تكون هذه القصة موضوعة على جابر ، ولـكنها تعتبر أصدق تعبير عن خلق كثير من أبناء الشيوخ : صغارهم مولعون بتربية الـكلاب ، وكبارهم مولعون بالقنص والبطالة وقديماً قال الشاعر :

إن الشباب والفراغ والجده   مفسـدة للمرء أى مفسـده

على أن من بين شيوخ العرب قديماً وحديثاً من شذ عن هـذا السبيل فاشتغل بالعلم والأدب وقرض الشعر وبرع فى فنون الشرع حتى بذ علماء عصره ، ويسرنا أن ننوه هنا بما بدا فى السنين الأخيرة من اهتمام بعض الشيوخ بالعناية بتعليم أولادهم . لقد أرسل بعض شيوخ الـكويت والبحرين أولادهم إلى بيروت والإسكندرية للتعلم فى الـكلية الأمريكية وكلية فكتوريا ، كما أن جلالة الملك عبد العزيز ما زال من وقت لآخر يبدى مزيد العناية بهذا الموضوع ويستعين برأى الخبراء فى أمر التربية والتعليم وقد أبدى الملك سعود نشاطاً ملحوظاً فى نشر العلم وتشجيع المجتهدين من الطلبة كما أسس فى أول عهده وزارة التعليم نرجو أن تقوم بالواجب العظيم الملقى على عاتقها .

الصناعات في بلاد العرب

هى الصياغة والنجارة والحدادة والحياكة والقِصابة و إصلاح البنادق والبيطرة و بعض أنواع الطِبَابَة : كالحجامة والفصد والـكى وغير ذلك .

والصناعات على اختلافها معدودة من المهن الخسيسة التى تحط بقدر صاحبها ؛ ولذا فالذين يحترفون هذه الصناعات . إما من غير العرب أو من العرب الذين لا ينتمون إلى أصول مشهورة أو غير قبيل . ومما يدل على احتقار الصناعات ألفاظ السباب المعروفة عند العرب (يا ابن الصانع) إذا أرادوا تحقير إنسان وسبه بكلمة تكون مجمع السباب ، و بهذه المناسبة نذكر أن الملك ابن السعود فى مجمع كبير (وكان حانقاً على آل عايض حكام أبْهاَ السابقين لما تكرر من خيانتهم له) قال لأحدهم هذه الـكلمة ، فعندما انصرفوا وذهبو إلى بيوتهم ابتدرته زوجته وقالت له : لا يمكن أن أعاشرك بعد الآن ؛ لأنك من أبناء الصناع لا من أبناء القبائل وابن السعود لا يكذب ، ولولا أن أفهمت فيما بعد أن ذلك كان عن بادرة غضب ما أمكن أن تقتنع بالرجوع إلى بيتها .

ولقد فتك عبد الـكريم السعدون بعبد الله بك الصانع مدير الداخلية العراقية ، لأن عبد الله بك — وهو من ذرية الصناع — تجاسر على الزواج بابنة أحد أبناء السعدون الأشراف ؛ ولقد عطف جلالة الملك عبد العزيز على موقف عائلة السعدون ، ولو استطاع لغيَّر موقف القضاء فى هذا الموضوع الذى هَزَّ أحسن ناحية فى جلالته .

وبهذه المناسبة أيضاً عند مذاكرتى فى هـذا الموضوع أخبرنى المرحوم السيد رجب النقيب (نقيب أشراف البصرة) أنه فى إحدى سياحاته إلى بغداد أوصى أحد أصـدقائه بأن يتوسط له فى الزواج بابنة أحد الأشراف ، فـكان ذلك الصديق يذكر له سيدة من بنات الأشراف المشهورين ببغداد كبيت باشَجِى وجادِرْجِى وغيرهم ، فـكان السيد يمتنع من القبول ويقول : أريد الأشراف . وما كان صديقه ليفطن لما يريده السيد ، وأخيراً قال له صديقه : لقد عرضت عليك كل أشراف بغداد فمن تريد بعد ذلك ؟ قال : أريد

الأشراف ، قال : لا يوجد أشرف من هؤلاء هنا ، قال : لا ، أنت ذكرت لى أسماء الصناع وأنا أريد أصحاب الأنساب ، قال : هَا ! لو أخبرتنى بذلك لأتيتك كل يوم بأسماء عشرين بدوياً من أقذر البدو ، لقد اخترت لك أهل النظافة والمدنية واللطافة والكياسة ، أنا لا أتوسط فى هـذا الموضوع ، اذهب إلى السماوة أو غيرها من البادية واختر لنفسك ما تشاء . . . وإن من له اتصال ببلاد العرب يقف على كثير من القصص التى يمتنع فيها فقيرات البدو عن الزواج بأغنياء الحضر احتجاجاً بالنسب ، فقد رفضت إحدى البدويات التزوج بابن المِشْرى حاكم الزُّبَيْر فى أيام الأتراك لأنه من أبناء العبيد

ولا تزال التجارة فى البحرين من الحرف التى لا يصح اشتغال العربى الأصيل بها ، ولذا كانت الأيدى غير العربية هى القابضة على زمام التجارة فى البحرين . ومن الغريب أن العربى لا يزال يفضل رعاية الإبل والغنم والخدمة وراء الحمير على البيع والشراء والصناعة أو فتح متجر للبيع والشراء

ومن الصناعات المشهورة والتى يحترفها كثير من البدو والحضر غواصة اللؤلؤ ، وغواصة اللؤلؤ لها نظام خاص فى غاية الغرابة : ليس هناك أجور معينة للعمل ، ولكن العمال يشاركون صاحب السفينة فيما يحصل ، فالذى يغوص له سهمان ، والذى يخرج الغواص — وهو ما يسمونه سيبا — له سهم ، وذلك بعد ما يخرجون خمس الحاصل للسفينة وثمن المأكل والمشرب ، ولا يمكن أن يقبل أى عامل أجراً معيناً لأنه يريد أن يجرب حظه مع صاحب السفينة ، إن كان قليلاً فقليل ، وإن كان كثيراً فكثير . وصناعة الغوص من الصناعات الشاقة ، وهى تجرى حسب الطرق القديمة ولا تستخدم الآلات الحديثة ، ولا يقل عدد من يشتغل بهذه الصناعة عن مائتى ألف عامل من العرب والإيرانيين لمدة خمسة أشهر . وموسم اللؤلؤ من أحسن المواسم وأجملها ، وفيه تنشط الحركة التجارية ، ولذا لا يمكن أن يتصور مقدار ضيق أهل هذه الصناعة فى الأزمات الحالية لأن أكثرهم فقراء ، وليس لهم نقابات وشركات تعاونية مثل ما هو فى جميع البلاد المتمدنة

والطريقة المتبعة الآن فى غواصة اللؤلؤ هى طريقة الحجر : يربط حجر كبير بطرف الحبل ، فإذا أراد الغائص أن ينزل إلى الماء تمسك بالحجر ونزل إلى قاع البحر بكل سرعة ،

وإذا ضاق نفسه هزّ الحبل بيده ثم صعد بمساعدة رفيقه الآخر الموجود بأعلى السفينة والمتيقظ لكل حركة يأتيها الغائص . والغوص يشبه من جميع الوجوه ، بالمرعى فتجد فى جهة مئات السفن ، بينما ترى بعض الجهات الأخرى ليس فيها سفينة واحدة ؛ وصاحب السفينة ينتقل من جهة إلى جهة وراء المحار واللؤلؤ ، وهنالك فى البحر تجد التجار الذين يدعون « بالطواويش » ينتقلون من سفينة إلى سفينة لشراء ما يستحصل من اللؤلؤ

ولقد اكتشف البترول فى السنوات الأخيرة فى أكثر بقاع الجزيرة العربية فكان مصدر خير وبركة على البلاد زادت به موارد الثروة العامة ومكنت البلاد من الأخذ بنصيبها فى نواحى الإصلاح المختلفة أسست المدارس الابتدائية والثانوية وأرسل الطلبة النابهون إلى مصر وأوربا للتزود من مناهل العلم كما أسست الإدارات الصحية وشيدت الطرق وبالجملة تطورت البلاد تطورا سريعاً لم تكن تصل إليه لولا وجود هذا المعدن الثمين

قصة البترول

فى شتاء سنة ١٩٢١ وفد إلى الكويت رجل بريطانى يدعى ميجر هولمز منتدبا من الشركة الشرقية وهى شركة بريطانية تقوم بشراء الامتيازات وبيعها للشركات الكبرى وقد تمكن ميجر هولمز من الحصول على ثلاث امتيازات قيمة هى مناطق الكويت والاحساء والبحرين نظير مبلغ صغير هو ستة آلاف جنيه لكل امتياز وستة آلاف جنيه أخرى سنوية إلى حين العثور على البترول بصورة تجارية

لقد حصل ميجر هولمز على امتياز منقطة الكويت . والأحساء . والبحرين وذلك بمساعدة الأستاذ أمين الريحانى الكاتب اللبنانى المعروف

وبعد فترة وجيزة من التصديق على الامتيازات زار هذه المناطق بعثة من المهندسين الجيلوجيين وقد كانت مؤلفة من مهندس بريطانى من الشركة الإيرانية وآخر سويسرى ومهندس آخر بريطانى مستقل فرأت البعثة بعد زيارة هذه المناطق أنها لا تحوى بترولا مطلقا ولكنها غنية بالمياه الصالحة للزارعة . ولكن الشركة الشرقية لا تهتم بالزراعة ولذلك فقد ألغت امتياز الكويت والإحساء وتمسكت بامتياز البحرين فقد عز عليها فى أول محاولاتها فى هذه المنطقة أن تحقق هذا الاخفاق التام وتخرج من هذه المحاولة بخسارة لا تقل عن ثلاثين ألفا من الجنيهات وهى شركة ليست من الشركات الكبرى ذات الاحتياطى الكبير المعد لمثل هذه الحوادث

تمسكت الشركة الشرقية بامتياز البحرين ولكنها لم تجد من شركات البترول البريطانية استعداد الشراء هذا الامتياز فيممت شطر العالم الجديد وعرضت هذا الامتياز على شركة استاندر أويل اف كاليفورنيا فوجدت منها استعدادا لشراء الامتياز إذا رأى مهندسوها أن هنالك بترولا فى المنطقة المذكورة وقد تم للشركة الامريكية شراء الامتياز بعد أن تأكد مهندسوها أن المنطقة وإن كانت صغيرة ولكنها غنية بالبترول فكان هذا أول مغامرة

للشركات الأمريكية فى منطقة الخليج بعد أن كان الخليج و إماراته من المناطق التى لا يجوز لغير البريطانيين القرب منها

لقد حاولت الحكومة البريطانية منع الشركة من الحصول على الامتياز بحجة أن اتفاقية الحماية تمنع شيخ البحرين من منح امتيازات كهذا الامتياز لغير الشركات البريطانية ولكن الشركة أسرعت فأسست شركة خاصة فى كندا لهذا الغرض فسقطت حجة وزارة الهند وبالرغم من أن الأتاوة التى كانت تجنيها حكومة البحرين كانت ضئيلة للغاية إذا قيست بما تدفعه أى شركة بترول أخرى إلا أن هذه الاتاوة كانت سببا فى نهوض البحرين وازدياد الرخاء فيها وقد ارتفعت الأتاوة تدريجياً حتى وصلت فى العام الماضى إلى ٥٠ فى المائة من صافى الأرباح

إلا أن المستخرج من البحرين قليل إذا قيس بما يستخرج من الكويت وقطر فهو لا يتجاوز المليون ونصف المليون من الأطنان سنويا . أما الكويت فقد تجاوزت الثلاثين ألفا بعد توقف الشركة الإيرانية عن التصدير بسبب الخلاف المعروف بين إيران و بريطانيا

وقد فشلت جميع المساعى التى بذلت لدى الشركات البريطانية لمنحها امتياز بترول فى البلاد العربية السعودية لأنها كانت تعتقد أن لا زيت على الإطلاق فى البلاد العربية السعودية .

ففى سنة ١٩٣٢ بذل سمو الأمير فيصل مجهودات عظيمة أثناء زيارته للندن سواء مع وزارة الخارجية أو فى بعض الدوائر المالية لبيع امتياز الزيت لاحدى الشركات البريطانية فلم تثمر مساعى سموه كما فشلت مساعيه أيضاً فى الحصول على قرض تفرج به الحكومة العربية السعودية أزمتها

وأخيرا وفد على البلاد العربية السعودية مستر لويدها ملتون موفدا من شركة استاندر أويل أت كاليفورنيا للحصول على امتياز لاستخراج البترول فحصل عليه بعد مفاوضات قصيرة وقد ساعده كثيرا استعداد الشركة لتقديم قرض صغير للحكومة . وقد أرسلت شركة البترول العراقية مستر لونجرج إلى جدة لمفاوضة الحكومة العربية السعودية فى نفس الغرض الذى أوفد إليه مستر هاملتون ولكن هاملتون كان مطلق اليد فنجح حيث فشل منافسة

حيث كان مقيدا بتعاليم شركته . وهكذا بدأت صفحة جديدة من الرخاء فى البلاد العربية السعودية كما بدأت صحيفة أخرى من صحف المغامرة الأمريكية

لقد حرص المرحوم الملك عبد العزيز حرصا لا يعادله حرص فى منح هذا الامتياز إلى البريطانيين لأنه لم يتعامل أو يعرف غيرهم ولكن البريطانيين كانوا متأثرين بتقارير المهندسين من جهة و بتقارير السر اندروريان من جهة أخرى ، وكلها كانت لا تشجع على استثمار الأموال البريطانية فى جزيرة العرب

الحكومات العربية

نريد هنا أن نستعرض أمام القارئ النظام الحكومي للإمارات والسلطات العربية ، والطريقة التي يدار بها الحكم في بلاد العرب ، وهي صورة مستمدة مما يفهمه العربي العادي من الحكومة ، وهي الصورة التي لا يفهم سواها شيوخ العرب ، وسأذكر فيما يلي قصتين يتجلى فيهما كل ما هو واقع من الحقائق :

في شتاء سنة ١٣٣٣ (١٩١٥) كنت في حديث مع المرحوم الشيخ جابر الصباح أخي الشيخ مبارك شيخ الكويت : كنت أنكر فيه على الشيخ مبارك فداحة الضرائب وطريقة صرفها ، فإن الشيخ مباركا في أخريات أيامه خرج على كل مألوف من التقاليد الدينية والعربية ، وأخذ يستهتر بكل شيء ، كما أنه وضع ضرائب على البيوت تقضي بدفع ثلث قيمة كل بيت يباع مما لم يعرف من قبل في بلاد العرب ، وكنت أشرح للشيخ جابر حديث . كلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته ، وإني في نفس الوقت لم أنس أن أذكر بعض الصفات الطيبة التي امتاز بها الشيخ مبارك من غيرته على الكويت وأهلها ، ودفاعه عن مصالح أهلها والعمل لاستقرار الأمن وزيادة حركة التجارة فيها .

فقال الشيخ جابر :

إن كلامك كلام مُطَاوْعه (أهل الدين) ما هي ميزة الأمير على الباعة وأصحاب الدكاكين ياشيخ حافظ ؟ خذها كلمة جامعة ! الرعية مثل الغنم كلما طال صوفها جَذَذْناه . فقلت له : ولكن الغنم ياحضرة الشيخ تحتاج إلى من يعنى بها كي يتكاثر نسلها ، وأنتم لا تكتفون بالصوف ، فإن المقص كثيراً ما يصيب الجلد ، فقال : إن الحاكم يجب أن تكون يده مطلقة في كل شيء ، في المال وفي الأرواح ، والرعية إذا استغنت وكثر مالها طغت على الحاكم وربما أفلتت من يده . فقلت له : أيها الشيخ ! إن الرعية والراعي متضامنان في حب الخير للبلد ، وليس أحدهما خصما للآخر ، والحاكم والد الجميع ، ولا يولد الحزازات والضغائن سوى الجبروت . فقال : أيها الشيخ ! ليست هنالك فائدة من

المناقشة ، فنحن لا نفهم من الحكم إلا ما أسلفناه لك ، وكلام أهل الدين قد سمعناه كثيراً في دروس الوعظ وخطب الجمع ، ولسنا في حاجة إلى المزيد .

أما القصة الأخرى فقد حدثت في نجد بعد ١٩ عاماً من القصة الأولى .

في شعبان سنة ١٣٥١ — ديسمبر سنة ١٩٣٢ زارني احد مشايخ البدو وأخذ يسألني عن أوروبا وما فيها من جمال ورجال ومسلمين وعشب وأمطار وغير ذلك ، ثم قال : هل عليهم شيخ مثل ابن سعود ؟ فأجبته إن عليهم ملوكا ، منهم الملوك الصغار ، ومنهم ملك بريطانيا الذي لا تغرب الشمس عن ملكه . فقال : وهل تفد عليه وفود ، وهل يجزل العطاء لوفوده ؟ فقلت : إنه لا يعطي دراهم لأحد ولا يفد عليه إلا الملوك وكبار الرجال ، ولا يمنح إلا النياشين ، أما جنوده ورؤساء الجنود فلهم مرتبات خاصة يتقاضونها .

— لا بد أن يكون هذا الملك غنيًّا ما دام ملكه لا تغيب عنه الشمس ، لا بد أن تكون قصوره مملوءة بالذهب والجواهر الكريمة . فأجبته : إن الملك ولعائلته مرتباً خاصاً لا يتجاوزونه ، والخزانة العامة تحت أمر وزير المالية وهو مراقب من مجلس الأمة ، فالخزانة يصرف منها أولا على الموظفين الملكيين والعسكريين ، ثم على الأسطول ، ثم على سائر المعدات الحربية ، ثم التعليم والأشغال العامة والصحة وغير ذلك ، كل شيء من هذه الأشياء لها مبالغ مرصودة لا يمكن تجاوزها .

— هل يقتل الملك الناس ؟ فأجبته : إن ملك انجلترا كسائر ملوك أوروبا الآن لا يباشرون الأعمال بأنفسهم ، فالمحكمة إذا حكمت بالقتل فالملك يأمر بالتنفيذ وقد يعفو عن القتل فيستبدل الحكم بالأشغال لمدة معينة ، أما الملك بدون محكمة فلا يستطيع أن يأمر بقتل أحد ، وليس بين الملوك و بين الناس خصومة حتى يأمروا بقتلهم .

— ليسوا هؤلاء ملوكا ، إن من لم تطلق يده على الخزانة ومن تكف يده بهذا الشكل فليس بملك .

هذه هي الروح السائدة ومن هذه الروح تتكون الحكومة العربية ولا يستثنى من ذلك إلا البلاد التي كان يسودها النفوذ التركي ، فطريقة الحكم في الكويت والبحرين ونجد وقطر وعمان متشابهة ، وهي بسيطة ليس فيها من التعقيد ما في البلاد المتمدينة ،

ولكن ضمان العدل يرجع إلى شخصية الحاكم وسهره وميله إلى العدل والإنصاف .

والشيخ أو السلطان أو الأمير هو الحاكم المطلق مصدر السلطات كلها ، إليه ترفع الدعاوى وهو يحولها بدوره إلى الشرع وما يحكم به الشرع ينفذ ، وفى المسائل التجارية يستأنس برأى التجار فتحول القضية إلى واحد أو اثنين أو ثلاثة من التجار حسب أهمية القضية ، والشيخ بعد ذلك يأمر بتنفيذ الحكم ، وفى بعض المسائل الهامة يجمع الشيخ كبار الجماعة لأخذ رأيهم وكثيراً ما يأخذ برأيهم هذا فى الكويت وعمان

أما فى نجد فإن جميع القضايا تحول إلى الشرع فقط ، والقضاة أنفسهم قد يستأنسون بالعرف التجارى فى البلد . كذلك كان الحال فى البحرين إلى سنة ١٩٢٠ ، ومنذ هذه السنة قد وضع للبلد نظام للتقاضى خاص كما وضع لها نظام إدارى جديد . وعلى كل حال فالشرع لا يزال ينفذ على الوطنيين ما عدا الحدود الشرعية .

والبلدة إن كانت صغيرة مثل الكويت يعين الحاكم لها أميراً للسوق للفصل فى القضايا الصغيرة ولا سيما قضايا البادية ، ووظيفة هذا الأمير تشبه وظيفة مدير البوليس ، وإن كانت متسعة الأطراف يعين لكل ناحية أمير من قبل الملك ابن السعود وهو يحدد سلطته ، وسلطته لا تتعدى تنفيذ الأوامر الشرعية .

وربما كان الأميران ابن مساعد وابن جَلوى هما أكبر الأمراء سلطة ونفوذاً ، فإن ابن مساعد يتعدى نفوذه حايل إلى القصيم والجوف وما حولها من البادية ، والأمير عبد الله بن جلوى يمتد نفوذه على مقاطعة الاحساء والقطيف والبادية المحيطة بها ، وهما يفرضان العقوبات البدنية والمالية حسبما يريان ، والغالب عليهما الصرامة فى العقوبة .

وليس من حقوق الأمراء التداخل فى الوظائف المالية ولا التعرض لبيت المال بأى شكل من الأشكال ، ولكنهم إذا رأوا شيئاً من الغبن على الحكومة أو الأهالى فإنهم يرفعون الشكاوى إلى الملك وهو يبحثها ويأمر بما يراه ، ولم تكن لهذه الحكومات إيرادات تذكر إلا ما يرد من زكاة الزرع وما يؤخذ من البادية ، وربما كانت أقل البلاد إيراداً لحكام الكويت حتى سنة ١٣١٤ — ١٨٩٧ أى قبل تسنم الشيخ مبارك كرسى الحكم بعد اغتيال أخويه محمد وجراح ، فقد كان شيوخ الكويت فى ذلك

يتقاضون أشياء ضئيلة على التجارة لم يفرضها الحاكم على الأهالى بل فرضها الأهالى أنفسهم مساعدة للشيخ الذى ليست له موارد تقوم بحاجاته وحاجات عائلته ، وكان شيوخ الكويت يعيشون مع الأهالى كاخوان لهم ، وكان مفروضاً على الدكاكين ضريبة ضئيلة أيضا للقيام بنفقات الحرس فى الليل .

وكانت البحرين كالكويت فى أكثر هذه التدابير ، ولكن حكام البحرين كانوا أغنى وأحسن حالاً من شيوخ الكويت لكثرة أملاكهم فى البحرين ، ولأن سكان البحرين أكثر وأغنى من الكويت .

أما حكام نجد السابقون والحاليون فواردات الحكومة عندهم من الزكاة على الزرع والحيوانات ، وما كان يوضع على الحجاج من الضرائب ، وما يدخل بيت المال من خمس الجهاد ، وما يدخل خزانة الحاكم يصرف منه على حاجاته الشخصية وعلى الأعطيات التى يجود بها على الوافدين . أما المدارس والصحة ووسائل تنظيف البلد وتجميلها فإنه مع استثناء الحجاز ونجد ، نجد الأهالى والحكام مشتركين فى عدم الشعور بالحاجة إليها .

أذكر أن أول مدرسة نظامية أسست فى الكويت سنة ١٣٣٠ ﻫ (١٩١٢) كانت من تبرعات الأهالى وإحسان بنت آل إبراهيم ، ولم يدفع الشيخ مبارك شيئاً لمساعدة أول مشروع علمى فى بلاده ، وقد تبدل الحال كثيراً فى السنوات الأخيرة سواء فى الإدارة أو فى نظام الحكم وطريقته .

ليس فى البلاد العربية ما عدا الحجاز ونجداً جيوش لحمايتها من الطوارئ ، وكل ما هنالك خمسون أو مائة نفر (لحماية الشيخ) ويقومون فى البلد بوظيفة البوليس ، وهذا العدد ينقص أو يزيد تبعاً لما يحس به الشيخ من الضعف أو القوة فى البلد وما يحس به من أبناء عمومته نحوه . أما إذا أصبحت البلاد فى حالة حرب فإن الشيخ يضع على أهالى البلد نفقات وهم يوزعونها على البلد كل بقدر ما يستطيع ، والشيخ يوزع عليهم ما ينقص من السلاح والذخيرة .

وفى البلاد التى لم يعتد أهلها الحرب والطعان مثل الاحساء والقطيف وبعض بلدان الحجاز يفرض عليها ضريبة تسمى إعانة الجهاد .

وبالنظر إلى قلة الواردات التي تستوفى باسم الحاكم ، فإن بعضهم لا يرى غضاضة من الاشتغال بالتجارة : كشيوخ عمان وقطر وبعض شيوخ البحرين الآن . أما شيوخ الكويت والبحرين قبل سنة ١٩٢٠ وأمراء نجد فلم يسمع أن أحداً منهم اشتغل بالتجارة وهم يعدونها عيباً .

لقد كان المعروف فى أكثر البلاد العربية أن كل من ينتمى إلى عائلة الشيخ يمكن أن ترفع إليه الدعاوى وهو يحولها إلى الشرع ، وخدمه يقومون بالتنفيذ ، وقلما كان الشيخ لا يعترض على هذا التصرف إرضاء لبنى عمومته ، وفى الحقيقة كان هذا الضرب مبعثاً للفوضى ومضيعاً للمسئولية . على أن بعض الحكام يأنس من نفسه القوة فيقبض بكلتا يديه على البلد ويمنع أى شخص سواه وسوى من يعينه لمباشرة الأحكام .

فالشيخ مبارك الصباح كان هو الشخص الوحيد فى الكويت المرجع فى الشكاوى ، وأحياناً كان يكل بعض المسائل إلى أحد ولديه الشيخ جابر أو الشيخ سالم .

والملك ابن السعود أشد من الشيخ مبارك فى هذا ، لا يسمح لإخوته أو لأولاده أن يتصرفوا فى أمر من الأمور بدون مراجعته ، ولقد عين الآن النجل الأكبر الأمير سعود (الآن الملك) نائباً عنه فى نجد ، والولد الثانى الأمير فيصل للحجاز وله الإشراف العام وقد ألف قبيل وفاته مجلس وزراء أصبح أساساً لإدارة البلاد .

ولقد كانت حماية الأفراد معروفة فى بلاد العرب : فالشخص الذى يريد الفرار من الحكم أو التخلص مما عليه من التبعة يلحق بخدمة أحد الشيوخ أو يحتمى بظله أو يلتجئ إلى بيته ، كانت هذه الحماية معروفة فى البادية على أكمل مظاهرها كما هى معروفة فى المدن ، وكان الحامى يرى من واجبه حماية من التجأ إليه ما دام يأنس فى نفسه القوة والمنعة ، فإذا رأى أن ذلك يجر عليه مشاكل تركه إلى حيث يجد السلامة ، أما تسليمه إلى من يطلبه فذلك معدود من العيوب التى لا تغتفر ، فإذا كان رجل مديناً لأحد وأراد المدين أن يتخلص من المطالبة فما عليه إلا الاحتماء بأحد الشيوخ وذلك يخلصه من المطالبة ، ولكن هنالك من الشيوخ من لا يرضى بهذا العمل المزرى فيأمر تابعه بتسليم ما عليه من الدين أو يطرده من خدمته

والقاتل إذا التجأ إلى بيت من البيوت الكبيرة فإنها لا تسلمه إلى المطالبين بالدم ،

وهم يحمونه أو يطلقون سبيله إلى حيث يجد السلامة . وربما كان منشأ هذه الحماية الاعتزاز بالعصبية ، والحماية وإن قضى عليها فى نجد والحجاز فلا يزال لها أثر عظيم فى بادية عمان

قلنا : إنه حتى سنة ١٨٩٧ لم تكن على سواحل البلاد العربيه فى الخليج الفارسى جمارك بالمعنى المعروف ، وكانت هناك ضرائب على البضائع لا تتجاوز ٣ ٪ ولكن كان لكل كبير الحق فى جلب ما يحتاجه من أرز وقمح وقهوة وسكر وملابس بدون دفع رسوم جمركية ، وكان أهل السفينة حين رجوعهم من الهند يحضرون حاجاتهم الضرورية معهم بدون دفع رسوم جمركية مادامت لا تستعمل فى التجارة ، ويكفى أن يُخبر مدير الجمرك بقدوم السفينة أو الشىء المطلوب السماح عنه ، وربما كان الشيخ مبارك أول أمراء العرب على الشاطىء الشرقى الذين غلوا فى زيادة الجمارك ، فقد زادت الجمارك حتى ١٠ ٪ على بعض الأصناف

وقد اشتغل أحد أولاده بالتجارة ، وهو الشيخ ناصر المبارك ، وكانت تجارته معفاة من الضرائب ، فكان يصرفها فى السوق بربح الجمرك فأثرى فى مدة قصيرة ، ولكن والده بعد احتجاج التجار أمره بالامتناع عن المتاجرة أو يحصل منه الجمرك أسوة بسائر التجار

ومن المسلم به عند العرب عموماً أن فرض الضرائب على التجارة حرام ، وهم يطلقون اسم المظالم على كل نوع من الضرائب غير الزكاة ، ولذا فإن الشيخ عند ما يعين يرى إرضاء لشعبه تخفيف هذه الضرائب

فالشيخ جابر الصباح بن الشيخ مبارك عند ما تولى الحكم ألغى بعض الضرائب التى أحدثها والده ، والتى لم تعرف فى غير عهد الشيخ مبارك ، والشيخ سالم بن الشيخ مبارك بعد ما تولى الحكم بعد أخيه خفف بعض الضرائب أيضاً

والبحرين إلى سنة ١٩٢١ كانت جماركها مسلمة بالضمان لأحد المندوكين ، والأمير ابن سعود لم يكن يعرف قبل احتلال الاحساء الجمارك ، ولكنه بعد ما استولى على الاحساء والقطيف وضع الجمارك على البضائع الواردة إلى نجد والاحساء ، وكانت الضريبة لا تتجاوز ٥ ٪ وكان الجمرك التزاماً ، وفى أثناء الحرب العالمية نظم الجمارك النجدية الشيخ عبد اللطيف

المنديل ، فزاد الإيراد من خمسة آلاف جنيه فى السنة إلى ٢٠ ألفا ، ثم أخذها بالضمان مرة أخرى أحد أغنياء القطيف بأربعين ألف جنيه ، وفى سنة ١٩٢٠ أخذها بالضمان بمبلغ ٧٢ ألف جنيه على شرط منع المتاجرة مع الكويت ، فأجيب إلى طلبه ثم نظمت الجمارك بعد ذلك وألغى الضمان

وهنالك ضرائب أخرى فى السوق العام كأن يؤخذ شىء معين على ما يرد من البادية : من السمن والغنم والجمال ، وعلى كل حال فإن بلاد العرب أقل بلاد العالم ضرائب ، وهى بلاد فقيرة لا تحتمل ما يفرض على غيرها فى البلاد الأخرى

ونظام نجد فى تحصيل الضرائب لا يختلف عما يجرى فى البلاد العربية المجاورة لها ، وإن كانت نجد تأخذ من الضرائب الجركية أكثر من غيرها بالنظر لما عليها من التبعات

أما فى الحجاز ، فالحالة تختلف كل الاختلاف عن باقى البلاد المجاورة ، لقد كان النظام التركى فى الجمارك والإدارة مطبقاً فى الحجاز ، ولكن وجود الأمير أو الشريف فى مكة بجانب الوالى جعل للشريف شخصية أخرى ونفوذاً آخر بجانب الوالى

كان الشريف يتداخل فى كل شىء فى مكة ولكنه من طريق غير مباشر ، فكان أمر البادية راجعاً إليه ، يفصل فى خصومات البادية ، وكان يضع الضرائب على المطوفين والحجاج والجمالة ، ويختص بها أو يتقاسمها مع الوالى التركى ، وكان الأشراف يمنحون حق التطويف لمن يريدونه من أهل مكة : إما مقابل خدمة قام بها الشخص لهم ، أو مقابل مبلغ من المال . وهذا يفسر لنا الثروة التى جمعها الأشراف أثناء حكمهم فى الحجاز ، وبالطبع كان الناس فى طريق معاملتهم الحجاج يتبعون الخطة التى يرسمها الشريف ، وربما كان الشريف حسين فى السنين الأولى من حكمه أفضل الأشراف خُلُقاً ، وأعلاهم نفساً ، وأنزههم كفاً

أما علاقة الناس بالحكام فى سائر البلاد العربية فعلاقة قائمة على الصداقة والولاء للحكام ، والحكام أنفسهم لا يترفعون عن مخالطة الأهالى ، غير أن الأشراف كانوا يترفعون عن مخالطة الناس ، وبكبرهم يضرب المثل فى سائر الجزيرة العربية

ولقد قضت الثورة العربية على الملك حسين أن يغير الوضع الإدارى الذى كان سائداً

فى الحجاز بوضع آخر يتفق مع روح الثورة وما يتطلبه العرب منه ، فأمر فى أوائل سنة ١٣٣٥ م — ١٩١٧ ﻫ بتأليف وزارة ، كما أمر بإحداث مجلس شيوخ معين من قِبَله لوضع القوانين والنظم الإدارية . غير أن الباحث فى سجلات الحكومة الهاشمية يرى أن الملك حسيناً كان المتصرف فى كل صغيرة وكبيرة ، وأن الوزراء والمجلس لم يكونا إلا طلاء ، كما أنه لم يكن هناك نظام لتوزيع العمل والمسئوليات ، فأقل المسائل أهمية تأخذ سلسلة طويلة من التحويل من وزارة إلى أخرى حتى تنتهى إلى الملك الذى يأمر فيطاع ، وبجانب هذه التشكيلات الإدارية قد وضع الملك حسين موظفين خاصين للفصل فى منازعات البدو — لأنها تحتاج إلى السرعة .

أما الحكومة الحالية فإن الملك عبد العزيز قد ألغى أولا النظام الذى أسسه الملك حسين لأنه لم يرق فى نظره : فألغى الوزارة وجعل السلطة التنفيذية فى يده ، وعين بضعة مديرين للدوائر الهامة : بعضهم مرتبط مع جلالته رأساً ، وبعضهم مرتبط بسمو نائبه العام ، وسلطة هؤلاء المديرين تضيق وتتسع باعتبار شخصياتهم ورضا الملك عنهم ، وبجانب النائب العام كان مجلس صغير معين من بضعة أشخاص ومستشارين معينين لمساعدة سموه ، وقد تغير هذا النظام تدريجيا ، فبدلا من مجلس الإدارة أسس مجلس الشورى من نخبة المتعلمين وأعيان البلاد ، وبدلا من المديرين عين بضعة وزراء للخارجية والداخلية والمالية والدفاع ، غير أنه للآن لم يوضع نظام لتوزيع الأعمال وتحديد المسئوليات ، فالأعمال كانت ترجع إلى سمو النائب العام الذى بدوره يحول أكثرها إلى جلالة الملك تخلصاً من المسئولية ، كما أن مجلس الشورى ليس له حدود معينة ، فكثير من المسائل الصغيرة تحوّل إليه فى الوقت الذى يفصل دونه فى مسائل عظيمة الأهمية .

وفى سنة ١٣٧٣ ﻫ — ١٩٥٣ م أمر جلالة المرحوم الملك عبد العزيز بتشكيل مجلس وزراء أسند رياسته لولى عهده الأمير سعود ، وبعد وفاة جلالته أسندت رياسة الحكومة إلى صاحب السمو الملكى الأمير فيصل ولى العهد ، ووزعت الوزارات على أخوانه ما عدا وزارة المالية ووزارة التجارة فقد أسندت إلى رجلين من غير العائلة المالكة .

وبالإجمال فإن أمراء العرب اعتادوا الاعتماد على أنفسهم فقط ومباشرة صغار الأمور

وكبارها ، وليس فيها نظام لتوزيع الأعمال ، على أن نظاماً كهذا يفتقر إلى موظفين يحوزون ثقة الملك ورضاءه الدائم ويعملون لصالحه وصالح بلاده بكل نزاهة ، ومهما كانت عيوب النظام الإدارى فإن شخصية الملك عبد العزيز وحبه للعدل ، وحرصه على صالح شعبه ، وسهره الدائم على مصالح رعيته ، ومواصلته الليل بالنهار فى مراقبة صغير الأمور وجليلها ، جعل أكثر الأعمال تسير فى طريق مرضى بفضل شخصيته وشخصية أنجاله المباشرين للأعمال .

السياسة الخارجية

لم يكن لأمراء العرب اهتمام بالسياسة الخارجية ، لأن بعض أمراء هذه البلاد تمنعه المعاهدات المعقودة بينه وبين انجلترا من مخابرة أى دولة أجنبية مثل الكويت والبحرين وعمان ، وبعضها كنجد والحجاز كان معدوداً دولياً من الامبراطورية العثمانية ، على أن كثيراً من شيوخ العرب لا يفهمون السياسة الخارجية على وجهها الصحيح

لقد سألنى قبل أربع سنوات أحد شيوخ البحرين عن حقيقة ما أشيع من أن جلالة الملك سيقبل تعيين أحد القناصل فى القطيف أو فى الاحساء . فقلت له : إن الإشاعة غير صحيحة ، ولكن ماذا يمنع من ذلك إذا كانت هنالك مصالح للرعايا الانجليز مثل الهنود وغيرهم توجب تعيين قنصل ؟ فقال : إذا قبل الملك ذلك فعلى بلاده السلام ؟ إن الراية الانجليزية ما رفعت على بلد إلا وأعقبها الاستيلاء عليه . فقلت له : إن هذا غلط عظيم ، فادمت لا تترك بابك مفتوحا فلا الانجليز ولا غيرهم يدخلون ، وإن رفع الراية على القنصلية ليس معناه أن البلد تابع للانجليز ، فنحن يمكننا أن نرفع رايتنا فى بلادهم وفى الهند . فقال : لقد رأيت ما صنعوا فى البحرين ؟ إنهم فى خمسين سنة قضوا على كل نفوذ لشيوخ البحرين :

فأجبته أنى أعتقد لو أن شيوخ البحرين كانوا ساهرين على مصالح رعاياهم ومصالح الساكنين فى جزيرة البحرين ما تداخل الانجليز فى شئون البحرين ، ولكن كيف يقف الانجليز مكتوفى الأيدى وأموال رعاياهم ورعايا غيرهم من الدول فى خطر ، ولست فى حاجة

إلى بحث الحوادث الكثيرة التى تقلبت فيها البحرين من جهة اختلال الإدارة ، فإن ذلك معروف . فقال الشيخ : مهما كان الأمر فقد كان يجب النصح والإرشاد فقط ، وعلى كل حال فأرجو أن يعتبر الملك عبد العزيز بجيرانه ولا يقبل تعيين قنصل فى بلاده

وهذا الشيخ فى الواقع يعبر أحسن تعبير عن العقلية السائدة فى جزيرة العرب ، بل لقد امتنع أهل دُبَى من ساحل عمان من وضع كرنتينة فى بلادهم سنة ١٩٢٨ وقت حدوث الكوليرا فى العراق ، وقالوا لاتمر البواخر ببلادنا حتى تصبح حالة البصرة الصحية مرضية ، ولا داعى لإقامة محجر صحى فى بلادنا ، وامتنعوا أيضاً عن قبول إنشاء محطة للطيران فى بلادهم ، كل هذا ابتعاداً عما يمكن أن يقع لبلادهم مثل ما وقع فى البحرين

أشراف مكة

كانت مكة حتى سنة ٣٥٨ هـ إمارة تابعة لبغداد ، شأنها فى الإدارة شأن سائر الإمارات التابعة للخليفة

ولما استولى الفاطميون على مصر واقتطعوها مع بعض البلدان الأخرى من بلاد الخليفة العباسى استقل الأشراف الحسنيون بمكة ، وأولهم جعفر بن محمد بن الحسين بن محمد الثائر ، وهؤلاء الأشراف أربع طبقات : الموسويون أو بنو موسى ، والسليمانيون ، والهواشم ، وهذه الطبقات الثلاث حكمت مكة من سنة ٣٥٨ إلى سنة ٥٩٨ أى ٢٤٠ سنة

والطبقة الرابعة قتادة و بنوه ، وهؤلاء حكموا من ٥٩٨ هـ إلى سنة ١٣٤٤ هـ وهى السنة التى أجلى فيها الملك على بن الحسين عن جدة

والواقف على تاريخ الأشراف فى الحجاز يرى أنه تاريخ مملوء بالدماء والفظائع ، فالشريف منهم فى سبيل الإمارة لم يكن يتورع عن قتل أخيه وأبناء عمومته فى سبيل الحكم ، ولقد بلغت ببعضهم القسوة أن قتل أخاه وطبخ لحمه ودعا إخوانه الباقين لوليمة قدم لهم فيها لحم أخيه ؟!

لقد كان الأشراف فى سبيل الإمارة يستعينون بكل من يمكن الاستعانة به من أمراء الحج المصرى أو الشامى ، كما أن النفوذ المصرى فى الحجاز كان يظهر تارة ويختفى أخرى ، كان تارة مباشراً وأخرى غير مباشر إلى أن فتح الأتراك مصر سنة ٩٢٢ هـ فقدم شريف مكة طاعته للسلطان سليم الذى بويع بالخلافة ولقب بخادم الحرمين الشريفين ، وكان نفوذ الأتراك والمصريين يظهر تارة ويختفى أخرى ، وكلما أنس الأشراف ضعفاً من الأتراك والمصريين وسعوا نفوذهم إلى الجهات المجاورة . ولما ضعف الأتراك فى القرنين الماضيين وساد الاضطراب مصر أصبح الأشراف ذوى الكلمة المسموعة فى الحجاز والنفوذ الفعلى ، ولو أنهم ما زالوا يتظاهرون بأنهم خدام السلطان ويخطبون باسمه فى المساجد . وإلى القرن الثامن عشر كان حق انتخاب شريف مكة محصوراً فى

بنى بركات (نسبة إلى الشريف بركات بن السيد حسن الجَعْلان الذى خلف أباه سنة ٨٢٩ هـ وهو من جهة أمه ينتسب إلى الهواشم الذين خلعوا من حكم مكة سنة ٥٩٨ هـ)

وبعد حروب بين بنى بركات ومنافسيهم من القبائل غلبوا على أمرهم ، وتسنم الإمارة ذوو زيد ولم يكن فيهم منصب شريف مكة وراثيا ولكنه على كل حال بقى فى هذه القبيلة حتى غلبت على أمرها ، فكان بمجرد موت الشريف يعلو إلى المنصب أقوى العائلة سلطاناً وأكثرهم أنصاراً ، وربما كان أقوى الأشراف فى القرن الثامن عشر الشريف سُرُور ١١٨٦ هـ — ١٢٠٣ هـ ، فإنه أول من أذل الأشراف وكسر شوكتهم وسلطانهم وأسس حكماً عادلا فى مكة

لقد كانت عادة الأشراف أن يكون فى بيت كل شريف ٣٠ — ٤٠ عبداً مسلحاً عدا الخدم والأقارب ، ومن يمت إليه بصلة القرابة من البدو الذين يعيشون بتربية الغنم والإبل وعطايا الحجاج ، وكان الأشراف قبل حكم الشريف سرور حكاماً فى مكة قلما يخضعون لأوامر شريف مكة ، وكان همهم جمع المال بكل الوسائل الممكنة ، فكانوا كثيراً ما يقتالون الحجاج ويقطعون عليهم الطريق بين جدة ومكة ، أو مكة والمدينة ، بل كثيراً ما كانوا يقتالون الحجاج فى بيوتهم مما تأباه شيمة العربى الكريم

فبعد جهاد طويل تمكن الشريف سرور من إخضاع الأشراف فجعل سكان مكة يحبونه من كل قلوبهم ، وكان هو نفسه خير قدوة للطبقة الوسطى فى بساطة حياته وتواضعه وكرمه لأهله وعشيرته ، مع اشتهاره بالشجاعة النادرة والذكاء المتوقد

أما مارواه بركهرت من أن الشريف سروراً اكتفى بنفى المتآمرين عليه ، فإنه يخالف ما رواه السيد دحلان من أن الشريف صلب رئيس العصابة ومثل ببعض العبيد وقتل البعض الآخر

ويلى سروراً فى الشهرة الشريف غالب وإن كان دونه فى حب العدل ، وفى أيام غالب غزا السعوديون الحجاز ، كما أنه فى أيامه أيضاً كان غزوة المصريين للحجاز ونجد ، وقد قبض عليه محمد على باشا ونفاه إلى سلانيك حيث مات هنالك

وبعد استرداد مكة بأيدى القوات المصرية قوى النفوذ التركى والمصرى ، وأصبح

الأشراف خاضعين تمام الخضوع الأوامر الباب العالى . وقد أراد المصريون أن يكون نفوذهم فعلياً فعينوا الشريف محمد بن عون وجعلوا إلى جانبه محافظاً فى مكة ومحافظاً فى جدة ، كما أنهم وضعوا لأول مرة حامية أجنبية فى مكة لتضمن لهم السيطرة والسلطان وتحول دون انتقاض الأشراف عليهم

ولما انسحبت الحاميات المصرية سنة ١٢٥٦ ﻫ حسب الصلح الذى تم بين السلطان عبد الحميد ومحمد على استبدل بالولاة المصريين الولاة الأتراك ، كما استبدلت بالحاميات المصرية الحاميات التركية فى مكة والمدينة والطائف وجُدة ، وأصبح الأشراف يعينون ويعزلون حسب أوامر الباب العالى المطلقة ، غير أن هذا لم يمنع الأشراف من إرهاق الحجاج وظلم السكان

كان الباب العالى يرسل رئيس القضاة إلى مكة كل مدة معينة لضمان العدل ، وحتى يكون القضاء مستقلا عن الحكم ، فلا يكون للأشراف نفوذ أو تأثير فى قضاء القاضى ، ولكن هذا الغرض لم يحصل إلا نادراً ، وكان أكثر القضاة آلة فى يد شريف مكة ، وفى الغالب لا يحكم فى الدعوى قبل أن تقدم الهدايا للقاضى

وكان سكان مكة معفين من جميع الضرائب الشخصية والعقارية ، غير أن الأشراف كانوا يضعون ضرائب صغيرة على الأغنام والمواشى ، كما كانوا يضعون ضرائب على الحجاج وقوافلهم

وفى سنة ١٣٢٦ ﻫ — ١٩٠٨ م رشح كامل باشا الصدر الأعظم الشريف حسين بن على أميراً على مكة بعد وفاة ابن عمه الأمير عبد الإله فى طريقه إلى مكة ، وكان قد اختير شريفاً لمكة خلفاً للأمير على باشا الذى خلع من الإمارة وأبعد مع عائلته إلى مصر

ولد الشريف حسين بن على سنة ١٢٣٠ ﻫ (١٨٥٣ م) بالآستانة وبقى مع والده مدة فيها ، ثم ذهب إلى مكة بمعية والده الذى عين أميراً لمكة ، وبقى بها إلى أن تولى إمارة مكة عمه الشريف عون الرفيق سنة ١٢٩٩ ﻫ فطلب إبعاده عن مكة لأنه خطر على الأمن فأبعد إلى الآستانة ، وبقى بها حتى أسندت إليه إمارة مكة ، وقد اختير الشريف حسين للعمل على نشر السلم فى بلاد العرب وتقوية نفوذ الأتراك فيها بعد أن كاد نفوذهم يتصدع ،

وقد عمل شريف مكة فى هذا السبيل بكل ما أوتى من قوة لأنها تتفق مع الخطة التى كان يضمرها فى نفسه من تقوية نفوذه وبسط يده على بلاد العرب

لقد سافر سنة ١٣٢٧ هـ ١٩١٠ م على رأس الحملة التى أعدت لتأديب الإدريسى الشاق عصا الطاعة على الأتراك ، فدحر قوات الإدريسى ودخل أبْها دخول الفاتح الظافر ، وفى السنة نفسها سافر على رأس قوة وصلت للشّعْرا[1] لإجبار حاكم نجد على الاعتراف بتبعية عتيبة للحجاز

وإذا كان الأشراف قد سلكوا فى الناس مسلك الكبر والجبروت والترفع عن الناس وعدم مخالطتهم ، فإن الشريف حسيناً قد امتازت أيام إمارته الأولى بالتواضع والعدل والغيرة على أهل مكة والدفاع عن مصالحهم ، كما أنه اشتهر أيضاً بالشجاعة وعلو النفس ونقاء الذيل

لقد وقف الشريف حسين فى وجه جميع الإصلاحات التى كان يريد الأتراك الاتحاديون القيام بها فى الحجاز ؛ لأنه رأى من خلالها تقوية نفوذ الأتراك وشل يده عن العمل فى الحجاز ، فعرقل مَدّ سكة حديد (جدة — مكة) كما عرقل مد طريق مكة إلى الطائف من جهة جبل كَرَى

لقد سمعنا ونحن فى الآستانة سنة ١٩١٢ م ما يهجس به الأتراك نحو شريف مكة ، ومن سوء ظنهم به وبخديوى مصر السابق وعزمهم على التخلص منه ، ولكن الشريف تمكن من التغلب عليهم ومن التخلص من مؤامراتهم ، واستعد سرا للتخلص من سيادتهم ونفوذهم على الحجاز ، فاختار الوقت المناسب له ، فأعلن الثورة عليهم وتغلب على حامياتهم الواحدة بعد الأخرى بمساعدة بعض القوات المصرية التى أوفدها الانجليز لمساعدته حتى دانت له الحجاز كلها

(١) الشعرا : أول قرى نجد من ناحية الحجاز

العرب والترك

فى القرن العاشر الهجرى بسط الأتراك نفوذهم على سائر البلاد العربية : الحجاز واليمين وسواحل الخليج الفارسى ، وأصبح القسم الأكبر منها جزءاً من الأمبراطورية العثمانية ، وبقيت معتبرة جزءاً منها فى العرف الدولى حتى إعلان الصلح مع تركيا

كانت الثورات تقوم من وقت لآخر فى بلاد العرب بين الحكومة التركية وبين الأمراء المحليين سعياً وراء الاستقلال الداخلى ، مرة فى اليمن وأخرى فى عسير ، وآونه فى نجد ، وطوراً فى سوريا ، فكانت هذه الثورات نتيجة للعسف التركى ، أو لجهل الأتراك عادات وتقاليد العرب

إن الواقع الذى لا ينكر أن الأتراك كانوا رجال فتح وحرب ، ولم يكونوا رجال تعمير وتمدين ؛ فالبلاد التركية والبلاد العربية التى خضعت للسيادة التركية مدة طويلة كانت فى التقهقر والتأخر سواء ، لذلك انضم أحرار العرب ومتعلموهم من ضباط وغيرهم إلى أحرار الأتراك ؛ وعملوا معهم فى الجمعيات السرية ، واشتركوا معهم فى جميع الأعمال الثورية التى أسقطت السلطان عبد الحميد ونجحت فى إعلان الدستور العثمانى فى تركيا

كان متعلمو العرب يأملون أن بلادهم فى ظل الدستور سيشملها الإصلاح الذى هى فى أشد الحاجة إليه ، ولكن الأمل خاب ، فإن شبان الأتراك أخذوا ينظرون إلى الشعب العربى عامة وإلى زملائهم خاصة ، لا نظر الأخ إلى أخيه بل نظر الحاكم الغشوم إلى المحكوم ، فلم يكن بُدّ لقادة العرب المتعلمين من النظر فى أمرهم وأمر بلادهم ، ووضع حد لغلو الأتراك ، فألفوا الجمعيات السرية فى الجيش ، كما ألفوا الأحزاب السياسية للدفاع عن حقوق العرب ولإصلاح البلاد العربية ، وأهم هذه الجمعيات :

الجمعية القحطانية

تشكلت فى الآستانة سنة ١٩٠٩ م من قبل وزير الأوقاف خليل حمادة باشا ، والسيد عبد الحميد الزهراوى ، وسليم بك الجزائرى وزملائه

جمعية العهد

شعبة من الجمعية القحطانية ، أسسها عزيز على بك المصرى بعد عودته من طرابلس الغرب سنة ١٩١٣ م وحصرها فى ضباط العرب

حزب اللامركزية

تألف فى مصر سنة ١٩١٢ م من السيد الزهراوى ورفيق بك العظم ، والسيد رشيد رضا ، وحقى بك العظم ، وزملائهم ، وغايته الوصول بكل الوسائل المشروعة إلى تأسيس حكومة لامركزية فى جميع الولايات العثمانية

كانت جميع هذه الجمعيات على اختلاف منازعها تواصل مساعيها فى بث الدعوة القومية وإنهاض الروح العربيـة ، فأنشأت الفروع والشعب فى معظم المدن العربية : بغداد ودمشق وحلب وحمص وحماة و بيروت

وفى سنتى ١٩١٢ و ١٩١٣ م أخذت الصحف العربية والتركية تناقش بعضها بعضاً مناقشات كانت حادة فى كثير من الأحيان ، وأخذ مُتَطرفو الأتراك يؤلفون الـكتب فى الطعن فى العرب وكل ماله علاقة بالعرب ، واتهموا القائمين بالحركة الإصلاحية بأنهم يعملون لحساب الأجانب وأن الأيدى الأجنبية هى التى تدير هذه الجمعيات

لم يكن حزب من الأحزاب العربية يرمى إلى الانفصال عن الترك ، بل كل ما كان يرمى إليه الجميع هو الإصلاح العربى وإحياء القومية العربية و بقاء العرب بجانب الأتراك كاخوة وحلفاء لا كسيد ومسود

المؤتمر العربى بباريس

فكر متعلمو العرب المقيمون فى باريس فى عقـد مؤتمر عربى ، فخابروا الجمعية اللامركزية فى مصر بفكرتهم وحددت المسائل التى ستكون مدار البحث وهى :

(١) الحياة الوطنية ومناهضة الاحتلال

٢) حقوق العرب فى المملكة العثمانية

(٣) ضرورة الإصلاح على قاعدة اللامركزية

(٤) المهاجرة من سوريا وإليها

فوافقت اللجنة العليا على الاقتراح ، وقررت إرسال مندوبين من قبلها ، فانعقد المؤتمر العربى فى القاعة الكبرى للجمعية الجغرافية فى باريس من ١٨ يونيه سنة ١٩١٣ م إلى ٢٣ منه ، وقد قال السيد عبد الحميد الزهراوى فى خطبة افتتاح المؤتمر :

« إن العرب كانوا ألِفُوا الترك ، وهؤلاء قد ألفوا العرب منذ عشرة قرون ، ولكن كما مزجت بينهم السياسة فرقت بينهم السياسة أيضا ، ولم يبق من ذلك الامتزاج القديم إلا رابطة بين البعض ، وهذه الرابطة لا تزال تعد ثمينة عند الترك والعرب معاً ، ولكنها مع عزتها قد أصبحت مهددة بالسياسة أكثر مما كانت من قبل ، ومعلوم أن السياسة فى هذه المملكة بيد الترك ؛ ولذلك تعرفها أوربا أنها تركية ، فلما رأى العرب الآن ما وصلت إليه هذه المملكة بتلك السياسة التى مضى العمل عليها حتى الآن ، وكانوا حريصين على البقية الباقية من تلك الرابطة ، تنبهوا إلى واجب عظيم كان الترك والعرب جميعاً غير مهتمين به كما ينبغى ، وهو اشتراك الفريقين فى سياسة البلاد ، فانه قد تبين واضحاً أنه لا العرب انتفعوا ببراءتهم من ذنب إضاعة البلاد ولا الترك انتفعوا بتحملهم وحدهم تبعة ذلك العبء الثقيل ، وبدهى أن هذا الاشتراك لا ينافى الإخاء بل الذى ينافيه هو عدم هذا الاشتراك »

قلقت جمعية الاتحاد والترقى لهذه الحركة فأيقنت أنها إن لم تعالج الموضوع بحكمة وعقل ، فإن بلاد العرب قد تفلت من أيديهم ، وأيد هذا الاعتقاد فى نظرهم اغتيال قومندان البصرة بيد أعوان السيد طالب النقيب ، وانتزاع الاحساء والقطيف من أيديهم بيد الأمير ابن السعود ، وهم كما قدمنا يعتقدون أن الحركة العربية وليدة تحريضات الأجانب لا الشعور بالحاجة إلى الإصلاح

بدأت الحكومة العثمانية تستعمل الشدة فى أول الأمر ، فألقت القبض على عدة من أعضاء الجمعية الإصلاحية فى بيروت ، فأغلقت المدينة دكاكينها أياماً ، فأخرجهم

الوالى من السجن ، وأخيراً رأت أن تعالج المشكلة بالطرق السياسية ، وأرسلت جمعية الاتحاد والترقى مدحت شكرى بك سكرتيرها إلى باريس ليتفاوض مع أحرار العرب ، ويتفق معهم على خير الطرق التى تعيد إلى الأمتين العربية والتركية الثقة المتبادلة . والصداقة الوطيدة القديمة التى ربطت بين الشعبين قروناً طويلة ، فاتفق الفريقان على أكثر المسائل المختلف عليها

وأصدرت الحكومة العثمانية فى أوائل أغسطس سنة ١٩١٣ م القرار الرسمى التالى :

إنه بالنظر للضرورات واختلاف الأمزجة فى الولايات العثمانية إلى وجوب ترقية البلاد وإسعاد أهلها وزيادة رفاهيتهم ، تقرر بعد الاتكال على الله ومفاوضة الولايات

(١) أن يعهد فى إدارة الأوقاف الموقوفة على أعمال الخير المحلية إلى المجالس المحلية فى الولايات حسب قانون ينشر قريباً

(٢) أن تكون الخدمة العسكرية فى زمن السلم فى دائرة التفتيش ، إلا إذا رأت الحكومة أن هنالك من الأسباب مايدعو إلى حشد الجنود فى جهة من الجهات فترسل الجنود على الطريقة النسبية

(٣) يكون التدريس باللغة العربية فى الجهات التى يتكلم أكثر سكانها اللغة العربية ، ويبدأ بذلك فى المكاتب الرشيدية والإعدادية ، والاستعداد لتوفير الأسباب فى التعليم العالى

(٤) يختار الموظفون من الآن من الواقفين على اللغة العربية علاوة على اللغة التركية ، ويعين الموظفون الثانويون من الولاية رأساً حسب قانون الولايات

وعلى أثر ذلك تبادل العرب والترك الزيارات ، وأظهروا رضاءهم وولاءهم للأتراك ، وفى الوقت نفسه عمل الأتراك على إيقاع الشقاق بين قادة العرب ، فعينوا السيد الزهراوى رئيس مؤتمر باريس عضواً فى مجلس الأعيان ، وعينوا بعض شبان العرب فى بعض الوظائف الهامة ، فاشتد غضب الشبيبة العربية على هؤلاء الذين قبلوا الوظائف ورموهم بخيانة الأمانة التى اؤتمنوا عليها

أما الإصلاحات فبقيت حبراً على ورق ، وأراد الأتراك أن ينالوا من العرب بالتسويف والمطل ويضربوا زعماء الحركة الواحد تلو الآخر ، غير أن ذلك لم يطل كثيراً ؛ فان الحرب العامة قد استعر لهيبها وأظهر الأتراك ميلهم إلى الألمان وأخيراً انضموا إليهم

الثورة العربية

كان الشائع في الدوائر التركية العليا أن شريف مكة يعمل فى الخفاء على الانفصال من الأتراك ، وأن أولاده أثناء مرورهم بمصر يمهدون الطريق لذلك بواسطة اللورد كتشنر، وأن شريف مكة لا يحاول الانفصال فقط من الأتراك ، بل يعمل أيضاً لاستعادة الخلافة منهم ، وكان يقوى هذه الإشاعات عند الأتراك مقاومة الشريف لكل عمل إصلاحى يراد إدخاله إلى الحجاز ، فصمموا على التخلص منه فعينوا وهيب بك والياً للحجاز للقيام بهذه المهمة ، ولكن شريف مكة كان عالماً بكل ما كان يدبره الأتراك له فى الخفاء ، وكان يطلع على جميع المخابرات التى بين الوالى ووزارة الداخلية والحربية فى الآستانة ، ولذا كان يعمل لإحباط المساعى من جانب وهيب بك والحذر من الوقوع فى الفخ ، وهو يعلم أنه ليس أول شريف خلعه الأتراك من إمارة مكة

أعلن الأتراك الجهاد على الحلفاء ، ووزعوا المنشورات فى سائر الولايات التركية كما أرسلوها سراً إلى بعض الجهات الخاضعة للحلفاء ، وظنوا أن المسلمين سيتبعونهم ، وكانوا جاهلين تمام الجهل حالة الإسلام والمسلمين المعنوية والمادية ، وغرهم بعض الزعماء بأن أى حركة يقوم بها الأتراك ضد انجلترا أو فرنسا لاتلبث أن توقد النار فى المستعمرات البريطانية الفرنسية ، ولكن الحوادث كشفت خطأ الأتراك فيما تخيلوه ، ولسنا ننكر ما حدث من الأثر بسبب دخول تركيا الحرب ضد الحلفاء ، ولكن الأثر لم يكن عظيما فإن ما أخذه الحلفاء من الاحتياطات وما بثوه من الدعايات فى كل مكان قد أحبط مساعى الأتراك والألمان

دخل البريطانيون فى مفاوضات مع الشريف حسين لوصل ماانقطع من المفاوضات مع اللورد كتشنر ، واتفق الانجليز وشريف مكة على خطة العمل . وإننا هنا لانريد أن ننقل رأى الترك فى حركة الملك حسين ولا أن نعيد ما نشروه بعد الثورة العربية ، ولا نريد كذلك أن نعيد ما نشره الملك حسين لتبرير ماقام به من الثورة ضد الأتراك الذين أجلسوه على إمارة مكة ، ولكن الشىء الذى لا يمكن أن يدفع ، والذى أدمى قلوب العرب هو

تلك المأساة التى قام بها جمال باشا فى الشام من قتل وتغريب ومصادرة ، مما جعل شريف مكة يتعجل الثورة قبل أن يصل إليه الدور ، فقد قاموا يتآمرون على خلعه والانتقام منه ومن أولاده فأحبط مساعيهم ، وأبطل خططهم بعد أخذ ما تمكن منه من مالهم وسلاحهم ، وقد أوقفت الثورة العربية طغيان جمال باشا وأبدلت شدته ليناً ، ولكن الجرح الذى أحدثه فى قلوب العرب لم يندمل

مقررات النهضة

يسمّى الملك حسين الكتب المتبادلة بينه و بين الانجليز مقررات النهضة أى الأسس التى قامت عليها الثورة العربية

والمخابرات التى كانت دائرة بين الملك حسين والحكومة البريطانية حتى إعلان الثورة ضد الأتراك كانت سرية شخصية لم يشترك فيها أحد من أمراء العرب أو قادتهم ، حتى أبناء الملك حسين لم يكونوا محيطين بهذه المخابرات كما كان يجب أن يكون ، وقد صرح المرحوم الملك فيصل لأحد مراسلى الصحف العربية بأن الحجج التى يجب أن يتذرع بها لم يكن يملكها ؛ لأن والده لم يرسل إليه وهو فى باريس الكتب الرسمية التى تعهد فيها الانجليز بتكوين المملكة العربية

ونرى لزاماً علينا أن ننشر الكتب الأربعة ونعقبها برأى الملك حسين فى الامبراطورية العربية ، ثم رأى الجانب البريطانى وما يدلى به من الحجج للرد على ما يتمسك به الملك حسين تاركين الحكم للقارئ ، فليس من غرضنا إصدار الحكم على هذا الفريق أو ذاك ، بل الغرض الأسمى هو نشر ما لدينا من الوثائق لخدمة التاريخ العربى

الكتاب الأول

إلى السيد الحسيب النسيب ، سلالة الأشراف وتاج الفخار ، وفرع الشجرة المحمدية والدوحة القرشية الأحمدية ، صاحب المقام الرفيع ، والمكانة السامية ، السيد الشريف ابن الشريف السيد الجليل المبجل دولتلو الشريف حسين سيد الجميع ، أمير مكة المكرمة قبلة العالمين ، ومحط رحال المؤمنين الطائفين ، عمت بركته الناس أجمعين

بعد رفع رسوم وافر التحيات العاطرة ، والتسليمات القلبية الخالصة من كل شائبة ،

تعرض أن لنا الشرف بتقديم واجب الشكر لاظهاركم عاطفة الإخلاص ، وشريف الشعور والإحساسات نحو الانجليز ، وقد يسرنا علاوة على ذلك أن نعلم أن سيادتكم ورجالكم على رأى واحد ، وأن مصالح العرب هى نفس مصالح الانجليز ، والعكس بالعكس ، ولهذه النية فنحن نؤكد لكم أقوال فخامة اللورد كتشنر التى وصلت سيادتكم عن يد على أفندى ، وهى التى كان موضحاً بها رغبتنا فى استقلال بلاد العرب وسكانها مع استصوابنا للخلافة العربية عند إعلانها ، وإنا نصرح هنا مرة أخرى أن جلالة ملك بريطنيا العظمى يرحب باسترداد الخلافة إلى يد عربى صميم من فروع تلك الدوحة المباركة . وأما من خصوص مسألة الحدود والتخوم ، فالمفاوضة فيها يظهر أنها سابقة لأوانها ، وصرف الأوقات سدى فى مثل هذه التفاصيل ، فى حالة أن الحروب دائرة رحاها ، ولأن الأتراك أيضاً لا يزالون محتلين لأغلب تلك الجهات احتلالاً فعلياً ، وعلى الأخص ما علمناه وهو ما يدهش ويحزن ، أن فريقاً من العرب القاطنين بتلك الجهات نفسها قد غفل وأهمل هذه الفرصة الثمينة التى ليس اعظم منها ، وبدل إقدام ذلك الفريق على مساعدتنا نراه قد مد يد المساعدة إلى الألمان والأتراك . نعم مد يد المساعدة لذلك النهّاب السلاب الجديد وهو الألمان ، وذلك الظالم العسوف وهو الأتراك

ومع ذلك فإنا على كمال الاستعداد لأن نرسل إلى ساحة دولة السيد الجليل ما تحتاجه البلاد العربية المقدسة والعرب الكرام من الحبوب والصدقات المتوفرة فى البلاد المصرية ، وستصل بمجرد إشارة سيادتكم ، وفى المكان الذى تعينونه ، وقد عملنا الترتيبات اللازمة بمساعدة رسولكم فى جميع سفراته إلينا : ونحن على الدوام معكم قلباً وقالباً ، مستنشقين رائحة مودتكم الزكية ، ومستوثقين بعرى محبتكم الخالصة ، سائلين الله سبحانه وتعالى دوام حسن العلائق بيننا

وفى الختام أرفع إلى تلك السدة العليا كامل تحياتى وسلامى وفائق احترامى ؟

المخلص

السير ارثر مكماهون

نائب جلالة الملك

تحريراً فى ١٩ شوال سنة ١٣٣٣ — ٣٠ أغسطس سنة ١٩١٥

الكتاب الثانى

بسم الله الرحمن الرحيم

إلى فرع الدوحة المحمدية ، وسلالة النسب النبوى ، الحسيب النسيب دولة صاحب المقام الرفيع ، الأمير المعظم السيد الشريف ابن الشريف أمير مكة المكرمة صاحب السدة العليا ، جعله الله حرزاً منيعاً للإسلام والمسلمين بعونه تعالى آمين . وهو دولة الأمير الجليل الشريف حسين بن على أعلى الله مقامه .

قد تلقيت بيد الاحتفاء والسرور رقيمكم الكريم ، المؤرخ بتاريخ ١٩ شوال سنة ١٣٣٣ ، وبه من عباراتكم الودية المحضة وإخلاصكم ما أورثه رضاء وحبوراً .

إنى متأسف أنكم استنتجتم من عبارة كتابى السابق أنى قابلت مسألة الحدود والتخوم بالتردد والفتور ، فإن ذلك لم يكن القصد من كتابى ، ولكنى رأيت حينئذ أن الفرصة لم تكن حانت للبحث بعد فى ذلك الموضوع بصورة نهائية .

ومع ذلك فقد أدركت من كتابكم الأخير أنكم تعتبرون هذه المسألة من المسائل الهامة الحيوية المستعجلة ، فلذلك قد أسرعت فى إبلاغ حكومة بريطانيا العظمى مضمون كتابكم ، وإنى بكمال السرور أبلغكم بالنيابة عنها التصريحات الآتية التى لا شك فى أنكم تنزلونها منزله الرضى والقبول .

إن ولايتى مرسين واسكندرونة ، وأجزاء بلاد الشام الواقعة فى الجهة الغربية لولايات دمشق الشام ، وحمص ، وحماة ، وحلب ، لا يمكن أن يقال عنها إنها عربية خالصة ، وعليه يجب أن تستثنى من الحدود المطلوبة مع هذا التعديل ، وبدون توخ للمعاهدات المعقودة بيننا وبين بعض رؤساء العرب ، نحن نقبل تلك الحدود .

وأما من حيث الأقاليم التى تضمها تلك الحدود حيث بريطانيا العظمى مطلقة التصرف بدون أن تمس مصالح حليفتها فرنسا ، فإنى مفوض من قبل حكومة بريطانيا العظمى أن أقدم المواثيق الآتية ، وأجيب على كتابكم بما يأتى :

(١) إنه مع مراعاة التعديلات المذكورة أعلاه فبريطانيا العظمى مستعدة بأن

تعترف باستقلال العرب ، وتؤيد ذلك الاستقلال فى جميع الأقاليم الداخلة فى الحدود التى يطلبها دولة شريف مكة .

(٢) إن بريطانيا العظمى تضمن الأماكن المقدسة من كل اعتداء خارجي وتعترف بوجود منع التعدى عليها .

(٣) وعندما تسمح الظروف تمد بريطانيا العظمى العرب بنصائحها ، وتساعدها على إيجاد هيئات حاكمة ملائمة لتلك الأقاليم المختلفة .

(٤) هذا وإن المفهوم أن العرب قد قرروا طلب نصائح وإرشادات بريطانيا العظمى وحدها ، وأن المستشارين والموظفين الأوربيين اللازمين لتشكيل هيئة إدارية قديمة يكونون من الإنجليز .

(٥) أما من خصوص ولايتى بغداد والبصرة ، فإن العرب تعترف بأن مصالح بريطانيا العظمى الموطدة هناك تستلزم اتخاذ تدابير إدارية مخصوصة لوقاية هذه الأقاليم من الاعتداء الأجنبي ، وزيادة خير سكانها ، وحماية مصالحنا الاقتصادية المتبادلة

وإنى متيقن بأن هـذا التصريح يؤكد لدولتكم بدون أقل ارتياب ميل بريطانيا العظمى نحو رغائب أصحابها العرب ، وتنتهى بعقد محالفة دائمة ثابتة معهم ويكون من نتائجها المستعجلة طرد الأتراك من بلاد العرب ، وتحرير الشعوب العربية من نير الأتراك الذى أثقل كاهلهم السنين الطوال

ولقد اقتصرت فى كتابي هذا على المسائل الحيوية ذات الأهمية الكبرى ، وإن كان هناك مسائل فى خطاباتكم لم تذكر هنا فسنعود إلى البحث فيها فى وقت مناسب فى المستقبل . ولقد تلقيت بمزيد السرور والرضى خبر وصول الكسوة الشريفة وما معها من الصدقات بالسلامة وإنها بفضل إرشاداتكم السامية وتدابيركم المحكمة قد أنزلت إلى البر بلا تعب ولا ضرر ، رغماً عن الأخطار والمصاعب التى سببتها هذه الحرب المحزنة ، ونرجو الحق سبحانه وتعالى أن يعجل بالصلح الدائم والحرية لأهل العالم . إنى مرسل خطابى هذا مع رسولكم النبيل الأمين الشيخ محمد بن عارف بن عارفان ، وسيعرض على مسامعكم بعض المسائل المفيدة التى هى فى الدرجة الثانية من الأهمية ولم أذكرها فى كتابى

هذا . وفى الختام أبث دولة الشريف ذا الحسب المنيف ، والأمير الجليل كامل تحيتى وخالص مودتى وأعرب عن محبتى له ولجميع أفراد أسرته الكريمة ، راجياً من ذى الجلال أن يوفقنا جميعاً لما فيه خير العالم وصالح الشعوب ، فبيده مفاتيح الأمر والغيب يحركها كيف يشاء ، ونسأله تعالى حسن الختام والسلام ؟

نائب جلالة الملك

السير ارثر مكماهون

تحريراً فى يوم الاثنين ١٥ ذى الحجة سنة ١٣٣٣ — ٢٥ أكتوبر سنة ١٩١٥

الكتاب الثالث

بسم الله الرحمن الرحيم

إلى ساحة ذلك المقام الرفيع ذى الحسب الطاهر والنسب الفاخر ، قبلة الإسلام والمسلمين ، معدن الشرف ، وطيد المحتد ، سلالة مهبط الوحى المحمدى الشريف بن الشريف صاحب الدولة السيد الشريف حسين بن على أمير مكة المعظم ، زاده الله رفعة وعلاء آمين . بعد ما يليق بمقام الأمير الخطير من التجلة والاحترام ، وتقديم خالص التحية والسلام ، وشرح عوامل الألفة وحسن التفاهم والمودة الممزوجة بالمحبة القلبية ، أرفع إلى دولة الأمير المعظم أننا تلقينا رقيمتكم المؤرخ ١٤ ربيع الآخر سنة ١٣٣٤ من يد رسولكم الأمين ، وقد سررنا لوقوفنا على التدابير الفعلية التى تنوونها ، وإنها لموافقة فى الأحوال الحاضرة ، وإن حكومة جلالة ملك بريطانيا العظمى تصادق عليها . وقد يسرنى أن أخبركم بأن حكومة جلالة الملك قد صادقت على جميع مطالبكم ، وأن كل شىء رغبتم الإسراع فيه وفى إرساله فهو مرسل مع رسولكم حامل هذا ، والأشياء الباقية ستحضر بكل سرعة ممكنة وتبقى فى بورت سودان تحت أمركم لحين ابتداء الحركة . وإبلاغنا إياها بصورة رسمية (كما ذكرتم) ، وبالمواقع التى يقتضى سوقها إليها والوسائط الذين سيكونون حاملين الوثائق لتسليمها إياهم

إن كل التعليمات التى وردت فى محرركم قد أعلمنا بها محافظ بورت سودان وهو

سيجريها حسب رغبتكم ، وقد عملت جميع التسهيلات اللازمة لإرسال رسولكم حامل خطابكم الأخير إلى جيزان حتى يؤدى مأموريته التى نسأل الله أن يكللها بالنجاح وحسن النتائج ، وسيعود إلى بورت سودان و بعدها يصلكم بحراسة الله ليقص على مسامع دولتكم نتيجة عمله

وانتهز الفرصة لنوضح لدولتكم فى خطابنا هذا ما ربما لم يكن واضحاً لديكم ، وما عساه ينتج سوء تفاهم ، ألا وهو أنه يوجد بعض المراكز أو النقط المعسكرة فيها بعض العساكر التركية على سواحل بلاد العرب يقال إنهم يجاهرون بالعداء لنا ، والذين هم يعملون على ضرر مصالحنا الحربية البحرية فى البحر الأحمر ، وعليه نرى من الضرورى أن نأخذ التدابير الفعالة ضدهم ، ولكننا قد أصدرنا الأوامر القطعية أنه يجب على جميع بوارجنا أن تفرق بين عساكر الأتراك الذين يبدأون بالعداء و بين العرب الأبرياء الذين يسكنون تلك الجهات ، لأننا لا نقدم للعرب أجمع إلا كل عاطفة ودية

وقد أبلغنا دولتكم ذلك حتى تكون على بينة من الأمر إذا بلغكم خبر مكذوب عن الأسباب التى تضطرنا إلى أى عمل من هذا القبيل . وقد بلغتنا إشاعات مؤداها أن أعداءنا الألداء باذلون جهدهم فى أعمال السفن ليبثوا بها الألغام فى البحر الأحمر ولإلحاق الأضرار بمصالحنا فى ذلك البحر ، وإنا نرجوكم سرعة إخبارنا إذا تحقق ذلك اليوم لديكم ، وقد بلغنا أن ابن الرشيد قد باع للأتراك عدداً عظيما من الجمال ، وقد أرسلت إلى دمشق الشام ، ونؤمل أن تستعملوا كل مالكم من التأثير عليه حتى يكف عن ذلك ، وإذا صمم على ما هو عليه أمكنكم عمل الترتيب مع العربان الساكنين بينه و بين سوريا أن يقبضوا على الجمال حال سيرها ، ولا شك أن فى ذلك صالحاً لمصلحتنا المتبادلة

وقد يسرنى أن أبلغ دولتكم أن العربان الذين ضلوا السبيل تحت قيادة السيد أحمد السنوسى ، وهم الذين أصبحوا ضحية دسائس الألمان والأتراك ، قد ابتدأوا يعرفون خطأهم ، وهم يأتون إلينا واحداناً وجماعات يطلبون العفو عنهم والتودد إلينا ، والحمد الله قد هزمنا القوات التى جمعها هؤلاء الدساسون ضدنا . قد أخذت العرب تبصر الغش والخديعة التى حاقت بهم ، وإن لسقوط أرضروم من يد الأتراك وكثرة انهزاماتهم

فى بلاد القوقاز تأثيراً عظيما وهو فى مصلحتنا المتبادلة ، وخطوة عظيمة فى سبيل الأمر الذى نعمل له وتعملون له

ونسأل الله عز وجل أن يكلل مساعيكم بتاج النجاح والفلاح ، وأن يمهد لكم فى كامل أعمالكم أحسن السبل والمناهج . وفى الختام أقدم لدولتكم ولكامل أفراد أسرتكم الشريفة عظيم الاحترامات وكامل ضروب المودة والإخلاص مع المحبة التى لا يزعزعها كر العصور ومرور الأيام

كتبه المخلص

السير أرثر هنرى مكماهون

نائب جلالة الملك بمصر

تحريراً فى ٦ جماد الأول سنة ١٣٣٤
الموافق ١٠ مارس سنة ١٩١٦

الكتاب الرابع

من السير مكماهون إلى الشريف حسين بن على

بسم الله الرحمن الرحيم

إلى صاحب الإحسان والرفعة وشرف المحتد ، سلالة بيت النبوة والحسب الطاهر والنسب الفاخر ، دولة الشريف العظيم السيد حسين بن على أمير مكة المكرمة ، قبلة الإسلام والمسلمين أدامه الله فى رفعة وعلاء ، و بعد :

فقد وصلنى كتابكم الكريم بتاريخ ٢٤ الحجة سنة ١٣٣٣ وسرنى ما رأيت فيه من قبولكم إخراج ولايتى مرسين وأطنه من حدود البلاد العربية

وقد تلقيت أيضاً بمزيد السرور والرضاء تأكيداتكم أن العرب عازمون على السير بموجب تعاليم الخليفة عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، وغيره من السادة الخلفاء الأولين — التعاليم التى تضمن حقوق الأديان وامتيازاتها على السواء

هذا وفى قولكم إن العرب مستعدون أن يحترموا و يعترفوا بجميع معاهداتنا مع رؤساء العرب الآخرين يعلم منه طبعاً أن هذا يشمل جميع البلاد الداخلة فى حدود

الحكومة العربية ، لأن حكومة بريطانيا العظمى لا تستطيع أن تنقض اتفاقات قد أبرمت بينها و بين أولئك الرؤساء . أما بشأن ولايتى حلب و بيروت فحكومة بريطانيا العظمى قد فهمت كل ما ذكرتم بشأنها ودونت ذلك عندها بعناية تامة ، ولكن لما كانت مصالح حليفتها فرنسا داخلة فيها ، فالمسألة تحتاج إلى نظر دقيق ، وسنخابركم بهذا الشأن مرة أخرى فى الوقت المناسب

إن حكومة بريطانيا العظمى مستعدة لأن تعطى كل الضمانات والمساعدات التى فى وسعها إلى المملكة العربية ، ولكن مصالحها فى ولاية بغداد تتطلب إدارة ودية ثابتة كما رسمتم ، على أن صيانة هذه المصالح كما يجب تستلزم نظراً أدق وأتم مما تسمح به الحالة الحاضرة ، والسرعة التى تجرى بها هذه المفاوضات ، و إننا نستصوب تماما رغبتكم فى اتخاذ الحذر ، ولسنا نريد أن نلفتكم إلى عمل سريع ربما يعرقل نجاح أغراضكم ، ولكنا فى الوقت نفسه نرى من الضرورى جدا أن تبذلوا مجهوداتكم فى جمع كلمة الشعوب العربية إلى غايتنا المشتركة ، وأن تحثوهم على أن لا يمدوا يد المساعدة لأعدائنا بأى وجه كان ، فإنه على نجاح هذه المجهودات وعلى التدابير الفعلية التى يمكن أن يتخذوها لاسعاف غرضنا عند ما يجىء وقت العمل تتوقف قوة الاتفاق بيننا وثباته

وفى هذه الأحوال فان حكومة بريطانيا قد فوضت لى أن أبلغ دولتكم أن تكونوا على ثقة من أن بريطانيا العظمى لا تنوى إبرام أى صلح كان إلا إذا كان من ضمن شروطه الأساسية حرية الشعوب العربية ، وخلاصها من سلطة الأتراك والألمان

هذا وعربونا على صدق نيتنا ، ولأجل مساعدتكم فى مجهوداتكم فى غايتنا المشتركة فانى مرسل مع رسولكم الأمين مبلغ عشرين ألف جنيه ، وأقدم فى الختام عاطر التحيات القلبية ، وخالص التسليمات الودية مع مراسم الإجلال والتعظيم المشمولين بروابط الألفة والمودة الصرفة لمقام دولتكم السامى ، ولأفراد أسرتكم المكرمة مع فائق الاحترام ؟

المخلص

نائب جلالة الملك بمصر

السير أرثر هنرى مكماهون

تحريراً فى ٨ صفر ١٣٣٣ — ١٤ ديسمبر سنة ١٩١٥

قد فهم الملك حسين من هذه الكتب ومن أحاديثه مع المندوبين البريطانيين أن الحكومة البريطانية توافق على إنشاء مملكة عربية على الأسس الآتية :

(١) تتعهد بريطانيا العظمى بتشكيل حكومة عربية مستقلة بكل معانى الاستقلال فى داخليتها وخارجيتها ، وتكون حدودها شرقا بحر خليج فارس ، ومن الغرب بحر القلزم والحدود المصرية والبحر الأبيض ، وشمالا حدود ولاية حلب والموصل الشمالية إلى نهر الفرات ومجتمعة مع الدجلة إلى مصبها فى بحر فارس ما عدا مستعمرة عدن فأنها خارجة عن هذه الحدود ، وتتعهد هذه الحكومة برعاية المعاهدات والمقاولات التى أجرتها بريطانيا العظمى من أى شخص كان من العرب فى داخل هذه الحدود بأنها تحل محلها فى رعاية وصيانة حقوق تلك الاتفاقيات مع أربابها أميراً كان أو من الأفراد

(٢) تتعهد بريطانيا العظمى بالمحافظة على هذه الحكومة وصيانتها من أى مداخلة كانت بأى صورة كانت فى داخليتها وسلامة حدودها البرية والبحرية من أى تعد بأى شكل يكون حتى ولو وقع قيام داخلى من دسائس الأعداء ، أو من حسد بعض الأمراء فيه تساعد الحكومة المذكورة مادة ومعنى على دفع ذلك القيام لحين اندفاعه ، وهذه المساعدة فى القيامات والثورات الداخلية تكون مدتها محدودة ، أى لحين يتم للحكومة العربية المذكورة تشكلاتها المادية

(٣) تكون البصرة تحت إشغال [1] العظمة البريطانية لحينما يتم للحكومة الجديدة المذكورة تشكلاتها المادية ، ويعين من جانب تلك العظمة مبلغ من النقود يراعى فيه حالة احتياج الحكومة العربية ، التى هى حكمها قاصرة فى حضن بريطانيا ، وتلك المبالغ تكون فى مقابل الإشغال

(٤) تتعهد بريطانيا العظمى بالقيام بكل ما تحتاجه ربيبتها الحكومة العربية من الأسلحة ومهماتها والذخائر والنقود مدة الحرب

(٥) تتعهد بريطانيا العظمى بقطع الخط من مرسين أو ماهو مناسب من النقط فى تلك المنطقة لتخفيف وطأة الحرب عن البلاد لعدم استعدادها

---

(١) احتلال ، وهذا تعبير الملك حسين

هذه هى الحكومة العربية التى كان يتخيلها الملك حسين ، ويسعى لها بمختلف الوسائل ، وسواء كانت هذه الحكومة بهذا الشكل تتفق مع آمال أحرار العرب أم لم تتحقق ، فالملك حسين كان يرى أن حكومة عربية يكون هو على رأسها تسندها بريطانيا بمالها وسلاحها ستكون مقدمة لحكومة عربية مستقلة استقلالا تاما من جميع الوجوه

بدأ ينفذ خطته بإعلان نفسه ملكاً على العرب فى أوائل سنة ١٣٣٥ — ٢٩ أكتوبر سنة ١٩١٦ ، فكان هذا الإعلان الذى لم يسبقه تفاهم مع أمراء العرب ، ولا مع الحلفاء مثيراً لشكوك أمراء العرب ، كما أنه لم يقابل بالارتياح من قبل الإنجليز والفرنسيين

فالملك بن سعود يقول إنه احتج على إعلان الملك حسين نفسه ملكاً على العرب ، فإنه حين كتب إليه عقب هذا الإعلان يطلب الدخول فى مفاوضات لتحديد حدود نجد والحجاز والقبائل التابعة لكلا البلدين ، أجابه الملك حسين أى حدود تطالب ، إنك إما مجنون أو سكران ، فلم يسع أمير نجد إلا الاحتجاج على هذه الإهانة ، وأنذر انجلترا بأن الحالة ستضطره للدخول فى قتال ضد الملك حسين ، لأن الرجل يضمر الشر لنجد وأمير نجد ، فتداخل الإنجليز فى الأمر مؤقتاً وحالوا دون وقوع الحرب بين الفريقين ، وبذلك سكنت الزوبعة ، وفى الوقت نفسه اضطروا الملك حسيناً إلى إلغاء اللقب الجديد مكتفياً بملكية الحجاز

فكان هذا أول قنبلة أصابت آمال الملك حسين ، كما أنها دلت على أن الإنجليز والفرنسيين لا يشاركون الملك حسيناً فى فهمه للمملكة العربية

ولكن الملك حسيناً كان كله آمالاً وأن جميع العقد ستحل بعد انتهاء الحرب لصالحه ، وأن المستقبل سيكون فى مصلحته ، وأن انكلترا ستعمل كل ما يمكن لإرضائه وإرضاء أمانى العرب الذين ثاروا ضد الأتراك فى صف الحلفاء .

وماذا كان يسع الملك حسيناً عمله بعد إعلان الثورة وطرد الأتراك من بعض المدن الحجازية

وقد صرف الملك حسين كل همه لإخراج الترك من الحجاز وسائر المدن العربية

مذكراً إنجلترا كلما سنحت الفرصة بالمملكة العربية وآمال العرب فيها ، وكان قواد إنجلترا فى بعض المناسبات يضربون على هـذا الوتر الحساس مثل منشور الجنرال مُود بعد فتح بغداد وغيره من سياسى الحلفاء .

وبما أن القضية العربية أخذت شكلها الجدى بعد أن وضعت الحرب أوزارها وعلى مائدة مؤتمرات الصلح ، نرى لزاماً علينا أن نعالجها بشىء من التفصيل مستعينين بضوء الوثائق لا سيما التى لم يسبق نشرها قبلا .

مؤتمرات الصلح

قبل أن نعالج موضوع القضية العربية فى مؤتمرات الصلح يجب علينا أن نرجع قليلاً إلى البلاد العربية قبل الحرب وتسرب نفوذ الأجانب إليها ، فإن ذلك سيساعدنا كثيراً على تفهم الحالة من كل وجوهها .

كان احتلال تركيا الفعلى موجوداً فقط فى العراق ، وسوريا ، وفلسطين ، ومكة ، والمدينة ومدن الحجاز الساحلية ، وشاطىء عشير ، واليمن ، ولكن النفوذ الأجنبى القوى كان يتسرب إلى هذه البلاد ، فلم يبق للحكومة كبير احترام فى نفوس رعاياها ، أما الجزء الشرقى الجنوبى من بلاد العرب من الكويت إلى عدن فلم يكن للأتراك سلطة يعتد بها ، بل كان النفوذ الإنجليزى متغلباً ، ولو أنه لم يكن مباشراً إلا فى عدن .

لقد كان النفوذ الإنجليزى سائداً فى بغداد والبصرة وسواحل ما بين النهرين ، كما أن المصالح الإنجليزية كانت متشعبة هناك ، ولكنه كان ضعيفاً فى سوريا وفلسطين ، والنفوذ الأجنبى الآخر الذى كان يعمل بنشاط هو النفوذ الفرنسى والألمانى ، والفرنسيون الذين يعتبرون أنفسهم حماة المسيحية فى الشرق قد أسسوا نفوذاً قويا على شواطىء سوريا بما أسسوه من المعاهد ، وبما عملوه لنشر ثقافتهم ولغتهم فى تلك البلاد . وفى السنوات التى سبقت الحرب جاء الألمان ينافسون الفرنسيين ، ولكن قصر المدة لم يمكنهم من إيجاد أى أثر فى سوريا وآسيا الصغرى ، وإن إنشاء السكة الحديدية (الآستانة — بغداد) قد جعل للألمان نفوذاً لا يستهان به .

أما فى فلسطين فإن النفوذ الأجنبى كان دينياً فى الأكثر ، إذ يعتبر مسيحيو العالم القدس أرضاً مقدسة ، وقد تأسست بعثات مسيحية أهمها ألمانية ، كما أسس غيرها من المنشآت الأجنبية الدينية والعلمية . وبيت المقدس محترم أيضاً عند المسلمين ولهم فيه آثار دينية من أقدم العصور . وقد وضع اليهود أساس حركتهم لإنشاء مملكة يهودية فى فلسطين ، تلك الفكرة التى لا يزال اليهود يحلمون بها منذ كارثتهم الكبرى .

وزيادة على ذلك فإن سلطة الأتراك فى آسيا الصغرى لم تكن قوية ، نتيجة ما لبعض الحكومات الأوروبية من سلطة الامتيازات الأجنبية فى المسائل التجارية والقضائية

هذه حالة تركيا قبل الحرب الكبرى ، أما بعد مغامرتها فى ٣١ أكتوبر سنة ١٩١٤ ، فقد كانت تركيا حريصة على أن لا تفقد شيئاً من أطرافها لا سيما البلاد المقدسة ، فإن فقدانها يضرب الخلافة ضربة قاضية ، ووراء تركيا ألمانيا التى تحلم فى تأسيس امبراطورية الشرق الأوسط الألمانى ، تدفعها وتمدها بجميع المساعدات المادية والأدبية ضد الحلفاء . هذا من جانب ، ومن جهة أخرى ففرنسا تريد بسط نفوذها وتوطيد سلطتها فى الشرق الأدنى ، لأنها حامية المسيحية ، ولكنها عاجزة عن إثارة حرب أخرى خارج بلادها ، واليهود يحاولون تحقيق أحلامهم القديمة ، والعرب يتطلعون إلى استرداد حريتهم واستقلالهم بعد انكسار تركيا . ويجىء بعد هؤلاء الإنجليز ، وهم ليسوا بأقل من هؤلاء بالنظر إلى مصالحهم العديدة فى خليج فارس والبلاد العربية ، تلك المصالح التى من أجلها جعلوا لهم السيادة فى خليج فارس كما قال The Duke of Argyll فى سنة ١٨٧٠ ، والتى من أجلها أيضاً صرح اللورد لانسدون سنة ١٩٠٣ بأن بريطانيا تعتبر إنشاء قاعدة بحرية ، أو تحصين أى ميناء على خليج فارس كتهديد لمصالحها التى يجب حمايتها بكل ما يؤديه معنى الحماية من معان

لذا فقد كانت السياسة الحربية البريطانية فى الشرق الأدنى ترمى إلى غايتين رئيسيتين : الأولى أن تحتل رأس الخليج الفارسى فتحمى منابع الزيت ، وتمنع العدو من تأسيس مراكز بحرية تهدد المواصلات البريطانية مع الهند ، والثانى أن تحتفظ بهذه المواصلات مع الهند مفتوحة عن طريق قنال السويس والبحر الأحمر

هذه هى الحالة التى كانت تسود بلاد العرب والتى على أساسها تم الاتفاق والتفاهم بين بريطانيا وفرنسا سنة ١٩١٦ على تحديد نفوذ كل دولة منهما ، وعليها أيضاً كان اتجاه مؤتمر الصلح

ولكن العرب الذين خاضوا غمار الحرب كانوا يجهلون كل ما تم فى الخفاء أو

كانوا لا يعترفون به لأنه مناقض لشروط ويلسن التى اختارها الحلفاء لإعلان الهدنة وأساساً للصلح

موقف الملك حسين من مؤتمر الصلح

يجب علينا أن نذكر هنا الحقائق الآتية خدمة للتاريخ

(١) إن الملك حسيناً كان يثق ببريطانيا ثقة لا حد لها ، وكان يعتقد اعتقاداً لا يشوبه أدنى شك أن بريطانيا التى قادت العالم ضد ألمانيا ستسعى بكل الوسائل الممكنة لتكوين المملكة العربية كما يفهمها وأن الأتراك حاولوا فى أثناء الحرب التأثير فى هذه العلاقة بإيجاد جو من الشكوك فى نفوس العرب فلم يفلحوا .

لقد كتب جمال باشا إلى الأمير فيصل يخبره بما نشره الروس من وثائق تثبت ما اعتزمه الحلفاء من تقسيم البلاد العربية[١] واستعداد الأتراك لعقد صلح مع العرب أساسه استقلال البلاد العربية ، ولكن الملك حسيناً الذى لا يشك فى نيات بريطانيا رفض اليد التى قدمها جمال باشا بعد تأكيدات بريطانيا[٢]

(٢) إن الملك حسيناً لثقته ببريطانيا كان يعتقد من كل قلبه أنه لا فائدة من المؤتمرات ، وأن إرادة بريطانيا ويدها فوق المؤتمرات وفوق كل شيء

وترى هذا واضحاً تمام الوضوح فى كتاب الملك حسين إلى نائب الملك بمصر (٢١ أغسطس سنة ١٩١٨ — ٢١ ذى القعدة سنة ١٣٣٦) حيث يقول :[٣]

« أما عطف الأمر وتعليقه على مؤتمر الصلح ، فالجواب عليه من الآن بأن لا علاقة لنا به ، ولا مناسبة بيننا وإياه حتى ننتظر منه سلباً أو إيجاباً ، ولو قرر المؤتمر المذكور إضعاف مقرراتنا ، وكان ذلك من غير وساطتكم وقبلناها ، فنكون من المطرودين من

---

(١) يشير الى معاهدة سايكس — بيكو
(٢) فى الذيل نص الكتاب
(٣) نص الكتاب المذكور فى الذيل

رحمة البارى جل شأنه الرقيب على قولى هذا ، الذى أتوسل إليه أن يتولانا جميعاً بعنايات رأفته الأبدية » .

وضعت الحرب أوزارها ، وقبل الأتراك شروط الهدنة ، وانسحبوا تماماً من البلاد العربية التى أشغلت بالقوات الإنجليزية الصرفة ، فيما بين الموصل والبصرة وفلسطين ، والقوات الإنجليزية والعربية و بعض القوات الفرنسية فى الجبهة السورية .

اعتقد الملك حسين ومن التف حوله ، أنه ما دام الإنجليز هم الشاغلين للبلاد العربية ، فسيقومون بتشييد المملكة العربية المتحدة ، غير أن هنالك اعتبارات خطيرة أمام الحكومة البريطانية ستحول دون هذه الأمنية ، ولها محلها الأول فى نظرهم ؛ هنالك معاهدة (سايكس — بيكو) التى عقدت بين فرنسا وانجلترا سنة ١٩١٦ وأفشى أمرها الروس ، وهنالك العهد الذى قطعه الإنجليز للصهيونيين سنة ١٩١٧ وفرنسا دولة عظيمة لها نفوذها الدولى وقوتها الحربية ، واليهود لهم مكانتهم المالية ونفوذهم المعنوى . وجانبهم أقوى من جانب العرب . غير أن العرب الذين خاضوا غمار الحرب بغية الوصول إلى نعيم الاستقلال لم يبالوا بما أمامهم من المشاكل ، واستسهلوا كل صعب فى سبيل غايتهم المقدسة ، وبالفعل فإنهم ساروا فى الطريق الذى كانوا يعتقدون أنه متفق تمام الاتفاق مع ما كانوا يعتقدون أنه حق لهم ، ومع ما كانوا يفهمونه من تصريحات قواد الحلفاء ، فبمجرد أن دخل الأمير فيصل (المرحوم الملك فيصل) فاتحاً إلى دمشق فى أوائل أكتوبر سنة ١٩١٨ أرسل الجنرال شكرى باشا الأيوبى حاكما عسكريا على بيروت ، فذهب المومى إليه وجلس فى سراى الحكومة بدلا من الوالى التركى الذى انسحب من هنالك .

فى أواخر أكتوبر احتل العرب اللاذقية ، وانطاكية ، و بيلان ، والاسكندرونة ، فثار الفرنسيون واعتبروا هذا العمل خرقا لمعاهدة (سايكس — بيكو) واضطروا الإنجليز أن يأمروا العرب بإخلاء الأماكن الساحلية ، فكان ذلك أول ضربة أصابت آمال العرب وأمانيهم .

أشارت المملكة البريطانية المتحدة على الملك حسين أن يرسل من قبله مندوبا إلى

مؤتمر الصلح ، فقبل الإشارة وعين ولده الأمير فيصلا مندوباً عنه ، وزوده بالتلغراف الآتى الذى يدل على مبلغ آمال الملك حسين فى بريطانيا :

« حليفتنا الوفية بريطانيا العظمى ترغب حضورك نائباً عن مصالح العرب ، وكل ما يكون أساساً لحياتهم سواء ما يتعلق بالحدود أو الإدارة مما هو معلوم لديك فى مجتمع سيعقد فى باريس فى ٢٤ نوفمبر الجارى ، فانفاذاً لرأى عظمتها توجه بكل سرعة ممكنة لباريس بعد مذاكرتك لفخامة القائد العام فى كيفية سفرك وطريقته ، وبعد تقرير ما ترونه لحالات البلاد وإدارتها فى مدة غيابك الذى لا يتجاوز تقريباً شهراً ، وحيث أن رابطتنا الوحيدة هى العظمة البريطانية ، ولا علاقة لنا ولا مناسبة مع سواها فى أساساتنا السياسية ، فكل ملاحظاتك وما تراه فى الموضوع تبديه لنوابها وعظمائها الأماجد إن كانوا زملاءك فى المجتمع أو معتمديها السياسيين ، وما يكلفونك به من قول أو عمل إن كان فى المجتمع أو فى سواه تعمل به ، وتجتنب كل ما سوى ذلك ، هذه درجة مأذونيتك عما يختص بالمجتمع ، وخير الأهالى بالمصلحة والقصد والله يتولاك » .

الأمير فيصل بباريس ؟!!

لقد قام الأمير فيصل بما يجب عليه من الدفاع عن قومه ، فبسط لمؤتمر السلام القضية العربية ، ووعود الحلفاء لوالده ، وآمال العرب فى عدل الحلفاء[1] ، فكان أول جواب عمل لسموه مذكرة مستر لويد جورج المؤرخة فى ١٣ سبتمبر إلى كل من الأمير فيصل والحكومة الفرنسية . وتقضى هذه المذكرة :

(١) انسحاب الجيوش الإنجليزية من سوريا وكليكية فى أول نوفمبر سنة ١٩١٩ .

(٢) يحل محل الحاميات البريطانية جنود فرنسية فى غرب الخط المعتبر فى معاهدة سايكس بيكو وفى كليكية .

(٣) المقاطعات التى تبقى فيها الجنود الإنجليزية هى العراق وفلسطين ، وهذا الاحتلال مطابق للاتفاق المعقود فى ديسمبر سنة ١٩١٨ بين المسيو كلنصور والمستر لويد جورج

---

(١) راجع نص المذكرة فى الذيل .

كانت هذه المذكرة أول ضربة لأماني الأشراف وآمال العرب ، ولذا فإن الأمير فيصلا أجاب على هذه المذكرة بمذكرة أخرى بتاريخ ٢١ سبتمبر تشتمل على النقط الآتية :

(١) اجحاف هذا القرار بقانون العدل ، وما كان يتوقعه العرب من الحلفاء ، وقد تلقى الملك حسين ما يؤيد هذا من وزارة الخارجية البريطانية عند ما أذاع جمال باشا ما عثر عليه البولشفيك من أمر هذه الاتفاقية وغيرها

(٢) إنه ما دام هذا التغيير مؤقتاً فما هي الضرورة الملجئة لهذا التغيير ، ولماذا لا يبقى الاحتلال البريطاني كما هو إلى أن يتم الصلح مع تركيا

(٣) الاحتجاج بشدة على تعيين الحدود لأنه مقدمة لتجزئة البلاد

(٤) إذا كان لا بد من انسحاب الجيش البريطاني من سورية ، فيجب أن تنسحب أيضاً سائر الجيوش الأوروبية ، وتترك المسئولية للجيش العربي

(٥) رفض العرب لتجزئة بلادهم وإنكارهم لكل اتفاق لم يكن لهم علم به

وفي ٢٣ سبتمبر أرسل الأمير فيصل كتاباً [١] إضافياً إلى رئيس الوزارة البريطانية يشرح فيه رفضه للبحث مع القائد العام للجيوش المتحالفة في سورية في مسألة الاحتلال ، ويطلب إعادة السواحل إلى الجيوش العربية كما كانت عليه الحال في أوائل الاحتلال ، وهي تتولى مسئوليـة الأمن وحماية البلاد ، أو ابقاء الحالة على ماهي عليه الآن لحين إبرام الصلح مع تركيا

الأمير فيصل في لندن

رأى الأمير أن يؤم لندن لعله يجد له مساعداً هنالك لحل المسائل التي تعقدت وكادت تخيب آمال العرب

فكان باكورة أعماله ارساله مذكرة إلى رئيس الوزراء بتاريخ ١٩ اكتوبر [٢]

(١) انكار اتفاق باريس والاصرار على مضمون المذكرة المؤرخة في ٢١ و ٢٣ سبتمبر

---

(١) راجع نص الكتاب في الذيل

(٢) راجع نص المذكرة في الذيل

(٢) التأكيد بأن انسحاب الجيوش البريطانية سيحدث أسوأ الأثر فى سوريا ويؤدى إلى كارثة عظيمة

وقد ختم سموه المذكرة بالطلبات الآتية :

(١) إلغاء القرار الباريسى أو على الأقل إرجاء العمل به

(٢) عرض المسألة كلها على مؤتمر السلام لتسويتها النهائية بدون تأجيل النظر فيها من المؤتمر بأجمعه ، أو من لجنة فرعية مؤلفة من أعضاء بريطانيين وفرنسيين وعرب تحت رياسة أحد الأمريكان للبحث فى هذه المسألة الخطيرة ، وتقديم تقرير عنها إلى مؤتمر السلام . فتلقى سموه جوابا مطولا من وزارة الخارجية بتاريخ ١٩ اكتوبر[١] يتضمن :

(١) وصول الملاحظات الابتدائية على مذكرة رئيس الوزراء (التى أرسل منها نسخاً أيضاً إلى كل من المستر فولك مندوب الولايات المتحدة ، وإلى السنيور تيتونى مندوب المملكة الإيطالية)

(٢) أن المذكرة المذكورة لا تعبر عن اتفاق سابق بين الحكومتين ، بل تشمل مقترحات قدمتها الحكومة البريطانية من تلقاء نفسها عن الاحتلال العسكرى فى الولايات التى كانت تابعة لتركيا إلى أن يقرر مؤتمر السلام مستقبلها نهائيا

(٣) أن المقترحات التى تتمسك بها الحكومة البريطانية لم تضعها إلا بعد أن قررت أنه يستحيل عليها أن تستمر على احتلال سوريا بالجيوش البريطانية

(٤) أن الحكومة البريطانية لا ترى أن هذا القرار مغاير للعهود التى عقدتها حكومة جلالة الملك مع الملك حسين

(٥) رفض الطلبات التى اقترحها الأمير فيصل ، لأن الشعب السورى عاجز عن القيام بشئون نفسه فى الوقت الحاضر ، ولأن تجربة هذا الحل الذى أشار به سمو الأمير يكون مضراً لترقى الشعب السورى سريعاً ، وبالنتيجة لاستقلال الشعوب السورية العربية

---

(١) راجع نص الكتاب فى الذيل

(٦) أن تعهدات الحكومة البريطانية للحكومة الفرنسية قد بينتها الحكومة البريطانية للملك حسين قبل دخوله الحرب

(٧) أن الحكومة البريطانية لم تستطع إلا بعد صعوبة أن توطد لسموكم تأسيس مملكة عربية مستقلة فى ذلك القسم من سورية المشتمل على دمشق ، وحماة ، وحمص ، وحلب

(٨) نصح الحكومة البريطانية للأمير فيصل بقبول التدبير المؤقت الذى أشارت إليه المذكرة ، والبحث — حالا — فى هذه التدابير مع الحكومة الفرنسية

وبعد هذه المذكرة اجتمع سمو الأمير فيصل ومعه الجنرال حدّاد باشا والشيخ فؤاد الخطيب فى وزارة الخارجية البريطانية باللورد كرزون ومعه الكولونيل كورنواليس نائب المعتمد البريطانى بدمشق ، والكولونيل سترلنج ، ودار البحث تفصيلا فى الموضوع ، وقد أخبر اللورد كرزون الوفد العربى بأن الفرنسيين يرون أن محل البحث هو باريس لا لندن . ثانياً لا يرون ضرورة لاشتراك عضو أمريكى فى الموضوع إلا إذا رغبت أمريكا نفسها فى ذلك الاشتراك

وقد أشار اللورد كرزون على الأمير فيصل بالسفر حالا إلى باريس والاتصال بالفرنسيين ، فإن ذلك يكون أنجح لقصده ، وأن الفرنسيين قد لا يرتاحون للمفاوضات الجارية فى لندن ، فلم يسع الأمير إلا قبول النصح الذى أسدى إليه ، وسافر إلى باريس مرة أخرى

الأمير فيصل فى باريس للمرة الثانية

بمجرد وصول الأمير فيصل إلى باريس أرسل مذكرة[1] بتاريخ ٢٥ أكتوبر إلى رئيس المؤتمر مسيو كليمنصو تتضمن :

(١) علم الأمير فيصل رأى الحكومة الفرنسية فى مذكرة المستر لويد جورج المؤرخة فى ١٣ سبتمبر القاضى برد جميع الاقتراحات ما عدا انسحاب الجيوش البريطانية من كليكية وسوريا

(١) راجع نص المذكرة فى الذيل

(٢) اعتراض الأمير فيصل على هذا الانسحاب ، وتحذير فرنسا من السير فى الموضوع حيث إنه سيقضى على السلم فى البلاد العربية ، التى سيعتقد أهلها أن الحلفاء لا يزالون يريدون تقسيم بلادهم

فرد مسيو كليمنصو على كتاب الأمير بكتاب[١] مؤرخ فى ٢ نوفمبر سنة ١٩١٩ وأخبره :

(أولا) بوصول كتابه والاضطراب الذى أحدثه فى نفس الأمير قرار المؤتمر الصادر فى ١٥ سبتمبر ، بشأن انسحاب الجيوش البريطانية من سورية وكاليكية ، واستبدالها بجيوش فرنسية

(ثانياً) اقتراح سمو الأمير بتأليف لجنة يعهد إليها درس طرق انسحاب الجيوش البريطانية ، وإيجاد إدارة مؤقتة تصون وحدة البلاد وتحفظ النظام فى المناطق المختلفة المحتله

(ثالثاً) التأكيد لسمو الأمير بأن الحكومة الفرنسية لم تزل ترغب بكل إخلاص فى توطيد دعائم الحكم المؤدى إلى الحرية والرقى والنظام فى سوريا والعراق ، وسائر بلاد الشرق المحررة بفضل انتصارات الحلفاء ، عملاً بمبادئ سياستها الحرة التى هى نفس المبادئ لمؤتمر السلام ، وأن الثقة المعنوية المؤسسة بين العرب وحلفائهم فى أيام الحرب ستساعد على توطيد علاقاتهم

(رابعاً) رفض اقتراح تعيين اللجنة لأنه فضلا عن أنه مشوش للحالة الحاضرة فإنه مخالف لقرار المجلس الأعلى ، ففى ١٥ سبتمبر أعلن المستر لويد جورج للمؤتمر بأن الجنود الانجليزية ستنسحب من كليكية وسوريا ، وقد طلب استبدالها بجيوش فرنسية وقد وافقه المجلس الأعلى

(خامساً) أن المسيو كليمنصو مقتنع بأن رؤساء الجيوش الفرنسية قادرون على تطمين الأهالى وحفظ النظام فى جميع المناطق التى ستحتلها الجيوش الفرنسية بدلا من الجيوش الإنجليزية ، وعلى الأمير بما لديه من السلطة أن يفعل ذلك فى الشام وحلب

(سادساً) أن الحكومة الفرنسية مستعدة لتلبية أول طلب يصدر من سمو الأمير بمساعدته على صون النظام ، فيما إذا اختل بأغراض المحرضين الذين لا يقدرون على غير إلحاق الضرر بمنافع العرب

---

(١) راجع نص الكتاب فى الذيل

(سابعاً) استعداد الحكومة الفرنسية للنظر مع سمو الأمير فى جميع الشؤون الخاصة بالمصالح المشتركة

لقد كان لهذا الرد أثر عميق فى نفس الأمير فيصل ؛ ولذا فإنه أرسل كتاباً آخر بتاريخ ٥ نوفمبر للرد على المذكرة الفرنسية ، وقد تضمن الكتاب النقط التالية [١] :

(١) شكر الحكومة الفرنسية على مودتها التى مازالت تظهرها نحو الأمة العربية ، ورغبتها الخالصة فى تأييد حكم يتضمن الحرية والنظام والرقى فى سوريا والعراق ، وسائر البلاد العربية المحررة

(٢) حرصاً على توطيد عرى الثقة بين العرب والحلفاء قد ألح سمو الأمير فى كتابه المؤرخ ٢٥ الشهر الماضى بوجوب تأليف لجنة تبحث فى انسحاب الجيوش وتأسيس إدارة مؤقتة فى سوريا تكفل وحدتها وفقاً لرغائب الشعب

(٣) أن مذكرة مستر لويد جورج التى كانت مثار البحث ، والتى لم توافق الحكومة الفرنسية على مجمل ما احتوته ، تشف عن تنفيذ معاهدة (سايكس — بيكو) السرية ، فليس القصد من هـذا التبديل الجديد سحب الجند فقط بل تحديد مناطق سياسية واقتصادية ، وتقرير مصير بلادنا وفقاً لمصالح لا تتفق مع مصالحها ، ولهذا فقد لفت نظرة الحكومة البريطانية إلى هذا الأمر وبعد المناقشات العديده والاجتماعات المتوالية ، قبلت مبدئياً تأليف لجنة للنظر فى هذا الشأن

(٤) أن الخوف على مستقبل البلاد قد أوجد اضطراباً فى الأمة العربيه ، وهـذا الاضطراب لا يسكن إلا إذا أزيل الأثر السيئ الذى ولدته التدابير الأخيرة

وأن الشعب السورى لا يمكن أن يتلاعب به المحرضون بقصد إخلال الراحة والأمن فقط ، وأن هذا الشعب لا يحجم عن أن يهب مرة أخرى للدفاع عن حريته وكيانه .

(٥) ذكر فى المذكرة الفرنسية أن الحكومة الفرنسية على يقين من إخماد كل حركة قد تثور فى الجهات التى احتلتها ، والحقيقة أن الحركة التى ستثور فى كل البلاد لا تنشأ عن أعمال المحرضين بل حركة وطنية عامة ، ولا يستطيع سمو الأمير أن يستعين بجنود

(١) راجع نص الكتاب فى الذيل .

أجنبية لإخماد حركة وطنية نمت واختمرت تحت بيانات الحلفاء الرسمية وتأثيرها .

(٦) اندهاش سمو الأمير من قرار مؤتمر الصلح بدون دعوته لسماع ما لديه من الملاحظات .

(٧) إلحاح الأمير فى العدول عن مسألة إحلال الجنود الفرنسية محل الجنود البريطانية ورغبته الصادقة فى الوصول إلى اتفاق نهائى يضمن للأمة العربية التقدم والرقى مع الحرية والاستقلال .

غير أن الحكومة الفرنسية أصرت على نظر رأيها ولم تصغ إلى مقترحات الأمير ؛ ولذا فإن الأمير رجع إلى الإنجليز مرة أخرى لعلهم يساعدونه فى حل هذا المشكل ، وهو يعتقد أن أمثال هذه المشاكل لا يستعصى عليهم حلها .

كتب الأمير مذكرة[1] لمستر لويد جورج بباريس بتاريخ ٦ نوفمبر سنة ١٩١٩ يشرح فيها ما لقيته مفاوضاته مع الفرنسيين ، ورفضهم تشكيل اللجنة التى كان الإنجليز قبلوها ، وأن الفرنسيين لم يقصدوا بدعوته إلا اجتماعه مع الجنرال غورو الذى صرح للأمير بأنه سيضطر إلى تنفيذ كل الأوامر التى يتلقاها وأنه مع كرهه لسفك الدماء لا يحجم عنه إذا دعته الأوامر . والتمس الأمير فى آخر كتابه مساعدة رئيس الوزراء الإنكليزية ، وفى ٢١ نوفمبر أرسل مذكرة[2] إلى رئيس الحكومة البريطانية يحتج فيها باسم والده على ما يراد من احتلال بعض الأراضى السورية ، ويطلب مساعدتها ويذكرها بمعاهداتها مع الملك حسين . ويظهر لنا من البرقية التى ارسلها سمو الأمير لوالده فى ٢٢ نوفمبر سنة ١٩١٩ التى فيها يصرح بأن الحكومة الفرنسية مصرة على إشغال أقسام مهمة من مقاطعات دمشق ، وحلب ، تمسكاً بمذكرة مستر لويد جوج ، وأن الأمور كانت سائرة فى اتجاه مضاد لما كان يريده الأمير ويسعى إليه ، ولكن يظهر أن توسط بريطانيا قد أثمر ، ففى ٢٦ نوفمبر أى بعد إرسال البرقية الأولى بأربعة أيام أرسل[3] الأمير فيصل إلى شقيقه الأمير زيد نائبه فى سوريا ، وأرسل وزير الخارجية الفرنسية إلى الجنرال غورو

---

(١) راجع نص المذكرة فى الذيل
(٢) راجع نص المذكرة فى الذيل
(٣) تجد نص البرقيتين فى الذيل

الاتفاق المؤقت الذى تم بين سموه و بين وزارة الخارجية الفرنسية ليقوم الطرفان بتنفيذه ويقضى هذا الاتفاق :

(١) تأليف لجنة من فرنسى وانجليزى وعربى لأجل تسوية المشاكل التى قد تحدث بين المناطق .

(٢) انسحاب الجنود العربية من البقاع مع بقاء الدَّرَك العربى فيها لحفظ النظام والأمن تحت أوامر القائمقام .

(٣) لا تحتل الجنود الفرنسية البقاع ولا محلا آخر من المناطق الحاضرة .

(٤) تشكيل لجنة من ثلاثة ضباط فرنسيين وثلاثة عرب لملاحظة حسن تنفيذ وظائف الشرطة والدَّرَك فى تلك الجهة ورفع تقريرها إلى القائمقام .

وفى نوفمبر سنة ١٩١٩ أرسل مسيو برتلو السكرتير العام لوزارة الخارجية الفرنسية كتاباً[١] للأمير فيصل يعبر فيه عن سرور مجلس الوزراء بالاتفاق على اللجنة العسكرية . الذى كان نتيجة لروح التآلف المتبادل ، غير أن مسيو برتلو صارح الأمير فيصلاً أن ما تم الاتفاق عليه هو تنازل مؤقت من الحكومة الفرنسية عن حقها الذى صادق عليه المؤتمر . وأنه إذا لم يؤكد هـذا الاتفاق باتفاق مرضٍ وقاطع إلى ثلاثة أشهر فليكن معلوماً أن الفريقين يستأنفان حرية العمل .

غير أن هذا الاتفاق لم يمض على تنفيذه وقت طويل ، فإن السلطة العسكرية الفرنسية رأت أن تقمع الثورة الوطنية التى بدت فى الأحزاب العربية والشباب العربى ، وأن أى سعة صدر أو تهاون قد يجعل مركزها فى سوريا حرجا ، وفى ١٤ ديسمبر سنة ١٩١٩ حدث اعتداء على ضابط الارتباط الفرنسى فقتل وجرح جاويشه ، فأرسلت القيادة الفرنسية قوة من الجند فاحتلت بعلبك ، فاحتج الأمير فيصل على هذا الاحتلال المخالف لروح الاتفاقية بكتاب مؤرخ فى ١٩ ديسمبر ، وأعاد الاحتجاج بكتاب آخر مؤرخ فى ٢٢ ديسمبر سنة ١٩١٩[٢] ، غير أن الاحتجاجات لم يكن لها أثر يذكر .

---

(١) راجع نص الكتاب فى الذيل .
(٢) راجع نص الكتابين فى الذيل .

رجوع الأمير فيصل إلى سوريا

وإعلان الملكية فى دمشق

سبقت الأمير فيصلاً إلى سوريا إشاعات كثيرة منها : أنه عقد اتفاقاً أولياً مع الفرنسيين فى باريس فى ٦ ديسمبر يتضمن الاعتراف بالانتداب على سوريا وطلب المستشارين اللازمين لتنظيم الإدارات الملكية ، والعدلية ، والأشغال العمومية من الحكومة الفرنسية وحدها ، ومدرّبين للدرك والشرطة ، كما أن الاتفاقية أعطت الأمير فيصل حق تعيين مندوب مفوض فى وزارة الخارجية للدفاع عن الشئون السورية ، كما أن الممثلين السياسيين والقناصل الفرنسيين فى الخارج يقومون بتمثيل المصالح الخارجية للدولة السورية .

وشاع أيضاً فى سوريا أن الاتفاق الأول عدِّل فى ١٦ ديسمبر باتفاق آخر فى ١٢ مادة لا يخرج فى جوهره عن الاتفاق الأول ، وإن كان فيه شيء من التفصيل فيما يختص بعمل المستشار المالى ، وإعطاء حق الأولوية التامة للفرنسيين فى المشروعات والقروض المحلية ، واعتبار اللغة الفرنسية لغة إضافية إجبارية بعد اللغة العربية .

وقد قضت الاتفاقية الأولى والثانية على كتمان هذا العهد من الفريقين إلى وقت الإمضاء النهائى .

لقد نشرت الصحف ها تين الاتفاقيتين فى وقتهما ، كما نشرها بعض المؤلفين العرب بدون أن يخبرونا عن المصادر الوثيقة التى استقوا منها هذه المعلومات .

وإننا لم نعثر فيما لدينا من الأوراق على شيء يتعلق بهذا الاتفاق . غير أنه فى الكتاب المؤرخ فى ٢٦ نوفمبر المرسل من سمو الأمير فيصل إلى المسيو برتلو السكرتير العام للأمور السياسية الذى يشكره فيه على الحل الموفق الخاص بسحب الجنود الإنجليزية ، وتعيين لجنة مشتركة الخ . جاء فى الكتاب المذكور الجملة الآتية :

« وإنى لم أزل منذ وصولى إلى باريس أصر كما هو معلوم لديكم على هذه النقطة ، وهى أن قصدى كان الوصول إلى عقد ائتلاف مع الحكومة الفرنسية التى مع قبولى ما يضمن للشعب السورى سيادته الوطنية ستمنح للبلاد يطلب منى معونتها المالية ،

ومستشارين بقصد التعاون الودى مع الحكومة العربية الوطنية المؤسسة من قبل الأهلين » .

وسواء كان الاتفاق المشار إليه صحيحاً أو غير صحيح ، فإن الأمير فيصلاً كان يود من كل قلبه الاتفاق مع الفرنسيين والاستعانة بهم على تسيير دفة الحكومة العربية ، غير أن سموه حينما وصل دمشق لم يجد جوها السياسى ملائماً لما كان يريده ؛ فهبت الأحزاب فى وجهه لا ترضى بغير الاستقلال التام بديلا ، وأفلت زمام الأمور من يد القادة ، ووجد الشباب السورى (والشباب فى كل بلد) قوة بريئة تندفع إلى ما تعتقده الحق بدون أن تفكر فى النتائج التى قد تنتج . كثرت العصابات فى البلاد ، وقامت المنازعات الطائفية مرة أخرى ، وهذا بالطبع لم يكن برضاء أو إيعاز الحكومة الوطنية السورية ، بل الظروف التى أحاطت بالبلاد هى التى حركت المنازعات من جديد .

وأخيراً دعى المؤتمر السورى مرة ثانية للبت فى قضية الاستقلال وإعلان الأمير فيصل ملكاً على سوريا ، وأعلنت الأحزاب على اختلاف نزعاتها رفض الانتداب الفرنسى على سوريا . كما رفضوا الانتداب البريطانى على فلسطين ، فاجتمع المؤتمر السورى العام وقرر فى ١٦ جمادى الثانية سنة ١٣٣٨ — ٧ مارس سنة ١٩٢٠ بإجماع الآراء استقلال البلاد السورية بحدودها الطبيعية ، ومنها فلسطين استقلالاً تاما . لا شائبة فيه على الأساس المدنى النيابى ، وحفظ حقوق الأقلية ورفض مزاعم الصهيونيين فى جعل فلسطين وطناً قوميا لليهود أو دار هجرة لهم ، واختاروا سمو الأمير فيصل بن الحسين ملكاً دستوريًا على سوريا ، وأعلن انتهاء الحكومات الاحتلالية العسكرية الحاضرة فى المناطق الثلاث . وقد حذا العراقيون المقيمون فى سوريا حذو إخوانهم السوريين فاختاروا قادتهم الموجودين فى سوريا الذين شكلوا المؤتمر العراقى الذى انعقد بجانب المؤتمر السورى وأعلن استقلال العراق وانتخاب الأمير عبد الله ملكاً له .

وفى يوم الاثنين الموافق ١٧ جمادى الثانية سنة ١٣٣٨ هـ — ٨ مارس سنة ١٩٢٠ بويع الملك فيصل ملكا على سوريا ، كما بويع شقيقه ملكا على العراق ، وتألفت بعد ذلك الوزارة السورية الثانية برياسة هاشم بك الأتاسى .

لم يقابل البريطانيون والفرنسيون هذه الحركة بالرضا واعتبروها تحديًا لهم ، وبالطبع فإنهما لم يعترفا بالتغييرات التى وقعت فى المنطقة السورية ، ولقد جرت حوادث احتكاك كثيرة بين السلطات العربية والحكومة الفرنسية جعلت سوء التفاهم يزداد بين الفريقين ، فالجانب السورى ينظر إلى الفرنسيين نظر المستعمر الذى يريد استعباد الشعب والتحكم فيه ، والفرنسيون ينظرون إلى السوريين نظر المحرض الكاره لهم ، العامل على خلق المتاعب فى سبيلهم ، وبالرغم مما كان يبذله العقلاء لتسكين الخواطر الثائرة ، وإحلال الوئام مقام الخصام ، فإن جميع المساعى التى بذلت ذهبت سدى ، حتى أنه كان يتهم بالخيانة كل من كان يشير بالاعتدال ، وأخيراً أرسل الجنرال غورو إنذاره النهائى فى ١٤ يوليو سنة ١٩٢٠ باسم الحكومة الفرنسية ، وقد تضمن البلاغ المذكور :

(١) تحمل حكومة سوريا كل تبعة إزاء سكان سوريا الذين عهد مؤتمر الصلح إلى فرنسا أن تمتعهم بحسنات إدارة مؤسسة على الاستقلال والنظام والرخاء

(٢) أن سمو الأمير قد أجاب على ما أظهرته فرنسا من تأييدها رغبة السكان الذين يتكلمون العربية على اختلاف مذاهبهم لحكم أنفسهم بأنفسهم ، بأن لسكان سوريا مصلحة كبيرة فى طلب المشورة والمساعدة من دولة كبيرة لتحقيق وحدتهم وتنظيم شئون الأمة ، نظراً لما أصاب البلاد من الإرهاق التركى ، وأن سمو الأمير دعا فرنسا إلى القيام بهذه المهمة باسم الأمة السورية

(٣) ذكر حوادث متعددة نسبت إلى الحكومة العربية

(٤) سياسة حكومة دمشق العدائية بإدخالها بعض العناصر المشهورة بعداء فرنسا فى الحكومة ، وانتخاب الوزارة من تلك الفئة التى لا تقتصر خطتها على إهانة فرنسا ورفض مساعدتها ، بل تتناول المجلس الأعلى الذى منح فرنسا الانتداب فى سوريا

(٥) التدابير الإدارية ضد فرنسا بمنع جميع المعاملات التجارية والمالية مع فروع بنك سوريا فى المنطقة الشرقية ، ورفض التعامل بالورق النقدى السورى

(٦) اجتياز السلطة الشريفية حدود المنطقة الشرقية ، وتقدمها داخل المنطقة لتظهر أنها توسعت توسعاً به إخراجنا

(٧) الاعتداء على الحقوق الدولية التى توجب على قائد جيش الحجاز المحتل قطراً سوريا أن يظل عثمانيا حتى تقضى المعاهدة بتغييره ، وألا يحاول تغيير الحالة الراهنة التى هو حارس عليها ، ولكنه تصرف عكس هذا متخذا صفة السيادة العليا ، وقد قرر التجنيد الاجبارى ونفذ مع أن البلاد لا تزال أجنبية ، وهذا العبث قد أكره عليه الشعب حتى فى المناطق التى لها شكل خاص كالبقاع ، وإعلان المجلس الملقب بالمؤتمر السورى الذى تألف واجتمع بصورة غير قانونية بسن القوانين وتشكيل حكومة غير معترف بها ، فضلا عن أنه قدم اللقب الملكى لسموكم بدون حق ولا وكالة

وطلب الجنرال غورو باسم الحكومة المطالب الآتية كضمانات لسلامة جنوده وسلامة السكان ، والضمانات هى :

(١) التصرف بسكة « رياق — حلب » الحديدية لإجراء جميع النقليات بمراقبة مفوضين فرنسيين

(٢) قبول الانتداب الفرنسى الذى يحترم استقلال سوريا ولا يتضمن سوى المعاونة بين الدولة المنتدبة دون أن يتخذ شكل استعمار

(٣) قبول الورق الصورى

(٤) تأديب المجرمين الذين كانوا أشد عداء لفرنسا

وقد أعطيت مهلة أربعة أيام الاجابة ، تبتدئ من نصف ليل ١٥ يوليو سنة ١٩٢٠ ، على أن الحكومة الفرنسية ستكون مطلقة اليد فى العمل إذا لم يصلها إشعار بقبول هذه الشروط فى الوقت المعين

ثم أعقب هذا الإنذار منشوراً من الجنرال غورو على سكان سوريا ببيان موقف حكومة فرنسا تجاه الحكومة العربية فى دمشق

لقد كان لهذا الإنذار أسوأ أثر فى سوريا كما أنه أوقع الحيرة فى نفوس المسئولين ، أيسيرون إلى النهاية فى خطتهم وينتظرون ما يحكم به القدر ، أم ينزلون على إرادة الجنرال غورو ويقبلون مطالبته بلا قيد ولا شرط

بعد محاورات كثيرة بين رؤساء الجيش وبين جلالة الملك ، وبين الملك وبين المؤتمر

السورى الذى كان يصر على خطة الدفاع عن حقوق البلاد مهما كانت النتيجة ، سلمت الوزارة لجلالة الملك الرد الذى وضعته على الإنذار الفرنسى ، ويتلخص فى إنكار التهم التى نسبت إلى الحكومة العربية بتأليف العصابات وإيجاد جو مضاد لفرنسا ، وأن الحركة العربية هى فى الحقيقة حركة طبيعية ضد الاستعمار ، وختمت المذكرة بما يأتى :

(١) السماح بالورق السورى بالدخول إلى المنطقة السورية

(٢) إجراء التحقيقات القانونية فى قضية المشتركين فى الجرائم ، ومعاقبة كل من تثبت إدانته حسب القانون

(٣) الاكتفاء بالعدد اللازم لحفظ الأمن الداخلى فقط

(٤) قبول قرار مؤتمر سان ريمو على أن يعين شكله الصريح بواسطة الوفد الذى سيرسل إلى أوروبا لهذه الغاية

(٥) الموافقة على وضع الخط الحديدى من رياق إلى حلب تحت أمر السلطة العسكرية المشتركة من الجيوش السورية والفرنسية ، واتخاذ مدينة حلب قاعدة حربية على شرط أن يشترك الجيش السورى مع الجيش الفرنسى فى تحديد حدود سوريا الشمالية

ثم استعفت الوزارة الاتاسية عقب ذلك ، ويقول الذين كانوا فى سوريا فى هذا الحين إن الرد لم يرسل ، وهو فى الحقيقة كان أساس قبول الملك فيصل شروط الجنرال غورو بلاقيد ولا شرط ، فقد أرسل جلالته فى ١٧ يوليو سنة ١٩٢٠ برقية يخبره فيها بذلك ، فتلقى جواباً من الجنرال يقول فيه : إنى أشكرك على تحكيم العقل فى هذه الأمور ، وإنما أرغب إليك أن يكون جوابك على الوجه الآتى : أخذت إنذارك المتضمن الشروط الآتية ، وقد قبلتها برمتها ، وقد كانت هذه البرقية سبباً فى مد مدة الإنذار أربعة وعشرين ساعة أخرى ، ثم أربعة وعشرين ساعة أخرى ، حيث انتهت مدة الإنذار فى الساعة الثانية عشرة من يوم ٢٢ يوليو سنة ١٩٢٠ ، غير أن جواب الملك فيصل قد تأخر وصوله إلى الجنرال غورو لأسباب لا تزال مجهولة قد تكون من بعض الموظفين الذين لا يروقهم أن يروا الصفاء سائداً بين الفرنسين والعرب ، وقد تكون الأسباب انقطاع الأسلاك البرقية ، وقد تكون غير ذلك . ولكن المهم أن الجنرال غورو قد عرف رأى الملك فيصل

فى الموضوع ، ومع ذلك فقد تذرع بتأخير التلغراف ، وأمر الجيش الفرنسى بالزحف فهزم الجيش العربى بعد قتال لم يستمر أكثر من بضع ساعات ودخل دمشق فى ٢٥ يوليو ، وأبلغ رئيس البعثة الفرنسية الملك فيصل أن يغادر دمشق عملاً بقرار حكومة الجمهورية ، ولم يحن يوم ٢٨ يوليو حتى وضعت فرنسا يدها على المدن الأربع ، وقضت القضاء الأخير على الحكومة العربية السورية

ولقد احتج الملك حسين أشد احتجاج على ما أتته فرنسا فى سوريا ، ولكن الاحتجاجات لا تعدل من خطة القوى

لقد كان ما أصاب سوريا أكبر ضربة أصابت آمال الملك حسين وهدمت صرح أحلامه فى إنشاء الإمبراطورية العربية . وفى الواقع لم تكن ضربة لآمال الملك حسين ، وحده بل ضربة لآمال متعلمى العرب وشبانهم الذين طالما عارضوا الأتراك فى أساليب حكمهم واستبدادهم بشئون البلاد العربية

على أن الملك فيصلاً فى أثناء الحرب وأثناء إقامته فى أوروبا ترك أحسن الأثر فى نفوس عارفيه ومن اتصل به من البريطانيين ، فرشح لعرش العراق واختير فى سنة ١٩٢١ ملكاً على العراق ، ومنذ ذلك الوقت وجلالته يدأب على السهر فى مصالح العراق حتى تمكن بكياسته ومساعدة قادة العراق من إلغاء الانتداب على العراق ، واستخلاص استقلال العراق والاعتراف به بشكل دولى محترم ، وجعل للعراق منزلة تحسدها عليه سوريا

إن تطورات الحوادث وسعى ملوك العرب فى التفاهم وترك الخصام والعداء الشخصى القديم مما يبشر بخير عظيم للأمة العربية ، وكل ما نرجوه أن تجتمع كلمة زعماء العرب قادتهم ، ويجعلوا صالح الشعب العربى مقدماً على كل ما سواه ، ويسلكوا الطرق العملية للوصول إلى غرضهم ، فإن ذلك كفيل بمستقبل حسن للعرب

وإن من ينظر إلى الروح العربية قبيل الحرب فى سائر البلاد العربية ، ويقارنها بالروح الحالية يشعر بتقدم عظيم وتطور فى الشعور القومى يبشر بأمل كبير فى المستقبل وإن الحرب العالمية الأخيرة قد أثمرت خيرات الثمرات بإخراج الفرنسيين من سوريا ولبنان وتأليف حكومة جمهورية مستقلة غير أن عدم الاستقرار والتطاحن الحزبى سادا البلاد ولعل القادة الحكماء يقودون الأمة إلى ساحل الأمان

أثر الثورة العربية في الحرب العامة

لا يصح أن نبالغ كثيراً في تأثير الثورة العربية في الحرب العامة ، فإن الحجاز كانت مفتقرة إلى الحلفاء في كل شيء . في السلاح والذخيرة ، والمؤونة والغذاء ، والقوات الفنية . ولكننا من جهة أخرى لا يصح أن نقلل من أهمية الثورة وتأثيرها في موقف الأتراك في الشرق

واللورد سسل وزير الحصار (وهو أخبر من غيره بمدى هذا التأثير) قد وصف الأعمال العسكرية بعد إعلان الثورة في مجلس اللوردات في خطبته الآتية : —

« إني بإذن مجلس الندوة أصف بقدر ما يمكن من الإيجاز أدوار الأعمال الحربية التي جرت منذ إعلان الاستقلال العربي في مكة في شهر يوليو سنة ١٩١٦ . كان للترك في ذلك الوقت في الأقطار الحجازية جيش نظامي مؤلف من عشرين ألف جندي مزود بالمدفعية المتناسبة وكل لوازم النقليات والمواد الغذائية والمهمات الحربية ، علاوة على السكة الحديدية العسكرية التي تصل الجيش المذكور مباشرة مع مراكزه الشمالية . إن العرب الذين انضووا تحت لواء الحرية والاستقلال لم يكونوا منظمين ولا مزودين بالأسلحة الحديثة ، وبالرغم من ذلك فقد تسنى لهم منذ أول الحركة الاستيلاء على جدة ، ومكة ، والطائف ، وينبع ، والوجه ، والعقبة وتَيْما ؛ وعلى أثر ذلك انضم كثير من القبائل العربية إلى جانب جلالة ملك الحجاز ، وتطوع كثير من الضباط والجنود العرب الموجودين عندنا في الأسر في الجيش العربي ، فشكل جلالته منهم قوة متمرنة مستديمة ليحفظ بها ما استولى عليه ، ويوسع نطاق الاستقلال العربي ، ولقد كانت نتيجة المجهود الذي بذله هذا الجيش القومي بقيادة أصحاب السمو : الشريف علي ، وعبد الله ، وفيصل ، وزيد ، أن سواحل البحر الأحمر طُهرت من الأتراك على مسافة ٨٠٠ ميل ، كما أن مواصلات السكة الحديدية العسكرية انقطعت مراراً عديدة ، وألحقت خسائر جسيمة في أدرات السكة الحديدية وعرباتها ومستودعاتها ، والمدينة المنورة نفسها محصورة منذ سنة . وقد تقدم الشريف

فيصل بجبهة جيشه من مكة إلى الطُّفيلة على شواطىء البحر الميت يعنى على مسافة ٨٠٠ ميل . وقد كانت نتيجة الغارة التى قام بها فريق من الجيش البريطانى على عمارة أنها ساعدت الجيش العربى على الاحتفاظ بمراكزه ، والخسائر التى ألحقت بالأتراك حتى الآن جسيمة جداً ، ويمكننا أن نقول بكل اطمئنان : إن القوات العربية منذ الاستقلال العربى حتى الآن قد حصرت وأسرت وأشغلت ٤٠٫٠٠٠ جندى تركى ، وغنمت أكثر من مائة مدفع ، وبالرغم من انهماك الحكومة الحجازية فى الجهاد فى سبيل الحرية والاستقلال فقد تسنى لها افتتاح عصر جديد من النظام والترتيب لم تعرفهما الأقطار الحجازية منذ دخلت تحت سلطة الأتراك ، وقد نجحت الحكومة العربية باتخاذ التدابير اللازمة لتسهيل الحج فى السنتين الأخيرتين ، ولقى الحجاج من ضروب الرفاهية والعناية الطبية ما لم يسبق لهم التمتع به من قبل ، وكان الحج فى كلتا السنتين سالماً من الأوبئة والتعيديات العادية والاضطرابات . وفى القسم الشرقى من جزيرة العرب قد برهن الأمير ابن سعود أنه حليف متين ، وقد أسس استقلال القسم الأعظم من نجد ، وما زال أمير حايل شخصياً تحت حكم الأتراك ، وقد مضى عليه سنة وهو متغيب عن عاصمته »

وقد أطرى اللورد اللنبى شجاعة الجيش العربى وإبلاءه البلاء الحسن فى إقصاء الأتراك عن البلاد العربية ، كما أطرى المساعدات المظيمة التى أسدوها والأثر الحربى الذى لا ينكر فى ميدان فلسطين ، وأن العرب بانضمامهم للحلفاء لم يفيدوهم فقط فائدة مادية ، بل إن الملك حسيناً بذل نفوذه المعنوى فى سائر الجهات التى كان دعاة الأتراك يبثون فيها دعوتهم ضد الحلفاء

أرسل الملك حسين الشيخ (عباس مالكى) من علماء الحجاز إلى الحبشة حسب طلب الإنجليز ، فنشر الدعوة للشريف أو بعبارة أخرى للحلفاء ، لأن غاية الجميع واحدة ؛ وأحبطت بعثة الشريف حسين مساعى رسل الأتراك وأعادت السكون إلى تلك الأطراف . كما هيأ الشيخ سليمان أزهر لإرساله إلى بلاد التركستان ، ولكن الانقلاب الروسى حال دون سفره

نعم إن الجيش العربى كان يستمد من الحلفاء لا سيما الإنجليز كل شىء : المال والذخيرة

والغذاء والسلاح ، ولكن العرب لم يضنوا بشيء في سبيل استخلاص بلادهم من الأتراك ، بل بذلوا نفوسهم وهي أعز شيء بذل السماح ، ولقد أمد الحلفاء بعضهم البعض بالسلاح والرجال وغيرهم ، كما أمد الألمان الأتراك بالسلاح والمال ورجال الفن

ومهما قيل فإن ما أسداه العرب للحلفاء من الأعمال العسكرية وما خففوا به الضغط عنهم أثمن من الذهب الذي تدفق مرة ثانية إلى الخارج بما اشتراه العرب من الضروريات

لقد بالغ الناس كثيراً في هذه الإعانات ، ولم نر كتاباً من الكتب التي نشرت أخيراً أزال الستار عن هذا وأوضح لنا هذا الغموض ؛ ولذا فإننا نحاول باختصار أن نذكر شيئاً هنا من الأوراق التي تحت أيدينا خدمة للتاريخ العربي ، والحقيقة التي ينشدها المنصفون

في كتاب بتاريخ [1] ٢٩ مارس سنة ١٩١٧ من دار الاعتماد البريطاني للملك حسين أن الإعانات كانت توزع كالآتي : —

٤٠ ألف جنيه لسمو الأمير فيصل
٣٠ « « « « عبد الله
٢٠ « « « « علي
٢٠ « « « « زيد
١٥ « « لجدة

———

١٢٥ ألف جنيه

وإنه من ذلك التاريخ سيزاد ١٠ آلاف على ما يدفع لسمو الأمير فيصل ، ومثلها لسمو الأمير عبد الله ، فيصبح ما يتناوله الأول ٥٠ ألفاً وما يتناوله الثاني ٤٠ ألف جنيه أي أن المبلغ الشهري كان أولا ١٢٥ ألف جنيه فأصبح ١٤٥ ألف جنيه على أن هذا المبلغ قد زاد حتى وصل إلى ٢٠٠ ألف جنيه

وفي كتاب [2] لدار الاعتماد البريطاني بجدة بتاريخ ١٣ ابريل سنة ١٩١٩ أن الحكومة البريطانية خفضت الإعانة التي تدفع إلى الحجاز إلى ١٢٠ ألفاً منها ٨٠ ألفاً لحكومة

---

(١) راجع نص الكتاب في الذيل (٢) راجع نص الكتاب في الذيل

دمشق أو بعبارة أخرى للأمير فيصل ، ولـكنها زيدت بعد ذلك إلى ١٥٠ ألفاً ، ثم خفضت إلى ١٢٠ ألفاً مرة ثانية ، ثم إلى ١٠٠ ألف ، وأن فى النية تخفيضها إلى ٨٠ ألفاً ، غير أن الحـكومة البريطانية استمرت تدفع ١٠٠ ألف للحجاز حتى شهر يوليو سنة ١٩١٩

وفى كتاب[١] آخر من دار الاعتماد البريطانية للملك حسين بتاريخ مايو سنة ١٩٢٠ أن المبلغ الذى وصل إليه من الخزانة البريطانية عن المدة ما بين إبريل سنة ١٩١٨ لغاية ٣١ مارس هو مبلغ ٢٫٤٧٥٫٠٠٠ باعتبار ٢٠٠ ألف جنيه كل شهر مع إضافة ٢٥ ألف جنيه علاوة على كل من ثلاثة الأشهر إبريل ومايو ويونية

وفى كتابين بتاريخ ١٤ فبراير سـنة ١٩٢٢ وأول فبراير سنة ١٩٢٣ أن المبلغ الذى وصل إليه من أول إبريل سنة ١٩١٩ إلى ٣١ مارس سنة ١٩٢٠ كان ٩٢٥٫٥٧٥ جنيهاً و ٧ شلنات ، و٥ بنسات ، وفى أثناء سنة ١٩٢٠ المتداخلة فى ١٩٢١ وصل إليه ٢٧٫٢٥٣ جنيهاً و ١٥ شلناً و٦ بنسات

هذا ما يختص بالنقود التى كانت ترسل من الجانب البريطانى لمساعدة الثورة العربية ، أما الأغذية فيكفى أن نقول : إن الحجاز ليس بلداً زراعيا يمكن أن يقوم بحاجات سكانه وما فيه من الأودية المزروعة لا يكفى بحاجات السكان ؛ ولذا فقـد كان الحجاز دائماً محل عطف ورعاية من سائر ملوك المسلمين ، وفى أثناء الثورة العربية كانت إنجلترا تقوم بتقديم كل ما يحتاج إليه الجيش العربى فى سائر الميادين ، كما أنها كانت ترسل إلى مكة مقادير غير قليلة للأهالى الذين كانوا فى أشد حاجة لهذه المساعدة ، ربما كان من المفيد أن ننشر قائمة بما أرسل من الأغذية فى سبتمبر من سنة ١٩١٧ ليكون لدى القارئ صورة صحيحة مما كان يقوم به البريطانيون أثناء الحرب لتموين الثورة العربية

---

(١) راجع نص الـكتاب فى الذيل

شهر سبتمبر

	ما أرسل فى هذا الشهر		يرسل على الأريثوزا	يرسل على الباخرة الحب	ما يبقى بجدة لحين وصول باخرة الذخيرة الثانية من الهند
ينبع	دقيق	١٠٠٠	٣٠٠٠	٣٠٠٠	٥٠٠٠
	أرز	١٠٠٠	٣٢٠٠	٥٠٠٠	٣٠٠٠
	بن	٦٠	—	٢٥٠	—
	سكر	٣٠	—	١٨٠	—
	شعير	٥٠٠	٥٠	٢٠٠	—
الوجه	دقيق	١٦٠٠	—	٣٠٠٠	
	أرز	٤٠٠٠	—	٥٠٠٠	
	بن	—	٢٥٠	—	
	سكر	—	٢٥٠	—	
	شعير	—	٢٥٠	—	
الأمير زيد بالعقبة	دقيق	١٢٠٠			
	أرز	١٢٠٠			
	بن	٥٠			
	سكر	٤٠			

ملاحظة :

١ — كل الأعداد معتبرة بأكياس صغيرة بخلاف الشعير فمحتسب بأكياس كبيرة

٢ — البن معتبر بالصناديق

اما الأسلحة والذخيرة فالثورة كلها كانت مسلحة بأسلحة إنجليزية وقليل من

الأسلحة الفرنسية ، ولكن الشيء الذى يجب أن نذكره هنا : أن الحكومة البريطانية كانت دائما تتجنب كل ما من شأنه أن يثير شبهة تداخلها فى الحجاز ، فلم ترسل طياراتها أو رجالها الفنيين إلا إلى الأماكن البعيدة عن مكة والمدينة ، ولعلها أن جيش الشريف ينقصه الشيء الكثير من الضباط المدربين والعسكر النظاميين فقد أمدت جيشه بعدد من ضباط الجيش المصرى وجنوده فى الطائف ، مكة ، والوجه ، كما أن الفرنسيين أيضاً أمدوا الجيش العربى ببعض الضباط ، ولكن أثرهم كان ضعيفاً بالمقارنة إلى المساعدات البريطانية

ويظهر أن هذه المساعدات كانت دون حاجة الجيش ، فإن الملك حسيناً كان كثير الشكوى ويطلب من وقت لآخر المزيد ، كما أنه كان يتهدد البريطانيين بالاستقالة إذا لم تجب طلباته ، ولكن البريطانيين كانوا يعالجون الأمر بالحكمة والصبر والأناة شأنهم فى معالجة سائر الأمور حتى انتهت الحرب. كما يشتهون من انتصاراتهم وانتصار حلفائهم على ألمانيا وشركائها

المعاهدة البريطانية مع الملك حسين

لا شك أن آمال الملك حسين قد أصابها شيء من التصدع بعد حوادث سوريا ، ولكن الآمال انتعشت قليلا بعد أن تبوأ ولده المرحوم الملك فيصل عرش العراق ، غير أن الملك حسيناً ما زال من وقت لآخر يلح على البريطانيين بالوفاء بعهودهم المقطوعة له ، والبريطانيون كما يتبين من أحاديثهم مع الملك فيصل شرحوا موقفهم جليا ، وأنهم لا يتفقون مع ما يفهمه الملك حسين من العهود ، ولكنهم من جهة أخرى كانوا يعترفون بمساعدات الملك حسين لهم فى الحرب العامة ، فكانوا يودون أن يصفوا الحساب بينهم وبينه بمعاهدة سياسية ، فأوفدوا لهذا الغرض الكولونيل لورانس سنة ١٩٢١ فتفاوض مع الأمير على ، والشيخ فؤاد الخطيب ، ودار البحث بين الطرفين على الحدود الحجازية النجدية المختلف عليها ، والحدود اليمنية والاتحاد العربى ، ثم على مشروع معاهدة بين الطرفين [1] ، ويظهر أن الاتفاق كان تاما ، لأنه ليس من المعقول أن يتم أى شيء بين الأمير على وبين الكولونيل لورانس بدون موافقة الملك حسين ، ولكن الملك حسيناً رفض المعاهدة لأنه لم يجدها متفقة مع أمانيه ، لا سيما ما يتعلق منها بالبلاد المجاورة للحجاز وخاصة ابن سعود

ولقد أراد سموا الأمير عبد الله حينما كان فى لندن فى خريف سنة ١٩٢١ أن يتداخل فى الموضوع بإنهاء موضوع المعاهدة ، لا سيما وقد سبق له البحث مع الكولونيل لورانس أيضاً فى جدة ، وبالفعل فقد استخبرت دار الاعتماد الانجليزى فى جدة فى ١٢ نوفمبر ١٩٢١ عما إذا كان الملك حسين يرغب فى أن يعيد سمو الأمير عبد الله فتح المفاوضات وإمضاء المعاهدة بالنيابة عن جلالة الملك ، فأجاب جلالته بكتاب صدره بالشكوى والعتاب ، وأنه أمضى المعاهدة وأرسلها للأمير عبد الله بناء على مذاكرة الكولونيل لوانس بعد تعديل بعض المواد ، وأننا وإن لم نقف على التعديلات التى أدخلها الملك حسين ، غير أن تداخل

---

(١) فى ذيل الكتاب نص مشروع المعاهدة وخلاصة المباحث التى دارت بين الكولونل لورانس والأمير على

سمو الأمير عبد الله لم يقدم الموضوع خطوة ؛ وأن التعديلات التي أدخلها على النص الموضوع لم يقبلها الجانب البريطاني

ولقد أوفد الملك حسين الدكتور ناجي الأصيل عدة مرات إلى البلاد الإنجليزية لحل معضلة المعاهدة والقضية العربية على الوضع الذي يريده . أما ما يتعلق بالقضية العربية والعهود التي قطعت للملك حسين . فالدكتور ناجي الأصيل لم يكن له من النفوذ والشخصية ما كان للملك فيصل والأمير عبد الله ، ولذا فإنه لم يكن ينتظر له الفوز من هذه الناحية

أما من جهة المعاهدة فإن الحكومة الإنجليزية قد استفهمت من الحكومة الهاشمية بكتاب سرى مؤرخ فى ٢٨ يناير سنة ١٩٢٢ عما إذا كان الملك حسين مستعدا لقبول بعض إصلاحات فى المعاهدة التى يحملها الدكتور ناجى الأصيل ، فإن معتمد وقنصل بريطانيا فى جدة مستعد للبحث والتوقيع على المعاهدة ؛ والإصلاحات المشار إليها قد ذكرت فى كتاب سرى آخر مؤرخ فى أول فبراير سنة ١٩٢٣ وهى :

١ — يحذف ما يتعلق بالإعانة لأن الإعانات كان قد تقرر قطعها

٢ — حذف ما يتعلق بالتمثيل القنصلى بمصر لأن مركز مصر قد تغير عن سنة ١٩٢٢

٣ — إضافة مادة جديدة كالآتى : إن جلالة الملك حسين يعترف بالمركز الخاص لصاحب الجلالة البريطانية فى العراق وفلسطين

وإضافة مادة أخرى بترجيح النص الإنجليزى فى حالة وقوع خلاف فى فهم إحدى المواد ، فأجاب الملك حسين على هذه التصحيحات بكتاب مؤرخ[1] ١٩٢٣/٦/١٧ بأنه قد تحقق ظنه الآن بأن الغيظ والغضب علينا من بريطانيا العظمى بشأن المعاهدة هو من جهة المواد المتعلقة بابن سعود ، وهذه المسألة لا نقول عنها إلا شيئاً واحداً ، هو أن عظمتها ترجح ابن سعود علينا ، فهل من يقول إذا لم تروا أننا نكون معه على ما كان الآباء والأجداد فى المادة والمعنى ، خذوا البلاد كلها وسلموها إليه ، ولا تبقى عليه مؤاخذة أو معاتبة ، وهل من موجب بعد هذا على مشاركة بريطانيا له على ما يسفك من الدماء ، وما ينهب من الأموال

---

(١) قد اخترنا من الكتاب العبارات التى استعملها الملك حسين بدون أى تغيير

ويسحق ويمحق من الديار ، لإعانتها له بالمال والسلاح ، وإنى لم أزل ولن أزل على هذه الفكرة .

أما إدخال المادة الخامسة عشرة (وهى الخاصة بالعراق وفلسطين) فحيث إننا معتقدون وجازمون بأن كافة البلاد العربية المحدودة فى الوعود والعهود هى معنى قائمة بما يراد بقوالكم فى العراق وفلسطين ؛ فلا نرى لهذا إلا التشويش والاضطراب على شخص جلالته خاصة والبلاد عامة ؛ وأشرنا إلى ذلك فى كتابنا إلى مندوبنا الأصيل ، وفى برقيتنا إلى دار الاعتماد فى ١٩ رجب سنة ١٣٣٧ ، وهو طلب ما تقرر أساساً من جهة حدود الشام والعراق والبصرة ، وجعلت الإعانة الشهرية فى مقابلة إشغالها للبصرة ، وأن أول شرط فى مقرراتى المذكورة جعل بلادنا المحدودة بتلك الحدود والمعلومة فى تلك المقررات تحت حماية بريطانيا من كل تعدّ الخ .

وهكذا فشلت هذه المحاولة كما فشلت المحاولات التى سبقتها ، وقد ارتطمت المعاهدة بصخرة قضية فلسطين وموقف بريطانيا من ابن سعود ، وقد أتاحت هذه الخلافات الفرصة لابن السعود أن يغير على الحجاز ويضع آخر حد للخلاف مع الملك حسين .

المسألة الفلسطينية

لا نريد هنا أن نأتى على تاريخ محاولة اليهود إنشاء مملكة يهودية فى فلسطين ، فقد أفردت لهذا الغرض مؤلفات خاصة ، ولكن الذى يهمنا أن نقرره هنا أن الحركة الصهيونية التى ظهرت بعد الحرب واتخذت شكلا أزعج العرب لم تكن جديدة ، فالحكومة التركية كانت تعلم خطر هذه الحركة فوضعت فى سنة ١٩٠٠ م تعليمات تقضى بمنع مهاجرى اليهود من الإقامة فى فلسطين أكثر من ثلاثة أشهر ، وقد احتجت إيطاليا وأميركا على هذا الحجر ، ولكن الحكومة التركية لم تصغ إلى ذلك ، وقد بذل هرتشل أكبر القائمين بالدعوة مجهودات عظيمة فى الآستانة ، ولكنه فشل فى حمل الباب العالى على الموافقة على إنشاء حكومة يهودية فى فلسطين ، غير أن المساعى اليهودية لم تعرف اليأس بل سارت فى أعمالها الاقتصادية والزراعية بكل تكتم ، كما أنها نشطت فى عقد المؤتمرات المتعددة لإثارة حماسة اليهود وتوحيد مساعيهم والتفاهم فى الوسائل الممكنة

قد أرادت الحكومة الاتحادية بيع نحو ثلاثة ملايين فدانٍ من الأراضى فى فلسطين وسوريا ، ولكن الشهيد شكرى بك العسّلى هاجم المشروع فى المجلس النيابى التركى و بيّن المضار والأخطار التى تصيب البلاد من أجله ، فحبطت المساعى المبذولة وطوى المشروع ، غير أن الصهيونين لم يعدموا الوسائل التى يمتلكون بها الأرض ، والدراهم تسخر كل شىء . دخلت تركيا الحرب فى صف ألمانيا وحلفائها فانتعشت آمال اليهود يوم صرح مستر اسكويث رئيس الوزارة الإنجليزية بأن جرس جنازة تركيا قد دق ، لا فى أوروبا فقط بل فى آسيا أيضاً ، فاستبشروا بأن تأسيس دولة يهودية فى فلسطين أصبح ممكناً ومعقولاً ، و برز الدكتور ويزمن الأستاذ فى جامعة مانشستر واندفع حتى أصبح قائد الحركة الصهيونية العامة ، وهو الذى اعتبر دخول تركيا فى الحرب مهداً جديداً لفلسطين وفرصة نادرة يجب الاستفادة منها

قابل الدكتور ويزمن مستر لويد جورج وكان يومئذ وزير المالية ، و بسط له آراءه

وآماله بجعل فلسطين بلاداً يهودية ، فارتاح إلى هذا الطلب ثم عمل على الاجتماع مع مستر بلفور فآنس منه كل تشجيع . لقد بحث الحلفاء (فرنسا وبريطانيا) فى تقسيم تركة الرجل المريض (تركيا) . وأمضى اتفاق (سايكس — بيكو) فى ربيع سنة ١٩١٦ ، ولم يخطر ببال الحلفاء إذ ذاك مسألة اليهود ، غير أن اليهود الأقوياء الأذكياء استطاعوا أن يصلوا إلى غرضهم بإقناع الإنجليز بأهمية ما يرمون إليه .

وفى ١٦ نوفمبر سنة ١٩١٧ ، أى بعد تصريح بلفور بأسبوعين أرسل السير مارك سايكس كتاباً[١] دوريا إلى زعماء العرب يوجه نظرهم فيه إلى أن الاهتمام بالقضية العربية يجب أن لا يوجه فقط إلى نجاحها فى ميدان الحرب ، بل يجب أن يوجه أيضاً إلى بقائها سائرة بالاتفاق مع سياسة العالم والنهضة العصرية لأن النهضة العربية إذا صادفت نجاحاً فى ميدان الحرب فقط ، ولم تكن موافقة لآراء الحكومات وعناصر العالم المختلفة ، فإنها لا تنال التأييد السياسي اللازم لحفظ كيانها والضامن لحياتها بعد الحرب .

ووجّه نظر قادة العرب أيضاً إلى أن العرب ، مع اتحادهم فى اللغة والجنس ، منقسمون انقساماً عظيما جغرافيا وتهذيبيا ، علاوة على الاختلاف الناشىء عن تأثير الظالم مدة سنين طويلة ، وقد أسدى النصيحة الآتية :

إن الحكومة البريطانية قد اعترفت بالصهيونية ، والصهيونيون أعظم قوة يهودية ، واليهودية منتشرة فى العالم أجمع ، فإن اتحدت قوة الصهيونية والعرب فإن تحرير العرب محقق ، وأما إذا انشقت هاتان القوتان فإن ذلك لا يفضي إلى الارتياب فقط ، بل يؤدى إلى الفوضى التامة ، وينحلّ العرب إذ ذاك إلى عناصرهم المختلفة من بدوي وحضرى ، ومسلم ومسيحى ، ويستحيل ضمهم وجمع كلمتهم ؛ والصهيونيون الآن مستعدون لأن يتحدوا مع العرب فى تحرير سوريا وغيرها من البلاد الباقية تحت نير تركيا فى اتفاق تام مع الأرمن ؛ وغاية ما يبغيه الصهيونيون أن ينالوا حق الاستعمار فى فلسطين ، وأن يعيشوا فى مستعمراتهم عيشتهم القومية الخاصة ؛ وقد طلب السير مارك سايكس من حكومة الحجاز أن ترسل مندوباً فى اللجنة المؤلفة من الدكتور وايزمن رئيس الصهيونيين

---

(١) راجع نص الكتاب فى الذيل .

البريطانيين ، والمستر ملكولم مندوب الأرمن فى لندن ، وهذه اللجنة تحت رياسة السير مارك سايكس لمراقبة الاتفاق العربى الأرمنى الصهيونى ونشر دعوته فى العالم ، ومنع حدوث ما يضر به ، وحفظ الاتفاق بين النهضات الثلاث ، وضبط الأركان على الدوام ، غير أن الملك حسيناً لم يرسل مندوباً من قبله للاشتراك فى أعمال اللجنة المذكورة ، كما أنه لم يبد رأياً خاصاً فى هذا الموضوع الخطير ، إما لعدم علمه بالقضية الصهيونية ومخاطرها ، وإما لثقته التامة بالبريطانيين ، وأنهم بعد انتهاء الحرب العامة وانسحاب الأتراك من البلاد العربية سيسلمونها إليه كلها ، وهو يديرها بمساعدة الحكومة البريطانية .

توطدت العلائق بين الصهيونيين والحكومة الإنجليزية وحازت رضاء كل من فرنسا وإيطاليا .

أخذت الصهيونية تدخل فى دور دولى جديد بسماح مجلس الحلفاء الأعلى سنة ١٩١٩ لويزمن ومستر سكولوف بالحضور أمامه لتمثيل اليهود وشرح مطالبهم ، وقد سمع المجلس المذكور فى ٢٧ فبراير سنة ١٩١٩ اقتراحاتهم وهى :

(١) وجوب اعتراف الدول بحق اليهود التاريخى فى فلسطين وشد أزرهم لإعادة بناء وطنهم القومى .

(٢) أن تسلم سلطة الحكم العليا فى فلسطين إلى جمعية الأمم ، وأن يعهد إلى إنجلترا بالوصاية عليها وتكون مسئولة أمام جمعية الأمم .

(٣) أن يضاف إلى صك الانتداب لحكومة فلسطين الشروط الآتية :

(١) أن توضع فلسطين في أحوال إدارية وسياسية واقتصادية يضمن معها تأسيس الوطن القومى اليهودى ، وأن يؤول ذلك فى النهاية إلى إيجاد حكومة مستقلة بشرط أن لا يعمل شىء يعبث بحقوق غير اليهود (العرب) فى فلسطين ، أو بحقوق اليهود التى يتمتعون بها خارج فلسطين .

(٢) للوصول إلى هذه الغاية تقوم الدولة الوصية .

ا — بتشجيع الهجرة اليهودية وإسكان اليهود فى الأرض الفلسطينية مع المحافظة على حقوق السكان الحاليين من غير اليهود .

ب — وتأسيس وكالة يهودية في فلسطين وفى العالم الإشراف على بناء الوطن القومى اليهودى فى فلسطين .

ح — وبعد الاقتناع بأن قانون هـذه الوكالة لا يتضمن جلب الربح الخاص يجب أن يفضل على غيره بإعطاء المشروعات الاقتصادية وتمنح له الأولوية فى كل امتياز فى الأعمال العامة أو فى تثمير الثروة الطبيعية التى تجد الحكومة من الضرورة إعطاءها لها .

ومع أن مجلس الحلفاء لم يبد جواباً حاسماً لمندوبى اليهود ، إلا أن اليهود كانت ثقتهم عظيمة ببريطانيا ، وأنهم بواسطتها سيصلون إلى الغاية التى يتوخونها .

وفى سنة ١٩٢٠ بحث الحلفاء مرة أخرى فى مسألة فلسطين فاعترفوا بمطالب الصهيونيين ووعد بلفور ، وقد تقرر أيضاً فى سان ريمو بناء على أمانى الصهيونيين أن تكون الحكومة الإنجليزية هى الحكومة الوصية على فلسطين ، فأبدلت الحكومة البريطانية الإدارة العسكرية بحكومة مدنية ، وعهدت برياستها إلى السير هربرت صمويل .

العرب واليهود

لم يكن من الطبيعى موافقة العرب على جعل فلسطين وطناً قومياً لليهود ولا موافقتهم على فتح باب الهجرة لليهود بلا قيد ولا شرط ، لأن أراضى البلاد الزراعية محدودة ، وقدرتها على قبول السكان محدودة أيضاً ، وفتح باب الهجرة لليهود فقط معناه إيجاد مزاحمين جدد للسكان .

لذلك فإنهم قد هبوا فى وجه تصريح بلفور واحتجوا على السياسة الجديدة التى أدخلت على فلسطين ، وأرسلوا الوفود إلى كل من مكة ولندن ، فأما وفد لندن فإنه لم يصادف نجاحاً كبيراً لقوة اليهود المادية والأدبية وعظم نفوذهم فى مختلف الأحزاب الإنجليزية ، أما وفد مكة فإنه أثار الملك حسيناً وحكومة مكة ووجد صدراً رحباً من جريدة القبلة ، فنشر كل ما يريد نشره كما أنه أثار حماسة الحجاج المسلمين .

لم يسع الإنجليز السكوت على الحملات الموجهة إليهم قبل اليهود ، لأنهم هم المسئولون عن إدارة البلاد ، فكتبوا كتاباً طويلاً للملك حسين بتاريخ ٢٩ أكتوبر ١٩٢٢ هاجموا

فيه الوفد الفلسطيني واتهموه بسوء النية ، وكذبوا كثيراً من دعاويه التي نشرها في الحجاز ، كما أنهم لاموا حكومة الحجاز والقائمين بتحرير القبلة على تركهم البيانات بدون تعليق ، وأردفوا الكتاب ببيان من وزير المستعمرات عن سياسة الحكومة البريطانية في فلسطين ، فرد الملك حسين على هذا الكتاب المطوّل مدافعاً عن الوفد تارة ومعتذراً تارة أخرى وقال :

« وحيث إن هذه المباحث كلها مخالفة لمقررات جلالة الملك مع بريطانيا وتعهداتها لذلك لا يمكن البحث في الموضوع » . ثم أنحى باللائمة على مشروع رتنبرج وتسليح اليهود ، ثم على وعد بلفور مما لا نرى ضرورة لتفصيله هنا .

وقد استمر الملك حسين على موقفه في فلسطين تحت تأثير الأحزاب العربية حتى آخر لحظة من حكمه ، وكان موقفه في فلسطين وتصريحاته المتعددة من أهم المسائل التي عرقلت المفاوضات بينه وبين الإنجليز ، وقد كانت عقيدة الملك حسين أن فلسطين هي جزء من المملكة العربية التي وعد بتشكيلها ، وأن وعد بلفور باطل لمخالفته للعهود والوعود المقطوعة له من بريطانيا .

ولقد رأى الملك حسين أخيراً أن يوجه خطاباً للشعب البريطاني في نوفمبر سنة ١٩٢٣ يشكو فيه ما أصابه هو وقومه من خيبة الأمل ، وما أصاب البلاد العربية من التقسيم بالرغم من العهود والاتفاقات ؛ واستنهض همة الشعب البريطاني المعروف بتقاليده في إنصاف الشعوب المظلومة ... فلم تطمئن الحكومة البريطانية إلى موقف الملك حسين الجديد وتشجيعه للأحزاب العربية . فصرفوا النظر عنه وتركوه لخصمه ابن السعود يحل مشاكله معه بنفسه ، فتغلب عليه وأقصاه عن الحجاز .

أما المسألة الفلسطينية فقد تطورت تطوراً خطيراً وتقوّى مركز اليهود بازدياد مهاجريهم ، وثارت فلسطين المرة تلو الأخرى ، واقترحت الحكومة البريطانية تقسيم فلسطين ثم عدلت عنه لأنها لم تجد عربيا يؤيده . وفي أواخر سنة ١٩٣٨ عقد مؤتمر فلسطين المشهور في لندن ولأول مرة اشتركت فيه الحكومات العربية ، ولكن المؤتمر قد فشل لأن مطالب العرب واليهود لا يمكن التوفيق بينهما . وأخيراً وضعت الحكومة البريطانية الكتاب الأبيض المعروف ، وقد كان خطوة طيبة لا بأس بها ، ولكن العرب واليهود قد رفضوه . و بعد انتهاء

الحرب الأخيرة عقدت الحكومة البريطانية مؤتمراً ففشل كسابقه ، وأخيراً تقدمت الحكومة البريطانية إلى الأمم المتحدة تخبرها بانسحابها من فلسطين ، فقررت الأمم المتحدة تقسيم فلسطين فرفض العرب التقسيم ، ثم دخلت الحكومات العربية فى حرب مع اليهود من غير استعداد حربى ومن غير اتفاق على الخطط التى يجب عليهم السير عليها ، فكانت النتيجة الهزيمة المنكرة ، وكان من نتيجة هذه الهزيمة ترك عدد كبير من سكان فلسطين مساكنهم وأملاكهم إلى البلاد المجاورة وأبناؤهم مشردون هنالك يعيشون عيشة بؤس وتعاسة لا يمكن تصوّرها .

أما اليهود فقد تجاوزوا الحدود التى حددتها الأمم المتحدة ، وما زالوا يهددون القسم الباقى من البلاد العربية المجاورة ، وهم بتشكيلاتهم المنظمة و بنفوذهم الدولى يؤسسون خطراً عظيما على الشرق الأوسط ، فمطامعهم لا تحدوهم يحلمون بما بين الفرات والنيل . وواجب العرب أن يلموا شملهم ، ويرأبوا صدعهم ، ويصلحوا من أمرهم ؛ وإلا فالخطر واقع لا محالة على بلادهم .

الملك حسين وجيرانه

قلنا من قبل : إن جلالة الملك حسين كانت كل آماله موجهة إلى إنشاء إمبراطورية عربية[1] يرأسها ، وسواء كانت هذه الفكرة سهلة المنال أو مستحيلة فإنه ما زال حتى آخر لحظة يدعو إليها ويدافع عنها حتى فقد ملكه فى سبيل تحقيقها ، ونقول هنا أيضاً : إن أنجاله كانوا يوافقونه على هذه الفكرة ويسعون إليها بالرغم من أن الحلفاء عارضوا فى لقب ملك العرب لأنه سيثير شكوك حكام العرب الآخرين .

لقد كان جلالة الملك فيصل من المعتقدين بهذه الفكرة ، فقد كتب إلى والده فى ٢٤ نوفمبر سنة ١٩١٩ يخبره بمساعيه فى فرنسا وتمنى لو يرفع العلم العربى على كافة أنحاء الجزيرة كاليمن وعسير وغيرهما ، وإعلان انضمامهم له لكى يبلغ ذلك للدول ، ويتخلصون من كلمة ملك الحجاز ويقولون ملك العرب ، والأمير عبد الله فى كتابه المؤرخ ٢٨ إبريل سنة ١٩٢٠ إلى نائب الملك بمصر الذى يطالب فيه الحكومة البريطانية بالإمبراطورية العربية التى وعدتهم بإنشائها ، يقول فى آخره :

وخلاصة المقال أن جلالته يبحث عن أمرين :

الأول — عن المسألة العربية الكبرى

الثانى — فى المسائل البدوية لمشايخ العربان الذين كانت لهم صلات بالحكومة البريطانية منذ الحكم العثمانى على سواحل خليج فارس والمحيط الهندى ، كابن الصباح وابن سعود وغيرهما ، ولا سيما الأخير الذى يدعى أن العهد البريطانى الذى بيده يسوغ له أن يفعل ما فعله من الحركات المعلومة التى شرع فيها إبان الحرب .

ولقد كتب الملك حسين ، بعد وفاة السيد محمد الإدريسى ، كتاباً لرؤساء قبائل عسير يحبب إليهم الانضمام إلى الحجاز ، ولكن هذه المحاولة لم تنجح ، كما حاول الاتفاق مع

---

(١) راجع فى الذيل مشروع الوحدة العربية الذى وضعه الملك حسين .

الإمام يحيى . أما ابن سعود فالخصومة بينه و بين الملك حسين كانت أشد وأعنف ولذا فإنا سنوفيها حقها من التفصيل .

عبد العزيز بن سعود والملك حسين

إن النزاع بين الأشراف وآل سعود يرجع عهده إلى حركة الإصلاح الدينى التى قام بها الشيخ محمد بن عبد الوهاب بمساعدة آل سعود ، فهذه الحركة صحبها حركة فتح و بسط نفوذ فى سائر جزيرة العرب ، وأصبحت الحجاز مهددة فى ذلك الوقت ، ومكة والمدينة كانتا كالقاهرة من حيث المركز العلمى ، كما أن الأشراف كانوا يرون فى أنفسهم الامتياز بالنسب وحكم البلاد المقدسة ، وكان شأنهم كشأن حكام جزيرة العرب من حيث الاتصال بالبادية والاشتغال بالغزو أيضاً ، فكان من الطبيعى أن يقوم بينهم و بين آل سعود ما وقع من الخلاف :

أولاً — بسبب الدعوة الدينية ، وأساسها قائم على إنكار البدع والخرافات والقبور والعاكفين عليها .

ثانياً — النزاع على السيادة . فالأشراف يرون أن مركزهم الدينى بالقرابة و بإمارة مكة جعلهم فى مركز لا يصح أن يقارن بمركز أى أمير آخر ، والنجديون طبعاً يخالفونهم فى هذا .

وفى سنة ١١٨٥ هـ أرسل الأمير عبد العزيز بن سعود والشيخ محمد بن عبد الوهاب هدايا إلى أمير مكة الشريف أحمد بن سعيد مع الشيخ عبد العزيز الحصينى الذى أوفد إلى مكة بطلب من الشريف ليشرح ما عليه أهل نجد ، و بيان وجهة نظرهم الجديدة . وقد وصل المذكور إلى مكة وتباحث مع علماء مكة فى بعض المسائل . ويقول ابن غنام المؤرخ النجدى : إنهم أحضروا كتب الحنابلة فاقتنعوا بأن ما عليه أهل نجد من هدم القباب ومنع دعوة الصالحين وطلب الشفاعة منهم حق ، وأن هذا مذهب الإمام الأعظم ، وأن الشيخ عبد العزيز انصرف مبجلاً مكوماً .

وفى سنة ١٢٠٤ هـ أوفد الأمير عبد العزيز والشيخ محمد بن عبد الوهاب إلى الشريف

غالب الشيخ عبد العزيز الحصينى مرة أخرى إلى مكة حسب رغبة الشريف غالب ، ولكن علماء مكة فى هذه المرة لم يقبلوا مناظرة الشيخ عبد العزيز ، ويقول ابن غنام : إن الشريف غالباً قبل دعوة أهل نجد ، وقد يكون الشريف غالب تظاهر بذلك ليخفى ما كان يدبره سراً من غزو نجد والقضاء على الدعوة الجديدة فى عقر دارها ، إذ ليس من المحتمل أن يكون شريف مكة أراد أن يخدع أمير نجد حتى ينصرف لتسكين الأحوال الداخلية فى مكه لا سيما مؤتمرات بنى عمه ضده ، فإن الدعوة الدينية وقوة أمير نجد لم تبلغ من القوة التى يخشى على مكة منها .

ويقول السيد دحلان : إن أمير نجد قبل اتساع أمره أراد الحج إلى البيت الحرام فى أيام الشريف مسعود بن سعيد ، فأرسل يستأذن فى الحج ، وكان أرسل قبل ذلك ثلاثين من علمائهم ، وطلب من الشريف مسعود أن يناظر علماء الحرمين العلماء النجديين ، فأمر الشريف مسعود قاضى الشرع أن يكتب حجة بكفرهم وأمر بسجنهم ووضعهم فى السلاسل والأغلال ، وفى أيام الشريف مساعد أخى الشريف مسعود أرسل يستأذن فى الحج ، فأبى وامتنع من الإذن له ، ولما تقلد الأمر الشريف أحمد بن سعيد أرسل أمير الدرعية جماعة من علماء نجد المناظرة مع علماء الحرمين ، فأبى الشريف بعد ذلك أن يأذن لهم بسبب الاختلاف الواقع بين الفريقين ، وفى أيام الشريف سرور أرسل إليه يستأذن فى الحج ، فأجابه إن أردت الدصول فإنى آخذ منك مثل ما آخذ من الأعجام ، وآخذ منك مائة من الجياد فلم يقبل . وفى أيام الشريف غالب أرسل أيضاً يستأذنه فى الحج ، فمنعه وتهدده بالزحف عليه .

ومهما كان الفرق بين رواية النجديين والسيد دحلان ، فما لا شك فيه أن أشراف الحجاز كانوا يعتبرون أنفسهم ملاك البيت ، يسمحون لمن يريدون ، ويمنعون من يريدون ، ولا شك أنهم كانوا يضعون العراقيل فى سبيل الحجاج النجديين بسبب الدعوة الدينية التى قامت فى نجد .

وفى سنة ١٢٠٥ هـ جهز الشريف غالب حملة كبيرة لغزو نجد ، والقضاء على الدعوة الدينية واجتثاث أصلها ، وثل عرش آل سعود ، وسار الشريف بنفسه إلى الشَّعرا ، ولكن هذه

الحملة وما تبعها من حملات رجعت تجر وراءها الخيبة والفشل ، كما كانت فاتحة شر بين آل سعود والأشراف ، فإن آل سعود لم يقبلوا تحكم الأشراف فى البيت الحرام ومنعهم من الحج ، كما رأوا فى الأشراف قوة أخرى لا تزال تهددهم من وقت لآخر ، وهى موئل للرجعية وللتعصب للقبور ، ولذا فإنهم بعد أن استتب لهم الأمر فى الجزيرة وقضوا على الإمارات الصغيرة واحدة تلو الأخرى ، ولم يبق لهم منازع فى نجد وجهوا نظرهم شطر الحجاز ، ففتحوه وحكموه من سنة ١٢١٩ هـ إلى سنة ١٢٢٧ هـ ، ولولا الأغلاط التى ارتكبوها ضد الأتراك والمصريين ما اعترض حكمهم أحد فى الحجاز ، فإنهم يفضلون الأشراف بقوتهم وقدرتهم على بسط الأمن والضرب على أيدى قطاع الطرق والطامعين فى الحجاج من البدو .

وفى سنة ١٢٦٣ هـ تولى الشريف محمد بن عون جد الشريف حسين قيادة حملة تركية للقضاء على سلطة الإمام فيصل جد الملك عبد العزيز ، فوصلت هذه الحملة إلى القصيم ، غير أن الإمام الداهية البعيد النظر أحبط هذه المؤامرة بالاتفاق مع الأتراك على أن يكون مستقلاً فى بلاده خاضعاً لسيادتهم ، ويدفع لهم مقابل ذلك مبلغاً سنوياً قدره عشرة آلاف ريال . ولقد كنا نظن أن مرور الأيام طوت صحائف العداوة والحقد بين هاتين العائلتين ، ولكن الزمن بدد هذا الظن ، وظهر أن الأشراف لا تزال قلوبهم ملأى بالحقد على آل سعود بالرغم من أن آل سعود لم يكن لهم قبل ربع قرن من الزمن من القوة والنفوذ ما يؤبه له ، ولقد سمعت من كثير من النجديين لا سيما من كانوا فى بطانة آل رشيد ، وقد أكد هذه الرواية الملك عبد العزيز أن الشريف علياً باشا أمير مكة الأسبق كانت باكورة أعماله فى إمارة مكة بعد الشريف عون إهداءه أسلحة ورماحاً إلى الأمير عبد العزيز الرشيد خصم الأمير عبد العزيز آل سعود ، والقارئ يعرف أثر هذه الهدية فى نفس الأمير عبد العزيز آل سعود (الملك عبد العزيز الآن) .

ولما تولى الشريف حسين إمارة مكة بعد الدستور العثمانى ظننا أن عهداً جديداً سيكون للبلاد العربية ، لأن الشريف ذاق من ظلم الأتراك بإبعادهم له من مكة كما ذاق طعم الحرية بعد عصر الحرية ، ولكنه أبى إلا أن يكون آلة فى يد الأتراك لضرب العرب ،

فقد سار هو وأولاده فى الحملة التى سيرها الأتراك لضرب الإدريسى فى عسير ، وهذا كله ليبرهن للأتراك إخلاصه التام . أما الأمير عبد العزيز بن سعود فقد كان له من مشاكله فى نجد ما يغنيه عن خلق مشاكل جديدة بينه و بين الشريف حسين ، ولكن الشريف حسيناً بحجة المطالبة بعُتَيْبة خرج من الحجاز حتى الشَّعْرا ، أول قرى نجد ، واعتقل سعد بن عبد الرحمن شقيق أمير نجد كرهينة ، ولكن أمير نجد تفاهم مع الشريف حسين وجاراه فى أغراضه وأعلن أنه لم يكن من مصلحته إلا إخلاصه للدولة التركية وللأشراف ، فإن النزاع بينه و بين أبناء عمه ، و بينه و بين خصمه الألد ابن الرشيد كان على أشده ، بل إن مصلحته تقضى بخطب ود شريف مكة ومحاسنته ، وهذا ما كان .

و بعد هذا التفاهم أرسل أمير نجد فى رمضان سنة ١٣٢٨ أحد أبناء عمه إلى مكة مع هدية من جياد الخيل ، وقال فى كتابه[١] : « إننا حاسبون[٢] أنفسنا من خواصكم وإلا هديتنا رؤوسنا وما تحت أيدينا ، وحررنا هذا الكتاب لموجب التعرض لخدمتكم وما يبدو من اللازم ، وإلا أمركم علينا تام على كل حال ، وما تفعلون معنا وتحظون أنظاركم علينا ، تجدون إن شاء الله مضاعفاً بالخدمات والسمع والطاعة » .

وفى كتاب آخر مؤرخ ٢٢ ربيع أول سنة ١٣٣٠ يقول : « اطلعنا على تحرير عطوفتكم لحضرة سيدى الوالد المحرر فى ٢١ صفر سنة ١٣٣٠ ، وقد سرنا سلامتكم وبما أشرتم من اجتناب كل ما يخالف مراضى سماحتكم العادلة ، فالله المطلع أننى أسعى إليها ، و إنى حريص لاستجلاب مراضيكم لأن من أخص آمالنا وأقصى مرامنا رضاكم ، وبالعكس نحن محرومون من التفاتكم حتى نال منا الأشقياء المفسدون الذين لا غاية لهم إلا النهب والسلب ، و إقلاق الراحة و إحداث الفتن ، فاعتقدوا أننا لم نخالف مراضيكم ولم نقصر فى إبراز الصداقة والمحبة والمحسوبية لحضراتكم فى جميع مساعينا ، ونرجو من لطفكم بأن لا تكونوا من فكر من جهتنا أبداً ، وألا تخرجوا من دائرة المحبة والصداقة ، ولنا أمل بالله أن تكونوا واسطة قوية بيننا وبين متبوعنا الحكومة الشورية ، وتعرضوا إخلاصنا وخدماتنا

---

(١) راجع نص الكتب التى أرسلها الأمير عبد العزيز إلى الشريف حسين فى الذيل .

(٢) هذه لغة الكتب ننشرها كما هى طبق الأصل .

الصادرة فى مرضاة دولتنا الدستورية ، وترونى حاضراً استعداداً مع عموم أهل نجد لكل ما تكلفوننا وتأمروننا به ، أفدى السدة العثمانية بعزيز روحى »

فابن السعود فى كتبه كان يعترف للأشراف بما لهم من المنزلة والرياسة ، وذلك على شرط أن لا يتدخل الأشراف فى الشئون النجدية المحضة .

بعد اشتعال نار الحرب أوجس الأتراك بشيء مما سيحاوله شريف مكة ، فعرضوا على أمير نجد إمارة مكة ، غير أن ابن السعود رفض هذا العرض ، لأنه سيجر عليه مشاكل لا قبل له بها ، ولأن قبول هذا العرض سيجعله فى موقف عداء مع الانجليز ، وابن سعود يحرص على مصالحهم ومصادقتهم .

وفى سنة ١٩١٦ م خلع الشريف حسين نير الأتراك ، أعلن الثورة العربية واستقلال البلاد العربية وانفصالها نهائياً من الحكم التركى .

رحب أمير نجد بالحركة العربية ، وتبادل هو وشريف مكة الكتب الودية والهدايا مما جعلنا نعتقد أن العرب سيدخلون فى عصر جديد من التفاهم والاتحاد .

غير أن إعلان الشريف حسين نفسه ملكا باسم ملك العرب ، أثار شكوك أمير نجد ، فاحتج ، فلم يسع الإنجليز إلا الاعتراض على لقب ملك العرب .

لقد كان من آثار تجديد الدعوة الدينية فى نجد دخول العشائر المتاخمة للحجاز من سبيع وعتيبة فى دين الله ، تلك العشائر التى اشتركت مع الملك حسين فى إعلان الثورة وكان لها أثر يذكر فى فتح الطائف وجدة ، والتغلب على الحاميات التركية ، فكان من آثار ذلك ازدياد الجفاء بين الملك حسين والأمير ابن سعود بالرغم من سعى الحكومة البريطانية للتوفيق بين الفريقين ، فإن هذا السعى لم يثمر الثمرة المطلوبة وإن قلل حدة الخلاف . لقد دخل كثير من العشائر التى كانت موالية للملك حسين فى الدعوة الدينية ، وأصبحوا بمقتضى هذه الدعوة يرون أن ملك الحجاز ليس من حماة الدين ، بل بالعكس حامى البدع ، وأخذت زيارة شيوخ القبائل لأمير نجد تثير سخط الملك حسين ، واعتبر هذا خيانة عظمى له .

أرسل الملك حسين بعض قوات تأديبيه لتأديب أولئك الخارجين وأدبهم بالفعل ، فعد

ابن السعود هـذا التهديد موجهاً إليه ؛ اختل الأمن على حدود الحجاز بالغزو المستمر ، ووصلت الكتب التي يرسلها أمير نجد إلى شيوخ القبائل يدعوهم إلى التمسك بأهداب الدين ، وأن أهل نجد لا يقصدون إلا إعلاء كلمة الله . فثارت ثائرة الشريف حسين على ابن سعود ، ومَنِ ابن سعود هذا ؟ أليس هو بأمير صغير ؟ كيف يتطاول على مقامنا و يتجاوز حدوده ؟ كانت نفس الملك حسين تجيش بهذه الكلمات طبعاً ، إذن يجب تأديبه أو إقصاؤه عن ملكه حتى يقف غيره عند حده

قام الملك حسين بالتجهيزات العسكرية في الطائف وتُرْبة وجهز كل قواته بالمدافع والرشاشات ، إن عشائر الخُرْمَة لا تحتاج إلى كل هذا ؛ فإلى أين هـذه القوات ؟ إلى الإحساء أي إلى الساحل الغربي على خليج فارس ، هذا كان يقوله قواد الملك حسين ، وماذا في نجد ؟ ألم تكن لكم عظة بمن حاول هذه المحاولات قبلكم من الأشراف والأتراك ، ألم تبتلعهم رمال نجد ؟ إلى نجد ! نحن لا نكلفكم مؤونة الذهاب إليها ، إن دون نجد أهلها ورجالها . هذا جواب أمير نجد عبد العزيز بن سعود

سار أمير نجد بجنوده حتى أصبح قريباً من تربة ، والجند الشريفي لا يزال فيها ، غير أن عُتَيبة و بعضاً من سبيع أغنوا ابن السعود مؤونة الوصول إلى تربة ، فصبحوا جيش الشريف على غرة ، وانقضوا عليه من كل جانب ، وقتلوا كل من أوقعه القدر في أيديهم ، والسعيد من وجد سبيلا للفرار ، ولم يجد هذا السبيل إلا نفر قليل بينهم القائد العام الأمير عبد الله أمير شرق الأردن (ملك الأردن)

هل يتقدم ابن السعود إلى الأمام ؟ لقد وصل إلى تربة وأقام حولها يحصي الغنائم و يقسم الأسلاب ، وليس هنالك ما يمنع من دخوله الطائف وهو على بضع ساعات منها ، بل لا شيء يمنعه من دخول مكة إذا أسرع إليها ، فإن القوات التي يعتمد عليها الملك قد فنيت في وادي تربة ؛ فزع الشريف حسين إلى الانجليز أن انظروا إلى ابن السعود يريد الاستيلاء على الحجاز ، والانجليز لا يمكن أن يتركوا حليفهم فريسة لأمير نجد ؛ أيدخل الأمير فيصل دمشق ليؤسس دولة عربية هنالك ويخرج والده من الحجاز ؟ إن هذا غير معقول طبعاً

أرسلت الحكومة البريطانية إنذاراً لأمير نجد فى ٤ يونيو سنة ١٩١٩ م — ٥ رمضان سنة ١٣٣٧ هـ ، وحذرته مغبة تقدمه فى الأراضى الحجازية ، لم يسع الأمير عبد العزيز إلاّ الرجوع إلى نجد لأنه وهو الرجل العاقل البعيد النظر لم ير من مصلحته الدخول فى مخاصمة مع الحكومة البريطانية .

ولقد توترت العلائق بين الحكومة البريطانية و بين ابن سعود لجهل الحكومة البريطانية بما كان يجرى بين الفريقين ولعدم وقوفها على جلية الأمر ، أضف إلى ذلك أن الحكومة البريطانية ، وقد خرجت من الحرب ظافرة ، كانت متشبعة بفكرة لورنس المتشيع للأشراف المعجب بهم ، وقد حارب معهم جنباً إلى جنب ، وقد كانت الحكومة البريطانية تقطع الإعانة المالية التى كادت ترسلها إلى ابن سعود لولا ما أرسله فلبى من التقارير إلى ولسون (نائب المندوب السامى بالعراق) الذى شرح موقف ابن سعود لحكومته وتحدّى الأشراف لابن سعود وأن ابن سعود لم يكن إلا مدافعاً عن نفسه .

فرأت الحكومة البريطانية أن تسعى بين الفريقين لإزالة ما بينهما من جفاء فطلبت منهما أن يتبادلا كتب مودة لعل هذه الوسيلة تكون سبباً فى حلول الصفاء محل الجفاء . ولكن الملك حسين ليس سهل القياد ، فإنه لم يصغ لنصح الحكومة البريطانية فلم يرسل كتابا ورفض استلام كتاب أمير نجد . فكتب إليه نائب الملك بمصر كتابا مطولا بتاريخ ٥ نوفمبر جاء فيه :

« إن حكومة جلالة ملك بريطانيا نظراً إلى عنايتها بمصالح العرب الجوهرية تقف إزاء اشتعال الحرب فى جزيرة العرب موقف القلق المضطرب ، خصوصاً لكون حدوث ذلك يؤثر على القرارات السياسية التى سيتفق عليها قريباً

ثم إنه لا يجب أن يخامر جلالتكم أقل ريب فى وفاء الحكومة البريطانية نحوكم ، التى يتحتم عليها عدم اتخاذ جانب ابن سعود أو غيره فيما يضر بمصالح جلالتكم ، غير أن جلالتكم لا تجهلون شروط المعاهدة الحالية بين الحكومة البريطانية وابن سعود الضامنة حقوقه داخل حدود بلاده ، إلا أنها بلّغته بصفة رسمية أنها تنظر إلى كل عمل يأتى به خارج بلاده بعين السخط ، بل رفضت طلبه زيادة الذخائر والمهمات الحربية ، زد

على هذا أنها طلبت منه إيقاف الحركات العدائية ضد ابن الرشيد صديق الأتراك التى كان قد شرع بها بناء على طلب الحكومة البريطانية نفسها

إننى لا أذكر هذا إلا لغرض إيقاف جلالتكم على حقيقة الحال ، ولكى تقدروا حق التقدير البواعث التى حملت الحكومة البريطانية على الإشارة لجلالتكم بالوقوف عند حد معلوم فيما يتعلق بمسألة الخرمة وغيرها من شئون القبائل ، ونظراً إلى ما سبق ذكره ، وما تكرر وروده فى كتب جلالتكم يصعب على تصديق الخبر الذى جاءنى وهو أن جلالتكم رغبتم فى قطع العلاقات الودية مع ابن سعود مما يكنى عنه بإرجاعكم رسوله ورفضكم كتابه

إننى أرجوكم أعظم الرجاء أن تجتهدوا لمنع كل البواعث الجوهرية التى تؤدى إلى سوء التفاهم مع الأمير المشار إليه بشأن سياستكم نحوه ، فإنه وإن كان أقل درجة من جلالتكم وأضعف موارد ، لا ينكر أنه ذو تأثير وأهمية فى السياسة العربية »

ساد السكون الحدود الحجازية بقية سنة ١٩١٩ وسنة ١٩٢٠ تقريباً ، وتبودلت الكتب الودية بين الفريقين ، فالأمير عبد الله فى كتاب له مؤرخ ٢٧ من ذى الحجة سنة ١٣٣٨ — ١٠ أغسطس سنة ١٩٢٠ يقول :

« إننى قبل كل شيء أحمد الله الذى ألهمكم وأفهمكم على إركاب الأخ أحمد إلى هذا الجناب ، لحسم ما هو واقع من الأمور المحزنة والحوادث المفجعة التى لا سبب لها سوى غلطات متتابعة ، إذ أننى على يقين من أن والدى وشخصكم لا تريدون لبعض ما يريده العدو لعدوه ، وأن لكل منكم متسعاً فيما هو لآبائه ، كما أن فطنتكم الذاتية وحنكتكم السياسية لا شك أنها أوحت إليكم كما هى أوحت إلينا مفروضية تغير الشكل الحاضر ولزوم التفاهم فى كل وارد وصادر »

إن تبادل الكتب بين الفريقين لم يمنع من قوع حوادث بعد ذلك على الحدود ، وهذا بالطبع للاختلاف فى النزاعات الدينية بين القبائل الخاضعة لحجاز والقبائل الخاضعة لنجد

ولذا فإن الملك حسيناً رأى أن يمنع النجديين من الحج فى عام ١٣٣٨ — ١٩٢١ .

غير أن الحكومة البريطانية أغلظت الكتابة لابن سعود لكى يعمل على إسكان الحالة فى حدود الحجاز ، وتداخلت مع الملك حسين للإذن للنجديين بالحج أسوة بسائر المسلمين

وفى سنة ١٣٤٠ هـ — ١٩٢٢ م ، أذن للنجديين أن يحجوا ، فحجوا تحت إمارة مساعد ابن سويلم ، وقد عثرنا على كتاب من سلطان نجد (كان الأمير عبد العزيز أعلن نفسه سلطاناً على نجد سنة ١٩٢١) للأمير على أكبر أنجال الملك حسين يقول فيه :

« لما رأيت تفضل صاحب الجلالة الوالد المعظم ببذل عنايته بالرخصة وبالسماح لأهالى نجد لأداء فريضة الحج حيث برهن على حسن عواطفه وإظهار فضيلته ، أحببنا أن نرخص لبعض رعايانا لزيارة بيت الله الحرام بصحبة خادمكم مساعد بن سويلم ، فاتخذت هذه خير وسيلة وأعظم فرصة لأهدى حضرتكم جزيل السلام ولأعبر لسموكم عن عظيم اشتياقى وخالص نواياى لتجديد عهود الصداقة ، وتمكين الصلات الحسنة والمناسبات الوديه المشتركة التى تربط القطرين الإسلاميين غير ملتفتين إلى ما قدر الله رغم إرادتنا أن يقع فيما مضى بين الطرفين من الحوادث التى طالما أوجبت لتأسفاتى وكدرى ... الخ »

غير أن الخلاف قد عاد مرة أخرى بطريقة أشد ، فإن الملك حسيناً أبى أن يسمح للحجاج النجديين مرة أخرى ، والحكومة البريطانية تتوسط بين الجانبين فيتهمها الملك حسين بمحاباة ابن السعود وترجيحها إياه

إن الواقف على المراسلات التى كانت تدور بين الملك حسين و بين الحكومة البريطانية[1] فى هذا الموضوع لا يرى موقفاً أشرف من موقفها للتوفيق بين الجارين المسلمين العربيين ، للسماح بفتح أبواب الحجاز للحجاج النجديين أسوة بسائر المسلمين ، وإزالة أسباب النزاع والخصام بين الفريقين كى يسود السلام جزيرة العرب

ولقد كان جلالة الملك حسين مرة يرفض السماح للحجاج النجديين خشية إخلالهم بالأمن ، وتارة يتنازل بقبول عدد قليل منهم ، كما أنه فى بعض الأحيان يشترط قدومهم بالبحر كسائر الحجاج

وفى ٢ ديسمبر سنة ١٩٢٢ كتب سلطان نجد إلى المندوب السامى بالعراق يخبره أن

---

(١) اخترنا نشر كتابين فى هذا الموضوع فى الذيل

ليس فى إمكانه تحديد عدد الحجاج النجديين امام ١٩٢٣ . كما فعل فى العام السابق ، ولم تر الحكومة البريطانية سبباً مشروعاً لتغيير موقفه ، فأرسلت الحكومة البريطانية التعليمات لممثلها بجدة ، فكتب بدوره للحكومة الهاشمية بتاريخ ٢٨ يناير يخبرها بموقف سلطان نجد ورأى الحكومة البريطانية ، واقترح الدخول فى مفاوضة مع سلطان نجد لعقد معاهدة على نسق المعاهدة التى عقدت حديثاً بين سلطان نجد والملك فيصل

وفى ٢٨ يناير سنة ١٩٢٣ كتب سلطان نجد للحكومة البريطانية يخبرها أن عدداً كبيراً من رعاياه يرغبون فى أداء فريضة الحج ، وأنه لا يقدر أن يحدد العدد كما فعل فى حج سنة ١٩٢٢ ، وأن الحكومة البريطانية لا ترى أى مانع لفتح باب الحج لكل من يريده من النجديين ما دام الحج فى العام الماضى كان على خير ما يرام ، وقد اقترحت الحكومة البريطانية بمناسبة الوقت للمفاوضة فى معاهدة حدود مع ابن سعود على طريقة المعاهدة التى تمت حديثاً بين سلطان نجد والملك فيصل ، فكان جواب الملك حسين أن لا يقبل حجهم فى هذه السنة إلا إذا أخلوا الجوف وسائر الجهات التى اغتصبوها من البلاد كَرَانيـة ، و بيشة ، وتربة ، ونواحى خيبر وما شاكلها . وأما المعاهدة مع ابن سعود على طريقة معاهدته مع العراق ، فإن هذا البحث مفروغ منه لأننا كلفناه المرة بعد الأخرى كما هو معلومكم بأننا مستعدون لذلك على أساس الشروط التى أخبرناكم بها ، وهى إما أن يعود ابن سعود إلى ما كان عليه فى زمن الآباء والأجداد من جهتنا وجهته ، وإما أن يأتى ويستلم البلاد جميعها لأن الأساس المقصود هو خدمة البلاد

ومازالت الحكومة البريطانية جادة فى تقريب مسافة الخلف بين سلطان نجد وملك الحجاز حتى هيأت الجو لمؤتمر الكويت ، فجمعت بين جبهة الأشراف : — الحجاز . العراق . شرق الأردن — و بين سلطان نجد فى يناير سنة ١٩٢٣ ، ولكن هذا المؤتمر قد فشل . وقد أحسّ الملك حسين بما بينه و بين البريطانيين من الخلف ، فكتب وزير خارجيته كتاباً إلى رئيس المعتمدين البريطانيين فى شرق الأردن يظهر فيه رغبته فى التقارب بين البلدين ، غير أن فشل مؤتمر الكويت وتتابع الحوادث فى الحجاز التى انتهت بسقوط الملك حسين حالت دون نجاح هذه الرغبة الأخيرة

سياسة الملك حسين الداخلية

لا نريد أن نأتى هنا على تاريخ الأشراف ونفوذهم فى الحجاز ، فقد أوردنا فصلاً خاصاً فى هذا الموضوع ، كما أنا أوردنا أشياء كثيرة فى ثنايا الكتاب تبين ما كان لهم من النفوذ والسلطان فى الحجاز ، لاسيما إذا كان شريف مكة على اتفاق تام مع الوالى

عند ما أعلن الشريف حسين الثورة على الأتراك ظننا أن البلاد العربية ستدخل فى دور جديد من الإصلاح والتقدم ، وكاد هذا الظن يكون يقيناً عندما رأينا كثيراً من شبان العرب وهم القائمون أولاً بالحركة العربية فى تركيا التفوا حوله وأسندت إلى بعضهم إدراة بعض الأعمال

لقد قام الملك حسين فى أول سنة من القيام بالحركة بتأسيس الوزارات ومجلس الأعيان ، كما أنه هم بفتح بعض المدارس فى مكة والمدينة

ولكن يظهر أن جلالة الملك حسين وما يغلب عليه من سوء الظن وسرعة تأثره بالوشايات جعل بعض هؤلاء الشبان يفضل ترك العمل بالمرة ، و بعضهم يفضل الاشتغال مع أولاده ، لا سيما الأمير فيصل والأمير عبد الله ، لأن العمل مع الملك حسين لا يجدى ولا يثمر ، على أنه ما كادت الحرب تضع أوزارها حتى رأينا ميدان الحجاز قد خلا من الشبان العرب النزيهين ، ولم نر حول الملك حسين إلا أولئك الضعفاء الذين لا يهمهم إلا مصالحهم الشخصية ، غرقت السفينة أو سلمت

إن بلاد الحجاز فى حالتها الحاضرة أشبه بحالة البلاد الإسلامية الأخرى قبل مائتى سنة ، ولكن الزمن الآن قد تغير كثيراً ، والحجاج يأتون من كل ناحية ولا يجدون فى الحجاز التقدم الذى حدث فى بلادهم ، لا يجدون طرقاً ولا وسائل مواصلات كالتى يشاهدونها فى بلادهم ، وكذلك وسائل الإنارة والشرب والصحة والتعليم وغير ذلك من وسائل العمران الضرورية

والحجاز و إن كان من البلاد الفقيرة التى لا تكفى مواردها للقيام بهذه الإصلاحات

إلا أنه بمركزه الدينى يجد شتى المساعدات من الأمراء المسلمين ومن أغنياء المسلمين إذا رأوا عزماً صادقاً من الحكومة المهيمنة على شؤونه

لقد كنا نظن أن الملك حسيناً بحكم ماله من النسب الكريم والمنزلة الرفيعة فى نفوس المسلمين ، وأنه — وهو الرجل الذى وقف على وسائل الحضارة فى الآستانة — سيضرب للناس أفضل الأمثلة بمقدرة العرب على الإدارة والتنظيم ، ولكن الأيام خيبت هذا الظن ؛ فالملك حسين فى هذه الناحية كان كغيره من الأشراف لا يفهم ما يجرى فى العالم ، كما أنه لم يقم بالواجب المنتظر منه للبلاد المقدسة ، ولقد حاولت الحكومة البريطانية أن تساعد الملك حسيناً على تنظيم مالية الحجاز فى سنة ١٩١٩ — سنة ١٩٢٠ لأنها فى ذلك الوقت كانت لا تزال تدفع إعانة للملك حسين — وميزانية الدولة هى أساس الإدارة فى المملكة فلم توفق ، حاولت كذلك إصلاح إدارة الكرنتينة والصحة وهى أهم شىء فى الحجاز لأنها هى الركن الأول لسلامة الحج فلم توفق أيضاً ، حاولت أيضاً أن تساعد الحجاز ببعثات طبية ترسل من الهند لأن إدارة الصحة فى الحجار غير منظمة من جهة ، ولأنه فى زمن الحج حيث يكثر الوافدون لا تكفى الاحتياطات التى تقوم بها حكومة الحجاز ولا عدد الأطباء الموظفين ، وهذه مهمة إنسانية لا غضاضة فيها على حكومة الحجاز ، ولكن الملك حسيناً رفض هذا الطلب من بريطانيا كما رفضه من مصر أيضاً ، معتقداً أن ذلك يحط من شأن حكومته ويمس استقلاله ، ولم يجد توسط الأمير فيصل (المرحوم الملك فيصل) فى هذه الأمور ولا غيره

أما السياسة المالية فلم تكن تمتاز عما كان معروفاً فى أيام غيره من الأشراف (العبد وما ملكت يداه لسيده)

فالضرائب تؤخذ بغير انتظام حسب إرادة الملك ويرهق بها الناس . وهكذا يخرج الملك حسين من الحجاز ولا يترك أثراً من آثار الإصلاح فيه ، كما أنه لم يستطع أن يبسط الأمن فى جميع أنحاء المملكة ؛ فما عدا المدن الحجازية كانت سيوف العشائر مصلتة على رقاب الحجاج ، لا يتركونهم يسافرون إلى المدينة إلى بعد أن يأخذوا منهم ما يفرضونه عليهم من النقود . وفى سنة ١٩٢٤ رجعت قوافل الحجاج من « رابغ » لأن العشائر رفضوا أن

يدفعوا ثمانية جنيهات للملك حسين من أربعة عشر ، وهى الأجرة المفروضة للجمل ، وبالطبع قد ضاع ما دفعه الحجاج بين الملك حسين وبين المشائر

على أنه مهما كانت أغلاط الملك حسين السياسية فإن الرجل كان أفضل الأشراف المتأخرين وأقلهم ظلماً ، وأعلاهم جميعاً نفساً وأعظمهم شخصية ، فهو بلا شك أفضل من الشريف عون الذى ضج من ظلمه كل من زار أو سكن الحجاز ، وأفضل من ابن عمه الشريف على فى كثير من الصفات الشخصية ، ويجب هنا أن لا نغمط الرجل حقه ؛ فهو أول عربى جعل للبلاد العربية شخصية دولية وشأناً لا ينكر فى أوروبا

والآن وقد وصلنا إلى الصراع بين العاهلين الكبيرين فى الجزيرة العربية : الملك حسين والملك عبد العزيز بن سعود ، وانتصار احدهما على الأخر بعد معارك حربية وسياسية دامت سبعة عشر عاماً ، نرى من الواجب علينا أن نأتى بخلاصة تاريخية وافية لحياة الملك عبد العزيز ، والدور الذى لعبه فى السياسة العربية ولاسيما بعد استيلائه على الحجاز

ويجمل بنا قبل أن نأتى على حياة الملك عبد العزيز أن نذكر فصلاً تاريخياً عن عائلة آل سعود ودورهم التاريخى ، وأثرهم فى الانقلاب العظيم الذى كان فى القرن الثامن عشر لقرب الشبه بين ما تم فى عهد آل سعود وعبد العزيز الحالى

يتناول طعام العشاء أن يجلس بين قومه وزائريه و يتلو أحد العلماء[1] شيئاً من القرآن وتفسيره أو من أحاديث النبي ، وكثيراً ما كان سعود نفسه يتولى تفسير ما يصعب تفسيره على السامع ، وكان دائماً يقول فى نهاية كلامه « والله أعلم »

وكان من طباع سعود أن تأخذه الحدة والانفعال عند ما يتبين أن أحد الأعراب خدعه أو غشه ؛ فيتناول عصاه ويهوى بها بنفسه عليه ، ولكنه كان يعود إلى نفسه بعد قليل و يستغفر الله ، وقد أصدر أمره لمن يكون حوله وقت غضبه أن يحولوا بينه و بين ضرب أى أحد من الناس ، وقد كان دائماً يحمد لهم هذا التدخل بعد أن تهدأ ثائرته

ولم يكن سعود ممن يحفل بالألقاب ؛ فكان الناس ينادونه باسمه أو بيا أبا عبد الله أو يا أبا الشوارب ، كما كان هو بدوره لا يسمى الناس إلا بأسمائهم مجردة عن الألقاب

وكان سعود فى ملبسه مثل باقى الشعب لا يتميز عنهم بشيء ، غير أنه كان أنيقاً فى ملبسه ويحب التعطر دائماً

وكانت مصاريف سعود فى الغالب على الضيوف وعلى الخيول ، فإنه يقال إنه كان لديه مالا يقل عن ألفى فرس ، وكان من هذا العدد حوالى ٣٠٠ أو ٤٠٠ دائماً فى الدرعية ، والباقى فى الاحساء حيث المرعى الجيد ، فكانت أكرم جياد بلاد العرب عنده . إما أنه يكون قد أخذها من أربابها عقاباً لهم على مخالفة ارتكبوها أو دفعاً لغرامة استحقت عليهم أو أنه اشتراها من أصحابها بماله الخاص ، ويقال إنه كان لا يتأخر أن يدفع خمسمائة أو ستمائه جنيه ذهباً ثمناً لفرس

وأباح سعود أن يكون لكل ولد من اولاده حرس خيالة من ١٠٠ — ١٥٠ فارساً أما عبد الله فكان له وقت حياة أبيه أكثر من ثلثمائه فارس تحت أمره وفى خدمته . يضاف إلى هذا العدد كثير من النوق الأصيلة السريعة ، حيث كان لدى سعود أحسن وأجود أصنافها فى بلاد العرب

وكان عدد الذين يتناولون الطعام يومياً فى قصره يتراوح ما بين الأربعمائة والخمسمائة شخص : منهم خدمه وحاشيته والأضياف . وكانت أصناف الطعام هى : الأرز والبرغل

---

(١) لا تزال هذه متبعة فى العائلة السعودية إلى وقتنا هذا

والتمر واللحم ، وكان سعود يأذن لأولاده الكبار ولكبار المشايخ أن يتناولوا الطعام على مائدته الخاصة

ولم يحتفل سعود فى قصره بأى عيد من الأعياد كما يحتفل به فى الأمصار ، وكان يقول : إن هذه العادة لم تكن موجودة فى صدر الإسلام .

والنظام الذى أوجده سعود[1] من إلقاء مسئولية الجرائم التى تقع فى منطقة على شيخ القبيلة الذى تقع هذه المنطقة تحت نفوذه قد جعل الأمن يسود كل جزيرة العرب تقريباً ، وأفرح قلوب الذين كانوا معرضين للغارات والنهب . والسكان سواء فى نجد أو الحجاز أو اليمن قد استراحوا إلى نظام الحكومة السعودية ، ولا سيما إذا قورنت بحالة الفوضى القديمة ، وأقبل الأهالى على الزراعة لأنهم أمنوا شر القبائل التى تهدد محصولاتهم

كان سعود مشهوراً بالقسوة على المجرمين . سمعت مراراً من جلالة الملك أنه حبس مرة بعض شيوخ مُطَير ، فجاء بعض كبارهم للاستشفاع لهم وأنس منهم روح الاعتزاز ، فأمر بقطع رؤوس المسجونين ، وأحضر رؤوسهم على مائدة قدمت لبنى عمهم الذين جاءوا للاستشفاع فيهم ، ثم أمرهم بالأكل من المائدة ! ! وقد قص هذه الحكاية جلالة الملك عبد العزيز على شيوخ مطير الذين جاءوا للاستشفاع فى فيصل الدويش ، ولكن جلالة الملك عبد العزيز لم تعرف عنه قسوة من هذا النوع ، غير أن سعوداً وإن عرف بالشدة فى معاقبته لمن يتجاوز حدود الشرع ، فإنه كان كذلك مشهوراً بوفائه لأصدقائه المخلصين معه ، فأى شيخ يخلص الخدمة لسعود يمكنه أن يعتمد عليه فى جميع الملمات والشدائد

وكانت ولا تزال أشد عقوبة يمكن أن تنزل بمجرم أن تحلق لحيته ويطاف به فى الطرق ، والعربى يفضل الموت على حلق اللحية

فتح الحجاز

لقد فتح سعود الحجاز فى أوائل سنة ١٢١٨ هـ فى أيام والده ، وعين الشريف عبد المعين أمير على مكة من قبله ، ولكن الشريف غالباً تمكن من التغلب على القوة التى وضعت

---

(١) وهذه السياسة هى التى اتبعها الملك عبد العزيز فى سياسته الداخلية

فى مكة واستردها منهم ثانية ، ثم استمرت الحرب سجالا بين الفريقين حتى تمكن من الاستيلاء على الحجاز مرة أخرى فى سنة ١٢٢٠ هـ . على أن يبقى الشريف غالب فى إمارة مكة من قبل سعود ، وأمر الشريف غالباً بهدم القبوز فى جدة ، وأمر أهل جدة ومكة بالإقلاع عن شرب الدخان ومنع بيعه فى الأسواق ، وأمر بمنع المنكرات والمجاهرة بها ، وترك لبس الحرير والذهب و إبطال المكوس والمظالم ، ومصادرات الناس فى أموالهم . وعاهده الشريف غالب على ترك ذلك كله واتباع ما أمر الله به فى كتابه العزيز : من إخلاص التوحيد لله وحده واتباع سنة الرسول صلى الله عليه وسلم ، وما كان عليه الخلفاء الراشدون والصحابة والأئمة ، وترك ما حدث فى الناس من الالتجاء إلى غير الله من المخلوقين الأحياء والأموات فى الشدائد ، وما أحدثوه من بناء القباب والزخارف وتقبيل الأعتاب ، إلى غير ذلك مما جد وحدث وجعل ديناً والدين منه براء ، كما أمر الناس أن يبادروا إلى الصلاة حين سماع الأذان ، وألا يصلى فى الحرم إلا جماعة واحدة ، كما أمر العلماء أن يقرأوا الرسائل التى وضعها علماء الدرعية ، ولقد استمر حكمهم للحجاز من سنة ١٢٢٠ إلى ١٢٢٨ هـ ، وكان سعود وأهل نجد يحجون فى كل سنة ، ونفذ هذا النظام فى المدينة أيضاً وسائر البلدان الحجازية

لقد خضع أهل الحجاز وشريف مكة للحكم السعودى ، وأصبحت مكة قطعة من الإمبراطورية السعودية ، ونفذت أحكام الدين حسب الحركة الإصلاحية التي قام بها الشيخ محمد بن عبد الوهاب ، ولكن كل هذا لم يكن إلا مسايرة لقوة الفاتحين

بدء الخلاف مع المصريين والأتراك

فى سنة ١٢٢٠ هـ قال الأمير سعود لأميرى الحج الشامى والمصرى : ما هذه العويدات التى تأتون بها وتعظمونها ، فأخبراه بأن هذه المحامل إشارة لاجتماع الناس ، وهى عادة قديمة ، فقال لهم : لا تفعلوا ذلك بعد هذا العام ، وإن أتيتم بها فإنى أكسرها ، وكذلك شرط عليهما أن لا يأتيا بطبول أو زمور ، وفى السنة التى بعدها أى سنة ١٢٢١ هـ كتب الأمير سعود إلى أمير الحج الشامى ، وكان قد وصل قرب المدينة : لا تدخل الحجاز إلا

على الشرط الذى شرطناه عليك فى العام الماضى ، فرجعوا تلك السنة من غير حج

ويقول العلامة ابن بشر فى تاريخه فى حوادث سنة ١٢٢١ ﻫ : إن سعوداً حشد جيوشاً عظيمة قرب المدينة وأمرهم أن يمنعوا الحجاج الآتين من الشام واستنبول ونواحيها ، فرجع المحمل الشامى إلى وطنه ، وكان أميره عبد الله باشا العظم ؛ لأن سعوداً خشى من مكائد غالب ، وأخرج سعود فى تلك السنة من كان فى مكة من الأتراك ، كما أخرج منها كل من فيها من العساكر التركية ، وبعد حجه تلك السنة زار المدينة المنورة فقوى حاميتها وأجلى من المدينة كل من يحاذر منه

قال العلامة الجبرتى المؤرخ المصرى : وفى سنة ١٢٢٣ ﻫ انقطع الحج الشامى والمصرى متعللين بمنع الوهابى الناس الحج ، وليس الأمر كذلك ، فإنه لم يمنع أحداً أتى إلى الحج على الطريقة المشروعة ، وإنما منع من يأتى بالبدع التى لا يجيزها الشرع : مثل المحمل والطبل والزمر ، وقد حج طائفة من المغاربة فلم يتعرض لهم بسوء

أما ما رواه السيد دحلان من حرق سعود للمحمل المصرى فى سنة ١٢٢١ ﻫ وأمره أن ينادى : لا يأتى إلى الحرمين بعد هذا العام من يكون حليق الذقن ، فلم أجد فيما كتبه النجديون ما يؤيده أو ينفيه ، والذى يظهر لنا من هذه الروايات أن سعوداً لم يقبل دخول المحمل لأنه بدعة ، كما أنه لم يقبل دخول العساكر التى تصاحب المحمل خشيه أن تحدث حدثاً فى الحجاز ، وهو بعد ليس مطمئناً ولا يأمن جانب الشريف غالب فكبر على الأتراك والمصريين هذا الأمر الذى اعتادوه مدة طويلة

ولقد سمعت من بعض شيوخ نجد وسمعت هذه الرواية أيضاً من جلالة الملك انتقاداً لسياسة سعود : إنه فى الوقت الذى غاضب فيه الأتراك ورد حجاجهم ، وكان فيه أحد بنات أو شقيقات السلطان التركى ، كان يتهادى مع شاه إيران ويتقرب منه ، كما أنه انتقده أيضاً فى قبول نصائح غالب التى لم تكن تنطوى على الإخلاص ، بل كانت تنطوى على استثارة الناس ضد الحكم السعودى ، وإن الشيخ عبد الرحمن بن حسن قد نصح سعوداً بعدم الإصغاء لنصائح الشريف غالب ، كما نصحه أيضاً بالاعتدال فى معاملة الأتراك والمصريين ، غير أن سعوداً كما قدمنا كان شديداً ، كما أنه كان شديد التعصب لرأيه

أما أهل الحجاز فقد كرهوا الحكم السعودى لأنه قطع عنهم الحجاج وحال بينهم وبين ما كان يردهم من الصدقات ؛ ولذا فقد هاجر كثير منهم إلى مصر واستنبول وشكوا للسلطان ولمحمد على باشا ما أصابهم من الشدة والضيق بعد الاحتلال الجديد وانقطاع ما كان مرتباً لهم من الإعانات . أما الشريف غالب فإنه لم يقدم خضوعه للأمير سعود ولم يبايعه على الطاعة اعتقاداً منه أو إخلاصاً له ، بل لأنه غلب على أمره ؛ ولذا فإنه مافتىء يكاتب محمد على وسلطان تركيا يستنجدهما على خلاص الحرمين الشريفين

وفى سنة ١٢٢٢ هـ صدر الأمر من السلطان سليم لمحمد على بتوليته الحجاز ومحاربته الوهابيين . غير أن محمد على لم يكن يستطيع تنفيذ الأمر فوراً ؛ لأنه لم يستقر أمره بعد فى مصر ولا يزال يخشى من نفوذ المماليك

وفى سنة ١٢٢٦ هـ بدأت الحملات العسكرية من مصر فاحتلت ينبع فى السنة نفسها ، وبالرغم من انكسار طوسون فى الصفراء والقضاء على الحملة قضاء تاماً ، فإن محمد على أعاد الكرة مرة أخرى وأخذ يستميل بالمال أمراء العربان ، والشريف غالب يمهد له السبيل حتى تمكن من استرداد مكة والمدينة والطائف فى سنة ١٢٢٨ هـ

ولقد سمعت من بعض كبار النجديين أن محمد على حاول أن يعقد هدنة لمدة عشر سنوات بينه وبين سعود لأن المهمة التى وكلت إليه وهى استرداد الحجاز قد انتهت وليست هنالك فائدة من الحرب ولا مطمع لمحمد على فى نجد ، ولكن سعوداً أبى أن يعقد هدنة أو صلحاً مع محمد على

ويقول السيد دحلان : إن سعوداً نفسه هو الذى طلب الصلح من محمد على وافتداء عثمان المضايفى عامله على الطائف ، ولكن مساعى الصلح لم تتم حيث اشترط محمد على دفع المصاريف التى صرفت على الحملة العسكرية ، ورد المأخوذ من الجواهر والأموال التى كانت بالحجرة النبوية أو ثمنها ، وحضور سعود بنفسه لمقابلة محمد على ، وسواء صحت الرواية الأولى أو الثانية ، فإن محمد على وضع خطته للقضاء على الدولة الجديدة ، وقد عمل على استتباب الأمر فى مكة فقبض على الشريف غالب وأولاده وأرسلهم إلى مصر ، وبذلك لم يبق له منازع فى الحجاز

وفاة الامام سعود

وفى ربيع الثانى سنة ١٢٢٩ هـ (١٨١٤ م) توفى الإمام سعود بالدرعية على أثر حمى أصيب بها . ولئن شاء القدر أن يشاهد سعود قبل موته إفلات الحجاز من يده مرة أخرى فإن ذلك لم يفت فى عضده ولم يكن له أثر يذكر فى حالة مملكته الداخلية ، وذلك بفضل شخصيته الجبارة والصلابة والشدة التى عرف بها

وبموت سعود فقدت نجد تلك الشخصية المهيبة ، وبدأ التصدع يظهر شيئاً فشيئاً فى أيام ولده عبد الله بن سعود

عبد الله بن سعود

بويع لعبد الله بعد وفاة أبيه ، وقد كانت الحرب مستمرة بين نجد ومحمد على باشا ، فلم يستطع أن يمسك زمام المملكة بيد من حديد ، كما لم يستطيع أن يدير الحرب بمهارة كما كان يديرها أبوه

لقد افتتح عهد عبد الله بن سعود بخلافات عائلية بينه وبين عمه عبد الله ، الجد الأكبر لجلالة الملك عبد العزيز ولم يكن هو البادئ بها ، بل إن عمه رأى نفسه أحق بالإمامة لأنه ولد محمد بن سعود المؤسس الأول ، ولكن هذا ليس بمبرر صحيح ، فإن سعوداً تولى الإمامة فى حياة أعمامه ، والحقيقة أن عبد الله العمّ أنس لين قناة عبد الله ابن أخيه فأراد أن يخلعه ، وليست هذه الحادثة بجديدة فى بلاد العرب

تغلب عبد الله على عمه ، غير أن التصدع قد بدأ وانحلال المملكة قد ظهر ، وأخذ أعداء الحكومة السعودية من النجديين يستفيدون من الفرصة ، فكاتبوا محمد على سراً ، ومحمد على لا يترك هذه الفرصة تمر دون أن يستفيد منها .

كان عبد الله فى حياة أبيه يشار إليه بالحكمة والعقل والفطنة ، غير أنه لم يكن له من الصفات الحربية مثل أبيه

كان عبد الله محبوباً من البادية للين عريكته ، ولكنه كان قصير النظر فى سياسته ،

كما أنه لم يكن له من قوة الإرادة ما يمكنه من القبض على زمام البادية ، والبدو أسرع الناس إلى الانتقاض ، فسقطت إمارة آل سعود على عهده ، ودخل ابراهيم باشا الدرعية وقبض على عبد الله وأرسله إلى الآستانة

ويقول النجديون المحنكون : إن عبد الله قد أخطأ كثيراً فى إدارة الحرب وخالف طريقة والده فى الحرب ؛ فعبد الله كان يعمد إلى منازلة المصريين ، والمصريون أقوى منه آلات حربية وأقدر على إدارة الفنون الحربية . أما أبوه فكان يعمد إلى الحيلة الحصيفة فيناوش أعداءه بقوات صغيرة حتى ينهك قوتهم ، ثم ينقض عليهم فيقضى عليهم ، وهذا ما فعله فى ضرب جيش طوسون باشا سنة ١٢٢٦ هـ ، وفى تربة سنة ١٢٢٩ هـ ، ولذا فإن عبد الله لما عمد إلى مقاتلة المصريين وجهاً لوجه انكسر فى تربة سنة ١٢٣٠ هـ ، وتبع هذا الانكسار استيلاء المصريين على القسم الجنوبى من الحجاز

ولقد خطّأ النجديون أيضاً عبد الله فى قتاله مع المصريين فى الدرعية ، فالصحراء واسعة والمصريون لا يستطيعون إبقاء حاميات فى جميع الأراضى النجدية

ولقد خطأ أيضاً (Rurchart) عبد الله بن سعود فى عقد الهدنة مع طوسون باشا سنة ١٢٣٠ هـ ، فإن هذه الهدنة كانت من أكبر الأسباب التى عملت على تقويض عرش آل سعود ؛ لأن المصريين كانوا فى أشد الظروف حرجاً : فقد كانت ذخائرهم على وشك النفاد ، كما أن الجو قد فتك بالجنود والحيوانات ، فبالهدنه مكنهم من تجديد حملاتهم على الحجاز ، ولو أن عبد الله تابع القتال لكان من المحقق القضاء على الحملة المصرية الصغيرة

أسباب سقوط الدولة السعودية

١ — كانت الدولة مستندة إلى القوة العسكرية أكثر من استنادها على القلوب ، والدعوة الدينية لم تتمكن بعد من قلوب الناس ؛ فقد كانت الثورات تشب من وقت لآخر لطرح الحكم السعودى لا سيما فى البلاد البعيدة عن نجد كعسير وعمان ؛ ولذا فقد وجد محمد على باشا ونفوذه المجال واسعاً فى جزيرة العرب

٢ — تحرش سعود بالأتراك والمصريين بإشارة غالب ونصائحه ، والأتراك أهل

الخلافة ويهمهم المحافظة على لقب (خادم الحرمين الشريفين) فهل يصبرون على عربى ينزع منهم الحرمين الشريفين ويحول دون حجهم ؟ إن هذا أكثر من ثورة ضدهم ؛ لذلك لم يكن لهم بد من إلقاء هذا الحمل على محمد على باشا بعد فشل (باشا) بغداد و(باشا) الشام فى تأديب هذه الفئة . ووالى مصر يهمه أيضاً بسط نفوذه فى الحجاز ؛ لأن ذلك يتفق مع مطامعه الواسعة ويشهر اسمه فى العالم الإسلامى

إنى أعتقد لو أن سعوداً اقتصر فى الدعوة على جزيرة العرب وترك الحج حراً للأتراك والمصريين ، ولم يمس الناحية الحساسة فى الترك ، وهى السيادة على الحجاز ما اهتم الأتراك بأمره ؛ فقد مكثت جزيرة العرب مدة طويلة ونار الفتن تأكل الأخضر واليابس ، بل لقد كان الحجاج الأتراك والمصريون عرضة للنهب والقتل فى كل ناحية حلوا بها فى الحجاز ، وكانوا يحتملون هذا ويعدونه من الأعمال الطبيعية . وأى فرق فى نظر الأتراك بين آل سعود والأشراف ؟ الفريقان من العرب ، وأفضلهم من يحتفظ بسيادة الأتراك ولو اسمياً مع نشر الأمن والمحافظة على سلامة الحجاج وتوفير وسائل الراحة لهم

رأى علماء نجد

أما بعض علماء القصيم فيحملون تبعة ما وقع على نجد من تخريب وتدمير على أيدى الحملة المصرية على آل الشيخ [١] ؛ لأنهم كانوا المسيطرين على السياسة الموحين إلى الأمراء باتباعها ، فهم الذين أملوا عليهم خطة الشدة والعداء العام لسائر الناس

أما آل الشيخ فيدفعون هذه التهمة عنهم طبعاً بالطعن على هذا الصنف من العلماء ، وبممالأة أهل القصيم لوالى مصر وترغيبهم إياه لغزو نجد وتمهيدهم السبيل لذلك ، وهم ينسبون ما وقع عليهم من المحن إلى الذنوب والتقصير ، والله قد يبتلى عباده المؤمنين بشتى المحن

---

(١) يطلق آل الشيخ على ذرية الشيخ محمد بن عبد الوهاب

أثر الدولة السعودية فى نجد

مهما قيل فى الدعوة الدينية الإصلاحية ، ومهما قيل فى الطريقة التى اتبعت فى نشر هذه الدعوة ، فإن هذه الدعوة قد تركت فى نجد أثراً عظيما لا ينكر ، وقضت قضاء تاماً على ما كان شائعاً فى نجد من الخرافات ، وما كان شائعاً من تعظيم القبور والنذر لها ، والاعتقاد فى بعض الأشجار ، وأحيت معالم الشريعة بعد اندثارها ، وجعلت الرجوع إليها فى مختلف الشئون أساساً من أسس الحكم . أما أهل العلم والقضاة لاسيما آل الشيخ فإنهم فوق كل اعتبار ، وأصبح مقروناً اسم آل الشيخ وآل سعود بعقيدة التوحيد والدعوة الإصلاحية لا سيما فى إقليم العارض . أما الجهات الشمالية : القصيم وجبل شمر ، فهم أقل حماسة من الجهات الجنوبية

الدولة السعودية الثانية

بعد إبعاد عبد الله بن سعود من نجد ، وسفر إبراهيم باشا إلى مصر سنة ١٢٣٤ ﻫ رجعت إلى نجد فوضاها القديمة ، وحل الفساد وقطع الطرق محل النظام والأمن

حانت الفرصة لآل سعود مرة ثانية ، ولكن من يقودهم ؟ اختلف آل سعود فيما بينهم على الإمارة كما طمع غيرهم أيضاً

طمع محمد بن مُشارى بن مُعَمَّر فى الإمارة ؛ فانتقل من العيينة إلى الدرعية وأخذ يستميل الناس إليه ، فدانت له العارض والوشم وسدير ، غير أن أمر ابن معمر لم يطل ؛ فإن مشارى بن سعود وصل إلى الدرعية فى جمادى سنة ١٢٣٥ ﻫ وانتزع الأمر من ابن معمر بلا مقاومة تذكر وبايع مشارى ، غير أن ابن معمر قام ثانية فاسترد الإمارة وألقى القبض على مشارى . وهنا يقوم تركى بن عبد الله فيثأر لابن عمه مشارى ، فيقبض على ابن معمر وولده ويقتلهما جزاء تسليمهما مشارى للترك

تركى بن عبد الله

١٢٣٥ — ١٢٤٩ ﻫ

هو تركى بن عبد الله بن محمد بن سعود ، وعبد الله والد تركى ليس هو عبد الله الذى أسره إبراهيم باشا وقتله الترك ، كما توهم بعض الكتاب ، ويعتبر تركى المذكور منشىء

الدولة الثانية لآل سعود فى سنة ١٢٣٥ هـ ، لأنه منذ هذه السنة اعتبر الزعيم الساعى لاسترداد إمارة آل سعود . لقد هرب تركى هذه السنة من الرياض بعد حصار الأتراك له ، ولكنه خرج من الرياض وهو رافع عَلم الثورة ضد أولئك الفاتحين ؛ وقد استمر ينتقل من بلد إلى أخرى مرة مهاجماً وأخرى مدافعاً ، ولسان حاله يقول ما قاله امرؤ القيس :

فقلت له لا تبك عينك إنما نحاول مُلكاً أو نموت فنعذرا

وقد تمكن بعد محاولات من استرداد الرياض التى جعلها مقراً له ومن إخضاع نجد كلها ، وفى آخر سنة ١٢٤٩ هـ دبر مشارى بن عبد الرحمن بن سعود للأمير تركى مؤامرة اغتاله فيها ، وأعلن نفسه أميراً على نجد ، غير أن فيصل بن تركى الذى كان فى القطيف وقت اغتيال أبيه بادر إلى الرجوع إلى الرياض ليثأر لأبيه من مشارى بعد أن استعد لذلك . وفى ١١ صفر سنة ١٢٥٠ هـ دخل فيصل بن تركى الرياض وحاصر مشارى فى قصره ، ولم تمض بضعة أيام حتى تساق فيصل ورجاله القصر ، وقتلوا مشارى ومن ساعده على تدبير المؤامرة لاغتيال أبيه ، وأعلن فيصل نفسه إماما وحاكما على نجد

فيصل بن تركى

سنة ١٢٥٠ — ١٢٥٤ هـ

ألقى القبض على الأمير فيصل فيمن ألقى القبض عليهم فى الدرعية من آل سعود وآل الشيخ ، وبقى فى مصر من سنة ١٢٣٤ — ١٢٤٢ هـ ، حيث فرّ من مصر ، ووفد على والده فى تلك السنة ، وشارك والده فى كثير من غزواته وحملاته ضد المغتصبين تارة وضد بعض أمراء آل سعود الذين رأوا الفرصة سانحة للأمارة أيضاً

كان فيصل من أعظم الأمراء همة وشجاعة ، كما كان من أتقى آل سعود وأكثرهم حمية وغيرة على الدين والقومية .

لم يمكن مشارى بن عبد الرحمن بن سعود من الأمارة ، وقد صعد إليها باغتيال تركى والد فيصل ، بل ركب متن الخطر ، وهل للأمارة فى بلاد العرب غير طريق المخاطرة ؟ فأسقطه بسرعة وقتله وقتل من عاونه . تسلم فيصل عرش الإمارة الشائك فلم يجد من

كثير من الأمراء إخلاصاً وخضوعاً . أما بعضهم فيفضل الاستقلال حتى يتحكم فى الناس ويتسع المجال لهواه ومطامعه ، و بعضهم يخاف من بطش المصريين والأتراك ، غير أن فيصلا كان كجده محمد بن سعود لينا لمن ينفعه اللين ، شديداً على من لا يصلحه غير الشدة ، شمر فيصل عن ساعد الجد حتى أخضع أكثر البلاد العربيــة ما عدا الحجاز طبعاً ، وأعاد عهد النظام والأمن فى البلاد العربية بعد أن سادت فيها الفوضى وانتشر الفساد

لقد هال الأتراك ومحمد على أمر نجد مرة أخرى ، وخوفهم أن يعود الأمر لآل سعود كما كان ، فأرسلوا حملة عسكرية ومعها خالد بن سعود ، فأصبحت الحرب أهلية بين آل سعود ، غير أن أهل نجد لا سيا الجنوبيين كانوا يميلون إلى فيصل لأنه لم يستعن بأحد من الأتراك ، وصرحوا لخالد بأنه إذا كان يريد منهم الطاعة فهم مطيعون ، أما إذا كان يريد الطاعة للأتراك فهم لا يحبون الأتراك ولا يريدون الخضوع لهم . وقد استمرت الحرب الأهلية بين خالد ، ومعه جنود محمد على ومن تبعهم من النجديين ، و بين فيصل بن تركى والنجديين الصميميين من جهة أخرى ، وكانت الحرب سجالاً بين الفريقين ؛ وأخيراً رأى ولاة الأمور — المصريين والأتراك — أن يضعوا آخر حد لفيصل بن تركى الذى يرمى إلى إعادة حكومة سعودية مستقلة لا تتأثر بالنفوذ التركى أو المصرى ، فوكلوا هذا إلى خورشيد باشا الذى أوفد إلى نجد سنة ١٢٥٤ هـ بحملة عسكرية للقضاء على فيصل ، ووصل خورشيد باشا إلى الرياض فى رجب من السنة المذكورة ، فانضم إليه خالد بن سعود وساروا جميعاً إلى فيصل الذى كان فى ذلك الوقت فى الدَّلَم من إقليم الخرج ، و بعد معارك دامية رأى فيصل أن ليس له قدرة على مقاومة المصريين ، فاستسلم له فأرسله خورشيد باشا مع أخيه جلوى وولديه عبد الله ومحمد إلى مصر

وقد بقى الإمام فيصل فى مصر من سنة ١٢٥٤ إلى سنة ١٢٥٩ هـ ، كانت نجد تخوض فيها فتنة أهلية بين خالد بن سعود و بين عبد الله بن ثِنَيَّان ، الذى يريد استخلاص نجد من قوات الأتراك . استتب الأمر فيها لعبد الله بن ثنيان ؛ وهرب أخيراً خالد بن سعود من الرياض إلى الإحساء فالقطيف فالكويت فمكة حيث توفى بها

فيصـــــل

من سنة ١٢٥٩ — ١٢٨١ هـ

تمـكن الإمام فيصل بن تركى من الفرار من مصر مرة ثانية ، ويقال : إنه تمـكن من ذلك بمساعدة عباس باشا الأول ؛ فإنه كان معجباً به وبعقله ، فذابت قوة ابن ثنيان ، وأسلم له سائر الرؤساء ، وتمـكن بعد مدة قصيرة من استعادة المملـكة القديمة ما عدا الحجاز ، وقد ساعده على ذلك أولاً انسحاب الجيوش المصرية من البلاد العربية ، وزوالُ نفوذهم من تلك البلاد نتيجة لمعاهدة لندن سنة ١٨٤٠ م ، وثانياً مسلك الحكمة والتبصر الذى اتبعه الإمام فيصل مع الأتراك الذين اكتفوا بسيادتهم الإسمية على بلاد العرب ، وبذلك عادت الطمأنينة إلى قلوب السكان ، وشمل الأمن الطرق والبلاد التى بسط فيها فيصل سلطانه ونفوذه

صفات فيصل بن تركى

كان الإمام فيصل قصير القامة ، يميل إلى السمن ، متوقد الذكاء ، كثير التواضع ، يميل إلى العدل ، شديداً على عماله إذ رأى منهم انحرافاً عن الخطة التى رسمها لهم ، وكان فى أخريات أيامه شديد العطف على الأيتام ، بنى لهم فى الرياض داراً خاصة لهم ، وكان يتفقدهم بنفسه ويكرم مثواهم ويواسيهم بكلماته الرقيقة ، وقد أخبرنى المرحوم الشيخ عيسى ابن على أنه مر بالرياض فى حجه سنة ١٢٧٨ — سنة ١٨٦١ م فرأى الإمام فيصلاً يزور دار الأيتام . ورآه مرة يبكى حينما قال له أحد المتخاصمين : خف الله يا محفوظ . وتمتعت نجد فى أيامه بسعادة ورخاء عظيمين

وقد زار الرياض الرحالة « بلجريف » ، فوصف بلاط فيصـل وما يسوده من الجاسوسية والإشاعات كما وصف الإمام فيصلاً بالضعف فى آخر أيامه وسيادة عبد الله ولده فى خارج القصر ، ومحبوب — عتيق تركى والد فيصل — فى داخل القصر ، كما

وصف سلطة الشيخ عبد اللطيف حفيد الشيخ محمد عبد الوهاب وأنها تأتى بعد فيصل مباشرة ، وذكر أيضاً المنافسة بين عبد الله بن فيصل وسعود بن فيصل حتى اضطر فيصل إلى تعيين ولده سعود أميراً على اليمامة والخرج ؛ دفعاً للاحتكاك والمنافرة بين الولدين ، وإن أهل الدين المتعصبين يرون فى عبد الله الزعيم ، كما أن فريق المعتدلين المتسامحين يرون فى سعود الزعيم البصير العاقل

إن فيصلاً وأكثر أهل نجد يكرهون الأجانب من كل قلوبهم ويسيئون بهم الظنون ، وهم لا يلامون على هذا فقد ذاقوا من المصريين والأتراك ومن جيوشهم الأمرّين ، وقد ذاق فيصل نفسه الشيء الكثير منهم فى الحبس والإبعاد ؛ ولذا فإنه يرصد العيون على كل أجنبى قادم ولا يترك له المجال للاقامة فى الرياض ، ولكنه فى الوقت نفسه كان واسع الصدر مع المسلمين غير النجديين الذين فضلوا الإقامة فى بلاده ، حيث وجدوها وطناً صالحاً لتعاليم الإسلام الصحيحة كما ذكر بلجريف نفسه إكرامهم لبعض الهنود ؛ ولهذا السبب لم يجد بلجريف صدراً واسعاً لإقامته ، ووجد العيون تبث حوله

وقد نشطت الدعوة النجدية فى أيام الإمام فيصل بعد ما أصيبت بالجمود فى أيام حملات المصريين ، غير أن هذه الدعوة سواء كانت سلمية أو حربية لم تخرج عن دائرة نجد والاحساء وعمان وقطر وعسير . أما الحجاز والعراق وسوريا فلم يشأ فيصل أن يدخل معها فى نزاع جديد ؛ لأنه رأى سلامته وسلامة بلاده فى حفظ صلات المودة مع الأتراك

واعتراف الإمام بسيادة الأتراك الإسمية لم يمنعه سنة ١٨٦٢ م من مفاوضة بيلى المقيم السياسى فى بوشهر باسم الحكومة البريطانية لتوطيد صلات المودة والصداقة بين البلدين

أما المملكة السعودية فى أيام فيصل فقد كانت حدودها حسب وصف بيلى(١) من الشمال خط يمتد من جوف العامر إلى قرب الكويت مباشرة عند نهايتها الشرقية ، ومن الجنوب تحد نجد بالربع الخالى أو الصحراء الكبرى ، ومن وادى الدواسر من نهايته الغربيه إلى نقطة غير معينة فى الصحراء فى اتجاه الخليج الفارسى ، ومن الشرق تنحدر حدود نجد إلى الخليج الفارسى إلى الكويت فى طرفها الشمالى فنازلاً إلى أبى ظبى ، وبعد

---

(١) محاضرة الكولونيل بيلى فى الجمعية الملكية الجغرافية سنة ١٨٦٥ م

أن يمر خط الحدود إلى الداخل قليلاً حتى يصل إلى بِرَيْمى ينحنى خط الحدود نحو الجنوب الشرقى ويمتد وراء تلال مسقط وعمان ، ومن الغرب خط يمتد تقريباً من الشمال والجنوب بين الحجاز من جهة ، ووادى الدواسر من جهة أخرى بحيث يقع وادى الدواسر فى نهاية الطرف الجنوبى لهذه الحدود . فهذه الجهات كان سكانها ورؤساؤها يخضعون فعلا للإمام فيصل . وهنالك جهات أخرى كان يكتفى منها الإمام فيصل بضريبة سنوية علامة على الخضوع ، فأمير البحرين كان يدفع أربعة آلاف ريال ، وسلطان مسقط ستة آلاف ، ورئيس ساحل عمان من رأس الخيمة إلى أبى ظبى ١٢ ألف ريال

وفاة الإمام فيصل

فى سنة ١٢٨٢ هـ (١٨٦٦ م) توفى الإمام فيصل ففقدت نجد بموته شخصية عظيمة كان لها أثرها فى جمع الكلمة ، تلك الشخصية الحكيمة التى كان لها الفضل فى إحياء النظام والقضاء على الفوضى وسيادة الأمن والقانون

وبموت الإمام فيصل أوجد التنافس بين ولديه عبد الله وسعود سبيلا لأعدائهما ، فاستفادوا من مقاتلة الأخوين ، حتى انتهى الأمر أخيراً بالقضاء على إمارة آل سعود مرة أخرى

الحرب الأهلية بين عبد الله وسعود

كان التنافر بين الأخوين معروفاً منذ أيام فيصل ، ولكن الإمام فيصلاً أراد وضع حد لهذه المنافسة ، فجعل ولاية العهد لولده الأكبر عبد الله وأطلق يده فى كثير من الأحوال ، وكان عبد الله معروفاً بالكرم والتقوى ، كما كان معروفاً بالتعصب والشدة ، وهو يرى نفسه الوارث الشرعى للإمارة

أما سعود فكانت شخصيته تختلف تمام الاختلاف عن شخصية أخيه عبد الله : كان طويلا كأخواله بنى خالد ، وكان يميل إلى الاعتدال والتسامح ، وهذه الصفات ربما كانت محبوبة لدى البدو أكثر . يقول عارفوا عبد الله بن سعود : إن الرجل كان طيب

القلب شجاعاً ، ولكنه أسند الأمور إلى غير أهلها ، وأطلق يد موظفيه ، و بعضهم لبسوا من العائلات المعروفة فعاملوا رؤساء البلدان والقبائل بغير ما اعتادوه فى أيام فيصل ، من كرم الضيافة والرعاية ، ولا شىء أسوأ أثراً فى نفس العربى من سوء المعاملة ، كما لا شىء يحدث أحسن الأثر أكثر من الإكرام وطلاقة الوجه ، ولقد سمعت كثيراً جلالة الملك عبد العزيز ينصح أولاده بعدم الركون إلى الخدم و بعض الموظفين ، وتصفح الشئون العامة بأنفسهم ، وكثيراً ما يضرب المثل بعمه عبد الله بن فيصل وركونه إلى خدمه الذين أساءوا إلى الناس ، فانصرفت قلوب الناس عنه وانفضوا من حوله ، وعلى كل حال فإن الخصومة بين الأخوين أخذت تزداد وأخذ كل فريق يجمع أنصاره حتى ينازل خصمه و يتغلب عليه ، وقد بدأت أجزاء المملكة فى الانحلال ؛ فإن القسم الشمالى من نجد أصبح تحت نفوذ آل رشيد ولم تبق لآل سعود إلا سلطة اسمية ، ولم يبق على ولاء مع آل سعود إلا الرياض والخرج وبعض الأقسام الجنوبية

ترك سعود الرياض بعد وفاة أبيه وأخذ يبحث عن أنصار له ؛ فوجد فى العجمان أنصاراً أقوياء ، والعجمان و بنو خالد كانوا أصحاب النفوذ فى إقليم الاحساء ، وقضى فيصل وأسلافه على نفوذهم فى تلك البقاع ، وهاهى الفرصة سانحة لاسترداد نفوذهم فهل يتركونها تفلت من أيديهم

تحالف رَاكان بن حِثْلِين زعيم العجمان مع ابن خليفة حاكم البحرين يساعدهم قبائل آل مرة ، وتقدموا إلى الهفوف (عاصمة الاحساء) ، وكان فيها أحمد السديرى حاكماً من قبل عبد الله بن فيصل لحاصروه فيها ، وأخذ عبد الله بمساعدة أخيه محمد بن فيصل يجمع القوات لضرب خصومه وفك حصار عامله ؛ ولكن لبعد المسافات بين البلدان لم يتمكن عبد الله من حشد عدد كبير من المحاربين ؛ ولذلك أسرع بقوة صغيرة لنجدة البلد المحاصر ، وقد بقى حاكم المدينة محاصراً عدة أسابيع ، ولكن سلمها لهم لما هددوه بإتلاف البساتين ، وقد علم عبد الله بسقوط الهفوف وهو فى منتصف الطريق من الرياض إليها ، فقرر الانتقام والأخذ بالثأر فوراً ، فَقَسَّم قوته إلى عدة سرايا وأمرهم أن يجدوا السير من طرق مختلفة إلى الماء المسمى جُودة ، حيث كانت تعسكر قوة العدو الرئيسية ،

وحيث تتقابل كل هذه السرايا فى ليلة معينة ليأخذوا العدو على غرة قبيل شروق الشمس ، غير أن خصومه الذين كانوا يحتلون منازل المياه على مسافات واسعة بددوا هذه الفرق الصغيرة ، وقتلوا أكثر من ألفى مقاتل من محاربى عبد الله المخلصين

أما سعود فإنه سارع وأتباعه لاحتلال الرياض عاصمة ملك عائلته ، فدخلها فى نهاية سنة ١٨٧٠ م واستولى عليها وأقام نفسه حاكما عليها ، وقد حاولت بعض المدن وأهمها البرّة أن تقاوم سعوداً ، ولكن عبد الله هُزم هناك مرة أخرى ، و بعدها لم يستطع الإقامة فى بلاد أجداده ، فحمل خزائنه ونفائسه على مائة بعير وصار يتنقل من ناحية لأخرى لعله يجد نصيراً أو مساعداً ، فتوجه أولا إلى زامل السليم حاكم عنيزة ، ولكن خوفه من بطش سعود جعله يوعز إلى عبد الله بالرحيل عن بلاده ، فتوجه عبد الله إلى محمد بن الرشيد فى حائل ، غير أنه لم يجد صدراً رحباً منه ، فرحل إلى سلطان الدويش (والد فيصل الدويش المعروف) وعساف أبوثنين رئيسى مطير وسبيع ، وكانا يحنقان على حاكم الرياض سعود ويسعيان لإضعاف نفوذه

وأراد عبد الله أن يسعى من جهة أخرى لإضعاف نفوذ أخيه سعود . فأرسل عبد العزيز بن بُطَيْن إلى مدحت باشا والى بغداد ليستمد منه المعونة ضد أخيه ، فوجد مدحت باشا الفرصة سانحة للاستيلاء على الاحساء وسائر البلاد التى كانت خاضعة لتركيا قبل دولة آل سعود ، فاستعان على غرضه هذا بناصر باشا السعدون رئيس قبيلة المُنْتَفِق ، وعبد الله بن صباح حاكم الكويت ، وبمساعدة هؤلاء و بنى خالد أنصار عبد الله احتلت القوة التركية الاحساء وأطلقوا عليها ولاية نجد

وقد تحقق عبد الله الذى كان يحسد أخاه سعوداً على ولاية الاحساء أنها قد خرجت من أيديهما جميعاً

أما سعود فقد بدأت القلوب تنصرف عنه بسبب الفظائع التى ارتكبها أنصاره وأصهاره العجمان ، فاجتمع أهل الرياض تحت قيادة عمه عبد الله بن تركى وطردوه من الرياض سنة ١٨٧١ م ، فوجد عبد الله بن فيصل المقيم فى الاحساء الفرصة سانحة ، فترك الاحساء ودخل الرياض بدون مقاومة ، ولكن سعوداً لم يهن عزمه ، فجمع

أنصاره وأصدقاءه الدواسر ، ونازل أخاه عبد الله فى الجَزْعَـة وضربه ضربة شديدة ودخل الرياض ظافراً

أراد سعود أن يسترد الاحساء من الأتراك بعد أن أضاعها أخوه عبد الله ، فرأى البدء فى مفاوضات مع الأتراك لحل هذه المشكلة ، فأرسل أخاه عبد الرحمن والد الملك عبد العزيز إلى بغداد ، فأقام عبد الرحمن بن فيصل فى بغداد أربع سنوات دون أن يصل إلى نتيجة ، وأبى له ذلك والأتراك يرنون ببصرهم إلى داخل الجزيرة

ترك عبد الرحمن بن فيصل بغداد سنة ١٢٩١ هـ (١٨٧٤ م) مصراً على الاستيلاء على الاحساء بالقوة ، بعد أن فشلت المفاوضات السياسيـة ، فنزل إلى بادية الاحساء واستحثها على قتال الترك ، فاجتمع حوله العجمان فهاجموا الاحساء واستولوا عليها ماعدا الـكويت (القلعة) ولـكن الأتراك بمساعدة بنى خالد هزموا عبد الرحمن والعجمان وطردوه من الأماكن التى احتلها ، فرحل عبد الرحمن إلى الرياض وأخبر أخاه سعوداً بمـا منى به من الفشل فى محاولاته السياسية والحربية . ولم يكن حظ سعود نفسه بأسعد من حظ أخيه عبد الرحمن ؛ فإن مُسَلَّط بن رَبِيعان من رؤساء عتيبة حينما أنس الضعف من سعود وما منى به فى الاحساء أخذ ينهب الجانب الغربى من الرياض ، وأخيراً حينما خرج سعود لغزو عتيبة أحاط به أعداؤه فى واد ضيق وقتلوا أكثر أنصاره ، وجرح هو نفسه جرحا بليغاً ، وقد نقله عبيده إلى الرياض فبقى بها مريضاً حتى مات فى صيف سنه ١٢٩١ هـ — (١٨٧٤ م)

فبايع أهل الرياض أخاه عبد الرحمن بن فيصل إماماً لهم وحاكما عليهم ، ومضى على ذلك نحو سنة ، غير أن عبد الله بن فيصل عز عليه أن يرى أخاه الأصغر حاكما فى الرياض وهو طريد من عشيرة إلى أخرى ، فدخل الرياض وأعلن نفسه إماماً وحاكما عليها ، فرأى أخوه عبد الرحمن أن يضع حداً للفتن الداخلية ، فتنازل عن الإمارة وبايع أخاه عليها ، غير أن هذا الحـكم لم يدم طويلاً ؛ فإن خصومه وأعداءه من أبناء أخيه سعود تمـكنوا من القبض عليه وحبسه سنة ١٨٨٧ م ، فأسرع محمد بن رشيد حاكم حايل إلى مساعدته فضرب أعداءه وفك أسره وأخذه معه إلى حايل ، وأقام فى الرياض

عاملاً من قبله بجانب عبد الرحمن بن فيصل ، ثم ما لبث أن استقدم عبد الرحمن إلى حايل ليقيم مع أخيه عبد الله

ومن ذلك الوقت أخذ نجم آل سعود فى الأفول ، وأصبحت الكلمة العليا فى نجد لآل رشيد عمال السعود بالأمس ، فأخذوا يبسطون نفوذهم على سائر الأنحاء النجدية . وشخصية محمد بن رشيد زعيم الرشيد قد ساعدت على ذلك أتم مساعدة ، فقد اشتهر الرجل بالكرم ولين الجانب وكبر العقل وحبه للسلم ، فدانت له العشائر كلها راضية أو مكرهة

وقد رأى أن يملك قلوب أهل الجنوب فأذن فى سنة ١٨٩٠ م لعبد الله بن فيصل بسكنى الرياض بالنظر إلى تقدمه فى السن واشتداد المرض عليه ، وأذن لأخيه عبد الرحمن أن يصحبه وأن يسكن الرياض أيضاً ، غير أن المنية لم تمهل عبد الله بن فيصل ، فمات بعد وصوله إلى الرياض بيوم واحد

أما الإمام عبد الرحمن فقد كبر عليه أن يعيش فى الرياض بلد آبائه وأجداده بعيداً عن النفوذ ، يرى بعينه عامل ابن الرشيد هو السيد المطاع ، وكان عامل ابن الرشيد من جهة أخرى لا يسير نحو آل سعود من الإكرام وحسن المعاملة بما ينسيهم تراثهم الزائل ، فقام عبد الرحمن بن فيصل يشد أزره أهل الرياض والموالون لآل سعود ، وقبضوا على عامل محمد بن الرشيد وبايعوا الإمام عبد الرحمن بالإمامة ، فجهز محمد بن الرشيد جيشاً حاصر به الرياض ، ولكن لم يتمكن من دخولها فصالحه أهلها على أن يترك لعبد الرحمن الإمارة ، وهم يطلقون عامله المدعو ابن سَبْهَان

غير أن الأمير عبد الرحمن الذى أصبح تحت رحمة الرشيد والذى لم تتعد سلطته الرياض وما حولها كبر عليه أن يرى من كانوا بالأمس عمالاً من قبلهم لهم هذا النفوذ العظيم ، وكذلك أهل القصيم كبر عليهم أن يروا حاكم حايل يتمتع بهذا السلطان ، وليس أقدم منهم بيتاً ولا أكرم حسباً أو نسباً ، ولكن القوة هى التى أملت عليهم الخضوع والاستسلام

كانت فكرة أهل القصيم وفكرة الأمير عبد الرحمن ترمى إلى غرض واحد ، فاتفقوا على مبايعته ومباغتة محمد الرشيد فى حايل ، وضربه ضربة تضعف سلطته وتقلل من نفوذه ،

ولكن محمد الرشيد لم تكن عينه غافلة عما يكيده له خصومه فى الخفاء ؛ فإنه ما كاد يعلم بأن خصومه أخذوا بتأهبون ، حتى باغتهم بقواته فى عنيزة ، وانقض عليهم فمزقهم شر ممزق . وقد قتل فى هذه المعركة زامل آل سليم حاكم عنيزة وابن مهنّا حاكم بريدة ، وتعرف هذه الواقعة بواقعة المَليدة

ومنذ سنة ١٨٩١ م وهى السنة التى كسر فيها محمد الرشيد خصومه ، أصبح السيد المطاع فى نجد ، وإن كان لا يزال يعانى بعض الصعاب فى جمع الضرائب من الأقاليم الجنوبية

أما عبد الرحمن بن فيصل فقد نقل أهله من الرياض إلى آل مرة قرب الاحساء ، ومكث لديهم نحو سبعة أشهر ، ثم هجم على الرياض فاستخلصها من الرشيد هى وسائر إقليم العارض ، ولكن ابن الرشيد جهز جيشاً عظيما التقى بجيش عبد الرحمن بحريملا ، فقضى عليه القضاء الأخير ، فأيقن عبد الرحمن أن الأمر فوق مقدوره . فترك نجداً إلى الأحساء فالقطيف فالكويت ؛ حيث ألقى عصا التسيار فيها منتهزا الفرصة وما تأتى به المقادير

فأقام ابن الرشيد محمد بن فيصل أخا الإمام عبد الرحمن حاكما على الرياض ، وقد كان معتقلاً فى حايل ، أما عبد الرحمن الذى اختار الإقامة فى الكويْت فى سنة ١٣٠٩ هـ (١٨٨٣ م) ، فأخذ يقيم العراقيل فى وجه ابن الرشيد . وأوغر صدر الأتراك عليه فى بغداد والاحساء ، كما ساءت العلاقات بينه و بين حاكم الكويت أيضاً ، فأخذ ابن الرشيد فى تجهيز حملة لفتح الكويت المنفذ الطبيعى لنجد سنة ١٣١٢ هـ (١٨٩٨ م) ، ولكن جميع المحاولات باءت بالفشل بعد أن كبدته خسائر فادحة فى المال والرجال ، كما أنها وسعت هوة الخلاف بين الكويت وحايل

الدور الثالث لآل سعود

لقد كتب القدر أن يرى عبد الرحمن بن فيصل مجد أبيه ، ويرى مأساة الخلاف بين أخويه عبد الله وسعود ، تلك المأساة التى انتهت بانسحابه إلى الكويت يعيش فيها ضيفاً غريباً بعد أن كان أميراً مهيب الجانب ، ولكن الله الذى أعد للصابرين أجرهم

عوض عبد الرحمن بن فيصل خيراً ، فأراه قبل موته راية ولده عبد العزيز ترفرف لا على مملكة الإمام فيصل فحسب ، بل على مملكة الحجاز أيضاً

فى آخر سنة ١٣١٤ هـ (١٨٩٧ م) اغتال الشيخ مبارك بن صباح أخويه الشيخ محمد والشيخ جراح لخلاف بينهما ، وتبوأ عرش الكويت ثم استكتب أعيان الكويت عريضة يتهم فيها الشيخ يوسف بن ابراهيم بقتل أخويه ، وأرسل عريضة إلى والى البصرة فاطلع الشيخ يوسف بن ابرهيم على العريضة ، وقد كان خارج الكويت فى الصيد ، فقرر ترك الكويت واتخذ الدَّوْرَة وهى من أملاكه الواسعة قرب مصب نهر شط العرب . وحاول مبارك فى الوقت نفسه أن يغرى الشيخ يوسف بالقدوم إلى الكويت أو أن يقبض الأتراك عليه فلم يفلح ؛ لأن يوسف بن ابراهيم لم يأمن كيد مبارك

لجأ أولاد محمد الصباح وجراح إلى يوسف خشية من عمهم ، وهو يعتبر كخال لهم ، واستجاروا به وطلبوا منه الأخذ بثار أبويهم ، فبدأ الخلاف الخطر بين بيت آل ابراهيم يعاونه قسم من أهالى الكويت و بعض عائلة الصباح و بين الشيخ مبارك

لقد حاول الشيخ يوسف أن يهجم على الكويت فيأخذها عنوة ، فجهز حملة بحرية فى بعض شواطئ إيران وملأ السفن بالمقاتلة ، ولكن الحظ خدم مباركا بوقوفه على المؤامرة قبل وصول السفن إلى الكويت بيوم واحد ، فرجعت الحملة خائبة حينما رأت أن أمرها قد انكشف ، وأخيراً لجأ الشيخ يوسف إلى الأتراك وابن الرشيد ، وهنالك بذل الذهب و بين للجميع سهولة الاستيلاء على الكويت . وكان نتيجة هذه المحاولات إعلان الحماية البريطانية على الكويت حينما أرسل الأتراك سفينة حربية صغيرة لنقل شيخ الكويت إلى استنبول ؛ لأنه عُيِّن عضواً فى مجلس الشورى ، فلم يقف البريطانيون مكتوفى اليد فأعلنوا حمايتهم وهددوا السفينة باطلاق النار عليهم إن لم تنسحب فانسحبت حالا ، وقد أخبرنى الشيخ مبارك والسيد رجب النقيب بقصة إعلان الحماية البريطانية على الكويت ، وسنذكرها فى مذكراتنا إن شاء الله

وقد ازدادت العداوة بين حاكم الكويت وعبد العزيز آل رشيد ، ويوسف بن ابراهيم يذكى نار الخلاف ، وفى سنة ١٣١٨هـ (يناير سنة ١٩٠١م) ، وصلت إلى عبد العزيز

ابن رشيد أسلحة كثيرة من الأتراك ، فاستغلها فى حملة ضد مبارك الذى كان يتقدم للغزو بمساعدة بعض العشائر التى تميل إلى ابن سعود ، و بعض القبائل الجنوبية التى كانت ترغب فى الخلاص من حكم الرشيد ، فاصطدمت قوات الطرفين فى الصَّرِيف — الماء المعروف فى القصيم — وانقضت قوات ابن الرشيد على قوات ابن صباح ومزقتهم شر ممزق ، وفر مبارك إلى الكويت لا يلوى على شيء ، وقد أصيب أهل الكويت فى هذه الوقعة بمصيبة لا يزالون يذكرونها ، فلم يكد بيت من بيوت الكويت يخلو من مأتم ، غير أن هذه الوقعة أثبتت أن عبد العزيز الرشيد كان سفاحاً لا تعرف الرحمة إلى قلبه سبيلا ؛ فإن أكثر من قتلوا لم يقتلوا فى المعركة بل قتلوا بعد ما سلموا سلاحهم ، وقد سقنا هذه القصة هنا وإن كانت ألصق بتاريخ الكويت لما لها من العلاقة الوثقية فى تاريخ نجد الحديث

عبد العزيز بن عبد الرحمن آل سعود

فى الوقت الذى هاجر فيه الأمير عبد الرحمن بن فيصل إلى الكويت كانت سن ولده عبد العزيز (الملك عبد العزيز) لا تزيد عن اثنتى عشرة سنة ، فهو لم يشاهد مجد جده فيصل بل شاهد محنة أبيه عبد الرحمن وعائلته

لقد ذاق عبد العزيز مرارة العيش فى الكويت ، ولم يحتمل أن يعيش تلك الحياة الهادئة ، وقد كبر على نفسه أن يعيش تحت جناح الشيخ مبارك بعد ما كانوا بالأمس سادة نجد ، فقرر أن يخاطر : فإما أن يفوز فيكون قد أدى واجبه نحو نفسه ونحو عائلته ، وإما أن يموت فيستريح من عذاب الضمير

بدأ الأمير عبد العزيز مخاطراته بالحملة على الرياض لبعدها عن مركز قوة ابن الرشيد ، ولما فيها وفى بلاد الجنوب من الأنصار والمخلصين لعائلة آل سعود

خرج عبد العزيز بن سعود من الكويت سنة ١٣١٩ هـ — ١٩٠١ م ، ومعه أربعون رجلا كلهم من آل سعود والموالين لهم ، وكانت خطة ابن سعود أولا ترمى إلى ضرب العشائر التابعة لابن الرشيد حتى يلتف حوله رؤساء البدو ، وبالفعل فإنه نجح فى

ذلك حتى بلغ جيشه ألفاً وفرسانه نحو ٤٠٠ ، واتخذ هدفه نجداً الجنوبية

شكا ابن الرشيد للدولة العثمانية من هـذا العدو الصغير ، وكتب القاسم بن ثانى — أمير قطر — يحرضه عليه ، فمنعت الدولة ابن السعود أن يُموّن من الاحساء ، وقطعت راتب والده ، وانفض البدو من حوله ، ولم يبق حوله إلا الأربعون رجلا الذين خرجوا من الكويت وتحالفوا معه على الحياة أو الموت

كتب له الشيخ مبارك ووالده بالرجوع ، إذ لا قبل له بمناوأة الدولة العثمانية وابن الرشيد ، ولكن ابن سعود كان يحاول ملكا ، فإما أن يصل إليه أو يموت

أراد عبد العزيز أن يضرب ضربته الأخيرة فسار بجماعته الأوفياء ، وقد التف حولهم عشرون رجلا ، فوصل إلى حدود الرياض أول الليل ، فترك من قومه هنالك عشرين رجلا على مسافة ساعتين من الرياض ، وتقدم بالأربعين الآخرين ، فلما وصل الشمسيّة — وهى بساتين خارج الرياض — ترك من جماعته ثلاثين على رأسهم أخوه محمد بن عبد الرحمن ، ثم تسلق سور البلد ، ولكنه ماذا يصنع فى هذا الليل البهيم وكيف يقضى ليلته ؟

طرق باب البيت المجاور لقصر عامل ابن الرشيد المدعو عجلان

— من الطارق ؟

عبد العزيز بن سعود مجيباً : — رجل من خدم الأمير عجلان يريد زوجك لغرض .

المرأة — اذهب لا بارك الله فيك . ماجئت إلا لتبغى النساء ، وهل يطرق باب الناس فى الليل إلا فاسد

عبد العزيز — لا والله يا خالة ما جئت لهذا ، ولكنى أخشى على زوجك من القتل غداً إذا لم يلب نداء الأمير حالا

سمع الرجل التهديد فخرج ليرى جلية الخبر ، وكان ابن السعود يعرفه جيداً ويعرف نساءه ، ومنهن من كن فى خدمة بيوت آل سعود ، فلما خرج أمسكه وقال : اسكت وإلا قتلتك فى الحال ، ثم دخل البيت فلما رآه النساء صحن : عمنا عبد العزيز ، فقال : اسكتن ولا بأس عليكن ، ثم جمعهن جميعاً فى غرفة وأغلق عليهن الباب جميعاً ، ثم تسلق

الجدار إلى البيت المجاور للحصن ، فوجد اثنين نائمين فلفهما فى فراشهما بهدوء ، ثم أدخلهما فى إحدى الغرف وأغلق عليهما الباب ، ولما اطمأن باله أرسل إلى أخيه محمد من الخارج ومن معه فجاءوا إليه دون أن يشعر بهم أحد .

كان البيت المجاور للبيت الذى هو فيه أحد بيوت عجلان عامل ابن الرشيد ، وكان عجلان يزوره نهاراً وأحياناً فى الليل . فمشى عبد العزيز ومعه عشرة من رجاله فدخلوا البيت ثم فتشوا غرفه واحدة واحدة ، فوجد اثنين نائمين على فراش واحد ظنهما ابن سعود عجلان وزوجته ، فدنا منهما عبد العزيز ليتحق من شخصيتهما على ضوء سراج كان يحمله أحد الخدم ، فوجدهما زوجة عجلان وأختها

عرفت المرأة عبد العزيز فسألته : ألأنت عبد العزيز ؟ فأجابها . نعم ! أنا هو ... !

— من تبغى ؟ وما مأربك هنا ؟ فأجابها : أريد عجلان لا سواه ، فقالت : يابنى لا تغرر بنفسك ، انج بنفسك فى هذا الليل و إلا قتلوك

عبد العزيز — ما جئنا لنسمع منك نصيحة ، ولكن نريد أن نعرف متى يخرج عجلان من القصر الداخلى

زوجة عجلان — بعد شروق الشمس بساعة

عبد العزيز — هذا كل ما نريد ، و إنكن إذا لزمتن السكوت والسكون فلا بأس عليكن ، و إلا فالموت لا محالة ، ثم جمع النساء جميعاً فى غرفة واحدة وأغلق عليهن الباب

انتصف الليل وخيم السكون على البلد كأن لم يكن هنالك شىء ، ثم فى هذا السكون أخذوا يحكمون الرأى فى تدبير الهجوم على قصر عجلان . انبثق الفجر وأخذت الشمس تشرق بنورها الساطع على البلد ، وفتح باب القصر وأخرج العبيد الخيل ، فدخل عبد العزيز القصر وتبعه من رجاله خمسة عشر فقط وكمنوا فى داخله ، و بعد دقائق خرج عجلان ليرى الخيل كعادته ، فصادفوه فى الطريق فراعه منظرهم ، فهم يريد الرجوع ، فأدركه عبد العزيز بطلقة لم تدرك منه مقتلا فتبعه عبد العزيز ، وتصارع ابن سعود وعجلان ، ابن السعود يريد القضاء على خصمه ، وعجلان يحاول إدخال ابن السعود إلى الباب الداخلى . فى هذه اللحظة أخذ رجال عجلان يطلقون النيران من نوافذ الحصن المشرفة على السوق ،

فقتلوا اثنين من رجال ابن سعود ، وجرحوا أربعة وتراجع المهاجمون ، يا لله من خطر داهم !

هنا دخل عبد الله بن جلوى (أمير الاحساء ، وابن عم عبد العزيز بن سعود) وعدا وراء عجلان الذى أفلت من عبد العزيز فرماه بطلقة أودت بحياته ، و بعد ساعة تبادل رجال عبد العزيز وحرس القصر النار ، ثم سلم حرس القصر على أن يتركوا أحياء ظناً منهم أن عبد العزيز معه من الجند ما يكفى للقضاء عليهم ، وما كاد النهار ينتصف حتى أذن المؤذن أن الحكم لله ثم لعبد العزيز بن عبد الرحمن ، وأن عجلان عامل ابن الرشيد قد قتل فسمع الناس وأطاعوا

إن هذه القصة التى تشبه قصص أبطال اليونان ترينا عظم الأخطار التى أحاطت بابن السعود ، وهى تعطينا صورة من مخاطراته بحياته ، وهل العظمة إلا ناحية من نواحى المخاطرة ؟ وهل يمكن أن يكون الجبان عظيماً ؟

وأخذ الأمير عبد العزيز بعد فتح الرياض يعمل لنقض مملكة ابن الرشيد ، واسترداد ملك آبائه وأجداده ، وقد مكث أكثر من عشرين سنة يجالد ، ويغالب الخصوم من النجديين الأشراف والأتراك ؛ يضربهم حيناً و يلاين حيناً يرى السياسة واللين أنجح من الخصام والقتال

فتم له فى سنة ١٣٢٠ هـ الاستيلاء على القسم الجنوبى من نجد (الخرج والأفلاق) وفى سنة ١٣٢١ هـ تم له الاستيلاء على سدير والوشم والمحمل والقصيم ، وقد تداخل الأتراك فى الخصام بين ابن الرشيد وابن سعود ، وكانوا دائماً فى صف ابن الرشيد ، وأعقب هذا التداخل معارك دموية بين ابن سعود من جهة وابن الرشيد وحلفائه الأتراك ، وكانت الحرب سجالاً بين الفريقين ، ولكن انتهى الأمر بانكسار الأتراك وانسحابهم من نجد سنة ١٣٢٤ هـ — ١٩٠٦ م

وقد ضعف أمر آل الرشيد بقتل زعيمهم عبد العزيز بن مِتْعَب سنة ١٣٢٤ هـ ، واستراح ابن سعود بعض الراحة لأن آل الرشيد قد كفوه أمرهم بخلافاتهم الداخلية على الإمارة ، وسعى بعضهم لاغتيال البعض الآخر

وربما كانت أشد السنين على الأمير عبد العزيز هى سنة ١٣٢٨ هـ — ١٩٠٩ م ،

فقد واجه ثلاث جبهات مرة واحدة : ابن الرشيد من جهة ، وثورة أبناء عمه فى الجنوب ، وتقدم الشريف حسين إلى نجد وأسر سعد بن عبد الرحمن شقيقه ، ولكن ابن سعود الذى لا يعرف قلبه الخور تمكن من التغلب على خصومه . استعمل السيف مع الثائرين وابن الرشيد ، والسياسة بعد ذلك مع الملك حسين ، ونجح فى ذلك نجاحاً عظيما ، وكانت هذه الحادثة هى أول احتكاك بين الشريف حسين و بين الأمير عبد العزيز ، استطاع منها أن يزن أمير نجد كياسة الأمير حسين السياسية ومبلغ أطماعه وطموحه

وفى سنة ١٣٣٠ هـ — ١٩١٣ م رأى الأمير عبد العزيز الدولة التركية آخذة فى التصدع والانهيار ، ورأى المطامع تكتنفها من كل ناحية ، فانتهز فرصة خروجها من حرب البلقان منهوكة القوى ، وانقضّ على إقليم الاحساء واستخلصه من النفوذ التركى ، وأعاد إلى ذلك الإقليم الأمن والسكينة بعد ما كان مسرحاً لأطماع البدو ، وباستيلائه على الإحساء نفذ إلى خليج فارس ، واتصل بالحكومة البريطانية بعد ذلك اتصالاً سياسياً ما زال آخذاً بالتوثق والنمو إلى الآن

ابن السعود والحكومة البريطانية

كان ابن السعود فى سنواته الأولى فى عزلة تامة عن العالم الخارجي لم يهتم إلا بقتال ابن الرشيد وتقوية مركزه فى الأماكن التى استولى عليها

ولكنه فى سنة ١٩٠٤ وجد خصما آخر قويا وهو الأتراك ، فإن الأتراك حينما وجدوا نجم ابن السعود قد ظهر من جديد فى الأفق ، ونجم صديقهم ابن الرشيد قد أخذ فى الأفول دخلوا ميدان النزاع مؤيدين لصديقهم وهم يرون فى آل سعود عامة العداوة القديمة

فرأى ابن السعود أن يتصل بالحكومة البريطانية لعلها تتدخل فى إيقاف الأتراك من التدخل فى منازعات الجزيرة .

فأرسل كتاباً للسير برسى كوكس بتاريخ (٢ مايو سنة ١٩٠٤) يحتج على تدخل الأتراك وإرسالهم القوات المسلحة لمساعدة ابن الرشيد[1]

وفى الوقت نفسه استلم السير برسى كوكس كتاباً آخر من الشيخ مبارك أمير الكويت مرسلا من الأمير عبد العزيز إلى الشيخ مبارك يلوح له فيه بأنه إذا لم يجد عضداً وتأييداً من الحكومة البريطانية ضد الأتراك فإنه يضطر لقبول مساعدة الروس الذين عرضوا عليه مساعدتهم منذ سنة ١٩٠٣

وكان موقف الحكومة البريطانية حرجا ، فبينما هى لا تريد أن تزج بنفسها فى التداخل فى شؤون الجزيرة ومنازعاتها فإنها لم تكن تنظر بعين الارتياح إلى تداخل الأتراك فى قلب الجزيرة وتهديدهم لأمير الكويت ، فإن ذلك يضعف مركزها فى خليج فارس ويجعله عرضة للخطر . ولذا فقد قررت أن تعين الكبتن نوكس وكيلا سياسياً لها بالكويت سنة ١٩٠٤ ليكون على كثب من مجرى الحوادث وليحيط حكومته بحقيقة ما يقع فى الجزيرة من حوادث مع البقاء على الحياد فى منازعات ابن الرشيد وابن السعود ، وإن كانت فى الحقيقة تعطف على حركة ابن سعود

---

(١) استقينا هذه المعلومات من كتاب حياة السير برسى كوكس

ومنذ ذلك الحين أخذ مركز ابن سعود يتوطد ويزداد قوة ومنعة حتى أصبحت ترتجف لذكر اسمه قلوب أمراء السواحل

ففى أوائل سنة ١٩٠٦ كتب لبعض أمراء السواحل يخبرهم بعزمه على زيارة بلادهم فى الربيع فارتعدت فرائصهم وتشاوروا فيما بينهم ، وقرّ الرأى بين شيخ أبو ضبى وسلطان مسقط على أن يرفعوا مخاوفهم إلى السير برسى كوكس الذى بدورة كتب إلى الكبتن نوكس يسأله أن يجس نبض الشيخ مبارك عن نيات صديقه الأمير عبد العزيز وأن يرسل إليه النصيحة بالابتعاد والكف عن التدخل فى شؤون الولايات العربية الخاضعة للنفوذ البريطانى . فأبان مبارك للكبتن نوكس أن الأمير عبد العزيز لا يقصد أن يتدخل فى شؤون هذه الولايات ، وأنه لا يرمى من زيارته سوى الحصول على شيء من المال من هؤلاء الأمراء مساعدة له فى جهاده ضد آل رشيد والترك

وفى نفس الوقت الذى كان يجس فيه الكبتن نوكس نبض الشيخ مبارك وصل إلى البحرين رسول من الأمير عبد العزيز إلى الكبتن بريدكس وأخبره بأن الأمير أصبح يعتقد بأن فى إمكانه طرد الأتراك من ولاية الاحساء وأنه يرغب فى أن يعتقد محالفة مع الحكومة البريطانية وأنه لا يرى مانعاً من قبول وكيل بريطانى فى الاحساء أو القطيف على شرط أن تأخذ الحكومة البريطانية على عاتقها حمايته ضد الأتراك

ولقد أخذ الأمير عبد العزيز بنصيحة الشيخ مبارك فلم يزر ولايات الخليج ووجه همته للقضاء على قوات ابن الرشيد ، وانتهى الأمير بقتل ابن الرشيد فى شهر أبريل سنة ١٩٠٦ ، فزال بذلك مزاحم قوى وخصم عنيد ، وامتد نفوذ الأمير عبد العزيز فى دخل البلاد العربية . وأصبح الأمير صاحب الكلمة الأولى . ومن ثم قرر السير برسى كوكس أن ينهج معه سياسة جديدة

ففى يوم ١٦ سبتمبر سنة ١٩٠٦ أرسل السير برسى برقية إلى حكومة الهند أوضح لها فيها المزايا الكبيرة التى تستفاد من وضع سياسة ثابتة للتفاهم مع الأمير

أولا — أن تجاهل ما عرضه فى عقد معاهدة مع الحكومة البريطانية ربما يدعو إلى عداوته لنا

ثانياً — أن التفاهم مع الأمير سيزيل الشكوك والخوف من نفس سلطان مسقط وأمراء السواحل الأخرى ويعمل على تحسين العلاقات مع هؤلاء الأخيرين

ثالثاً — أن مساعدة ابن مسعود ستساعدنا على وضع حد للقرصنة فى شمال الخليج .

رابعاً — تبدو القرائن بأن تدخل الأتراك فى شؤون أواسط بلاد العرب سيدعوا إلى توحيد كلمة القبائل تحت زعامة ابن سعود ، فإذا لم نساعدهم ونعاضدهم فمن المحتمل أن يلجأوا إلى طلب المعونة والتعضيد من غيرنا

ولكن حكومة الهند ووزارة الخارجية البريطانية لم تقبلا هذا الاقتراح من السير برسى كوكس لأنهم كانوا يعتقدون أن مطامع هذا الأمير لاحد لها وأن نيته هى مهاجمة الأتراك بمجرد ماتسمح له قوته والفرص الملائمة . أضف إلى ذلك أن مثل هذا التدخل قد يدعو إلى تعكير صفو العلاقات بينهم وبين الأتراك . فالى أن يتم التفاهم مع الروسيا على إيران ومع تركيا وألمانيا على خط سكة حديد بغداد ، كان رأى الخارجية البريطانية هو الابتعاد عن الزج بنفسها فى مشاكل أواسط بلاد العرب .

ولقد كان السير برسى كوكس هو السياسى البريطانى الوحيد الذى رأى بثاقب نظره أن القدر قد كتب فى لوحته أن الأمير عبد العزيز سيكون القوة السياسية المحركة الوحيدة لشبه الجزيرة بأجمعها ، كان يسعى بكل جهده لربط العلائق الودية الحسنة مع هذا السياسى الداهية والقائد الفاتح العظيم .

وفى أكتوبر سنة ١٩٠٦ أرسل الأمير عبد العزيز كتابا إلى الشيخ قاسم بن ثانى شيخ قطر يجدد فيه طلبه بوجوب عقد محالفة مع بريطانيا ، وهذا أبلغه إلى الكبتن (بريدكس) الذى بدوره أبلغه إلى السير برسى كوكس بتاريخ ١٧ نوفمبر

وقد جاء فى كتاب الأمير عبد العزيز بأن موارد نجد قد نفذت بسبب حروبه الأخيرة وأنه لذلك ينوى أن يسترد ولاية الاحساء والقطيف ليستعين بايرادها وليخضع القبائل العائثة فساداً وليؤمن طرق التجارة والحج . وعليه فإنه يقترح أن يعقد مع الحكومة البريطانية اتفاقا سريا بمقتضاه تلتزم الحكومة البريطانية بالدفاع بحريا عن شواطئه ضد الأتراك إذا هو تمكن من طرد الأتراك من بلاد أجداده بدون مساعدة من الخارج . وفى مقابل ذلك

لا يرى الأمير مانعا من قبول ممثل للحكومة البريطانية فى بلاطه . وقد ذكر الأمير فى كتابه أيضا أنه لا ينوى تنفيذ عزمه قبل مضى أربع أو خمس سنوات :

وقد أبلغ السير برسى كوكس مضمون رسالة الأمير إلى حكومة الهند وشفعها ملحا بضرورة تفويضه بالإجابة على رسالة الأمير لئلا يعتبر الأمير عدم الرد مجافاة له أو إغضاء من شأنه شأن الأمراء الأخيرين الذين جاءت كتبه بواسطتهم

وفى ٩ فبراير سنة ١٩٠٧ كتبت وزارة الهند لحكومة الهند تستنير برأيها فى صيغة الرد الذى سيرسل إلى الأمير عبد العزيز . وبعد استشارة السير برسى كوكس اقترحت حكومة الهند أن يكون الرد إلى الأمير كالآتى :

مع رغبة الحكومة البريطانية الشديدة فى توثيق العلائق الودية مع الأمير طالما هو يحترم مصالحها ومعاهداتها مع أمراء الشاطىء فإنها لا ترى أى ضرورة فى الوقت الحاضر لإعطائه وعداً رسميا بحمايته ، فإن ذلك قد يحرض الحكومة التركية على مناوأته

وأعقبت حكومة الهند ذلك بمذكرة تفصيلية استعرضت فيها الحالة فى قلب الجزيرة وذكرت أنها على يقين من أن عاصفة آخذة الآن فى الهبوب على قلب الجزيرة وأنه لا بد للحكومة البريطانية أن تكون لها رأيا وسياسة معينة إزاء التقلبات المنتظرة . (وأن المسألة هى مسألة وقت فقط) قبل أن ينهار ملك الأتراك لا فى شرق الجزيرة فحسب بل فى الجزيرة كلها

فإذا ما بنى الوهابيون ملكهم على أنقاض ملك الأتراك فإنهم فى الغالب سيهددون المصالح البريطانية فى الكويت وفى إمارات الشاطىء . وعليه فإنهم يلحون بقبول صيغة الرد على كتب الأمير عبد العزيز لضمان صداقته ومعاونته قبل أن تفوت الفرصة .

ولكن لما استشارت وزارة الخارجية السفير البريطانى فى الأستانة (السير نيكولاس أو كونور) فإنه نصحها بالابتعاد كلية عن التدخل فى شؤون الجزيرة الداخلية ، وعليه فقد أخبرت وزارة الهند حكومة الهند بأنها لا توافق على صيغة الرد على كتب الأمير عبد العزيز لأنه يوافق ضمنيا على تركيز سلطة الوهابيين ، وقالت إذا كان ولا بد للسير برسى كوكس أن يعطى جوابا فله أن يقول لوسطاء الأمير بما أن كتب الأمير جاءت باقتراحات

ترى حكومة جلالة الملك استحالة التعهد بها فإنها لا ترى ضرورة لإرسال رد عليها . وعند هذا الحد توقفت المخابرات بهذا الصدد

لم يفكر ابن سعود بعد ذلك فى أمر تأسيس علاقاته مع الحكومة البريطانية . وتفرغ لبسط نفوذه فى الداخل والقضاء على خصومه ومعارضيه ولبناء قواته المحاربة بعد ما نالها من وهن لطول القتال المتواصل .

وفى شهر مايو سنة ١٩١٣ هجم ابن سعود على الهفوف فاحتلها وأرسل أسرى الترك إلى الساحل ثم أعقب ذلك باحتلاله القطيف والعقير فتقهقر الترك إلى البحرين ، وهنالك وصلتهم إمدادات جديدة فحملوا على ابن سعود فى العقير ، فهزمهم شر هزيمة

ولكن ثائرة ابن سعود ثارت ضد البريطانيين الذى سمحوا للترك باتخاذ البحرين مركزا لتجمع قواتهم وحركاتهم الهجومية ضده ، فكتب إلى السير برسى كوكس يحتج على هذا العمل ويطلب إليهم مرة أخرى تأسيس علاقات ودية معه . ورجا ابن سعود السير برسى فى آخر كتابه أن يخبره بصراحة عن نياته حتى يعرف موقفه منهم تماما وليتخير الطريق الأحسن لحماية مصالحه

وهنا يقول ابن سعود إن البريطانيين تدخلوا فى الأمر ومنعوا الأتراك من الهجوم على إقليم الإحساء وأن الأتراك أرسلوا إليه وفدا فعقدوا معه معاهدة حددوا فيها موقفهم من ابن سعود لأن الحكومة البريطانية فضلت الانتظار ريثما ينجلى الموقف

فى سنة ١٩١٤ اندلعت نيران الحرب العالمية الأولى واندفع الأتراك يخوضون غمارها فى صف الألمان ، فرأى السير برسى كوكس أن هذه خير فرصة للتفاهم مع ابن السعود

ويقول السير برسى إن الذى حمل البريطانيين على ذلك هو الظروف التى كانت محيطة بالبريطانيين فجناحهم الأيسر فى الحملة العراقية كان معرضاً لحملات البدو ، ومفاوضتهم مع الشريف حسين كانت سائرة فى طريق النجاح فلم يبق فى الميدان إلا ابن سعود خصم الشريف والذى يخشى أن يعرقل أعمال الشريف الحسين لما بينهما من المنافسة والعداء ، ولذا فقد أسرع السير برسى كوكس إلى مقابلة ابن سعود حيث غادر البصرة فى ٢٢ ديسمبر سنة ١٩١٥ حيث وصل فى ٢٦ ديسمبر وقابل الأمير عبد العزيز

ابن سعود لأول مرة فأعجب كل منهما بالآخر ولم يخب ظن أحدهما فى الآخر

وبعد أحاديث ودية شتى أمضى الفريقان معاهدة صداقة بين ابن سعود وبين الحكومة البريطانية تضمنت سبع فقرات[1] .

ولا تختلف هذه المعاهدة عن المعاهدات الأخرى التى عقدت مع أمراء الخليج . وفى هذه المعاهدة تجلى قصر نظر مستشارى ابن سعود وجهلهم ما يجرى فى العالم والاستفادة من الفرص المتوالية

على أن هذا الخطأ قد أصلح بمعاهدة جدة سنة ١٩٢٧ حيث اعترف له بالاستقلال التام وبمخابرة الدول والاتفاق معها حسب ما تمليه مصلحة بلاده بعد ما كان محروماً من هذا الحق فى معاهدة القطيف .

---

(١) تجد نص المعاهدة فى الذيل .

ابن سعود وجيرانه

ابن سعود والكويت

كانت الصلات التي تربط آل صباح والسعود دائماً ودية يرعاها الفريقان بما ينميها ويقويها ، وكان مبارك يلقب أمير نجد دائماً بولدي عبد العزيز ، كما كان الأخير يلقب الأول بالوالد ، وكانت مصالحهما المشتركة تقضي عليهما بالتعاون ، وكان كل واحد منهما لا سيما ابن سعود كثيراً ما يغضي عن أخطاء الآخر ، لأن موقفهما من أعدائهما لا يسمح لهما بدقة الحساب . ومبارك الداهية المراوغ كان يعرف كيف يرضي صديقه أمير نجد ، كما كان يعرف كيف يزيل من نفسه كل أثر لسوء تفاهم يحدث .

في سنة ١٩١٥ م قامت فتنة في الإحساء ، ثار العجمان وهم من عشائر ابن السعود على حكمه ، وكان ينفخ في بوق الفتنة بعض أبناء عمومة ابن سعود . والسبب الحقيقي للثورة هو سعي ابن سعود لتأديب العجمان الذين تجرأوا بنهب إبل لابن صباح وأهل الكويت ، وكانت هذه الفتنة بعد معركة جراب التي وقعت بين ابن الرشيد وابن سعود وخرج منها ابن السعود منهوك القوة ، ولكن العجمان بعد أن حاصرهم ابن سعود وضيق عليهم وجدوا لهم ملجأ في الكويت ، كما وجدوا في الكويت سوقاً لبيع منهوباتهم التي أخذوها من أهل الإحساء ، فأحدث هذا العمل أثراً سيئاً في نفس ابن سعود الذي أراد أن يحاسب مباركاً على هذا العمل غير الودي ، ولكن المنية عاجلت مباركا فمات بموته كل أثر لسوء التفاهم ، وعاد الصفا إلى ما كان عليه في السنة التي تولاها الشيخ جابر بن الشيخ مبارك ، وقد رأى ابن سعود أن يزور الكويت ليعزي جابراً في والده ، ويجدد العهد القديم عهد الصداقة والمحبة فوصل إلى الكويت في ١٩ نوفمبر سنة ١٩١٦ على السفينة H. M. Jumo.

وفي اليوم التالي عقد اجتماع خطير حضره ابن سعود والشيخ جابر والشيخ خزعل ، والسر برسي كوكس وكثير من رؤساء العشائر الموالين البريطانيين .

وفى هذا الاجتماع خطب ابن سعود خطبة كلها ثناء على البريطانيين وهجم على الأتراك ووصفهم بالكفرة الملاحدة فكان أثر ذلك سيئا فى نفوس الكويتيين الذين يميلون إلى الأتراك والألمان

وقد كان هذا الاجتماع مظاهرة سياسية كبرى

ولكن ما كاد الشيخ جابر ينتقل إلى رحمة ربه ويخلفه أخوه الشيخ سالم حتى عاد سوء التفاهم مرة أخرى ، حتى أدى ذلك إلى معركة حمض سنة ١٣٣٧ هـ — ١٩١٩ م وفيها خسر الكويت من المهمات والدخائر والإبل ما لا تقل قيمته عن ثلاثين ألف جنيه ، ثم إلى معركة الجهرة حيث حاصر الإخوان الشيخ سالماً فيها بسنة ١٣٣٨ هـ — ١٩٢٠ وكادوا يأسرونه لولا استعماله السياسة فى فك الحصار

وقد توفى الشيخ سالم سنة ١٩٢١ م فعاد الصفاء إلى سابق عهده ، وفى سنة ١٩٢٢ م حددت الحدود بين الكويت ونجد فى ميناء العُقَير

ابن سعود والأشراف

شرحنا فى فصل سابق شيئاً عن تاريخ الصلات بين الأشراف وآل سعود ، كما أن الشريف حسينا بدأ عهده بإظهار عداوته لابن سعود بالرغم مما كان يبديه ابن سعود إليه من المجاملة والتودد .

على أن ابن سعود بعد قيام الشريف بحركته ضد الأتراك رأى أن ينتهز الفرصة لاقتلاع جذور الأحقاد القديمة ، وخلق جو جديد مع الشريف حسين يسوده الصفاء والمودة

ففى الاجتماع الذى عقد بالكويت يوم ٢٠ نوفمبر سنة ١٩١٦ والذى حضره الشيخ جابر والشيخ خزعل والسير برسى كوكس وأعيان الكويت ألقى فيه كلمة جريئة حدد فيها موقف العرب من الأتراك فقال :

إن الأتراك قد حكموا على أنفسهم بالعزلة التامة عن باقى المسلمين لسوء معاملتهم للشعوب الأخرى وعدم معاملتها بالإنصاف ، ولقد عملوا دائماً على إضعاف العرب وتفريق كلمتهم ، بينما يعمل البريطانيون على جمع كلمة العرب ، ومساعدتهم على النهوض ، ثم أثنى الثناء العاطر على الشريف حسين ، وقيامه بثورة ضد الأتراك وقال : إن واجب كل عربى

أن يساعد الشريف ، ويتعاون معه فى محاربة الأتراك . فكان لهذه التصريحات الجريئة أثرها عند البريطانيين . ولم تمض أيام قلائل حتى أبرق الملك حسين إلى ابن سعود يشكره ويهنئه عن غيرته العربية ويعتذر عن عدم المراسلة .

لقد ظننا أن عهداً جديداً من التعاون والصفاء قد حل ، وأن عهد الأحقاد والضغائن قد قضى عليه ، ولكن ظهر أننا كنا متفائلين أكثر من اللازم .

فقد شكا أولاً الشريف حسين أن ابن سعود لا يبذل أى مجهود فى سبيل القضية المشتركة ، فرأى السير برسى كوكس إيفاد هيئة إلى نجد لبحث الموقف عن كثب واستنهاض همة ابن سعود . وفى أواخر أكتوبر سنة ١٩١٧ أرسل بالنيابة عنه مستر فيلبى (كرئيس للهيئة يساعده الميجر كنليف أوين والميجر هاملتون (اللورد بلهافن) .

وقد رأت اللجنة أن ابن سعود يقوم بعبء كبير ، فلولا صموده ضد ابن الرشيد حليف الأتراك لقام ابن الرشيد بحرب الشريف حسين ، وفى الوقت نفسه كان ابن السعود يشجع أهل القصيم بالانخراط فى جيش الشريف حسين ، فضلا عن ذلك فإن ابن سعود كان يحول دون أى إمداد يصل للأتراك ، لقد صادر ٥٠٠ بعير من ابن فرعون رسول الأتراك ، كما صادر بعض القوافل المحملة مؤونة والتى كان يراد إرسالها للشام .

وهذه الأعمال وإن كانت سلبية فإن لها قيمتها فى حركة الشريف العدائية المناهضة للأتراك . غير أن ابن سعود لم يخف عن الإنكليز ارتيابه . فى نية الملك حسين ، لا سيا بعد أن أعلن نفسه ملكا على العرب لا ملكا على الحجاز فقط . ولكن الإنكليز طمأنوه من جهة الملك حسين .

وفى شهر مارس سنة ١٩١٨ عند ما اشتدت وطأة القتال فى فرنسا ، وتلقى جيش الحلفاء فيها ضربات شديدة من الألمان اضطر بسببها إلى التقهقر . رأت الحكومة البريطانية أن تحدد موقفها من القضية العربية ، وأن تضع سياسة معينة إزاء زعماء العرب ، فتتخير الجانب الأقوى والأكثر منفعة ومساعدة لمركزها الحربى ، فقررت عقد مؤتمر فى القاهرة يضم الإخصائيين فى المسألة العربية سواء منهم القائمون بأمر المكتب العربى فى القاهرة أو موظفو الخليج الفارسى التابعون لحكومة الهند .

ففى يوم ٢٣ مارس وصل السير برسى كوكس إلى القاهرة ليمثل رأى موظفى الخليج ، وعقد الاجتماع تحت رياسة السير ريجنلد ونجت المندوب السامى فى مصر بحضور كل من الجنرال كليتون ، والسكومودور هوجارت ، والميجر كورنوالس ، وهم ممثلو المكتب العربى بالقاهرة ، وبحضور الكولونيل سيريل ولسون ممثل الحكومة البريطانية فى الحجاز. وكان السير برسى كوكس هو الممثل الوحيد لموظفى الخليج وحكومة الهند. ولكن خبرته الواسعة ومعرفته بحقيقة الأمور فى الجزيرة وإلمامه بتفاصيلها الدقيقة ساعده فى إقناع المجتمعين باستحالة تكوين اتحاد عربى تحت زعامة الشريف حسين. ولقد بدأ باستعراض مركز ابن سعود ، فأبان بأنه يشك كثيراً فى نيات الشريف فضلا عن الغيرة والتنافس القائمين بين الزعيمين ، وأدلى السير برسى بيقينه من أن ابن سعود لن يقبل زعامة الشريف مطلقا ، رغم احترامه للشريف لمكانته العائلية ، كما أبان أن ابن سعود كان صريحاً ومخلصاً فى كل معاملاته مع الحكومة البريطانية ومعترفاً لها بكل ما قدمته له من خدمات . وهو شخصياً لا يعتقد أن ابن سعود ينوى أن يهاجم الشريف حسين طالما الحرب دائرة رحاها ، لأنه يشعر تماماً بالتزاماته قبلنا من جهة ويعلم من جهة أخرى أن الإحساء والقطيف اللتين هما خير ممتلكاته تصبحان تحت رحمتنا إذا ما هو رسم لنفسه سياسة معارضة لمصالحنا ، فضلا عن أن نجد نفسها تستورد جميع حاجياتها من موانينا. وزيادة على ذلك فإن ارتياب ابن سعود فى نيات الشريف حسين تقضى عليه بأن يعزز مركزه فى بلاده ويدعم سلطانه فيها ، ودلل السير برسى كوكس على صحة عقيدته هذه باجتهاد ابن سعود فى توسيع نطاق حركة الإخوان لتكون دعامته القوية فى دفع كل عدوان خارجي على بلاده . ولقد رأى المجتمعون أن لا حاجة تدعو الحكومة البريطانية لإخبار الشريف حسين بموقفها تجاه طلبات ابن سعود وبموافقته عليها ، ولكن إذا طلب الشريف حسين معرفة موقف الحكومة البريطانية مع ابن سعود ، فليس هناك ما يمنع من إعطائه كل الحقائق .

وبحث المجتمعون بعد ذلك موقف ابن الرشيد ، فأدلى السير برسى كوكس برأيه فى ذلك فقال : يجب علينا فى هذا الموقف أن لا نعارض ابن سعود فى احتلال حايل إذا سنحت له الفرصة ووجد من نفسه قوة تمكنه من ذلك .

ثم بحثوا فى ادعاء الشريف حسين فى تلقيب نفسه بملك العرب ، فأبان السير برسى استحالة قبول ابن سعود لزعامة الشريف حسين ، وأوضح لهم مبلغ الخطر فى فرض هذه الزعامة بالقوة على ابن سعود .

وما كادت الحرب العالمية تنتهى حتى رأى ابن سعود الأشراف يكادون يحيطون به من كل جانب فى الحجاز والعراق وشرق الأردن وما كاد يستولى على حايل حتى وجد نفسه فى مشكلة من المشاكل العويصة ، فإن قسما من عشائر شمر عز عليهم أن يحكمهم ابن سعود ، أو بعبارة أخرى عز عليهم أن يفقدوا سلطانهم فرحلوا إلى العراق ، فطلب من حكومة العراق تسليمهم ، فأخذت تماطل فى ذلك ، ويقول فيليب جريفز فى كتابه حياة السير برسى كوكس الذى جمعه من أوراقه ومن وثائق أخرى : إن السير برسى كوكس بعد أن رأى من الحوادث ماعسى أن يقع من القلاقل والاضطرابات طلب إلى السلطان ابن سعود أن يجتمع مع الملك فيصل لإيجاد جو من حسن التفاهم بين نجد والعراق فى المسائل المختصة بالحدود والقبائل ، ولكن ابن سعود طلب إلى كوكس تعيين المبادئ وتحديدها لعقد اتفاقية بين البلدين قبل الاجتماع .

وقد رأى كوكس أن يكون مبدأ التفاهم على أساس أن قبائل المنتفق وعنزة والضفير عراقية ، وأن خط الحدود يجب أن يعين بين البلدين حسبما تقتضيه حقوق الرى بالنسبة للأماكن الواقعة على الحدود . وفى هذا الوقت حصل مايؤسف له فإن الملك فيصلا عين فى شهر يناير سنة ١٩٢٢ يوسف بك السعدون من عائلة السعدون الشهيرة فى العراق ليتولى قيادة الهجانة فى الحدود الجنوبية ، وكان يوسف بك على غير صفاء مع شيخ الضفير الذى ذهب إلى الرياض وأعلن انفصاله عن العراق ولبس العمامة شعار الإخوان ورجع ومعه عامل الزكاة لجمع الزكاة من الضفير . وقد اجتمع فى الوقت عدد كبير من الإخوان لمناصرة شيخ الضفير ، وقد أحدث ذلك قلقاً عظيما على الحدود العراقية .

وفى اليوم الحادى عشر من شهر مارس هاجم فيصل الدويش وهو أحد أعلام الإخوان حملة الهجانة وقبيلة المنتفق فى مكان يبعد عن الطريق الحديدى بين البصرة والناصرية بثلاثين ميلا فقتل عدداً كبيرا منهم وشتت شمل الآخرين .

وبينما كان السير برسى كوكس ينتظر تعليمات من الحكومة البريطانية ، أرسل قوة من الطائرات لتراقب مراكز الإخوان .

وفى يوم ١٤ مارس أطلق الوهابيون النار على قوة الطيران البريطانية ، فأمر السير برسى قوة الطيران أن تقابلهم بالمثل ، وحذر فى الوقت نفسه ابن سعود من سوء العقبى .
ولقد أكد السلطان للسير برسى بأن فيصل الدويش قام بماقام به من تلقاء نفسه وبدون إذن منه وأنه سينزل العقاب بكل مسئول :

ولقد أطلع السير برسى كوكس الملك فيصل والنقيب على مضمون كتاب ابن سعود وجوابه عليه وأنه طلب إلى ابن سعود أن يأمر قواته بالانسحاب إلى خط الحدود بين البلدين وقد أجابه السلطان إلى ذلك . وقد انتهت المفاوضات التى دارت بين مندوبى الطرفين فى المحمرة على اعتبار أن قبائل المنتفق والضفير وعنزة التى تسكن بين النهرين قبائل تابعة للحكومة العراقية ، وتعيين آبار المياه والمراعى التى تجوبها هذه القبائل .

وقد اتفق مندبو الحكومتين على :

(١) معاقبة القبائل المغيرة من جانبها .
(٢) وأن تحمى طرق قوافل الحجاج فى بلادها .
(٣) وأن تبقى الرسوم الجركية على ماهى عليه فى الوقت الحاضر .

ولقد أصر مندوبو ابن سعود على أن تلغى المعاهدة بين البلدين إذا قطعت إحدى الحكومتين صلاتهما مع الحكومة البريطانية .

ولقد حدث أن استقالت وزارة النقيب ، وبعد ثلاثة أيام من استقالتها سافر السير برسى إلى الخليج .

وبينما كان مؤتمر الصلح منعقداً كان من الضرورى تعيين الحدود الجنوبية مع ابن سعود الذى رفض إقرار معاهدة المحمرة ، فتوجه السير برسى إلى العقير ومعه صبيح بك نشأت وزير الأشغال السابق وفهد بك الهذال رئيس عنزة العراقية والميجر مور قنصل الكويت والميجر ديكسون ، فتقابلوا مع السلطان هناك حيث قال لهم : إن حدوده هى الفرات ،

ولكن السير برسى لم يقبل ذلك : وبعد مناقشات حادة كادت تؤدى إلى أزمة قبل ابن سعود تعيين خط الحدود الذى اقترحه السير برسى كوكس والذى هو الآن خط الحدود القائم بين البلاد العربية السعودية والعراق .

ولما رأى البريطانيون أن المعاهدة المذكورة لم تف بالغرض عمدوا إلى محاولة أخرى لاقتلاع جذور الخلف بين ابن سعود والأشراف ، وإزالة كل أسباب سوء التفاهم بين الأشراف وابن السعود ، فعقدوا لهذا الغرض مؤتمر الكويت ، وهو الذى سنتكلم عليه فى الفصل التالى:

مؤتمر الكويت

ربما كان هذا المؤتمر أهم المؤتمرات التى عقدت فى جزيرة العرب فى تلك الحقبة من الزمن ، ففى هذا المؤتمر ظهر الأشراف فى بغداد والحجاز وشرق الأردن بمظهر الحلفاء المتضامنين ضد خصمهم ابن السعود ، الذى أحس بالخطر المحيط به ، فأخذ يعمل لدفع هذا الخطر ، فوجّه همه إلى الشجرة الشريفية فى مكة فاقتلعها من جذورها على ما سيجىء بعد

حاولت الحكومة البريطانية أن تزيل سوء التفاهم بين الشريف حسين والملك ابن سعود ، فسعت فى أثناء الحرب لاجتماعهما فى عدن أو فى مكان آخر محايد ، وسعت لفتح باب المفاوضات بين الفريقين ، ولكن هذه المحاولات لم تثمر الثمرة المطلوبة .

وقد حاولت كذلك حل مشكلة الحدود بين العراق ونجد ، فنجحت بعض النجاح ولكن النفوس كانت لا تزال تحمل الإحن ، وقد عمل « السير برسى كوكس » صديق الملك ابن السعود لاجتماع الملك فيصل بالسلطان عبد العزيز ، ولكن الظروف — على ما يظهر — لم تكن مساعدة من كل وجه فخبط المسعى ، ثم أخذت حوادث الحدود النجدية وشرق الأردن تتكرر فيها الاعتداءات من عشائر الفريقين ، وأخذ الإخوان يهددون شرق الأردن نفسه أخذاً بثأر إخوانهم ، وأخذت الحوادث فى الحجاز تأخذ شكلا لا يقل خطورة عما يحدث على حدود العراق وشرق الأردن

ويجب أن نقرر هنا للحقيقة أنه فيما عدا حادثة تربة ، سنة ١٩١٩ م التى أبيدت فيها قوات الشريف حسين لم يكن للملك ابن السعود يد ظاهرة فى هذه الحوادث ، وما كان يستطيع أن يمنعها تماما إلا بثورة أهلية ، ولكن طبيعة التطور الأخير فى البادية وانتقال الإخوان من البادية إلى سكنى الدور وتشربهم بروح الدين والتعصب ضد كل من خالفهم ، وبالأخص المجاورين لهم . والملك ابن سعود وإن لم يرغب فى الاعتداءات على البلاد المجاورة المشمولة بالنفوذ الإنجليزى أو يشجع عليها ، فإنه لم يكن يكره ذلك ، فما دام

الإخوان يخضدون شوكة الأعداء ويعودون بالغنائم سالمين ، وما دام الأعداء يسعون للقضاء عليه وعلى دولته فلا بأس من تركهم والإخوان يتصارعون . لقد كان الملك ابن السعود ينصح الإخوان من وقت لآخر بالكف عن أذى الحكومات المجاورة والركون إلى السلم ، ولكن نصحه لم يكن يلقى أذناً سميعة من الإخوان ، وكانوا يقولون : يا للعجب ! أليس هؤلاء كفاراً ؟ أليسوا محاربين لنا ؟ أليس كبيرهم يحول بيننا و بين أداء فريضة الحج ؟ فما بال ابن السعود يأمرنا بالكف عنهم ، وما له وما لنا ، إننا نقوم بفريضة الجهاد ، فمن عاش رجع غانما ، ومن مات لقى الله شهيداً وهو عنه راض ! ولكن الحكومة البريطانية وقد أصبح لها مركز خاص فى العراق وشرق الأردن يهمها أن يخيم السكون على تلك البلاد ؛ لذلك فكرت فى عقد مؤتمر فى الكويت تحت رئاسة الكولونيل نوكس رئيس المعتمدين فى الخليج الفارسى لحل جميع المسائل المعلقة بين الأشراف جميعاً و بين ابن السعود

وصلت الدعوة إلى المؤتمر ، وكان السلطان مريضاً مرضاً خطراً ، فتأخرت الإجابة طبعاً ، و بعد أن زال عنه الخطر وعرضت عليه الدعوة رأى أن يطلب من الحكومة البريطانية تأجيل المؤتمر ريثما يتم شفاؤه ، ولكن الكولونيل نوكس الذى تقررت إحالته على المعاش كان حريصا على عقد المؤتمر وعلى حل المشاكل المعلقة التى لا تزيدها الأيام إلا تعقيداً و إشكالا . وهل هناك فخر أعظم من حل هذه العقدة التى تركها السير برسى كوكس ، وهو أقدر رجل عرفه العرب وأعظم الإنجليز مهارة فى حل المشاكل !

ظن الكولونيل نوكس ، وهو عين الحكومة الإنجليزية فى خليج فارس ، أن ابن السعود يريد أن يتخلص من الاشتراك فى المؤتمر ، فأرسل إليه باسم حكومته رسالة شديدة اللهجة لا تخلو من تهديد ، فقبل ابن السعود الاشتراك فى المؤتمر على مضض ، واشترط لقبوله أن لا يشترك الأشراف فى المفاوضات مجتمعين ، بل يفاوض كل حكومة على حدتها ، فقبلت الحكومة البريطانية هذا الشرط .

دور المؤتمر الأول

اجتمع المؤتمر فى الكويت ، واجتمع مندوبو نجد والعراق وشرق الأردن ولم يحضر أحد عن الحجاز ، و بعد عدة جلسات رأينا جميع المندوبين متضامنين ، فاحتج مندوبو نجد

واعتبروا هذا إخلالاً بما اشترطه سلطانهم لقبول الدعوة ووافقتهم وزارة المستعمرات على ذلك ، واعتدل مندوبو العراق ، وبقى مندوب شرق الأردن على شططه بالرغم من تنبيه رئيس المؤتمر له مراراً ، ويكفى أن نذكر هنا طلبات شرق الأردن لتعلم ما يكمنه القدر لمؤتمر الكويت .

يطلب مندوب شرق الأردن ما يأتى : —

١ — تنفيذ مقررات النهضة التى عقدت بين الشريف حسين وبين الحكومة البريطانية ، والتى تقضى بأن تكون حدود حكومة نجد كما كانت سنة ١٩١٩ م ، ويجب إخلاء الجوف وَشكاكَه ووادى السرحان جميعه والأراضى الحجازية التى شغلها مثل : تربة والخرمة والحائط والحويط وخيبر وبيشة ووادى شهران وبلاد بنى شهر .

٢ — تكون الحدود الفاصلة بين الحجاز ونجد هى الصحراء القاحلة

٣ — لا يمكن عقد صلح على غير هذا الأساس .

وينبغى أن يفهم هنا أن الغرض من الاعتراف بحدود معاهدة سنة ١٩١٩ م فقط ، هو عدم الاعتراف بما تم من القضاء على حكومة الرشيد وإلحاقها بنجد .

ولما كانت هذه الطلبات عقبة كأداء فى سبيل الاتفاق لم يكن هنالك بد من أن تؤجل الحكومة البريطانية المؤتمر بضعة أسابيع ، ويرجع كل فريق إلى حكومته لإيقافها على النقط التى دار عليها البحث وأخذ تعليمات جديدة منها ، وتقوم الحكومة البريطانية بتقريب مدى الخلاف ونصح كل فريق بالاعتدال كى يمكن الوصول إلى طريق للاتفاق وإزالة سوء التفاهم السائد بين الجميع . وقد سعت الحكومة البريطانية لحمل الملك حسين على الاشتراك فى المؤتمر ، فاشترط أن يرسل الأمير زيداً على شرط أن يرسل سلطان نجد أحد أولاده فلم يقبل ابن سعود وصرح بأنه يثق بمندوبيه ، ولا يرى أى ضرورة لتغييرهم . وهكذا فشل اشتراك الحجاز فى مؤتمر الكويت ، وقد أبدى سلطان نجد مهارة فائقة ومرونة سياسية دلت على بعد نظره وتقديره الظروف حق قدرها ، وأنه يعرف عقلية خصومه معرفة تامة .

لقد أوصانا رئيس المؤتمر قبل مغادرتنا الكويت بأن نبذل نفوذنا لإقناع سلطان

نجد بالتساهل ، وأرسل فى الوقت كتاباً لعظمته يشرح له حقيقة الموقف . وبالرغم من التكتم الشديد الذى ساد جو المؤتمر ؛ فإن الإشاعات الكثيرة سبقتنا إلى نجد فقام وقعد لها النجديون . لقد كبر على الإخوان أن يسمعوا شرق الأردن والعراق يمليان عليهم هذه الشروط القاسية ، وهم لم تنكس لهم راية ولم ينكسر لهم جيش ، فقام الدويش ومعه رهطه من الإخوان ومطير وهجم على عشائر العراق ، كما أن بعض الأشقياء من مطير كانوا يهجمون من وقت لآخر على حدود نجد وينهبون كل ما تصل إليه أيديهم .

الدورة الثانية للمؤتمر

لم يحضر فى هـذه الدورة أحد من جهة العراق أو الحجاز ، بل حضر مندوبان فقط من شرق الأردن ولم يعدلا عما طلباه فى المرة الأولى ، ولكن رئيس المؤتمر منعهما من البحث فى أى مسألة من المسائل الخاصة بالحجاز ، فانحصر البحث فى حدود شرق الأردن ونجد ، فطلبوا من نجد أن يكون حدودها النفود وتتخلى عن الجوف ووادى السرحان بأ كمله ، وقد طلب مندوبوا سلطان نجد استفتاء أهل الجوف وأخيراً فشل المؤتمر .

أما السبب الحقيقى فى فشل المؤتمر فهو صلابة الملك حسين وتعسفه ، وعدم وقوف الأشراف فى العراق وشرق الأردن على حقيقة الحالة فى نجد ، وأن أحكامهم على نجد المبنية على ما يصل إليهم من الأخبار كانت خاطئة . ولو أنهم تغلبوا على العقبات التى وقفت فى طريق المفاوضات فى المؤتمر بشىء من التساهل لكان ابن السعود حتى الآن فى نجد .

لقد أخبرنى إبراهيم بك هاشم أحد مندوبى شرق الأردن أنه سمع فى بغداد أن عُمر سلطنة نجد لا تتجاوز الستة الأشهر ، كما أخبرنى حضرة الضابط على خلقى بك بأنه يستطيع أن يقضى على سلطنة نجد فى مدة أقصر من هذه المدة ، وقد أفهمناهم بأنهم مخطئون جداً وأن ما يرى من الاختلال على الحدود ومن شغب الأشقياء لا قيمة له ، وأن البادية من قديم لم ينقطع منها أمثال هذا الشغب ، وأن ستة الأشهر التى قدرت عمراً لسلطنة نجد ربما كانت عمر حكومة الحجاز ، وإنه ليملكنا الأسف والأسى على ما وصل إليه العرب من التخاذل ، وأن يكون موقف المتعلمين من العرب هـذا الموقف المزرى . والحقيقة أن

الأشراف جميعاً ومن اشتغل معهم ما كانوا ينظرون إلى ابن سعود إلا أنه رجل بدوى أو شيخ عشيرة ، وأنه ليس بأهل للتفاهم معه ، وأنه ليس من الخطر بمكان حتى يخشى ، ولكن الحوادث كانت كفيلة بإظهار خطئهم ، وأن الآمال التى كانوا يعقدونها على قيام ثوارت فى نجد لم يتحقق شىء منها ، وأن ماعجز مؤتمر الكويت عن حله قد حل فى أكتوبر سنة ١٩٢٥ م فى مؤتمرى حَدَّاء و بَحْرَة ، وفى سنة ١٩٣٠ م بين ملكى العراق والحجاز ونجد .

وها هو السكون يخيم على الحدود العراقية النجدية و يعود الصفاء بين مكة وبغداد ، و يتناسى الفريقان الأحقاد العائلية القديمة و يعملان كلاهما على مافيه خير الشعبين العربيين وها هى شرق الأردن تحذو حذو العراق وتصفى مشاكلها مع الحجاز ويتبادل ملكا المملكتين الزيارة ، و يتعاون الفريقان تعاوناً صادقاً على الضرب على أيدى المفسدين من البدو ، فيسود السكون على الحدود وتعود الحياة إلى مجراها العادى ولا تزال آمال مفكرى العرب وعقلائهم ، معقودة على اتحاد الأمراء وتعاونهم لخير العرب .

غزوة الحجاز والمؤتمر الاسلامى

كيف نشأت فكرة الغزوة ؟

لم يكن لجلالة الملك ابن السعود أى فكرة عن غزو الحجاز وفتحه حتى سنة ١٩٢٣ م ؛ أولاً : لأنه لم يكن واثقاً تمام الوثوق بإمكان تغلب قواته على الحجاز ، وثانياً : لأنه لم يكن واثقاً من موقف الحكومة البريطانية ، ويحق له أن يحسب لموقفها ألف حساب ؛ فهى التى أرغمته على ترك الحجاز والرجوع إلى نجد سنة ١٩١٩ م بعد ضرب القوات الشريفية فى تربة ، وقد كان فى إمكان قواته فى ذلك الوقت أن تتقدم وتستولى على الطائف ومكة ، لولا إنذار انجلترا له بأنها تعتبر تقدمه فى الحجاز عملاً عدائياً موجها ضدها .

من سنة ١٩٢٢ م رأينا علاقات الملك حسين تسوء مع المصريين ، فرجع المحمل من جدة ، كما ساءت بينه و بين الإنجليز والهنود على شتى المسائل : على المعاهدة ، والبعثات الطبية ، وسوء معاملة الحجاج الهنود ، مع عجزه عن تأمين الطريق بين مكة والمدينة . ومما لا شك فيه أن فريقاً كبيراً من مسلمى الهند ومصر لم ينظروا نظرة استحسان لقيام الشريف حسين ضد الأتراك ؛ ولهذا فإنهم قابلوا إعلان الملك حسين نفسه خليفة سنة ١٩٢٤ م فى فلسطين إثر إلغاء الخلافة التركية بالاستياء الشديد .

كانت نجد فى سنة ١٩٢٣ م تكاد تكون فى عزلة تامة عن العالم ، وقد أتاح لها الملك حسين الفرص ، فهل تتركها تفلت من يدها ، لقد تمكن مستشارو السلطان عبد العزيز من إقناعه بفائدة الاتصال بالعالم الخارجي وكتب فى المقدمة فبدأ بإرسال برقية منه إلى جلالة الملك فؤاد يهنئه بافتتاح أول برلمان مصرى ، ثم بأحد الأعياد ، وأعلن الأمير فيصل فى منشوراته كلها موقف نجد إزاء مسألة الخلافة ، و إزاء بعض المسائل العربية ، كالاتحاد العربى ، واتصلت الهيئات الإسلامية فى الهند بسلطان نجد ، وتم التفاهم على الأغراض

---

(١) لارتباط المسألتين ببعضهما ارتباطاً وثيقا وضعناهما بجانب بعضهما

الإسلامية العامة ، والجميع متفقون على الاستياء من حالة الحجاز وسوء النظام السائد فيه
أخذت كتب التأييد تترى من سائر المدن الإسلامية ، وقوى الصلة بين نجد ومصر
أن جلالة الملك ابن السعود شارك علماء مصر فى موقفهم حيال مسألة الخلافة وحلها فى
مؤتمر يعقد فى مصر ، فاكتسبت نجد قوة أدبية لا تنكر .

فشل الإنجليز فى محاولتهم تصفية المشاكل بين ابن سعود والأشراف فى مؤتمر
الكويت ، وكان المسئول الأول عن هذا الفشل الملك حسين ، وخرج ابن السعود من
المعركة ظافراً ؛ لأنه كان متواضعاً فى مطالبه على خلاف الأشراف ، فإنهم كانوا مغالين ،
ولو أن الأشراف انتصروا على ابن السعود فى الحرب وأملوا عليه ما يريدون من الشروط
لم تكن شروطهم أشد قسوة مما اشترطوا ، فكيف وهو حتى هذه الساعة لم يهزم له جيش
والبلاد التى يطالب بها الملك حسين ويدعى ملكيتها لا تزال بيده . وضعت نجد لأول
مرة الكتاب الأخضر وشرحت فيه المسائل المختلف عليها ، وما يطالب به الحجاز وشرق
الأردن والعراق ليضع الموضوع كله أمام العالم الإسلامى والعربى ، فكانت خطوة موفقة
اكتسب بها السلطان عبد العزيز عطف عقلاء العرب والمسلمين ، ولكنه لم يصغ إلى
ما أشار به مستشاروه من الهجوم على الحجاز ولو لتصفية الخلاف مع الملك حسين
لاعتبارات كثيرة .

خرج السلطان من مؤتمر الكويت وهو موقن بأن الأشراف لا يريدون به خيراً ،
وأنهم لا يألون جهداً فى خلق المشاكل له ولبلاده ، ولكنه قنع أخيراً بفكرة الهجوم على
الطائف والاستيلاء عليه فقط ليساوم الملك حسيناً عليه ؛ فلعل الرجل يعدل عن غطرسته ؛
وتقرر أن يكون ذلك بعد رجوع الحجاج إلى ديارهم دفعاً لما قد يحدث من المشاكل ،
وسينجلى موقف الملك حسين وموقف الحكومة البريطانية بعد احتلال الطائف .

لقد كنت موقناً بأن الإخوان سيتغلبون على قوة الشريف ، وموقناً بأن انكلترا
ستقف موقف الحياد ، لأن سياسة ابن السعود إزاءها كانت سياسة مجاملة تامة وودية
للغاية بعكس سياسة الملك حسين .

جاء عيد الأضحى وقدم رؤساء الإخوان — أهل الخرمة وعتيبة وأهل الغَطْغَط —

وغيرهم من قادة الإخوان للمعايدة على ولى أمرهم ، وانتهز هو هذه الفرصة وعرض عليهم مسألة غزوة الحجاز فهشوا وبشوا للمشروع ، لأنهم سيطهرون بيت الله من البدع وينشرون دين الله الصحيح ، ولأنهم سيغنمون الأموال وقد ذاقوا حلاوتها فى تربة ، كما سيغنمون أجر الجهاد من الله . وقد وضعت خلاصة عما دار فى المؤتمر من الأحاديث وأرسلت إلى جميع الصحف العربية والهندية ، فكان لها صدى استحسان .

ترك الإخوان الرياض إلى بلدانهم ليستعدوا للجهاد : جهاد الملك حسين ، وما أسهل استعدادهم للغزو ، وهل يحتاج الأمر إلا إلى الناقة والبندقية والزاد والذخيرة ؟ لم ينتصف شهر محرم سنة ١٣٤٣ حتى بدأ الإخوان بمناوشاتهم مع بادية الحجاز وأكثرها ناقم على الملك حسين ، ثم أخذوا يتقدمون وجيوش الملك حسين لا تقف فى وجوههم حتى استولوا على الطائف فى ٥ صفر ، ثم وقفوا ينتظرون أمر مولاهم . ولقد حاول الملك حسين أن يستغل الحوادث التى وقعت فى الطائف ضد خصمه فى تنفير العالم الاسلامى ، ولكنه فشل فى ذلك ومرت الحادثة بدون أن يكون لها أثر عظيم فى نفوس المسلمين . وبرنامج ابن سعود خلاب يجتذب النفوس ويتفق مع الروح الطيبة التى يتمناها عقلاء المسلمين لمهبط الوحى .

إن برنامجه أنه لا يريد الفتح ولا علوّا فى الأرض ولا فساداً ، وكل ما يريده هو طرد الأشراف وتطهير بيت الله ومهبط وحيه من ظلمهم وتحكمهم ، وأن مكة للمسلمين عامة ، وأنه سينزل على رغبة العالم الإسلامى فى ذلك كله .

ظل الإخوان فى الطائف ينتظرون أمر إمامهم ، وليس هنالك سيارات أو تلغراف بين الطائف والرياض . والمواصلة الوحيدة هى الجمل ، والمسافة ذهاباً وإياباً لا تقل عن ٢٥ يوماً ، إذن يجب أن ينتظر الإخوان هذه المدة وسلطانهم قد شدد عليهم ألا يتجاوزوا الطائف ، وإلا فهو يبرأ إلى الله منهم ، أى أنهم سيكونون عاصين فى عملهم ، ولا داعى إلى ذلك ، فالغنائم التى استولوا عليها تحتاج إلى وقت لتقسيمها بينهم بالعدل .

جمع الملك حسين آخر ما لديه من جنود وجهزهم بآخر ما لديه من الأسلحة ، وسيرهم إلى الطائف لضرب الإخوان وطردهم منها ، وهنا كانت معركة الهَدَى التى انقضّ فيها الإخوان على جنود الملك حسين وهزموهم هزيمة منكرة ، واستولوا على جميع ما كان لديهم من مال وسلاح .

هنا رأى الملك حسين أنه لم يبق له مقام فى مكة ، فاستعد الرحيل منها وتنازل عن الملك لولده على ، بعد أن أخلوا مكة ونقلوا كل ما يمكن نقله ، ثم دخل الإخوان مكة صلحاً لا حرباً ، فدخلوها خاشعين ، وتولى الشريف خالد بن لؤى إمارة مكة . ولقد صدق المثل « كما تدين تدان » ، فكما سلط الشريف حسين البدو على الأتراك و بيوتهم ، فأعملوا فيها يد النهب والسلب ، كذلك سلط الله عليه الإخوان فقاموا بنفس الرواية التى مثلت مع الأتراك ، ما عدا القتل فإن يدهم لم تمتد إلى قتل أحد فى مكة .

وبعد فتح مكة أرسلت الدول التى لها ممثلون فى جدة مذكرة إلى الطرفين المتحاربين يذكرونهما برعاياهم وحسن معاملتهم ، ويحملونهما تبعة ما يقع عليهم من الأضرار ، وأنهم جميعاً سيقفون موقف الحياد فى النزاع بين الفريقين ، فكانت هذه المذكرة أحسن بشرى للملك الذى كان يساوره بعض القلق ، فعجل بالسفر إلى الحجاز ليتولى بنفسه استصفاء الحجاز ، وليحول دون تكرار مأساة الطائف . ولم يكن هنالك ما يمنع الإخوان من الاستيلاء على جدة ، لولا ما أمرهم به إمامهم ، فكانت هذه خير فرصة للشريف على حصن فيها جدة ، وحشد فيها من القوات العسكرية التى جمعها من فلسطين وشرق الأردن ماجعلها تقاوم نحو سنة

غادر السلطان عبد العزيز الرياض فى ١٣ ربيع الثانى سنة ١٣٤٣ — ١١ نوفمبر سنة ١٩٢٤ ، فودعه أهلها وعلماؤها وكبار أعيانها ، وقد ودع أهلها بهذه الكلمات الخالدة التى نشرتها الصحف فى حينها واعتبرها العالم الإسلامى عهداً جديداً لبلد الله الحرام

***

إنى مسافر إلى مكة لا للتسلط عليها بل لرفع المظالم والمغارم التى أرهقت كاهل عباد الله ، إنى مسافر إلى مهبط الوحى لنبسط أحكام الشريعة ، ونؤيد أحكامها ، فبعد الآن لا يكون سلطان فى مكة إلا للشرع ، وجميع الرؤوس يجب أن تطأطىء للشريعة . إن مكة للمسلمين كافة ، فأمر إدارتها وتنظيمها يجب أن يكون طبق رغائب العالم الاسلامى .

إننا سنجتمع بوفود العالم الإسلامى هناك وسنتبادل معهم الرأى فى كل الوسائل التى تجعل بيت الله بعيداً عن الشهوات السياسية ، وتحفظ راحة قاصدى حرم الله

***

وقد وصل إلى مكة المكرمة فى ٨ جمادى الأولى سنة ١٣٤٣ — ٥ ديسمبر سنة ١٩٢٤ فدخلها دخول العبد الخاضع والمسلم الخاشع ، لا الملك الفاتح ، ولا الجبار المتكبر ، فكان وصوله إلى مكة أكثر مصدر للطمأنينة ، وأكبر مواساة للجروح الكليمة التى تركتها قسوة الإخوان فى الطائف ، رأى أهل مكة والوافدون للتحية من شيوخ القبائل فى سلطان نجد رجلا نبيلا متواضعاً حسن المعشر ، واسع الصدر نصيراً للضعيف ملاذاً للمحتاجين ، فأحبوه وأجلوه وأكبروه ، وكانو يقولون فى أنديتهم لولا غلظة الاخوان وخشونتهم وقسوتهم لكان عهد ابن سعود فى استتباب الأمن ، والضرب على أيدى المفسدين ، والقضاء على البدع والمنكرات لا يعادله إلا عهد الصحابة والتابعين .

وقد رأى بثاقب فكره و بعد نظره أن يزيد الطمأنينة فى النفوس ، و يؤكد ما سبق لكاتب هذه السطور إعلانه على كبار الحجاز وأعيانه قبل وصول عظمة السلطان ببضعة أيام فأمر بنشر المنشور الآتى :

لمن فى مكة وضواحيها من سكان الحجاز الحاضر منهم والباد

نحمد إليكم الله الذى لا إله إلا هو رب هذا البيت العتيق . ونصلى ونسلم على خاتم أنبيائه محمد صلى الله عليه وسلم

أما بعد فلم يقدمنا من ديارنا إليكم إلا انتصاراً لدين الله الذى انتهكت محارمه ، ودفعاً لشرور كان يكيدها لنا ولديارنا من استبد بالأمر فيكم قبلنا ، وقد شرحنا لكم غايتنا هذه من قبل ، وها نحن أولاء بعد أن بلغنا حرم الله نوضح لكم الخطة التى سنسير عليها فى هذه الديار المقدسة لتكون معلومة عند الجميع فنقول :

(١) سيكون أكبر همنا تطهير هذه البلاد المقدسة من أعداء أنفسهم الذين مقتهم العالم الإسلامى فى مشارق الأرض ومغاربها بما اقترفوه من الآثام فى هذه الديار المباركة

(٢) سنجعل الأمر فى هذه البلاد المقدسة بعد هذا شورى بين المسلمين ، وقد أبرقنا لكافة المسلمين فى سائر الأنحاء أن يرسلوا وفودهم لعقد مؤتمر إسلامى عام يقرر شكل الحكومة التى يرونها صالحة لإنفاذ أحكام الله فى هذه البلاد المطهرة

(٣) إن مصدر التشريع والأحكام لا يكون إلا من كتاب الله ، ومما جاء عن

رسول الله عليه الصلاة والسلام أو ما أقره علماء الإسلام الأعلام بطريق القياس أو أجمعوا عليه مما ليس فى كتاب ولا سنة ، فلا يحل فى هـذه الديار غير ما أحله الله ، ولا يحرم فيها غير ما حرمه .

(٤) كل من كان من العلماء فى هـذه الديار أو من موظفى الحرم الشريف أو المطوفين ذو راتب معين فهو له على ما كان عليه من قبل ، إن لم نزده فلا ننقصه شيئاً ، إلا رجلا أقام الناس عليه الحجة أنه لا يصلح لما هو قائم عليه ، فذلك ممنوع مما كان له من قبل ، وكل من كان له حق ثابت سابق فى بيت مال المسلمين أعطيناه حقه ولم ننقصه منه شيئاً .

(٥) لا كبير عندى إلا الضعيف حتى آخذ الحق له ، ولا ضعيف عندى إلا الظالم حتى آخذ الحق منه ، وليس عندى فى إقامة حدود الله هوادة ولا يقبل فيها شفاعة ، فمن التزم حدود الله ولم يتعدها فأولئك من الآمنين ، ومن عصى واعتدى فإنما إثمه على نفسه ولا يلومن إلا نفسه . والله على ما نقول وكيل وشهيد : وصلى الله على سيدنا محمد النبى الأمى وعلى آله وصحبه وسلم .

عبد العزيز بن عبد الرحمن الفيصل السعود
١٢ جمادى الأولى سنة ١٣٤٣

* * *

فكان لهـذا المنشور أثره السحرى لا فى نفوس الحجازيين فحسب ، بل فى العالم الإسلامى قاطبة ، وأخذ مركز ابن سعود يحتل قلب كل مسلم مخلص وأخذ نجم الأشراف فى الحجاز فى الأفول وحكمهم فى الزوال .

حاول الملك علىّ عقد الصلح ، فوسط الأستاذ الريحانى ومستر فلبى (والسيد طالب) النقيب ، ولـكن البرنامج معروف : المسألة إسلامية ياريحانى ويا مستر فلبى ، فليس من شأنـكما التوسط فيها ، والرأى يا « سيِّد طالب » للعالم الإسلامى ، فما على الأشراف إلا أن يرحلوا من الحجاز ، ويجتمع مؤتمر إسلامى ينظر فى مسائل الحجاز ، من كل نواحيه .

وقد مضت مدة والحرب دائرة بين الطرفين ، وكل يعانى شدتها ، ولـكن شـدتها

على الملك على كانت أشد على كل حال . وفى أبريل سنة ١٩٢٥ م عرض قنصل السوفيت ووكيل قنصل إيران ، ووكيل قنصل هولاندا وساطتهم للصلح بصفة خاصة ، لأن دولهم لم تكلفهم بذلك ، فلم يقبل السلطان ذلك .

وفى مايو من السنة نفسها قدم فؤاد بك الخطيب إلى معسكر السلطان ابن سعود محاولا الوصول إلى طريقة يوقف بها الحرب ويضمن بها بقاء الأشراف فى الحجاز فلم يفلح . وفى أغسطس وسط الملك على الدولة الانجليزية للصلح ، ولكن الحكومة البريطانية حينما عرضت وساطتها بين الفريقين صرحت بأنها تقبل الوساطة إذا رضى الفريقان هذه الوساطة ، فكان جواب ابن سعود :

« إنه أعطى عهداً للعالم الإسلامى أن تكون الحجاز ومكة للمسلمين عامة »

وفى سبتمبر سنة ١٩٢٥ وصل فضيلة الشيخ المراغى وكان رئيساً للمحكمة العليا الشرعية ومعه عبد الوهاب بك طلعت من موظفى السراى الملكية ، ومعهما كتاب رقيق من جلالة ملك مصر جواباً لكتاب سلطان نجد بمناسبة عزمه على زيارة مكة .

إنه ظرف ملائم جداً وفرصة نادرة لتوثيق العلائق بين مصر ونجد ، وسلطان نجد كان ولا يزال معترفاً بزعامة مصر من وجهة الثقافة والمدنية ، ويجب أن توطد العلائق بينه و بين مصر .

رأى عظمة السلطان بعد الاجتماع مع الوفد المصرى والتحادث معه فى شتى المباحث أن أقوم بالبحث التمهيدى ، وما نصل إليه من النتائج نعرضه على عظمته أولا بأول .

لقد سبقت الوفد عدة شائعات : منها أن الشريف علياً طلب بسط حماية مصر على الحجاز ، وطلب أن ترسل الصدقات المعتاد إرسالها إلى مكة والمدينة إلى جدة ، لتوزع علي جنوده واللاجئين إليها من أهل مكة ، ولكننا لم نقم وزناً لهذه الإشاعات أو غيرها .

لقد تبين من المباحثات الأولية أن الوفد جاء لغرض وساطة مصر للصلح بين الفريقين المتحاربين ، فما المخرَج من هذا الموقف الدقيق ؟ إننا لا نريد إغضاب مصر ، وسلطان نجد يحب ملك مصر ويحرص على اتصال حبل المودة معه ، ولكننا لا نحب الصلح الآن ، لأن حكم الأشراف فى الحجاز قد آذن بالزوال ، فالمعلومات تصل إلينا عما تقاسيه جدة والمدينة ، وأن النصر قاب قوسين أو أدنى

أخبرت الوفد بسعى الحكومة البريطانية قبل شهر الصلح ، واعتذار السلطان عن قبول هذه الوساطة ، وليس من اللياقة قبول توسط مصر الآن . ماذا جنته مصر من الملك حسين ؟ ألم يرد المحمل المصرى من جدة ؟ ألم يتهم البعثة المصرية بأنها تحاول تسميم المياه ؟ ألم ينزع من كسوة الكعبة المشرفة اسم ملك مصر ؟ ألم يعمد إلى الإساءة إلى كل ماهو مصرى ؟ إذا كنتم تريدون أدلة أخرى فها كم ملفات الحكومة الهاشمية ، اقرأوها إن شئتم فإنها دليل ناطق على ما كانت تطويه جوانح الملك حسين نحو مصر وملكها وشعبها . ألا يحسن أن نبحث موضوعاً آخر يكون فيه الخير البلاد المقدسة ولأهلها والوافدين عليها من المسلمين ؟ إذا وضعنا أساساً لذلك فإننا بلا شك نكون قد قمنا بواجب عظيم نحو ديننا ، ونكون قد خدمنا الإسلام والمسلمين أجل خدمة . أما الأساس الذى كان نتيجته البحث فهو :

(١) أن الحجاز للحجازيين من جهة الحكم ، والعالم الإسلامى من جهة الحقوق التى لهم فى البقاع المقدسة .

(٢) اجراء استفتاء عام لاختيار حاكم للحجاز تحت إشراف مندوبى العالم الإسلامى

(٣) يجب أن تكون الشريعة الدستور للحجاز .

(٤) استقلال الحجاز الداخلى .

(٥) جعل الحجاز على الحياد .

(٦) لاتعقد حكومة الحجاز اتفاقات اقتصادية مع دولة غير إسلامية .

(٧) تحديد الحدود الحجازية ، ووضع النظم المالية والاقتصادية والإدارية موكول لمندوبى الممالك والشعوب الإسلامية .

وقد وافق عظمة السلطان ابن سعود على هذا الأساس وقال للوفد المصرى : لكى تعلموا مقدار محبتى لمصر ولمليكها ، والمنزلة العظيمة التى له فى قلبى ، أوكل جلالته أن يدعو فى مصر مندوبى المسلمين لينظروا فى هذه الأمور ، وما يقررونه سأقوم بتنفيذه . فسر الوفد كثيرا وعد النتيجة التى وصل إليها خيراً من المهمة الأولى . وسررنا نحن أيضاً ،

لأننا اكتسبنا مودة ملك مصر وهى شىء عظيم عندنا ، وسافر الوفد المصرى حاملا كتاب عظمة سلطان نجد المتضمن هذا الأساس .

وفى أكتوبر سنة ١٩٢٥ وصل جلالُ السلطنة وزير إيران المفوض بمصر ، وعَيَّنُ الملك قنصل إيران الجنرال فى سوريا إلى الحجاز ، وأخبرا عظمة السلطان بأنهما موفدان للوقوف على صحة أو كذب ما أشيع عن إصابة القبة النبوية بالقنابل ، وفى أثناء إقامتهما فى المعسكر السلطانى فى حدّاء وفى مكة بحثنا معهما شئون الحجاز : ماضيه ومستقبله ، وأخبرناهما بالكتاب الذى حمله الوفد المصرى ، وبالدعوة التى سيوجهها جلالة ملك مصر إلى العالم الإسلامى لوضع مسألة الحجاز على بساط البحث على الأساس الموضح فى الكتاب ، فأظهر الوزير امتعاضه ، وصرح بأن حكومته لا تقبل دعوة مثل هذه من مصر ، لأن مصر دولة غير مستقلة من كل وجه ، ولا شأن لها بالبلاد المقدسة ، وقال لعظمة السلطان : لماذا لايدعو هو المسلمين فى مكة ؟ أليس هو أولى بالدعوة ؟ أو أليس هو صاحب الشأن ؟ فأجابهم عظمته أنه اختار مصر لقربها من سائر البلاد الإسلامية ، ولأن الحجاز لايزال فى حالة حرب ، وقد وكلت ملك مصر ولن أرجع فى قولى ، فطلب الوفد الإيرانى كتابا من عظمة السلطان إلى رئيس حكومة إيران ، يتضمن الأسسّ المتقدمة ، ورجع الوزير مسروراً من زيارته بعدما وقف على الشىء الكثير من المعلومات من الإيرانيين المقيمين فى الحجاز عن حكم الأشراف فى الحجاز ، وما زكه السلطان ابن السعود فى نفوس الحجازيين من تواضعه وحلمه ، وبساطته ولطفه ، وحسن معشره ولين جانبه ، وأنه لولا خشونة الإخوان لكان حكم السلطان ابن السعود نعمة من نعم الله لا تعادلها نعمة .

مضى نحو أربعة أشهر والحرب لاتزال على حالها ، ولم يصل إلى عظمته شىء عمائم فى أمر المؤتمر : إن الحرب قد تطول أكثر من ذلك ، فلماذا لايفتح طريق الحج من جهة « رابغ » فيقضى القضاء الأخير على جدة ؟ لقد نجح هذا الطريق بعض النجاح فى الحج الماضى ، ووفد من الحجاج نحو أربعة آلاف نفس .

رأى عظمة السلطان أن يوفدنى إلى مصر للبحث مع حكومتها فى الإذن للحجاج من هذا الطريق ، وقبل مغادرتى رابغ دخلت جيوش السلطان المدينة ظافرة فكان ذلك مشعراً بأن حكم الأشراف فى الحجاز فى حالة النزع .

وصلت إلى مصر فى أواخر نوفبر سنه ١٩٢٥ م ، و بعد مدة قصيرة استسلمت جدة آخر المدن الحجازية ، ففرح المسلمون فرحاً عظيما ، وقابلت الصحف العربية والهندية هذا الحادث بحماسة شديدة ، ونشر عظمة السلطان فى ٢٤ ديسمبر سنة ١٩٢٥ م منشوراً عاماً على أهـل الحجاز : يحضهم على الإخلاد إلى السكون والانصراف إلى أعمالهم ، وختم المنشور بالجملة التالية :

« وأما مستقبل البلاد فلا بد لتقريره من مؤتمر يشترك المسلمون جميعاً فيه لينظروا مستقبل الحجاز ومصالحه »

العدول عن المؤتمر

و بعد أسبوعين من صدور المنشور الأول ، أصدر عظمة السلطان بلاغا عاما بتاريخ ٢٢ جمادى الآخرة — ٧ يناير سنه ١٩٢٦ م يعلن فيه عدوله عن فكرة المؤتمر الإسلامى ، لأن دعوته التى وجهها إلى الشعوب الإسلامية و إلى قادة المسلمين لم يجبه عليها أحد ، وفى اليوم نفسه بايع جلالته أهـل الحجاز ملكا على الحجاز ، فأصبح لقب جلالته « ملك الحجاز وسلطان نجد وملحقاتها »

تمت هذه الخطوة الجديد وأنا فى مصر أفاوض حكومتها فى شئون الحج ، ولم يُخف على أولو الأمر استياءهم ، كما أن التلغرافات والصحف نشرت الشىء الكثير من استياء الهنود وجمعية الخلافة على الأخص ، وعدوا ذلك نكثاً بوعود جلالة الملك الكثيرة ، وقد أبرقت لجلالة الملك أخبره بحقيقة الحالة فى مصر والهند ، وإن جلالته لو كان تريث قليلاً لكسب الحجاز وقلوب المسلمين ، فأجابنى جلالته ببرقية يشرح فيها الأسباب التى دعته للتعجيل وهى إصرار أهل نجد والحجاز على ذلك ، وإن حالة البلاد تستدعى البت فى هذا الأمر ، وقد نشرت الصحف هذه البرقية فى حينها ، غير أن السلطات المصرية لم يقنعها هذا الجواب ، واعتقدت أن مسألة البيعة وما اكتنفها من طلب الحجازيين والنجديين إن هى إلا إيحاء من حكومة الحجاز

أما أنا شخصياً فكنت أهتم بموضوع المؤتمر الإسلامى لأنه وسيلة من وسائل تفاهم المسلمين وإصلاح كثير من الشئون الدينية والاجتماعيـة ، وطريقة من الطرق المثلى التى

يمكننا بها خدمة الحجاز وأهل الحجاز والوافدين على الحجاز .

فالحجاز يحتاج إلى كثير من وجوه الإصلاح ، وهو وحده لا يقوى على القيام بأعباء هـذا الإصلاح ، ويجب أن يستعين الحجاز بعقول المسلمين المدبرة . كما يجب على المسلمين أيضاً أن يعينوا الحجاز بالأموال للقيام بهذه الإصلاحات ، وواجب على حكومة الحجاز أن توسع صدرها لسماع كل نقد ، والأخذ بكل رأى صالح .

لقد سئلت فى مصر عن المؤتمر الإسلامى هل عدل عنه نهائياً . سئلت هذا السؤال من كثير من كبار المصريين ورجال الحكم فى ذلك الحين ، فلم أكن أملك الإجابة ، لأن الفصل فى هذا الموضوع الخطير فى مكة .

لقد كتب إلىّ كثير من أصدقائى الهنود يسألون نفس السؤال ، ويلحون على فى بذل نفوذى لعقد المؤتمر ، لأن هذا العمل من أعظم الأعمـال لخدمة الإسلام والمسلمين .

غادرت مصر راجعاً إلى مكة فاجتمعت بجلالة الملك عبد العزيز ؛ وأخبرته عن رحلتى والأثر الحسن الذى تركته فى مصر حـكومة وشعباً ، ولم أخف مبلغ التأثير السيء الذى تركه إعلان الملـكية فى مصر والهند ، ولـكن ليس فى الإمكان الرجوع فيما تم طبعاً ، فماذا يمكن أن نعمل للقضاء على سوء الأثر .

بحثت مع جلالة الملك مسألة المؤتمر الإسلامى فلم أجد جلالته مستعداً لقبول الفـكرة فتركت الموضوع للزمن .

تـكررت الـكتب والتلغرافات من الهنـد وغيرها من الممالك الإسلامية بطلب عقد المؤتمر ، ووصل عينُ الملك قنصل إيران العام فى سوريا للبحث مع جلالة الملك فى شئون الحج الإيرانى ومسائل القباب والأضرحة المهدمة ، وأخبرنى أن المرحوم إبراهيم وجيه باشا لا يزال ينتظر منى أن أخبره عن مسألة عقد المؤتمر الإسلامى ، وبالطبع أخبرت جلالة الملك بذلك فكانت هذه العوامل الـكثيرة لهـا أثرها فى نفسه ؛ فقبل عقد المؤتمر الإسلامى فى مكة على شرط ألا يتعرض المؤتمر لمـسألة الحـكم فى الحجاز ، وعلى ذلك أرسلت الدعوة إلى الشعوب الإسلامية والحـكومات الإسلامية ، وحدد يوم ٢٠ القعدة سنة ١٣٤٤ هـ لاجتماع المؤتمر ، وقد لبى الدعوة أكثر من دعوا إلا مصر ولـكن مصر أرسلت مندوبها بعد ذلك فى الوزارة الائتلافية التى كان يرأسها عدلى يكن باشا .

فشل المؤتمر

ليس هنالك من شك فى أن الذين حضروا إلى المؤتمر كانت تحدوهم الرغبة فى إصلاح الحجاز والخير للبلاد المقدسة ، وسكانها والوافدين عليها من جميع طوائف المسلمين ، وليس من شك فى أن الملك ابن سعود لا يقل رغبة عن هؤلاء . فلماذا إذن لم ينجح المؤتمر فى الغرض الذى عقد من أجله ما دامت رغبة الملك والمؤتمرين تلتقى عند خير الحجاز والمسلمين ؟

إن السبب الرئيسى هو عدم التجانس بين أعضاء المؤتمر ، وبينهم وبين النجديين من جهة أخرى . فما يعده النجديون أساساً للعمل ويتعصبون له لا يشاركهم فيه بعض الشعوب الإسلامية الأخرى ، وما يعتقده الهنود من وسائل الإصلاح لا يشاركهم فيه الجاويون والهنود من أهل الحديث .

إن النجديين يرون أن التوحيد هو الدواء الوحيد لما أصاب العالم الإسلامى من الأمراض . لقد كانت مكة والمدينة مهبط الوحى ومصدر التشريع ، فيجب أن نبدأ فيهما . بهدم القبور وتسويتها ، وهدم القباب والمساجد المقامة على القبور ، وهدم كل مكان تشتم منه رائحة الإخلال بالتوحيد ، كما يجب إبطال جميع البدع من الحجاز .

إن سائر المؤتمرين سياسيون أكثر منهم دينيين ، فهم — وإن كانوا يتفقون مع النجديين على إصلاح حالة العالم الإسلامى وإصلاح الحجاز — ولكنهم لا يتفقون مع النجديين فى طريقة الإصلاح ، ويقولون : إن العالم الآن يختلف تمام الاختلاف عنه قبل ثلاثة عشر قرناً . وإن الواجب الآن تأليف القلوب وجمع الكلمة والتدرج بالإصلاح ، وهنا يقع الخلاف بين الفريقين ويشتد النزاع . ولا سبيل إلى التوفيق .

وهنالك مسألة سياسية عربية يرى بعض المؤتمرين إثارتها ، وترى حكومة الحجاز عدم الخوض فيها .

لقد كان الملك ابن السعود حكيما ، فإنه فى حفلة افتتاح المؤتمر منح الحرية المطلقة للمؤتمرين ، إلا فيما يتعلق بالسياسة الدولية ، وما بين بعض الشعوب الإسلامية من خلاف ، ولكن بعض أعضاء المؤتمر لم يصغ إلى نصح الملك ابن سعود ، وحاولوا البحث فى مشاكل

سياسية لم يكن هنالك حاجة إلى إثارتها ، ولاسيما وحاجات الحجاز كثيرة ، ووجوه الإصلاح عديدة . ولكنهم على كل حال كان رائدهم حسن النية وخير المسلمين .

أريد أن أذكر القصة الآتية . لأنها تدل على ما كان يسود جو المؤتمر وما كانت حكومة الحجاز وقتئذ تعانيه ، لأنها لا تريد أن تسوء علاقتها السياسية مع الحكومات الأجنبية ، كما لا تريد أن تمس عواطف أعضاء المؤتمر المتحمسين :

أخبرنى جلالة الملك أن السيد رشيد رضا والشيخ عبد الله بن بليهد رئيس القضاة فى ذلك الوقت ، أخبراه بأنهما — بالاتفاق مع وفد الخلافة — سيأخذون قراراً من المؤتمر ، على أن يجتمع أعضاء المؤتمر جميعاً أمام الكعبة ، و يتعاهدوا فى اليوم السابع أو الثامن من ذى الحجة صباحا بأنهم سيسعون بكل قواهم لتخليص جزيرة العرب من نفوذ الأجانب ، وأنهم يعتقدون أن لهذا تأثيراً عظيما فى الرأى الإسلامى

فقلت لجلالته : إن نية إخواننا حسنة بلا شك ، وإنهم لا يريدون إلا الخير للإسلام والمسلمين ، و إن ما يتمنونه هو أمنية كل مسلم ، ولكن ما هى الفائدة من هذا العهد ؟ إن من يريد أن يعمل فمجال العمل أمامه واسع ، وعلى كل حال فالمشروع إلى الآن لم يعرض على لجنة المشروعات .

فقال جلالته : إن الجماعة سيجتمعون عندى بعد العشاء ، وكنا فى اليوم الرابع من شهر ذى الحجة فيجب أن تحضر لتتفقوا جميعاً على رأى واحد

حضرنا عند جلالة الملك بعد صلاة العشاء ، وكان الحاضرون هم الشيخ عبد الله بن بليهد ، والسيد رشيد رضا ، والسيد أمين الحسينى ، والمرحوم محمد على ، ومولانا شوكت على ، وكاتب هذه الأسطر ، والدكتور عبد الله الدملوجى ، والشيخ يوسف ياسين والشيخ محمد أبو زيد المصرى وغيرهم ممن لا تحضرنى أسماؤهم الآن .

افتتح الحديث الشيخ عبد الله بن بليهد ، فقرأ صيغة القَسَم ، وشرح الأغراض من العهد ، والروح الجديدة التى تسرى فى المسلمين والعرب حين سماعهم ذلك . و بعد أن ساد المجلس السكون طلب منى جلالة الملك رأيى .

فطلبت من الشيخ ابن بليهد الإيضاح عن المقصود بجزيرة العرب . فقال : إن المراد منها فلسطين — سوريا — العراق — وسواحل الجزيرة التى للأجانب نفوذه فيها . فقلت :

إنى أشكر أصحاب الفكرة على هذه الروح الطيبة . ولا شك أن كل عربى ومسلم يتمنى أن يتمتع العرب فى كل ناحية بما يتمتع به غيرهم من الاستقلال . ولم هذه العجلة ؟ إن تركيا ومصر والأفغان واليمن قد أرسلوا مندوبين إلى المؤتمر ؛ وهم فى طريقهم إليه . أليس من الحكمة أن نأخذ رأيهم فى هذا الموضوع الخطير ، وهم أعلم منا بالسياسة الدولية ، وأعرف بطرق معالجة هذه الشئون ؟ فإذا وافقوا على هذا الاقتراح فإن لموافقتهم من القوة المعنوية ما ليس لموافقتنا . فقبل الجميع هذا الاقتراح ، وسر جلالة الملك من هذه الفكرة التى هيأت له فرصة للتفكير .

وبالطبع لم يقبل أحد من مندوبى الدول هذا الاقتراح . لأنه توريط لدولهم فى مشكلة هم فى غنى عنها .

وقد انتهى المؤتمر الإسلامى الأول بقرارات ورغبات وتمنيات كان نصيبها الإهمال من العالم الإسلامى . لأنه لم يعدّ لها القوة ولم يتمكن المندوبون من جمع الإعانات التى كانوا يؤملون جمعها ، وحكومة الحجاز لاتستطيع أن تقوم بما طلب منها ، فليس لديها من المال ما تستطيع به تنفيذ جميع رغبات العالم الإسلامى . وبالجملة فإن جميع الآمال التى كنا نرمى إليها من المؤتمر الإسلامى من الإصلاح الدينى والاجتماعى العام ، وإصلاح البلاد المقدسة إصلاحا يتفق مع مقتضيات هذا الزمن ورفع مستوى الحجاز إلى المستوى اللائق بجلاله وقدسيته ، قد فشلت . فلعل المسلمين ينتفعون من أغلاطهم ، ويعملون لعقد مؤتمر آخر يعمدون فيه إلى الإصلاح ، ويتركون المساعى السياسية التى ليس من ورائها فائدة إيجابية .

ابن السعود وإمام صنعاء

لم تكن هنالك صلة مراسلة أو غيرها بين ابن سعود وإمام صنعاء حتى سنة ١٩١٩ م ، فإن حادثة الحج اليمانى [1] فى عسير كانت سبب التعارف وتبادل الرسائل من وقت لآخر ، ثم أخذت مصالح الحكومتين فى التضارب بعد موت السيد محمد على الإدريسى ، وانتهاز

(١) من يريد تفاصيل مخابرات اليمن فليراجع الكتاب الأخضر الذى أصدرته وزارة خارجية الحجاز

الإمام يحيي الفرصة لطى صحيفة حكمهم من عسير ، وتقدم سلطان نجد فى الحجاز، كل هذا جعل الفريقين وجهاً لوجه . فإن الأدارسة بعد ما أحسوا بالخطر المحدق بهم ولوا وجوههم شطر ابن سعود حليف محمد على الإدريسى . فأعلن الحماية على عسير ، وأخبر الإمام يحيي بذلك فى خريف سنة ١٩٢٦ م . ثم أخذ الفريقان يتبادلان الكتب والوفود للوصول إلى حل حاسم خاص بالحدود والقبائل . فلم يوفقوا إلى ذلك ، لأن حسن النية لم يكن متوفراً من كل وجه . وأخيراً اضطر ابن سعود لامتشاق الحسام بعد أن أعيته الحيل ، وبعد أن انتهك الإمام يحيي حرمة بلاده باحتلال قسم منها . وقد تمكن الملك عبد العزيز فى مدة قصيرة من التقدم فى تهامة حتى الحديدة . غير أنه — وهو الرجل العاقل النافذ البصر — لم يكن يرمى فى الحقيقة إلى فتح اليمن . لأن ذلك يلقى عليه مسئوليات جديدة ، وربما يعرض البلاد العربية للتدخل الأجنبى ، والملك عبد العزيز يفضل أن يفتح قلب إمام اليمن ويكتسب وده وصداقته أكثر من فتح اليمن نفسها . وقد وصل إلى الغرض الذى كان يرمى إليه . فإمام اليمن قد أفهمته الحوادث قوة ابن سعود ، وأن ما توهمه من ضعف لم يكن إلا حلماً وطول أناة ، وقد ضرب الملك عبد العزيز بالصلح الذى عقده مع إمام اليمن أفضل الأمثال فى التسامح واكتساب صداقة خصمه ، كما ضرب أفضل الأمثال فى حبه للتفاهم مع أمراء العرب ، وسعيه للاتحاد العربى الذى ينشده أحرار العرب ومفكروهم من نصف قرن . ولعلنا نرى فى المستقبل القريب الرغبة الصادقة من ملوكهم وأمرائهم فى التفاهم وإزالة ما بينهم من إحن شخصية ، وتقديم المصالح المشتركة العامة على الاعتبارات الشخصية . فإن مجد العرب لا يسترد إلا باجتماع كلمة العرب واتحادهم . بصر الله العرب وملوكهم لما فيه خيرهم وصلاحهم .

ويسرنا أن تنبعث روح جديدة من مصر تدعو إلى التقارب والتفاهم ، وتبادل المصالح واتخاذ جميع الوسائل الممكنة ، وتذليل الصعوبات فى خلق اتحاد عربى عملى يرتفع به شأن العرب والمسلمين ويقضى إن شاء الله على خطر اليهود فى فلسطين بعد الكارثة التى منى بها العرب — بسبب تفرقهم وعدم إعطائهم الأمور حقها — فى حرب فلسطين .

حياة الملك عبد العزيز الشخصية

لقد صحبت الملك عبد العزيز فى السلم وفى الحرب ، وعاشرته فى البادية والحاضرة ، وخبرته فى حالتى الرضا والغضب ، وحياته الشخصية لا تكاد تختلف عن حياته العامة إلا يسيراً ، فهى أشبه بنظام أتوماتيكى لا يكاد يتغير

يقوم الملك عبد العزيز عادة قبل الفجر بساعة ، فيقرأ ما تيسر من القرآن الكريم . حتى إذا أذن مؤذن الفجر أدى فريضة الصلاة . ثم ينصرف إلى بيته يقرأ شيئاً من القرآن والأوراد الصحيحة النسبة عن النبى صلى الله عليه وسلم . ثم تعرض عليه الأشياء التى تقتضى البت فيها بسرعة ، ثم ينام بعد ذلك قليلا ، فيغتسل كل يوم صباحا و يلبس ثيابه و يفطر . ثم يخرج إلى مجلسه الخاص ، فتعرض عليه مهام الحكومة ، و يعطى أوامره لموظفيه . فإذا انتهى من ذلك قابل الناس من شيوخ البدو وكبار العرب مقابلات خاصة ، يسمع شكوى المشتكى ونصح الناصح ، ويباحث زعماء الزوار فيما يهم من شئونهم . ثم يذهب إلى المجلس العام الذى يجتمع فيه كل من يريد مقابلته ، و يقضى فى هذا المجلس نحو ساعة يمضيها فى حديث أشبه بخطابة فيما يهم من أمور الدين والدنيا . و ينصرف إلى الغذاء ، ثم يرجع إلى بيته فينام قليلاً ، ثم يصلى الظهر ، ثم يرجع إلى مجلسه الخاص ، فتعرض عليه الشئون الهامة ، ثم ينصرف لصلاة العصر ، فيحضر عنده إخوانه وأولاده وأقاربه ، وكبار الموظفين يسامرهم ، ثم يخرج بعد ذلك فى سيارته إلى الضواحى للرياضة ، و بعد العشاء يجلس فى مجلس عام ، وهنالك يحضر قارئ يقرأ نحو ساعة وشيئاً من كتب مختلفة فى الحديث والتفسير والتاريخ والأدب ، و بعد ذلك ينصرف إلى بيته

ومما يجب أن يذكر : أن الملك عبد العزيز — أثناء إقامته فى الرياض — كان يقوم بزيارة والده الإمام عبد الرحمن — رحمه الله وغفر له — كل يوم ، وكذا سائر أقاربه الأدنين ، وكذلك لا تزال هذه عادته فى مكة يزور كل يوم من يكون حاضرا بها من أقاربه

والملك ابن سعود مشهور فى بلاد العرب بكرم الخلق و بسط اليد ، لا يعرف أى قيمة

للدرهم ، إلا أنه وسيلة للزلفى عند الله ، أو لبناء المجد ، أو حسن الذكرى . فقلما يرد سائلا يطلب معونته ، أو محتاجا يقصد بابه . وهو يشرف بنفسه على إعطاء القاصدين حسب منازلهم ، لأنه هو يعرفهم حق المعرفة ، وقلما يعتمد على أحد آخر فى ذلك ، على أن هذه المطايا قد يكون لها مرام سياسية بعيدة يرمى إليها ، وديوانه مفتوح للقادمين يقابل زائريه مهما صغر مقامهم بوجه باش ، ويأخذ ألبابهم بابتسامته التى لا تكاد تفارقه ، ومجلسه لا يخلو من خطبة صغيرة يراعى فيها نفسية السامعين .

ولا يضيق صدر الملك عبد العزيز إلا عند ما يجد خزائنه تضيق عن الطلبات والعطايا ، فهو يتكدر خوف أن يظهر بمظهر العاجز أمام السائلين الذين تعودوا رفده .

وكان الملك يسخر منا كثيراً حينما ننصحه بالادخار ، ونقول : إن المستقبل علمه عند الله ، وإن الرخاء ليس بدائم . فيقول : إن كنز المال لا ينفع ، هل أفادت عبد الحميد خزائنه وما ادخره من المال ؟ وهل أفادت خزائن ابن الرشيد ؟ وأعتقد أن الملك قد غير فكره فى هذه الأزمة التى أخذت بالخناق ، وأصبح يعتقد فى المال وفائدة ادخاره لوقت الشدة .

والملك عبد العزيز من المعجبين بمحمد بن الرشيد أمير حايل ، والذى امتدت سيادته وقتا ما على نجد كلها ، والذى فى أيامه هاجر الملك — وكان الأمير الصغير — مع والده إلى الكويت وهو ينحو نحوه فى طريقة العطاء ، وهو دائماً يقص القصة الآتية إعجاباً بتصرف الرجل :

وفد شيخ من مشايخ البدو الكبار على محمد بن الرشيد ، فأكرمه وأعطاه شيئاً قليلاً ، وفى نفس الوقت وفد شيخ من مشايخ البدو الصغار — وكان الأخير فى وقته يقطع الطرق مع رجال قبيلته فى شمال نجد — فأكرمه إكراماً زائداً ، وكساه وأعطاه منحة كبيرة ، فسئل محمد بن الرشيد عن هذا التصرف الغريب ؟ فقال : أما الأول فإنه وإن كان قوياً وكبيراً ، ولكنه يحس بما عليه من المسئولية ، وإنه يحافظ على مركزه وماله بالولاء لنا . فهو فى حاجة إلينا ، وأما الآخر فمثل العصفور ينتقل من شجرة إلى أخرى يتعبك صيده ، فنحن فى حاجة إلى تأليفه وإرضائه ، وما نكف به شره لا يساوى شيئاً إذا قورن بما نبذله لتأديبه وعقوبته .

وللملك عبد العزيز وفى لأصدقائه ، محافظ على ودهم ، ولا يحب أن يبدأ أحداً بالعداء ،

ويميل إلى استرضاء الناس واكتساب ودهم مهما كلفه ذلك ، ولـكن إذا تيقن أن ليس هنالك من سبيل للصداقة فإنه يعادى — ويعادى بشدة — ولـكنه قلما يهاجم خصمه ، فإذا هاجم خصمه فإنه يبذل كل ما يمكنه بذله للقضاء عليه ، وهو فى هذه الحالة يأخذ بسياسة « الغاية تبرر الواسطة » .

والملك عبد العزيز طيب القلب ، لا يكاد يضمر حقداً . وهو إذا غضب — وغضبه قليل — فإنك ترى أسداً يزأر ، أو جملا يهدر ، وتـكاد عينك تـكذب أن هذا الغضبان هو عبد العزيز بن سعود ، الرضى الخلق الوسيم الوجه . وكثيراً ما كان يعتذر عن التصرفات التى تصدر فى حالة غضبه ، كما أنه كثيراً ما يغمر خدمه الذين يصيبهم من شرر غضبه ما ينسيهم ألم ما أصابهم .

وهو متواضع ، طيب العشرة ، رقيق السمر ، له جاذبية لمن يعرفه تشبه السحر . وإنى لا أذكر أن واحداً من كبار الإنجليز عرفه وعامله إلا أحبه ، ولا يزال له أصدقاء من الإنجليز الذين كان له معهم اتصال سياسى . وهو كثير الشبه بمعاوية بن أبى سفيان فى حلمه وبعد نظره ، وحسن حيلته فى تصريف الأمور .

فى سنة ١٩٢٥م كان الملك ابن السعود يظهر إعجابه بالإنجليز — وسعة ملـكهم ، وإخلاص رجالهم لبلادهم للجنرال كلايتون ، فقال الجنرال : إن ما ذكرته صحيح ، ولـكن هذا الملك الواسع لم يؤسس إلا فى مئات السنين ، ولـكن ألا يصح لنا — نحن الإنجليز — أن نعجب بك . فإنك فى ثلاثين سنة قد أسست ملـكاً واسعاً ، وإذا اطرد لك هذا الفتح وهذا التقدم فأظن أنه فى نصف المدة التى أسسنا ملـكنا تؤسس أنت امبراطورية مثل أو أكبر من إمبراطوريتنا . وهذا ليس ببعيد إذا ساعدتـكم تصرفات الزمان ، وأخذتم بسنن التقدم ، فإن أسلافكم العرب قد شيدوا إمبراطورية عظيمة فى مدة قصيرة جداً لم يعرف التاريخ مثلها .

فقال الملك : هذه وإن كانت أمنية العرب ، ولـكننى لا أعتقد فى نفسى القدرة على تحقيق ذلك ، وكل ما أتمناه أن يجعل الله من رجالنا من يماثلـكم فى الإخلاص والتضحية لبلادهم .

والملك ابن سعود ربما كان أحلم أمراء العرب ، وأبعدهم عن الانتقام من الموظفين . ولا سيما الموظفين الذين يعرف لهم سوابق خدمة أو إخلاص . فإن هؤلاء أقصى عقوبة لهم العزل

والملك ابن سعود يتساهل فى كل شىء إلا ما يمس سيطرته الشخصية ، أو ما يمس مركز حكومته . فإنه لا يتساهل فيه بحال ، وقد يعاد المعزول إلى منصبه أو أعلى منه إذا تصرف بعد العزل تصرفاً يرضى الملك . لقد عزل الملك أمير الطائف سنة ١٩٢٧ م لشدته ، فلما أن حضر إلى مكة قال له الملك : إننا لم نعزلك من منصبك لنقص فى دينك ، أو شبهة فى أمانتك ، ولكننا نحيناك لشدتك . ونحن نريد اللين مع الناس ، فقال له الأمير : الحمد لله لقد ولاك الله على المسلمين وأنت أعلم بمصالحهم ، ولئن حرمت من المنصب فإنى أتمتع برؤيتكم صباحاً ومساء ، وهذا لا يعادله شىء عندى فى هذه الدنيا . فسر الملك لهذا الجواب اللطيف وواظب هذا الأمير على الحضور إلى مجلس الملك كل يوم ، فلم تمض بضعة أشهر على عزله من الطائف حتى عين أميراً للمدينة .

والملك عبد العزيز من الرجال العمليين الذين لا تغرهم مظاهر الأمور . كان علماء الرياض لما اعترضوا عليه سنة ١٣٤٩ هـ (١٩٣٠ م) إذنه بإقامة الاحتفالات لمناسبة عيد جلوسه على عرش الحجاز ، ومخالفة ذلك للسنة ، أرضاهم بالنزول على رأيهم ؛ لأن ما يتعلق بشخصه لا أهمية له فى نظره ، ولكن هذا لم يمنعه من معارضتهم فى تعميم المواصلات اللاسلكية فى بلاده وتشييدها ، لاعتقاده بخطأ المعلومات التى تصل إلى نجد عن التلغراف اللاسلكى من أنه من عمل الشيطان ، وأنها بالعكس ركن من أركان السلم وحفظ الأمن وإنجاز الأعمال .

أعمال الملك عبد العزيز الاصلاحية

لا يقدر مجهودات الملك عبد العزيز حق قدرها إلا الواقفون على أحوال البلاد العربية المتصلون بها ، الخبيرون بشئونها ، الملمون بأحوال سكانها وطرق معيشتهم . إن الذى يعرف بلاد العرب — قبل ثلاثين سنة — عن خبرة شخصية ، أو يقرأ كتب الجوابين من الإنجليز : يعرف ما لهذا الرجل من فضل فى استتباب الأمن ، والضرب على أيدى قطاع الطرق من القبائل .

والذى يعرف بلاد العرب وما كانت عليه من تشاحن بين أمرائها ، وحروب مستعرة بين حكامها ، يقدر مجهود هذا الرجل فى قطع دابر الخصومات بتوحيد بعض الإمارات المتخاصمة .

ولقد ذكرنا فى فصول متفرقة فى هذا الكتاب ما له من الأيادى ، كإدخال النظام الصحى الحديث فى نجد والأحساء بالإكثار من الأطباء ، وإنشاء المستشفيات المتنقلة لمعالجة المرضى ، لأن حالة البلاد المالية لاتساعد على إنشاء مستشفى فى كل بلد ، كما أدخل نظام التطعيم ضد الجدرى بالرغم من معارضة بعض المتعصبين ، كما ذكرنا فضله على العمل لنشر التعليم والإكثار من المدارس ، ومكافحة الجهل بكل الوسائل الممكنة ، ولولا قلة المال الذى يعوز كل مشروع إصلاحى لوجدنا البلاد العربية التى يقود سفينتها عبد العزيز أسبق البلاد وأسرعها خطى فى طريق التقدم .

والملك عبد العزيز فى طريقه الإصلاحى يفضل التؤدة والتأنى وإعداد الشعب تدريجاً لما يريد له من الإصلاح .

إن كثيرا من القراء لا يدركون الصعوبات التى كان يعانيها الملك عبد العزيز ، ولا العقبات التى كانت تقف فى سبيل ما يريد من المشروعات .

لقد مكث الملك عبد العزيز يجاهد ويجالد فى سبيل التليفون والتلغراف اللاسلكى جهاداً عنيفاً — مرة مع الإخوان ، وآونة أخرى مع العلماء نحو عشر سنوات — وكان هذا الموضوع من الموضوعات التى أثارت عليه حفيظة الإخوان .

سأقص عليك القصتين التاليتين ، من كثير ، لتعرف المحيط الذى كان يشتغل فيه الملك عبد العزيز ، وتعرف الصعوبات التى كان يتغلب عليها .

أوفدنى جلالة الملك للمدينة سنة ١٣٤٦هـ — ١٩٢٨م مع عالم كبير من علماء نجد للتفتيش الإدارى والدينى ، فجرى ذكر التلغراف اللاسلكى وما يتصل به من المستحدثات ، فقال الشيخ : لا شك أن هذه الأشياء ناشئة من استخدام الجن ، وقد أخبرنى ثقة أن التلغراف اللاسلكى لا يشتغل إلا بعد أن تذبح عنده ذبيحة ، ويذكر عليها اسم الشيطان .

ثم أخذ يذكر لى بعض القصص عن استخدام بنى آدم الشيطان ، ولم يكن لشرحى لنظرية التلغراف اللاسلكى وتاريخ استكشافه نصيب من إقناع الشيخ ، فلم أجد أي فائدة من وراء البحث . فسكت على مضض .

وفى يوم من الأيام دعانى الشيخ لمرافقته لزيارة قبر حمزة عم الرسول صلى الله عليه وسلم عند جبل أحد — وهو يبعد عن المدينة بالسيارة نحو نصف ساعة — فلبيت الدعوة وسرنا من المدينة بعد صلاة العصر ، وفى أثناء الطريق أوقفت السيارة عند محطة التلغراف اللاسلكى ، وهنا دار بينى وبين الشيخ الحديث التالى :

سأل الشيخ : لماذا وقفت السيارة ؟ فأجبته . لنرى التلغراف اللاسلكى ، فإن كان هنالك ذبائح ودعوة لغير الله ، فإنى سأحرقه مهما كانت النتيجة ، فالدين لله لا لابن سعود ، وقد يكون الملك مخدوعا فى أمر هذه التلغرافات ، وتذكر له الأشياء على غير حقيقتها . فقال الشيخ : بارك الله فيك . فدخلت المحطة ، وبعد البحث لم يجد الشيخ أى أثر لعظام الذبائح وقرونها أو صوفها ، ثم أراه الموظف المختص طريقة المخابرة . وفى دقائق تبودلت المخابرات والتحيات بينه و بين جلالة الملك فى جدة .

كانت هذه الزيارة البسيطة مدعاة للشك فيما كان يعتقده من عمل الشيطان فى المخابرات اللاسلكية ، ولكنه ظن أنى ربما دبرت هذه المكيدة بإيعاز الملك ، فزار الشيخ محطة التلغراف بضع مرات منفرداً فى أوقات مختلفة ، بدون أن يخبر أحداً بعزمه ، فكان يفاجئ العامل المختص بالزيارة ، ويسأله عن كل ما يخفى عليه ، وقد أخبرنى الشيخ ونحن فى طريق عودتنا إلى مكة ، بأنه يستغفر الله ويتوب إليه مما كان يعتقده ، ويتهم به بعض

الناس — وربما كان يقصدنى بذلك — ثم ختمت الموضوع بقولى : ما قولكم ياحضرة الشيخ فى رواية أولئك الثقات ؟ أخشى أن تكون رواياتهم لكم عن أكثر المسائل العلمية كرواياتهم عن التلغراف ! فقال : حسبى الله ونعم الوكيل .

وقد أخبرنى جلالة الملك فى شعبان سنة ١٣٥١ هـ — ديسمبر سنة ١٩٣٢ م أثناء زيارتى للرياض أن بعض كبار رجال الدين حضروا عنده سنة ١٩٣١ م لما علموا بعزمه على إنشاء محطات لاسلكية فى الرياض وبعض المدن الكبيرة فى نجد . فقالوا له : ياطويل العمر ، لقد غشك من أشار عليك باستعمال التلغراف وإدخاله إلى بلادنا وإن « فلبى » سيجر علينا المصائب ، ونخشى أن يسلم بلادنا للإنجليز ، فقال لهم الملك : لقد أخطأتم فلم يغشنا أحد ، ولست — ولله الحمد — بضعيف العقل ، أو قصير النظر لأخدع بخداع المخادعين ، وما «فلبى» إلا تاجر . وكان وسيطاً فى هذه الصفقة ، وإن بلادنا عزيزة علينا لا نسلمها لأحد إلا بالثمن الذى استلمناها به . إخوانى المشايخ ، أنتم الآن فوق رأسى . تماسكوا بعضكم ببعض لا تدعونى أهز رأسى فيقع بعضكم أو أكثركم ، وأنتم تعلمون أن من وقع على الأرض لا يمكن أن يوضع فوق رأسى مرة ثانية ؛ مسئلتان لا أسمع فيهما كلام أحد ، لظهور فائدتهما لى ولبلادى ، وليس هنالك من دليل أو سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم يمنع من إحداث اللاسلكى والسيارات .

وعندما وضعت الآلة اللاسلكية فى الرياض واستعملت ، كان الناس يغرى بعضهم بعضاً بأن إنشاء هذه المحطة هو الحد بين الخير والشر . وكان العلماء يرسلون من يأتمنونهم لزيارة المحطة ورؤية الشياطين والذبائح تقدم لهم ، فلم يجدوا شيئاً .

وقد أخبرنى عامل المحطة بأن بعض المشايخ الصغار كانوا يترددون عليه من وقت لآخر لسؤاله عن موعد زيارة الشياطين . وهل الشيطان الكبير فى مكة أو الرياض ؟ وكم عدد أولاده الذين يساعدونه فى مهمة نقل الأخبار ؟ فكان يجيبهم بأن ليس للشياطين دخل فى عمله ، وكان بعضهم يغريه بالنقود وأنهم سيكتمون هذا السر . ولكن العامل كان يأخذ الأخبار ويرسلها أمامهم ويخبرهم أن الموضوع صناعى محض . كانت الأيام تعمل عملها فى نفوسهم ، ورسلهم ينقلون إليهم حقيقة مايرونه ويشاهدونه حتى لمسوا فائدة سرعة الأخبار

فى فتنة ابن رِفادة وعسير . فقد ساعدهم ذلك على قمع الفتنة سريعاً ، ولو كان الاعتماد على الجمال لكانت الأخبار لاتصل قبل ٢٥ يوماً أو أكثر ، ومثلها فى الرجوع ، ولا يعلم إلا الله ماذا يجرى من الحوادث أثناء ذلك .

وتذكرنا هذه القصة بما كان يجرى فى القرون الوسطى فى أوربا ، فماذا قوبل القائل بدوران الأرض ؟ وبماذا قابل امبراطور فرنسا ووزراؤه الساعة التى أهداها له هرون الرشيد ؟ ألم يفزعوا منها . ولقد حدث مثل هذا فى نجد قبل ستين سنة ؛ فإن أول ساعة دقاقة كسرت ، وعدت من عمل الشيطان ، وحدث أن بعض الجهلة أذاع بين الإخوان هذه الفكرة فقامت قيامة الإخوان منكرين على المشايخ استعمالها ، وأن أقل الأحوال فيها أنها بدعة ، فتصدى لهم أحد المشايخ ورد عليهم فى رسالة صغيرة سنة ١١٣٤ هـ (١٩١٦ م) وطبعت فى مصر سنة ١٩٢٣ .

فهذه القصص وأمثالها ترينا ناحية من نواحى عظمة ابن سعود ، ومقدار ما كان يعانيه من الصعوبات فى طريق الإصلاح ، وترينا ناحية من نواحى الكفاح بين القديم والجديد .

ومن أعظم المشروعات الإصلاحية التى قام بها الملك عبدالعزيز : مشروع تحضير البادية وإقطاعهم الأراضى للسكنى والزراعة ، وتعليمهم المبادئ الدينية ومكارم الأخلاق . ولما كان هذا المشروع قد شغل قسما من التاريخ النجدى الحديث ، أحببنا أن نفرد له الفصل الآتى ، مفضلين التفصيل على الايجاز .

ولقد امتدت يد الإصلاح إلى كثير من المرافق بعد استكشاف الزيت « البترول » وكثرة إيراداته فمدت أنابيب المياه العذبة من وادى فاطمة إلى جدة ، كما بنى مرفأ حديثا ضخما لجدة ترسو عليه السفن وفتحت المدارس فى كثير من البلدان النائية ، وأرسلت البعثات العلمية إلى مختلف البلدان وهى نهضة تبشر بخير عظيم .

ولقد توفى الملك العظيم فى ٩ نوفمبر ١٩٥٣ وترك الأمانة لخير من يحافظ عليها ويرفع شأنها ، ويحوطها بعين رعايته نجله الأكبر جلالة الملك سعود الأول — حفظه الله — وهو فى أول سنة من حكمه أبدى نشاطا عظيما فى تفقد شئون رعيته والوقوف على ما تحتاجه من عناية .

الإخوان

إذا ذكر الإخوان على حدود العراق ، أو شرق الأردن ، أو الكويت استولى الرعب على قلوب السكان ، وهب البدو بطوون الصحراء لائذين بالبلاد القريبة منهم يحتمون بجدرانها وأبراجها . فمن هم رسل الذعر والهلع فى بلاد العرب ؟ .

إن كلمة « الأخ » قد استعملت بمعنى الحليف والمعاهد أول نشأة الإسلام ، فقد آخى رسول الله صلى الله عليه وسلم بين الأوس والخزرج من الأنصار وتناسوا ما بينهم من العداء والخصومات ، وإلى هذا تشير الآية الكريمة : « واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرّقوا واذكروا نعمة عليكم إذ كنتم أعداء فألّف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته إخواناً . وكنتم على شفا حفرة من النار فأنقذكم منها »

أما فى السنوات الأخيرة : فقد أصبحت علماً على سكان البادية الذين تركوا السكنى فى الخيام واستقروا فى أماكن معينة ، وبنوا لسكناهم بيوتاً من الطين سميت « هجرة » إشارة إلى أنهم هجروا الحياة القديمة المكروهة إلى حياة أخرى محبوبة .

إن أول « هجرة » بنيت هى هجرة الأرْطَاوِيّة سنة ١٣٣٠ هـ — ١٩١١ م ، وسكانها خليط من قبائل حرب ومطير ، ثم الغُطغُط وسكانها من « عِتيبة » ثم « دخنة » وأكثر سكانها من حرب ، ثم « الأجْفَر » وأكثر سكانها من شمَّر ، وتبلغ الهِجَر نحو ستين هجرة ، ولكن أهمها ما تقدم .

ثم أخذت الهجر تنتشر بسرعة ، وأخذت العشائر تقلد بعضها بعضا فى ترك حياة البادية التى أصبحت تسمى عندهم بالجاهلية كما يسمون الحياة الجديدة بالإسلام .

وقد غالى فريق كبير من عتيبة فى كره الجاهلية أو حياة البادية ، فرأوا أن من آية الإخلاص لله ودينه ، وآية الإيمان الصحيح : التخلص من كل ما يشتمّ منه رائحة الجاهلية ، فأخذوا يبيعون إبلهم وأغنامهم ، وينقطعون فى « الهجر » للعبادة وسماع السيرة النبوية ، وغزوات الرسول صلى الله عليه وسلم ، وتاريخ انتشار الإسلام فى جزيرة العرب ، فوجدوا

أن حياتهم الأولى تشبه فى كثير من الوجوه حياة الجاهلية ، كما أن حياتهم الأخيرة تشبه حالة الإسلام فى أيامه الأولى . فعكف أكثرهم على تعلم مبادىء القراءة وحفظ شىء من القرآن والحديث . غير أن هذا الانقلاب كان خطيراً وعنيفاً جداً .

لقد تشرب هؤلاء كثيراً من المبادىء والتعاليم الناقصة ، حتى اعتقدوا أنها هى الدين ، وما سواها ضلالة ، كما أساءوا الظن بغيرهم من حضر نجد ، بل و بوَلىِّ أمرهم الإمام عبد العزيز .

أصبحوا يعتقدون أن لبس العمامة هى السنة ، وأن العقال من البدع المنكرة ، بل غالى بعضهم فجعله من لباس الكفار ، ويجب مقاطعة لابسيه . وكان كثير منهم يعتقد أن لا إسلام لمن لم يسكن الهجرة مهما كان عليه من الإسلام ، وترك شرور البادية وعوائدها ، فلا يبدأون غيرهم من هؤلاء بسلام ، ولا يردون عليهم السلام ، ولا يأكلون ذبائحهم . وذنب هؤلاء عندهم هو عدم سكنى الهجرة .

وكان من عوائد الإخوان إذا قدموا زائرين قاموا فى المسجد ، وقالوا : السلام عليكم (ياالاخوان) إخواننا يسلمون عليكم .

وكان فريق منهم يعتقد أن المشايخ مقصرون مداهنون لابن سعود ، وقد كتموا الحق عنه .

وكانوا يعتقدون أن الحضر ضالون ، وأن غزو المجاورين واجب ، وأنه ألقى عليهم هذا الواجب من قبل الله . فلا يسمعون كلام أحد فى منع الغزو .

ولقد نال بعضهم الإمام عبد العزيز ، فرموه بموالاة الكفار والتساهل فى الدين ، وأنكروا عليه تطويل الثياب والشارب ولبس العقال ، إلى غير ذلك من ضروب الجهالة ، وأصبحوا يحرمون كل ما لا يتفق وهواهم . وإن سريان هذه الروح المتمردة يرجع إلى هؤلاء الجهلة أنصاف المتعلمين الذين انتشروا فى قرى الإخوان باسم العلم ، ولقنوهم هذه التعاليم وحببوا إليهم التعصب الذميم .

وربما كانت سنة ١٣٤٥هـ من أشد السنين فى نجد ، إذ كادت تقع فيها فتنة أهلية ، بين الإخوان من جهة ، وبين الحكومة والحضر من جهة أخرى ، ولقد جرد الإمام جيشاً من طلبة العلم المتفقهين فى دينهم وأرسلهم إلى الإخوان كى يصلحوا ما أفسد الأولون ، كما أنه انتزع أولئك الذين بذروا بذور الجهالة والغواية ، ومنعهم من السكنى فى

الهجر . على أن الملك عبدالعزيز — وإن نجح فى ذلك كثيراً — فإنه لم يتمكن تماماً من استئصال تلك الجذور التى تمكنت من نفوسهم ، ولولا أنهم يخافون سيفه ، ويهابون سلطانه وسطوته لعمت الفوضى جزيرة العرب .

لقد عرفتُ البدو فى حروبهم وفى حياتهم البدوية ، وعرفتهم بعد ماسكنوا الهجر ، وعرفت كثيراً من قاداتهم فى جاهليتهم وإسلامهم ، فرأيت أن الدين قد غيرهم تغييراً تاما .

كان البدوى لا همّ له إلا النهب والسلب وقطع الطريق . ثم هو يعد هذا العمل من مفاخر البادية . والويل للضعيف فى البادية . وكان لسان حالهم يقول «المال مال الله ، يوم لى ويوم لك ، نصبح فقراء ونمسى أغنياء ، ونصبح أغنياء ونمسى فقراء» والقوافل التجارية كانت تحت رحمة البادية ، لاتمر من المنطقة إلا بإتاوة أو مجيز .

والبدوى لم يكن أبداً مخاطراً بحياته ، فإذا رأى أن النهب سيكون من ورائه خطر تركه . وكذلك إذا رأى دفاعا قويا من خصمه تركه .

والبدوى لا يعرف قلبه الإخلاص تقريباً ، شيمته الرياء والنفاق ، لاتنفع معه إلا الشدة المشوبة بالعدل ، ولذا فلا يعول الأمراء كثيراً على عددهم ولا على قوتهم . وكثيراً ما كانوا وبالا على صديقهم . فإذا بدرت منه بوادر الهزيمة فانهم يكونون أول الناهبين له . ويحتجون بأنه مادام صديقهم منهوبا ، أو مأخوذاً — كما يقولون — فهم أولى به .

أما الإخوان الآن : فهم حماة الطريق ، يرون حرمة التعدى على المسافر وابن السبيل ، ويرون للجار والمسلم حرمته ، فالمسلم حرام دمه وماله .

أصبح الإخوان لايهابون الموت ، بل يندفعون إليه اندفاعا ، طلباً للشهادة ولقاء الله ، وأصبحت الأم حينما تودع ابنها تودعه بهذه الكلمات « جمعنا الله وإياك فى الجنة » وأصبحت كلمة التشجيع على الحرب « هبت هبوب الجنة وينْ أنتْ ياباغيها » .

وكلمتهم عند الهجوم « إياك نعبد وإياك نستعين » .

ولقد شاهدت بعض مواقعهم الحربية ، فوجدتهم يقذفون بأنفسهم إلى الموت قذفاً ويتقدمون إلى أعدائهم صفاً صفاً ، ولا يفكر أحدهم فى شىء إلا هزيمة العدو وقتله .

والإخوان على العموم لا تعرف قلوبهم الرحمة على الأعداء ، ولايفلت من تحت يدهم أحد . فهم رسل الموت أينما رحلوا .

قد ظهرت قوة الإخوان الحربية فى هزيمة أهل الكويت هزيمة منكرة فى واقعة «حمض» سنة ١٩١٩ م ، ثم فى حصار شيخ الكويت فى «الجهرة» سنة ١٩٢٠ م ، وفى إبادة جيش الشريف عبد الله فى واقعه «ترَبة» سنه ١٩١٩ م ، وفى هجومهم المتكرر على العراق والكويت وشرق الأردن .

وبالرغم من أن إمامهم كان ينهاهم كثيراً عن هذه الغزوات ، وأنه كان دائماً يأمرهم بالرفق وعدم القتل ، وبالرغم من أن علماءهم كانوا يوصونهم دائماً بعدم قتل الأسير أو المستجير ، فانهم لم يصغوا إلى أحد .

وإن من يقرأ رسائل العلماء فى الإنكار عليهم ، وعلى أنصاف المتعلمين الذين سمموا أفكارهم ، يرى أن علماء نجد لم يقصروا فى النصيحة ، ويعلم أن مايأتيه بعض الإخوان مما تأباه طبائع العرب ، ولا تقره الشريعة الإسلامية ، لا يصح أن تلقى تبعته على علماء نجد أو الملك عبد العزيز .

وللإخوان قصص طريفة تدل على بساطتهم وشدة تأثرهم بالدين :

جاء أحد الإخوان إلى أحد المشايخ وسأله عن النفاق ؟ فأخبره بحده الشرعى . ثم سأله عن الخوف فى الحروب ؟ فقال له العالم : إذا لم تعط العدو ظهرك فلا يسمى هذا فراراً أو نفاقاً ، فقال : لا ، إن شاء الله لا أعطى العدو ظهرى . إن هذا كفر ياشيخ . لا ، إن فى قلبى نفاقاً . إنى حينما كنت أهجم وجدت فى نفسى شيئاً من التردد بسبب أزيز الرصاص ، لا بد أن يكون النفاق فى جنبى . أخرج النفاق بعصاك أيها الأخ . ولكن الشيخ أفهمه بصعوبة أن هذا ليس من النفاق أو الكفر أو الهزيمة .

وجاء رجل آخر حاملاً صرة فيها نقود ذهبية وجدها بعد معركة «تربة» ، فسأل الشيخ : هل هى حلال له ؟ فقال الشيخ : إنها من الغنيمة . ولا يحل لك إلا ما سيصيبك بعد القسمة فسلمها من فوره لمتولى الغنيمة ، ثم قال : لا والله لا أستحلها

فأين هذا من خلق البادية ؟

إذا وجدك الأخ فى الطريق ووجد شاربك طويلاً فإنه يدعوك إلى السنة ، ثم يضع يده على شاربك ويقص الزائد . أما إذا كنت ماراً بالهجرة فإن العملية تتم قسراً وزجراً لا بطريق النصح واللطف .

وكذلك إذا وجدوا الثوب زائداً فإن المقص يعمل عمله فى الزائد تنفيذاً للحديث «ما تحت الكعبين فى النار» وبالرغم مما يأتيه الإخوان من الخطأ والخطل، وتجاوزهم حدودهم إزاء الحكومة، فإن الملك ابن السعود كان يغضى عن أذاهم، ويحتمل نقدهم بحلم وصبر، قلما عرف عن غيره من ملوك العرب. وكان دائماً يقول: إن الإخوان يجب احتمالهم. ومهما فعلوا فحالتهم الآن خير من حالتهم الأولى. وأما هذه العصبية والشدة: فالزمن كفيل بتخفيف حدتها.

أما شدة الإخوان فى مكة — أول دخولهم لها — فحدث عنها ولا حرج، فلم تكن هنالك أى هيبة للحكومة، فكل مايعتقده الأخ منكراً يزيله بنفسه، ببندقيته أو بعصاه أو بيده.

وكثيراً ما كان الملك ابن السعود ينزل على رأيهم اتقاء لفتنة قد تحدث. كما أنه كثيراً ما كان يقبض عليهم بيد من حديد إذا رأى أن المسايرة قد تضعف سلطانه فى جزيرة العرب.

لأول مرة شاهد الملك ابن السعود التليفون فى مكة، ورأى الفائدة العظيمة التى يؤديها التليفون فى إنجاز الأعمال وسرعة المواصلات، ولما نقل معسكره من الزاهر (الشهداء بقرب مكة) إلى حدّاء أراد أن يمد سلكا تليفونياً بين مكة وبين حدّاء، وسلكا آخر بين الرغامة وبين حدّاء، حتى يكون على اتصال تام بين مكة ومقره وفى ميدان الحرب. وكنا نقطع المسافة بين مكة وبين معسكره الخاص فى ٤ ساعات ذهاباً، ومثلها إياباً، بالبغال أو الإبل السريعة، وكانت الخيل تقطع المسافة أيضاً فى مثل هذه المدة من الرغامة إلى حدّاء، ولكنه عدل أخيراً عن هذه الفكرة. لأن إنشاء التليفون قد يهيج ثائرة الإخوان، فأرجأ هذه المسألة. وكثيراً ما كان الإخوان يقطعون أسلاك التليفون لأنه منكر يجب إزالته. وكثيراً ما كانوا يتعمدون قطع الأسلاك الموصلة إلى قصر ابن السعود أثناء وجوده فى مكة. كل هذا كان يتحمله على مضض معتمداً على الزمن. وحدث مرة أن أحد الإخوان ضرب خادماً للملك يركب عجلة (بسكليت) وتسمى بلغة نجد (عربة الشيطان) أو (حصان إبليس) بدعوى أنها بدعة، وأنها تسير بقوة السحر وعمل الشيطان، بدليل أن الراكب إذا نزل لم تقف، ولكن الملك أدب هذا المعتدى أدباً أرجعه إلى رشده.

وفى سنة ١٩٢٦ م اضطر جلالة الملك أن ينزل على رأيهم فى إيقاف تلغراف المدينة اللاسلكى ، وهدم بعض المساجد المقامة على القبور ؛ لأنه لم يكن يسعه غير ذلك ، والحكمة كانت تقضى بذلك ، فهو لايقف أمام التيار ، بل يتركه يسير بطبيعته ، ثم بعد أن تهدأ العاصفة يعمل فكره لضرب خصومه فى الظروف المناسبة ، وعند سنوح الفرص الملائمة .

وكان أشد الناس على الإخوان : الأمير عبدالله بن جلوى حاكم منطقة الاحساء ، فكثيراً وماسمعته يقرع رؤساء بنى خالد وآل مرة والعجمان على شدتهم وغلوهم ، ويقول : إن حالتهم الأولى — على ما فيها من الشرور — خير من حالتهم هذه ، وإن الدين ليس فى العمائم . وهو لايسمح لأحد منهم كائناً من كان أن تمتد يده إلى أحد من أهل الاحساء ، وإذا تجرأ أحد فجزاؤه أصرم العقوبات ، ولذلك كانوا إذا دخلوا الاحساء للميرة نزعوا عمائمهم وقضوا حوائجهم فى هدوء وسكون . ولقد سمعت الأمير عبد الله بن جلوى وغيره من آل سعود وكبار آل الشيخ ينصحون الملك عبد العزيز بالتبصر فى غلو الإخوان وخروجهم عن حدودهم ، ولكن الملك كان دائماً يقول : هؤلاء أولادى . وواجبى احتمالهم والتجاوز عن سيئاتهم وخطئهم ، وبذل النصح لهم ، وإنى لا أنسى أعمالهم وأعتقد أنهم حسنوا النية وسينكشف الحق لهم .

أول مؤتمر للإخوان

فى عيد الفطر سنة ١٣٤٣ هـ — وهو أول عيد لنا فى مكة — زرت الشريف خالد بن لؤى أنا والدكتور عبد الله الدملوجى . وكان لديه فيصل الدويش وجماعة من الإخوان اجتمعوا هنالك بعد صلاة العيد للمعايدة على بعضهم ، فخطب الحضور فيصل الدويش ، وهذه عادة من عادات الإخوان . لاتخلو مجالسهم من نصيحة أو عظة ، فقال مخاطباً خالداً وجماعته :

نحمد الله ياخالد ، ويا « الإخوان » على نعمته ، فقد دخلنا بلد الله الحرام وطردنا الشريف من هذا البيت . إننا جند الله وخدم لدينه ، لا نريد إلا أن تكون كلمة الله هى العليا ودينه هو الظاهر ، ولا نريد إلا رفع المظالم وإزالة البدع والمنكرات .

---

(١) والقد نحا منحا أبيه الأمير سعود بن جلوى الذى خلف فى إمارة الأحساء أباه بعد موته .

وإن هذا السيف وهـذا الجند سيعمل هذا العمل فى كل من يسير فى طريق الشريف ويعمل عمله ، فأمن الإخوان كلهم على كلامه .

فكان هذا فى الحقيقة أول إنذار من أحد قادة الإخوان ، ولم تمض سنة على هذه الخطبة حتى سمعنا أن هنالك مؤتمراً يعقد فى الأرطاوية ، حضره رؤساء الاخوان من مطير وعُتيبة والعجمان ، تعاهدوا فيه على نصرة دين الله والجهاد فى سبيله ، ثم أنكروا صراحة على الملك عبد العزيز :

أولاً : إرسال ولده سعود إلى مصر .

ثانياً : إرسال ولده فيصل إلى لندن بلد الشرك .

ثالثاً : استخدام السيارات والتلغرافات والتليفونات .

رابعاً : الضرائب الموجودة فى الحجاز ونجد .

خامساً : الاحتجاج على إذنه لعشائر العراق وشرق الأردن بالرعى فى أراضى المسلمين .

سادساً : الاحتجاج على منع المتاجرة مع الكويت ؛ لأن أهل الكويت : إن كانوا كفاراً حوربوا ، وإن كانوا مسلمين فلماذا المقاطعة ؟ .

سابعاً : النظر فى شيعة الاحساء والقطيف ، وإجبارهم على الدخول فى دين أهل السنة والجماعة .

لقد عجل الملك عبد العزيز بالرجوع من الحجاز إلى نجد عن طريق المدينة ليعالج الحالة بحكمته ، فدعا زعماء الإخوان إلى مؤتمر أمر بعقده فى الرياض فى ٢٥ رجب سنة ١٣٤٥ هـ — يناير سنة ١٩٢٧ م ، وقد لبى الدعوة جميع زعماء الإخوان ما عدا سلطان ابن بجاد . وفى هذا الاجتماع شرح الملك عبد العزيز موقفه شرحاً وافياً ، فوصف نفسه بأنه خادم الشريعة ، يحافظ عليها أتم المحافظة ، وأنه هو الذى يعهدونه من قبل لم يتغير . كما يتوهم بعض الناس ، ولا يزال ساهراً على مصالح العرب والمسلمين .

وقد انتهى هذا الاجتماع بالفتوى المشهورة التى أصدرها علماء نجد فى صدد المسائل التى كانت سبب تشويش الإخوان ، وأعلن الحاضرون تعلقهم بإمامهم وملكهم ، وبايعوه بالملكية على نجد ، فأصبح لقبه الرسمى « ملك الحجاز ونجد وملحقاتها » وفيما يلى نص الفتوى :

من محمد بن عبد اللطيف ، وسعد بن عَتِيق ، وسليمان بن سَحْمان ، وعبد الله بن عبدالعزيز العتيق ، وعبد الله العنقرى ، وعمر بن سليم . وصالح بن عبد العزيز ، وعبد الله بن حسن ، وعبد الله بن عبد اللطيف ، وعمر بن عبد اللطيف ، ومحمد بن ابراهيم ، ومحمد بن عبد الله ، وعبد الله بن زاحم ، ومحمد بن عثمان الشاوى ، وعبد العزيز العنقرى ، إلى من يراه من إخواننا المسلمين . سلك الله بنا وبهم الطريق المستقيم . وجنبنا وإياهم طريق أهل الجحيم ، آمين .

سلام عليكم ورحمة الله وبركاته ، أما بعد : فقد ورد علينا من الإمام — سلمه الله تعالى — سؤال من بعض الإخوان عن مسائل يطلب منا الجواب عنها ، فأجبناه بما نصه :

أما مسألة البرق[1] فهو أمر حادث فى آخر هذا الزمان . ولا نعلم حقيقته ، ولا رأينا فيه كلاماً لأحد من أهل العلم ، فتوقفنا فى مسألته ، ولا نقول على الله ورسوله بغير علم ، والجزم بالإباحة والتحريم يحتاج إلى الوقوف على حقيقته . وأما مسجد حمزة وأبى رشيد فأفتينا الإمام — وفقه الله — بهدمهما على الفور . وأما القوانين : فإن كان موجوداً منها شىء فى الحجاز فيزال فوراً . ولا يحكم إلا بالشرع المطهر . وأما دخول الحاج المصرى بالسلاح والقوة فى بلد الله الحرام : فأفتينا الإمام بمنعهم من الدخول بالسلاح والقوة ، ومن إظهارهم الشرك وجميع المنكرات . وأما المحمل : فأفتينا بمنعه من دخول المسجد الحرام ، ومن تمكين أحد أن يتمسح به أو يقبله ، وما يفعله أهله من الملاهى والمنكرات يمنعون منها . وأما منعه عن مكة بالكلية : فإن أمكن بلا مفسدة تعين ، وإلا فاحتمال أحد المفسدتين لدفع أعلاهما سائغ شرعاً . وأما الرافضة : فأفتينا الإمام أن يلزمهم البيعة على الإسلام ، ويمنعهم من إظهار شعائر دينهم الباطل ، وعلى الإمام أيضاً أن يلزم نائبه على الأحساء أن يحضرهم عند الشيخ ابن بشر ، ويبايعوه على دين الله ورسوله ، وترك دعاء الصالحين من أهل البيت وغيرهم ، وعلى ترك سائر البدع من اجتماعهم على مآتمهم وغيرها مما يقيمون به شعائر مذهبهم الباطل ، ويمنعون من زيارة المشاهد ، كذلك يلزمون بالاجتماع على الصلوات الخمس هم وغيرهم فى المساجد . ويرتب فيهم أئمة ومؤذنون ونواب من أهل السنة . ويلزمون بتعليم ثلاثة الأصول

---

(١) التلغراف اللاسلكى .

وكذلك إن كان لهم محالّ مبنيّة لإقامة البدع تهدم ، ويمنعون من إقامة البدع فى المساجد وغيرها . ومن أبَى قبول ما ذكر ينفى من بلاد المسلمين . وأما الرافضة من أهل القطيف : فيلزم الإمام — أيده الله — الشيخ ابن بشر أن يسافر إليهم ويلزمهم بما ذكرنا . وأما البوادى والقرى التى دخلت فى ولاية المسلمين : فأفتينا الإمام أن يبعث لهم دعاة ومعلمين . ويلزم نوابه من الأمراء فى كل ناحية بمساعدة المذكورين على إلزامهم بشرائع الإسلام ، ومنعهم من المحرمات . وأما رافضة العراق الذين انتشروا وخالطوا بادية المسلمين : فأفتينا الامام بكفهم عن الدخول فى مراتع المسلمين وأرضهم . وأما المكوس : فأفتينا أنها من المحرمات الظاهرة ، فإن تركها فهو الواجب عليه ، وإن امتنع فلا يجوز شق عصا طاعة المسلمين والخروج عن طاعته من أجلها . وأما الجهاد : فهو محول إلى نظر الإمام ، وعليه أن يراعى ما هو الأصلح للإسلام والمسلمين على حسب ما تقتضيه الشريعة الغراء . ونسأل الله لنا وله ولهم ولكافة المسلمين التوفيق والهداية ، وصلى الله على نبينا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

[حرر فى ٨ شعبان سنة ١٣٤٥ هـ]

إزاء هذه الفتوى اضطر الملك إلى عدم قبول المحمل ، كما اضطر إلى هدم مسجد حمزة ، وتعطيل التلغراف اللاسلكى . فعمل بذلك على تلافى الفتنة أو تأجيل وقتها .

لم يرض الدويش — وهو أول رأس مدبر لثورة الإخوان — أن يحبط ابن سعود عمله وتدبيره فوضعه أمام مشكلة جديدة . وذلك أنه أرسل قوة صغيرة فى أكتوبر سنة ١٩٢٧ م قتلت عمال مخفر بُصَيّة على الحدود العراقية النجدية ، وقتلت بضعة أنفار من الشرط كانوا مع العمال ، فأدى هذا العمل إلى إنذار السلطات البريطانية فى العراق للعشائر التى على الحدود بالابتعاد إلى داخل نجد ، ثم هجوم الطيارات البريطانية واشتباكها مع العشائر النجدية نحو ثلاثة أشهر ، فرأت الحكومة البريطانية — بعد مفاوضات مع جلالة الملك عبد العزيز — إيفاد السير جلبرت كلايتون لحل المشاكل القائمة . وقد رأى جلالة الملك أن يعقد مؤتمر بُرَيْدَة فى أبريل سنة ١٩٢٨ م لتهدئة ثائرة الإخوان وإفهامهم أنه يشاركهم الرأى فى سخطهم على بناء المخافر على الحدود ، ولكنه يرى الأفضل حسم المشكل بطريق المفاوضات وأخبرهم أنه مسافر إلى جدة للاجتماع بالمفاوض البريطانى ، ووعدهم بالاجتماع معهم فى الرياض بعد رجوعه من الحجاز ، ومفاوضة الحكومة البريطانية ، لإيقافهم على جلية

الأمر ، غير أن المفاوضات البريطانية لم تسفر عن قبول وجهة النظر النجدية . وأصرت هي والحكومة العراقية على موقفهما فى بناء المخافر .

رجع الملك عبد العزيز من الحجاز إلى الرياض . فوصلها فى ديسمبر سنة ١٩٢٨ م وأمر بعقد المؤتمر النجدى — أو الجمعية العمومية — كما سمتها أم القرى فى ١٠ جمادى الأولى سنة ١٣٤٧ هـ — ١٩ أكتوبر سنة ١٩٢٨ م .

اجتمعت الجمعية العمومية فى أحد أروقة القصر الداخلية . وكان عدد الحاضرين نحو ٨٠٠ من علماء ورؤساء حضر وبدو . ولم يحضر الدويش ولا ابن بجاد هذا المؤتمر . وقد افتتح الملك المؤتمر بخطبة شرح فيها تاريخه فى نجد من بدء استرداده الرياض إلى الوقت الحاضر ، وأعماله فى توحيد الجزيرة ، وتأمين الطرق ، والإخاء بين العشائر . وبعد أن انتهى من خطبته عرض على الحاضرين تنازله عن العرش ، ووجوب اختيار غيره من آل سعود ، وأنه يعاهدهم أنه سيساعد من يختارونه . وأخبرهم أيضاً بنتيجة المفاوضات البريطانية وتمسك الإنجليز بالمبانى ، ولكنه ألقى على الدويش مسئولية بناء المخافر بسبب تعديه على الحدود العراقية من وقت لآخر .

أما مسألة التنازل عن العرش : فلم تقبل بالطبع ، لأنهم يعلمون أن ابن سعود لم يصل إلى ما وصل إليه إلا بمعونة الله ثم بسيفه ، ولذا فقد بايعوه مرة أخرى على السمع والطاعة والسير وراءه . وفى الواقع لم يكن الملك يرمى فى هذا المؤتمر إلا إلى اجتماع كلمة النجديين وإثارة حميتهم ضد الإخوان المتطرفين . وهذا الناحية قد نجح فيها نجاحا تاما .

أما الإخوان المتطرفون الذين التفوا حول ابن بجاد وفيصل الدويش وابن حثيلين : فإنهم لم يأبهوا لهذا المؤتمر . وقد أذاعو فى الهُجَر أنهم قائمون بأمر الدين وإقامة الشريعة التى كاد يهدمها ابن سعود ، وأن ابن سعود طالب ملك ، وموال للكفار ، وشريك لهم فى جميع الأعمال ،وأتبعوا هذا التهديد بالإغارة على حدود الكويت والعراق أحياناً ، ونهب القوافل النجدية أيضاً .

وقد أثبتت حوادث ثورة الإخوان أنه لا يزال للعصبية شأن كبير فى جزيرة العرب . فإن كثيرا من الإخوان الذين حضروا الجمعية العمومية من مطير والعجمان وعتيبة كانوا

تحت لواء الدويش وابن خثيلين فى الثورة بالرغم من مبايعتهم وعهودهم التى قطعوها للملك ابن السعود ، ثم أخذوا يتعدون على السابلة بدون أن يفرقوا بين أهل نجد وغيرهم ، وأخذوا يعملون السيف فى رقاب من توقعه الأقدار تحت أيديهم لأنهم كفرة .

لم يستطع الملك ابن السعود صبراً على هذه الحالة التى أصبحت تهدد البنيان الذى أسسه فى ثلاثين سنة . فاستحث أهل نجد عليهم ، وكلهم ناقم عليهم ، بل أكثرهم كان ناقداً لسياسة ابن السعود فى ملاينتهم وإرخاء الحبل لهم .

اجتمع أهل نجد حول راية ابن السعود فى القصيم . كما اجتمع حوله كثير من الإخوان — حرب ، وقحطان ، و بعض من مطير وعتيبة — الناقمين على الدويش وابن حميد . فلما أن علم الإخوان بوصول ابن سعود إلى بريدة اجتمعوا كلهم بعد ما كانوا مشتتين ، وصمموا على مهاجمة ابن السعود ، وهم واثقون من الفوز تمام الثقة . ولقد كان مع ابن سعود سلاح آخر لا يقل عن سلاح الجند . وهم العلماء ، ولكن العاصين لم يعودوا يثقون حتى بالعلماء .

استمرت المفاوضات بين ابن السعود وبين الإخوان مدة ، والملك يقرب بجنوده منهم حتى تقارب الجيشان فى السَّبلة قرب الزِّلفِى .

ابن بجاد يرسل رسولا إلى ابن سعود

ثم أرسل ابن بجاد رسولا إلى ابن سعود فى معسكره ، فدخل الرسول يحمل كتاباً إلى ابن سعود ، فلم يسلم هذا الرسول على الملك لأنه مبتدع فى زعمهم . إنها لكبيرة ، وهل يصبر ابن السعود على هذه الإهانة ؟

— من أنت ؟ ألست ماجد بن خِثيلة ؟ وأخذ يسرد عليه تاريخه . ويقرعه ، ويقول : أتدخل علىّ ولا تسلم ؟ اذهب من فورك إلى الذى أرسلك . وأخبره أننا قادمون للهجوم عليهم غداً ، فإذا أرادوا أن يحقنوا دماءهم فليستسلموا بلا قيد ولا شرط ، والشريعة هى الحكم بينى و بينهم ، وهؤء العلماء حاضرون . قم واذهب إلى رفيقك .

وقد أخبرنى ماجد — وكان كالوزير لابن بجاد — بأنه أشار عليه بتقديم خضوعه إلى إمامه قبل أن يحم القضاء ، لأن ابن سعود ليس هو الرجل اللين الذى كانوا يعهدونه ، ولكن الدويش

طلب منهم أن يذهب هو بنفسه ليرى جلية الأمر . وأخبرهم أنه إذا لم يرجع إليهم مساء يكون ابن سعود قد اعتقله .

وصل الدويش إلى المعسكر . ثم أخذ يتملق الملك ومن معه . وأظهر استعداده للتسليم وأنه ليس على رأى ابن حميد ، وأنه سيبيت عندهم ، فقال له الملك : قم فنم عند قومك وموعدكم غداً بعد شروق الشمس ، وإن كنت صادقاً فتنح عن الجماعة ، وإن لم تكن صادقاً فسترى وخامة العاقبة ، والله ولى الصابرين .

— ماذا رأيت (يا الدويش ؟) سؤال وجه إليه من أركان حرب الإخوان .

— ماذا رأيت ! رأيت حضريا ترتعد فرائصه من الخوف ، وليس حوله إلا طبابيخ (طهاة) لا يعرفون إلا النوم على الدواشح (المراتب) ابشروا يا إخوان . لقد وجدت لديهم حلالا كثيراً وأموالا عظيمة ، فأبشروا بالكسب والغنيمة ، وسنقهر هذا الطاغوت غداً ونستولى على ماله . هذه رواية بعض الإخوان الذين كانوا مع العصاة .

وفى اليوم الثانى ٣٠ مارس سنة ١٩٢٩ م هاجمت جيوش الملك ابن السعود جنود الإخوان ، وحملت عليهم حملة عنيفة لم يقدروا على ردها ، ولم ينتصف النهار حتى ولى الإخوان الأدبار ، ففر ابن بجاد من المعركة . وحمل الدويش جريحاً إلى الملك يحوط به بناته وزوجته وهن يبكين يستشفعن فيه ، فتأثر الملك من هذا المنظر وعفا عن الدويش الذى عاهد على السمع والطاعة بعد ذلك ، وبعد ثلاثة أيام استسلم ابن بجاد فى شَقْرَا ، فأمر الملك بسجنه . لأنه كان خطراً على الأمن ، ولا يأمن شره من الانتقاض ، ثم أمر الملك ولده وأخاه بتأديب العصاة حسب درجاتهم ، كما أمر ابن جلوى بتأديب العجمان .

الثورة تعود مرة أخرى

رجع الملك إلى الحجاز بعد أن قهر الإخوان ، غير أن الضربة لم تكن فاصلة . فإن الدويش الذى كان يظن أنه سيموت متأثراً من جراحه قد برئ ، وبدلا من أن يعود إلى صوابه ويستغفر الله مما ارتكب ، ظن أن ابن سعود قد يقبض عليه ويلقيه فى غياهب السجن مثل ابن بجاد وجماعته . فترك الأرطاوية واستقر بين الكويت والاحساء ،

وانضم إليه العجمان بعد أن قُتل زعيمهم بيد فهد بن جلوى ، و بعد أن قتلوا هم أيضاً فهداً انتقاماً لزعيمهم ، وأخذوا يعيثون فى الأرض فساداً ، تارة جنو باً وتارة شمالا ، ولم يقتصر أمرهم على النهب والسلب ، بل تعداه إلى قتل الشيب والنساء والأطفال .

عادت الثورة أشد مما كانت ، فعتيبة انتشرت بين نجد والحجاز ، وفصلوا المملكتين بعضهما عن بعض ، وكادت المواصلات تنقطع بين مكة والرياض وخليج فارس . غير أن أهل نجد — لاسيما الحاضرة — لا تحمل فى قلبها إلا الإخلاص والولاء لإمامها ومليكها لتواضعه وكرمه وسهره على مصالحهم ، وتفانيه فى الدفاع عنهم ، وقد كون منهم أمة لها نصيبها من الحياة تحت الشمس .

وهل كانوا ينقمون عليه إلا تساهله مع الإخوان ، وغضه الطرف عن مساويهم ؟ إن الفرصة قد سنحت لتقليم أظافر الفوضى ودعاتها .

أخذ الملك عبد العزيز يعالج الموقف بما عرف عنه من سعة الحيلة و بعد النظر ، فقوى الحاميات فى الاحساء والقطيف وحايل ، ثم أخذ يجمع الجند فأرسل قوة كبيرة من الرياض يسندها القسم الموالى من عتيبة . وضرب عتيبة ضربة لا تقوم لها قائمة بعدها ، وصادر جمالهم وسلاحهم ، وترك لهم الضرورى لحياتهم ، والتقى ابن مساعد بعبد العزيز بن فيصل الدويش فى أم الرَّضمة ، فوقعت بين الفريقين موقعة دامية قتل فيها ولد الدويش ، ولم يفلت من العصاة سوى بضعة أنفار . وهؤلاء كانوا أفضل رجال مطير الحر بيين ، ففتّت هاتان الضربتان من عضد الدويش وهزته هزًّا عنيفاً ، وأيقن أنه مقضى عليه لا محالة . ولكن كيف يكون المصير ؟ .

الدويش يطلب الصلح

أخذت الرسل تغدو بين الرياض و بين الدويش لطلب الأمان ، ولكن الملك أصر على التسليم بلا قيد ولا شرط ، ثم الخضوع لحكم الشريعة ، وأنه يعد بالعفو عن حياة الدويش فقط .

خرج الملك يقود القوات بنفسه مستعيناً هذه المرة بالسيارات والمدافع الرشاشة .

وفى ٣٠ ديسمبر سنة ١٩٢٩ م هجم على الدويش مُحْسِن الفِرْم (من حرب) من الإخوان، ومعه عربان العراق، ابن طُوَالة وابن سُوَيط، وهؤلاء كانوا موتورين من الدويش، فانتهزوا الفرصة السانحة للانتقام قرب الخفر. ونهبوهم وأشعلوا النار فى خيمة الدويش، وهؤلاء لم يكن لهم علم بوجود الملك ابن السعود قرب آ الصافه[1].

وكان الدويش — حتى تلك الساعة — يكذب بوجود ابن السعود فى آ الصافة، ويقول: إنه يستحيل أن يقدم ابن سعود. لأن نجداً مُحْل وليس هنالك ما ينقل عليه ابن سعود قوته. ومع أنى أنا الذى أذعت الخبر إذ كنت بالكويت أمثل ابن السعود لدى السلطات الإنجليزية، ومع أن الخبر وصل إلينا بسيارات خاصة، فإن الدويش كذب هذه الأخبار حتى لا ينفض من حوله العشائر والطامعون فى النهب والسلب، ولكن بالرغم من تكذيب الدويش هذه الأخبار، فإن الأخبار انتشرت فى جميع القبائل المشتركة معه فى العصيان وأيقنوا أن ليس فى طاقتهم المقاومة، فتفرقوا من حول الدويش كما لجأ بعضهم إلى الحدود العراقية، وفر بعضهم إلى نجد، واستسلم الدويش وبعض رؤساء مطير والعجمان إلى السلطات الإنجليزية التى كانت بالجهرة فى ٩ يناير سنة ١٩٣٠ م.

مؤتمر خَبَارى وَاضْحَة[2]

كانت المفاوضات منذ سنة تقريباً بين الملك ابن السعود والحكومة البريطانية بخصوص العصاة، وطلب تسليمهم إذا لجأوا إلى حدود العراق والكويت، وها هم الإخوان قد استسلموا الآن.

أوفدت الحكومة البريطانية فى ١٩ يناير سنة ١٩٣٠ م الكولونيل بيسكو رئيس قناصل خليج فارس يساعده الكولونيل ديكسون قنصل الكويت، وفى عشرين منه سافرتُ على الطيارة فيكتوريا مع البعثة إلى خَبَارى وَاضْحة فى جنوبى الكويت حيث عقد المؤتمر. واستمر المؤتمر منعقداً نحو أسبوع، انتهى بموافقة الحكومة البريطانية على

---

(١) اسم لماء.

(٢) اسم مكان.

تسليم الدويش ورفقائه على أن يبقي الملك على حياتهم ، وعلى أن يتعهد بتسليم المنهوبات التي نهبوها من أهل الكويت والعراق .

وفي يوم ٢٨ يناير وصل الكولونيل ديكسون وقائد البارجة الحربية في طيارة إنجليزية ومعه الدويش ورفقاؤه المعتقلون ، فاستقبلتهم بالنيابة عن جلالة الملك ، ثم أقلتهم السيارات إلى خيمة جلالة الملك .

الدويش في حضرة ابن سعود

وصل الدويش إلى خيمة جلالة الملك بعد أن اخترق المعسكر ، ولم يسمع اللعنات التي كانت تصبُّ عليه بسبب ضجيج حركة السيارة . دخلنا خيمة جلالة الملك فقدمت قائد البارجة إلى جلالته ، ثم الكولونيل ديكسون بالنيابة عن حكومة بريطانيا ، وأنهم قدموا ليسلموا الدويش ورفقاءه إلى جلالة الملك ، فشكرهم وشكر الحكومة البريطانية على صداقتها ومودتها ، وأنها في كل يوم تقيم له برهاناً جديداً على مودتها الوطيدة ... ... ثم انصرفوا .

لقد رأيت الدويش هذا اليوم ، ورأيته مراراً يزور الملك في الرياض ، فما أعظم الفرق بين الحالتين ! كان الدويش حينما يقدم على الرياض يصحبه نحو ١٥٠ رجلا مسلحاً ، يدخلها كقائد كبير ، وكرجل عظيم له منزلة عظمى في نفوس أهل الرياض وعلمائها وملك نجد ، إذا جلس لايجلس إلا بجوار ابن سعود ، يعتبره الملك كصديق قديم وقائد من قواده العظام . أما غطرسة الدويش وجفاؤه وترفعه عن السلام على أي مخلوق يضمه القصر — ماعدا العلماء طبعاً — فحدث عنها ولا حرج ، وكان كل من يعرف الدويش في الجاهلية ، ويعرف أخلاقه الشخصية ، يجزم بأنه منافق في دينه ، وأن ما يظهره من الشدة والغلو مصطنع . أما إذا استأذن الدويش الملك في الرجوع إلى الأرطاوية فإن القائمة التي اعتاد تقديمها للملك تبتدئ من حبال الآبار ونعاله إلى السلاح والجواري وما بين ذلك من ملابس له ولأولاده وزوجاته والطيب والعود ، وكل قائد من قواد الإخوان يطلب هذه الطلبات ، ولكن قائمته تكون محلا للرفض أو التحوير ، أما قائمة الدويش فلا يدخلها أي تحوير أو تعديل .

اليوم يقف الدويش ذليلا أمام الملك ابن السعود وأمام قواد الجيش ، وكلهم كانوا بالأمس دونه منزلة .

ابن السعود يخاطب الدويش

إنك تعلم يافيصل ماعملت معك فى الماضى ، ما قصرت فى شىء نحوكم ، لقد كنت فى حرب دائمة مع أهل نجد من أجلكم ، فهل هذا جزائى منكم ؟ هل كنتم تريدون الملك ؟ لقد كنتم كلكم ملوكا فى الجهات التى كنتم فيها ، من منكم له الفضل على ؟ الفضل لله وحده . من منكم لم آخذه بسيفى ؟ ليس منكم إلا من قتلت أباه أو أخاه ، ولم أخضعكم إلا بالله ثم بالسيف . قد كنت أنفذ رغائبكم . فكنت أشقى لأجلكم ، وأواصل الليل بالنهار لراحتكم وسعادتكم . ألا تخاف الله حينما تكتب لِجُلُوب[1] : أنك تريد الهجرة للعراق ، وأنك تحب أن تكون تابعاً له ؟ فهل تظن أنك كنت ستكون فى منزلة أعلى من منزلتك التى كنت عندى فيها ؟.

الدويش يتكلم

— يعلم الله ياعبد العزيز أنك لم تقصر معنا ، وقد فعلت كل مايبيض وجهك ، وقد قابلنا معروفك بالإساءة ، لقد فررنا من وجهك إلى الكفار . فحملونا إليك فى طيارة من طياراتهم ، ويكفى ما أشعر به من الهوان والصغار أمام الإخوان بعد ما كنت عزيزاً محترما . قاتل الله الشيطان ! لقد أغرانا وزين لنا سوء أعمالنا . فأوصلنا إلى ما أصبحنا فيه الآن !

فأمر الملك أن ينقل الدويش وزملاؤه إلى خيمة قريبة منه وأحاطها بالحرس ، وبعد ثلاثة أيام نقلوا إلى الرياض فى سيارات حيث اعتقلوا فيها . ويصح أن تعتبر هذه المعركة من المعارك الفاصلة بين الفوضى والنظام ، ونصراً للتقدم على الرجعية ؛ ولا تسل عن سرور أهل نجد والحجاز . فهؤلاء قد قاسوا الشىء الكثير من تعديهم وإساءتهم وغلوهم .

---

(١) جلوب : المفتش الإدارى على الحدود ، وهو قائد الجيش الأردنى اليوم .

أما الملك عبد العزيز : فإن سروره قد عبر عنه بجملتين فى خيمته بعد تسليم الدويش :

« من اليوم سَنَحْيا حياة جديدة »

نعم إن الملك ابن السعود قد حيى حياة جديدة ، فقد ربط بلاده بالتلغرافات اللاسلكية ، وربط مكة والرياض بالتلفون اللاسلكى . ولم يعد للإخوان ذلك السلطان القاهر ، وأصبح شأنهم شأن غيرهم من الرعية .

ولقد عاقت حركة الإخوان الأخيرة تقدم المشروع الأصلى ، وهو تحضير البادية ، فإننا لم نسمع منذ سنة ١٩٣٠ م أن قبيلة من القبائل رغبت فى سكنى جهة من الجهات ، على أن حركة وعظ البادية وإرشادهم إلى مبادئ الدين ومكارم الأخلاق لا تزال سائرة فى طريقها ، وبذلك يعمل الملك عبد العزيز لاستئصال شرور البادية بالسيف من جهة ، والعلم من جهة أخرى

وبالجملة فإن حركة الإصلاح الموجودة الآن فى جزيرة العرب هى غرس يد هذا الرجل الفذ الذى كان — رحمه الله — يرعاها برعايته وعنايته حسب موارد بلاده المادية ، وحسب استعداد أمته وشعبه لقبول الإصلاح .

ولا نشك أن خلفه جلالة الملك سعود سيحذو حذو أبيه فى خططه الإصلاحية . ولعل الظروف المواتية للملك سعود مساعدة له أكثر مما كانت فى عهد والده رحمه الله . فقد مهد والده الطريق . وأزال كثيرا من العقبات والصعوبات التى كانت تعترض طريق الإصلاح . وسيجعل الله نجاح جلالة سعود بذلك أوفر ، وتتقدم البلاد إلى الحياة العلمية الآمنة أسرع إن شاء الله .

الدعوة الإصلاحية فى نجد

نرى واجباً علينا أن نتحدث عن حياة الشيخ محمد بن عبد الوهاب والدور الإصلاحى العظيم الذى قام به فى نجد ، ونمهد لذلك بذكر نبذة يسيرة عن حياة مصلح عظيم آخر : هو أحمد بن تيمية الذى قام فى القرن السابع الهجرى وأوائل القرن الثامن سنة ٦٦١ هـ — ٧٢٨ هـ ، لما بين الرجلين من التشابه العظيم فى الدعوة إلى الحق ، ولأن ابن تيمية كان المثل الأعلى للمصلح النجدى الشيخ محمد بن عبد الوهاب .

كان الإمام ابن تيمية آية من الآيات فى فهم الشريعة الإسلامية وأسرارها ، كما كان آية فى رفع علم الدعوة إلى الحق ، واحتمال كل أذى فى هذا السبيل .

كان ابن تيمية شجاعاً لا يخشى إلا الله ، ولا يخاف سطوة سلطان ، وعقيدته : مَن كان مع الله كان الله معه ؛ وله مواقف معروفة فى غزوات التتر أثناء هجومهم على الشام

كانت الدعوة التى يدعو إليها ابن تيمية ترمى إلى ما يأتى .

(١) الرجوع إلى الكتاب والسنة فى كل شأن من شئون الحياة ، واتباع سبيل السلف الصالح فى فهم آيات وأحاديث الصفات ، وترك طريق الفلاسفة والمتكلمين والصوفية ، حيث إنها لا تتفق مع الروح السلفية القديمة .

(٢) محاربة البدع والمنكرات . ولا سيما ما كانت وسيلة للشرك ، أو شركا ، كالتمسح بالقبور والصلاة عندها ، وطلب الحاجة منها ، والاستعانة أو الاستغاثة بغير الله ، والتبرك بالأشجار والأحجار التى يعتقد فيها العامة الخير أو دفع الشر .

(٣) ترك الغلو فى الرسول صلى الله عليه وسلم وتعظيمه بالاهتداء بهديه واتباع رسالته .

(٤) فتح باب الاجتهاد على مصراعيه ، وإعلان الحرب على المقلدين المتعصبين .

هذه هى الأسس التى قامت عليها دعوة ابن تيمية ، والتى وقف عليها حياته ، وهى نفس الأسس التى قامت عليها دعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب فى نجد .

أثارت دعوة ابن تيمية — فى الشام ومصر — ثائرة المقلدين وأرباب الطرق الصوفية عليه ،

كما أثارت أيضا ثائرة المتعصبين للمتكلمين والفلاسفة ، وأكثرهم من القضاة وأهل المناصب في الدولة وذوى النفوذ فيها ، فأوغروا صدور الأمراء عليه ، وصوروه خطراً على مستقبل الدولة ، وأن أمره قد يعظم كابن تومرت في المغرب . فيصبح صاحب الحول والطول ، فيضمحل نفوذهم أمام نفوذه . وفي كل زمن لا يجد الخصوم ذوو الضمائر الميتة سبيلا إلى النكاية بخصومهم إلا التوسل بوسائل الخوف على المملكة وسلامتها وأمن الدولة ، وغير ذلك من الوسائل التي تمس الناحية الحساسة في الأمراء ، ومَن من الأمراء يسمع أن حياته وملكه في خطر من شخص ويغمض عينه عن هذا الشخص ؟ إن كثيراً منهم في سبيل الملك يقتلون الإخوة والأقارب ، ولا يردعهم رحم أو يؤنبهم ضمير ، فهل يسكتون عن رجل أجنبي ؟

تعتبر سنة ٧٠٥ هـ بدء عهد الاضطهاد لابن تيمية ، ففي هذه السنة اجتمع العلماء لمباحثة ابن تيمية في قصر نائب السلطنة ، غير أن هذه المجالس كانت في صف ابن تيمية ، لأن نائب السلطنة كان يؤيده ويأخذ بناصره .

وأخيراً لم يسع نائب السلطنة في الشام إلا أن يرسل الإمام ابن تيمية إلى مصر حسب أمر السلطان الجاشنكير ، فإن دسائس الصوفية وخصوم ابن تيمية قد ملأت قلب السلطان حقداً وغضباً على الرجل .

وصل ابن تيمية مصر في رمضان سنة ٧٠٥ هـ . فأحضر أمام العلماء للمناظرة وكلهم من خصومه ، وهل تكون أمثال هذه المناظرات وسيلة من وسائل الإقناع أو الرجوع من الخطأ ؟ أدخل الشيخ ابن تيمية السجن لأنه امتنع عن الإجابة . لأن القاضي ابن مخلوف المالكي الذي كانت الدعوى أمامه كان من خصوم ابن تيمية .

وقد أعيدت المناظرات عدة مرات بدون طائل ، وبعد ثمانية عشر شهراً أخرج من السجن . فعاد إلى الدعوة الإصلاحية ، وأعاد الكرة على الصوفية وزعمائهم : ابن سبعين وابن عربي وأشباههم ، كما شن الغارة على سائر المبتدعة ، فاعتقل ثانية في شوال سنة ٧٠٧ هـ ، وفي السجن اشتغل بإصلاح الساجين ، وترك ماهم فيه من العبث وإضاعة الوقت . حتى اشتهر أمره ، وصار الناس يترددون على السجن لاستماع وعظه ودعوته ، فنقل إلى الإسكندرية وضيق عليه ، ومنع الناس من الاختلاط به والتردد عليه . خشية انتشار دعوته الإصلاحية .

وفى ٨ شوال سنة ٧٠٩ هـ أطلق سراح الشيخ ابن تيمية من برج الاسكندرية وأرسل إلى القاهرة ، إجابة لرغبة السلطان الملك الناصر الذى تغلب على خصومه فقربه إليه ، فأقام بالقاهرة داعياً إلى مقاومة البدع ووجوب الرجوع إلى الله فى كل الملمات ، وترك البدع التى تقام على القبور لمخالفتها للتوحيد الذى جاء به النبى الكريم .

وفى ذى القعدة سنة ٧١٢ هـ رجع الشيخ إلى دمشق بعد أن تغيب عنها سبع سنوات ، فكان يوم رجوعه إلى دمشق يوماً مشهوداً . خرج فيه لاستقباله مريدوه والمناصرون لدعوته فى خلق كثير .

وفى دمشق استأنف الشيخ دعوته الاصلاحية بنشاط . وعكف على نشر دعوة التوحيد ومقاومة المبتدعة والرجوع إلى الكتاب والسنة . وقد كان يفتى بمسائل تختلف عن رأى الأئمة الأربعة ، ولكنها فى نظره تتفق مع نصوص الكتاب والسنة ، ومع من الأئمة الآخرين ، وهو يعتقد أن هذا الرأى أقرب إلى السنة .

لقد كان طبيعياً أن يثور الرجعيون الجامدون والمتعصبون للقبور والمتصوفة على الشيخ ، كما ثاروا عليه بالأمس . وكان طبيعياً أن تعود المناظرات مع الشيخ مرة أخرى .

ولقد أراد الله أن تتغلب قوة خصوم الشيخ ابن تيمية ، وهم أهل الحل والعقد فى الدولة ، وأخيراً حبس الشيخ مرة أخرى فى سنة ٧٢٠ هـ ثم أطلق سراحه بعد خمسة أشهر ونصف . فعاد إلى ما عاهد الله عليه من الدعوة إلى الله والرجوع إلى الكتاب والسنة فتألب عليه خصومه مرة أخرى ، ووجدوا الفرصة سانحة للنيل من الشيخ واتهامه بعدم احترام الأنبياء والصالحين ، لأن الشيخ أفتى بتحريم شد الرحال إلى غير المساجد الثلاثة فلا تشد الرحال إلى قبور الأنبياء والصالحين .

لقد اجتمعت كلمة خصوم الشيخ على القضاء عليه وعلى الدعوة التى قام بها ، فطلبوا من السلطان قتله . فلم يوافقهم على طلبهم ، ولكنه اكتفى بحبسه اتقاء الفتنة ، ولما لهؤلاء الخصوم من قوة لا يستهان بها اعتقل الشيخ مرة أخرى فى سنة ٧٢٦ هـ بقلعة دمشق ، واضطهد تلاميذه والمنتسبون إليه حتى خفت صوت الدعوة إلا من قلوب المخلصين ، وقد بقى الشيخ فى معتقله حتى توفى سنة ٧٢٨ هـ فلم يصبح لهذه الدعوة القوة التى كانت لها

من ، ولئن قام تلاميذ الشيخ وأنصاره بالدعوة الفترة بعد الأخرى ، فلم يكن لهذه الدعوة القوة والنشاط اللذين كانا لها فى أيام الشيخ رحمه الله .

ولا يسع الإنسان بعد أن يلم بسيرة ابن تيمية ، وما لقيه من الاضطهاد فى سبيل الدعوة إلى الحق إلا أن يجد تشابهاً عظيما بين حياته و بين حياة لوثر المصلح البرو تستانتى ، الذى جاء بعد عصر ابن تيمية بنحو قرنين ، فإن الأركان التى قامت عليها الدعوتان واحدة بالرغم من الاختلاف الدينى ، والوسط الدينى الخاص .

كان ابن تيمية يدعو إلى الاجتهاد ، ونبذ التقاليد المخالفة للكتاب والسنة ، والرجوع إليهما غير ملتفت إلى ما سواهما .

وكان لوثر يدعو الناس إلى تفهم الكتاب المقدس ، وقد عمل هو على ترجمته تقريباً لأفهام الناس . وكان ينكر على رجال الدين دعواهم أن حق التفسير والفهم خاص بهم .

كان ابن تيمية ينكر على الصوفية تعاليمهم التى لا تتفق مع الكتاب والسنة ، كما كان ينكر الغلو فى حب الأنبياء والأولياء : بالصلاة عند القبور والدعاء عندها والاستغاثة بالموتى وطلب الغفران منهم . وكان لوثر ينكر على القسس بيع صكوك الغفران ، كما كان ينكر عليهم حق التدخل بين العبد والرب .

وليس من غرضنا فى هذا الفصل البحث التفصيلى فى وجوه الشبه بين الدعوتين ، ولا بين الرجلين لخروجه عن موضوع الكتاب .

غير أن الذى نريد أن نقرره : هو أن الدعوة الإسلامية والإصلاحية التى قام يدعو إليها ابن تيمية فى آخر القرن السابع ، وأول القرن الثامن من الهجرة (أى الثالث عشر وأوائل القرن الرابع عشر الميلادى) قد انتهت بالفشل ، وأن الجهود التى بذلها ابن تيمية لم تثمر الثمرة المطلوبة ، لأن رجال الدولة كانوا ضده ، ولأن الرجل كان ينقصه اللين السياسى .

أما مارتن لوثر — الذى جاء فى القرن الخامس عشر — فقد نجح بفضل المؤازرة التى لقيها من الأمراء والحكام . ولقد أراد الله أن تحيا دعوة ابن تيمية وتنال نصيبها من القوة والانتشار والذيوع على يد الشيخ محمد بن عبد الوهاب فى نجد ، بمعاضدة الأمير محمد بن سعود فى القرن الثانى عشر الهجرى ، أى بعد عصر ابن تيمية بأربعة قرون

تقريباً . والذى كان له الفضل الأعظم فى نشر كتب ابن تيمية وكتب تلاميذه ، وبعثها من جديد ، والتنويه بفضلهم وعظيم أثرهم هو :

الشيخ محمد بن عبد الوهاب

وُلد الشيخ محمد بن عبد الوهاب سنة ١١١٥ هـ الموافقة سنة ١٧٠٣ م فى بلدة العيينة الواقعة شمال الرياض عاصمة نجد الحاضرة . وقد تلقى على والده دروسه الأولية ، ثم سافر بعد ذلك إلى الأحساء والحجاز والبصرة[1] باحثاً وراء العلم محصلاً له ، ولذلك صار حجة فى الحديث والفقه واللغة العربية . وصار أيضاً ذا قدم ثابتة فى كل ما له علاقة بدراسة الدين وقد وقف فى رحلاته على الأمراض التى انتابت المسلمين ، وما أصاب الشريعة الإسلامية فى كثير من الأمصار من لصوق كثير من العقائد الجاهلية والبدع والخرافات ، ومن انصراف العلماء إلى الدنيا ومتابعتهم لأهواء الحكام ، فرجع إلى نجد وقد أخذ على عاتقه التفرغ للدعوة الإصلاحية الدينية الصحيحة ، ومحاربة البدع والخرافات ما استطاع إلى ذلك سبيلاً ، فدرس دراسة وافية كثيراً من كتب شيخ الإسلام ابن تيمية وأتباعه ، وخاصة ابن القيم وابن كثير .

نجد فى أيامها الأولى

كانت نجد — من الوجهة الدينية — كسائر الأمصار الأخرى : مرتعاً للخرافات والعقائد الفاسدة التى تتنافى مع أصول الدين الصحيحة . فقد كان فيها كثير من القبور التى تنسب إلى الصحابة يحج الناس إليها . ويطلبون منها حاجاتهم ، ويتوسلون بالمقبورين إلى دفع كروبهم . فكانوا فى الجُبَيْلة يؤمون قبر زيد بن الخطاب لتحسين حالهم وإجابة ملتمسهم ، كما كان أهل الدرعية — التى صارت فيما بعد معقل التوحيد ومقر حكم آل سعود — يضرعون إلى مثل هذه القبور لمثل هذه الأغراض . وأغرب من ذلك توسلهم بفحل النخل

---

(١) فى كتاب « لمع الشهاب فى سيرة محمد بن عبد الوهاب » أن الشيخ رحل الى فارس أيضاً وتعلم بها الحكمة الشرقية ، كما تعلم فى رحلته أيضا صنع البنادق وتحضير الذخيرة وغير ذلك من فنون الحرب .

فى بلدة « منفوحة » واعتقادهم أن من تؤمه من العوانس تتزوج لعامها . فكانت من تقصده تقول « يافحل الفحول ، أريد زوجاً قبل الحول ! » .

وكان فى الدرعية غار يقدسونه . ويزعمون أنه كان ملجأ لإحدى بنات الأمير التى فرت هاربة من تعذيب بعض الطغاة . واتخذت فى أحد الجبال الصخرية مأوى لها ، فانشق لها الكهف بمعجزة لتأوى إليه . فهذه الروايات تكشف عما كانت عليه نجد من العقيدة الدينية الفاسدة .

أما من حيث الأحكام : فلم يكن هناك قانون أو شريعة إلا ماقضت به أهواء الأمراء وعمالهم . ومن حيث السياسة : فقد كانت بلاد العرب منقسمة إلى ولايات عديدة ، يحكم كل واحدة منها أمير لا تربطه وجاره أية رابطة . ومن أشهر هؤلاء الأمراء بنو خالد فى الأحساء ، وآل معمر فى العيينة ، والأشراف فى الحجاز ؛ وآل سعود فى الدرعية ، والسعدون فيما بين النهرين ، وعدا هؤلاء أمراء لاداعى لذكرهم هنا . وقد كان سكان بلاد العرب — وهم الحضر — فى حروب دائمة مع البدو سكان البادية ، وكذلك كان الأمراء على قدم الاستعداد عندما تسنح الفرص للتعدى على جيرانهم إذا بدا من هؤلاء الجيران ضعف أو عدم استعداد .

وباختصار فهذه كانت حالة بلاد العرب عندما رجع الشيخ محمد بن عبد الوهاب إلى وطنه ، وقد استقر به النوى فى العيينة ، حيث جد به العزم أن ينقذ نجداً مما حلّ بها من البلاء . فبدأ يدعو الناس أن يعودوا إلى دين الله الصحيح ويتركوا كل ما جد من البدع ، وغيرها مما يتنافى مع نصوص الكتاب والسنة . وفى الوقت نفسه طلب إلى الأمراء ذوى الشأن أن يطبقوا أحكام الشرع . وقد قام بدعوته مسالماً لايدعو إلى شدة أو عنف . وراسل علماء عصره فى البلاد الإسلامية الأخرى . وأظهر ألمه لما أصاب المسلمين . وحضهم على أن يكونوا من زمرة المصلحين الدينيين . فكان ذلك سبباً طبيعياً لغضب خصومه . أولئك الذين خافوا على سلطانهم من دعوته ، وأخيراً فقد اضطر أن يهاجر من العيينة التى هددها بالغزو سليمان آل محمد رئيس بنى خالد ، وأمير الأحساء والقطيف إذا لم تطرد محمد بن عبد الوهاب . ففى عام ١١٥٧ هـ — ١٧٤١ م تركها إلى الدرعية مقر آل سعود حيث قابل زعيمهم محمد بن سعود ، وهنالك تحالفا على الدفاع عن الدين الصحيح والعمل على الرجوع إلى الكتاب والسنة ، وإنقاذ جزيرة العرب من البدع ، وتعميم الدعوة بالإسلام

بين البدو والحضر ، وتوطيد النفس على ما يواجههم من الصعاب ، فإنهم متى نصروا الله نصرهم تحقيقا لوعد الله « وكان حقًّا علينا نصرُ المؤمنين » وهكذا كان ، فإن ما تمكن من قلوبهم من حب الحق جعلهم يتغلبون على خصومهم منفردين ومجتمعين .

لقد سكن الشيخ محمد بن عبد الوهاب « الدرعية » وواصل ليله بنهاره فى نشر الدعوة بالوعظ وكتابة الرسائل ، مكتفياً بهذه الوسيلة السلمية ، ومحمد بن سعود يؤازره بما يملك من الوسائل ولكن خصوم الدعوة كانوا يعملون على تأليف القلوب لمحاربة الدعوة بكل الوسائل . فلم ير الشيخ محمد وابن سعود بدأ من الاستعانة بالسيف بجانب الدعوة الدينية . ولقد استمرت هذه الحرب الدينية التى تشبه — فى كثير من الوجوه — الحروب التى استعرت نيرانها بين الكاثوليك والبرتسانت فى الغرب أكثر من ستين عاماً .

وفى عام ١١٧٠ هـ (١٧٦٥ م) مات الأمير محمد بن سعود وخلفه ابنه « عبد العزيز » الذى اقتفى أثر أبيه فى مساعدة الشيخ ابن عبد الوهاب على نشر دعوته فى سائر بلاد العرب

وفى سنة ١٧٩١ م مات محمد بن الوهاب بعد أن قام بواجبه خير قيام ، ووضع من الكتب والرسائل ما أصبح أساسا يسير عليه خلفاؤه ، وقد سار أولاده على خطة أبيهم من التحالف مع آل سعود والتعاون معهم حتى أصبح الجميع كبيت واحد .

وفى سنة ١٨٠٥ م كان جميع شبه جزيرة العرب ، بما فى ذلك جزء كبير من اليمن وعمان يخضع لسلطان آل سعود ، تؤدى واجباتها الدينية حسب الدعوة الإصلاحية التى قام بها محمد بن عبد الوهاب . ولقد عز على الترك أن يروا دولة دينية تقوم فى بلاد العرب — بلاد رسول الشريعة الإسلامية — كما عز عليهم أن يروا دولة حديثة مدنية يقيم دعائمها محمد على فى مصر ، فأشعلوا نار الحرب بين الاثنين ، فكانت محنة عظيمة على نجد عامة ، وعلى آل سعود خاصة ، ولكن القوة الغشوم ، وإن نالت من سلطة الحكام ، فإنها ما كانت لتصل إلى قلوب أهل الإيمان .

ما هى الدعوة الوهابية ؟

لم يكن الشيخ محمد بن عبد الوهاب نبيا كما ادعى نيبهر الدانمركى ، ولكنه مصلح مجدد داع إلى الرجوع إلى الدين الحق ، فليس للشيخ محمد تعاليم خاصة ، ولا آراء خاصة

وكل ما يطبق فى نجد من الفروع هو طبق مذهب الإمام أحمد بن حنبل ، وأما فى العقائد فهم يتبعون السلف الصالح . ويخالفون من عداهم ، وتكاد تكون عقائدهم وعباداتهم مطابقة تمام المطابقة لما كتبه ابن تيمية وتلاميذه فى كتبهم ، وإن كانوا يخالفونهم فى مسائل معدودة من فروع الدين . وهم يرون فوق ذلك أن ماعليه أكثر المسلمين من العقائد والعبادات لا ينطبق على أساس الدين الإسلامى الصحيح . وإننا نلخص فيما يلى المسائل التى اشتهروا بها ، والتى تعد كأنها طابع خاص بالنجديين .

أولا «التوحيد» يعتقدون — استناداً إلى كلام الأئمة الأربعة وغيرهم من أئمة السلف — أن معنى «لا إله إلا الله» البراءة من كل معبود غير الله ، وإخلاص التوجه إلى الله وحده ، وأن العبادة إذا صرفت لغير الله صار ذلك الغير إلٰهاً مع الله ، وإن لم يعتقد الفاعل ذلك ، فالمشرك مشرك سواء سمى شركه شركا أو توسلا . وليس لديهم من شك فى أن من قال : يارسول الله ، أو يا ابن عباس ، أو ياعبد القادر ، أو غيرهم من المخلوقين طالباً بذلك دفع شر أو جلب خير من كل مالا يقدر عليه إلا الله تعالى فهو مشرك يهدر دمه ؛ ويستباح ماله .

ثانياً « الشفاعة » لاينكرون شفاعة النبى صلى الله عليه وسلم يوم القيامة حسبما ورد . وهم يثبتونها لسائر الأنبياء والملائكة والأولياء والأطفال حسبما ورد أيضاً ، ولكنها تُسأل من المالك لها وهو الله ، وإذنه فيها لمن شاء من الموحدين ، فيقال : اللهم شفع نبينا محمداً فينا يوم القيامة ، اللهم شفع فينا عبادك الصالحين أو نحو ذلك . وأما مايجرى على ألسنة الناس من قولهم : يارسول الله ، أو يا ولى الله أسألك الشفاعة أو غيرها ، كأدركنى أو أغثنى أو نحو ذلك . فإنه من الشرك ، إذ لم يرد بذلك نص من كتاب أو سنة ولا أثر من السلف الصالح

ثالثاً « القبور » الكلام على القبور يتناول أولا : البناء عليها وزيارتها ، ثانياً : ما يفعله الناس عندها من الدعاء والصلاة وغيرها ، ثالثاً : ما يقام عليها من القباب والمساجد . رابعاً : السفر إليها . أما زيارة القبور : فهى مندوبة للاعتبار والاتعاظ والدعاء للميت وتذكر الآخرة . ويراعى فيها الطريقة التى سنها النبى صلى الله عليه وسلم فى الزيارة : أما الذبح للمقبور والاستغاثة به والسجود له ، فهى شرك . وأما تجصيص القبور والبناء والكتابة عليها فكلها من الأمور المبتدعة المنهى عنها .

وهم يستدلون على ذلك بأحاديث كثيرة . وردت ، وبأقوال السلف الصالح وعملهم . ولذا فقد هدموا فى مكة والمدينة القبور المرتفعة وسوّوها بالأرض كما أزالوا القباب عند استيلائهم على الحرمين الشريفين فى القرن الماضى ، كما أزالوها مرة أخرى فى الفتح الحاضر سنة ١٣٤٣ و ١٣٤٤ هـ (١٩٢٥ و ١٩٢٦ م) أما شد الرحال والسفر إلى القبور فبدعة .

رابعاً : إعلان الحرب على البدع الشائعة فى الأمصار مثل الاجتماع فى وقت مخصوص على من يقرأ سيرة المولد الشريف اعتقاداً منه أنه قُرْبَة ، ومثل الزيادات على الأذان المشروع .

وبالجملة : فإنهم يحرصون على العبادات الشرعية أن تكون على السنة التى وردت عن النبى صلى الله عليه وسلم بلا زيادة أو نقص .

ويلحق بهذا ماهو شائع فى كثير من الأمصار من خروج النساء وراء الجنائز ، وخروجهن لزيارة القبور ، والاحتفالات السنوية المسماة بالموالد ، وإقامة الحفلات للأذكار المبتدعة ، وما يفعله بعض الدراويش من الرقص والمزمار ؛ فإن ذلك كله محرم ، وقد منعوا ما كان موجوداً منه فى الحجاز .

وبسبب ذلك كان الخلاف بين الحكومة العربية السعودية وبين الحكومة المصرية على المحمل وقبوله فى الحجاز . والنجديون يحتجون بأنه بدعة لايصح إقرارها فى بلد الوحى والدين ، والمصريون يقولون : إنه عادة وشعار للحج ليس إلا .

خامساً . الجهاد : مما لاجدال فيه أن الشيخ محمد بن عبد الوهاب لم يعتبر ماانصرف من العبادات لغير الله إسلاماً ، ولذا فإنه كان يبدأ الأمر بالدعوة إلى التوحيد وتنفيذ أوامر الله بلا هوادة . فمن أطاع فقد سلم ، ومن خالف أو عاند فقد حل دمه وماله ؛ وعلى هذا الأساس كانت غزواتهم فى نجد وخارج نجد من اليمن والحجاز وضواحى سوريا والعراق .

كل بلد يدخلونها حربا فهى حلال لهم ، إن أمكنهم البقاء بها ألحقوها بأملاكهم ، وان لم يمكنهم البقاء اكتفوا بما يصل إلى أيديهم من الغنيمة . وهنا يجىء الخلاف بينهم وبين معارضيهم . فإن غيرهم يقول: إن من قال «لا إله إلا الله محمد رسول الله» فقد عصم ماله ودمه ، أماهم فيقولون : إن القول لاعبرة به مالم يدعمه العمل ، فمن قال « لا إله إلا الله

الله محمد رسول الله» وهو لا يزال يدعو الموتى و يستغيث بهم و يسألهم قضاء الحاجات وتفريج الكربات ، فهو كافر مشرك ، حلال الدم والمال . ولا عبرة بقوله . ولهم على هذا أدلة كثيرة من الكتاب والسنة . ليس هنا موضع تفصيلها .

والجهاد — أو إعلان الحرب — من حقوق الإمام ينظر فيه إلى المصلحة أو دفع المضرة ، فإن رأى المصلحة تعين عليه إعلان الجهاد . ووجب على سائر رعيته متابعته والدخول فى سلك الجندية ، وعلى هذا كانت الغزوات القديمة والحديثة معتبرة من الجهاد الشرعى .

سادسا ، الاجتهاد : للشيخ محمد بن عبد الوهاب بعض رسائل فى الدعوة إلى الاجتهاد ، والرد على أهل التقليد والمعاندين ، استند فى أكثرها إلى ما كتبه ابن القيم فى أعلام الموقعين .

ولكن الشيخ محمد ، وإن كان له بعض مسائل اجتهادية — مثل جعل دية المسلم ٨٠٠ ريال بدل مائة ناقة — فإنه فى الحقيقة يخطو خطوات الإمام أحمد ، ويعتمد على كتب الفروع المؤلفة على طريقته .

ومما لا شك فيه : أن علماء نجد فى بدء النهضة الإصلاحية كانوا أكثر إحاطة بالسنة وعلماً بالشريعة ، وأوسع مدارك . وأبعد نظراً فى فهمهم للأحكام .

إن الحكومة العربية السعودية الحاضرة — وهى الحكومة القائمة على أساس دعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب — اضطرت إلى اقتباس كثير من القوانين التجارية وسمتها نظاماً ، لأن كتب الفقه لم تتناول كثيراً من المعاملات التجارية التى يتعامل بها أهل هذا الجيل ، كما اضطرت إلى تشكيل محكمة تجارية سمتها «المجلس التجارى» للنظر فى المنازعات التجارية ؛ ولا أعلم لماذا لا تلحق هذه النظم بأبواب الفقه كى يدرسها الطلاب أسوة بالمسائل الفقهية الأخرى التى أصبحت ملحقة بالتاريخ ، مادام هنالك يقين بأن هذه النظم لا تتعارض مع أحكام الكتاب والسنة .

إن هنالك مجالا واسعاً للإصلاح الدينى ، و إدخال كثير من التجديد على أبواب الفقه ، ولكن يعوزنا همة وفهم العلماء ورغبة الأمراء .

* * *

والنجديون يحرصون أشد الحرص على تنفيذ أحكام الشريعة فى تحريم لبس الحرير للرجال وتحليهم بالذهب ، كما يحرمون التدخين ، ويجلدون المدخن أربعين جلدة . ومما لا شك فيه : أن حكومتهم الأولى كانت أصرم فى هذا من الحكومة الحالية .

ولقد كانت مسألة الدخان من المسائل التى دار البحث فيها بين الحكومة المصرية والحكومة السعودية سنة ١٩٢٦ م ، ومال مفتى مصر فيها إلى الكراهة ، كما أنه أورد رأى فريق من العلماء ممن يرى التحريم .

لقد روى بالجريف فى رحلته إلى نجد سنة ١٨٦٢ م أنه سمع من بعض النجديين : أنهم يرون أن شرب الدخان أشد لديهم من الخمر والزنا ، وبعض المحرمات المنصوص عليها ، ولا شك أن هذه الرواية قد سمعها من جاهل . فقد سمعت شيئاً قريباً من هذا من بعض النجديين المقيمين بالكويت ، ولكنهم لم يكونوا من العلماء . ولا يعبرون عن رأى علماء نجد الذين يعدون مثل هذا القول جرأة على الدين .

إن علماء نجد — وإن أجمعوا على تحريم الدخان — فلم أسمع أحداً منهم يقول مثل هذا القول ، كما أنى لم أقف على شىء مثل هذا فيما كتبه متقدموهم أو متأخروهم .

وعلماء نجد يحرمون التصوير ويكرهون الموسيقى ، ولا يقبلون أى تأويل فى ذلك .

ما ينسب إلى النجديين وهم أبرياء منه

لا شك أن الحرب النجدية المصرية فى القرن الماضى وما أعقب ذلك من خلاف بين آل سعود والأتراك قد صحبه كثير من الدعايات السيئة ضد النجديين . وكثير من الأشياء التى نسبت إليهم مكذوبة .

(١) لقد نسب إلى الشيخ محمد بن عبد الوهاب والآخذين بدعوته كراهية النبى صلى الله عليه وسلم ، والحط من شأنه وشأن سائر الأنبياء والأولياء الصالحين .

لقد نسب هذا إلى الإمام ابن تيمية وإلى تلاميذه ، كما لا يزال ينسب إلى كثير من العقلاء والمصلحين فى الهند وغيرها حتى ممن ليست لهم أى صلة بنجد وأهلها .

إن منشأ هذه النسبة : هو أن النجديين استناداً إلى حديث « لا تشد الرحال إلا إلى

ثلاثة مساجد : المسجد الحرام ، ومسجدى هـذا ، والمسجد الأقصى » يرون أن السفر إلى زيارة قبور الأنبياء والصالحين بدعة لم يعملها أحد من الصحابة أو التابعين . ولم يأمر بها النبي صلى الله عليه وسلم ، وقد سبق ابن تيمية وابن عبد الوهاب طوائف كثيرة من العلماء المتقدمين بهذا الرأى .

(٢) إن النجديين يمنعون استقبال قبر الرسول صلى الله عليه وسـلم عند الدعاء ، كما يمنعون السجود عند قبره وقبر غيره ، ويمنعون التمسح والتمرغ عند القبر ، كما يمنعون كل ما من شأنه الاستغاثة أو الطلب مما شاع عمله عند قبر النبي صلى الله عليه وسـلم وقبور الصالحين فى مصر و بغداد والهند وكثير من الأمصار .

(٣) هدم القباب والأبنية المقامة على القبور وإبطالهم لسائر الأوقاف التى رصدت على القبور والأضرحة .

(٤) إنكارهم على البوصيرى قوله فى البردة :

يا أكرم الخلق مالى من ألوذ به   سواك عند حلول الحادث العمم

وقوله :   « ومن علومك علم اللوح والقلم »

وقوله :

إن لم تكن فى معادى آخذاً بيدى   فضلاً وإلا فقل يا زلة القدم

فإن هذا القول مجازفة وغلو ، وفيـه مخالفة صريحة لنصوص القرآن والأحاديث الصحيحة ؛ وهم — فوق هذا — يعتقدون أن من اعتقد هذا على ظاهره فهو مشرك كافر .

فاتهمهم خصومهم بكراهية النبي . ونسبوا إليهم أقوالاً هم أبرياء منها ، نسبوا إليهم القول بأن العصا خير من النبي ، إلى غير ذلك من التهم الباطلة . ولقد سمعت فى نجد أن حكام نجد الشمالية أثناء خصومتهم مع آل سعود كانوا يكتبون إلى الأتراك أن آل سعود اتخذوا راية شعارها : لا إله إلا الله محدّ رسول (بحذف ميم محمد) أى لا أحد رسول الله ، وهذا كله تنفير للأتراك من خصومهم ، وهم يعلمون حق العلم أن هذا كذب .

ولقد حضر إلى مكة أثناء الحرب الحجازية النجدية فى سنة ١٩٢٥ م بعض أفاضل السنغاليين وَتِطوّان ، وكانوا أثناء حديثهم يبكون لشدة تأثرهم ؛ لقد أخبرونا أنهم سمعوا

فى الإسكندرية أشياء كثيرة تنسب إلى النجديين، لم يجدوا لها أثراً فى الحجاز، لقد سمعوا من بعض الناس: أن الوهابيين هدموا الكعبة لأنها حجر، وسمعوا أنهم فى الأذان يقولون «أشهد أن لا إله إلا الله» فقط ولا يقولون «أشهد أن محمداً رسول الله».

إن النجديين أحرص الناس على محبة الرسول صلى الله عليه وسلم، ولكنهم يكرهون الغلو، ويقاومون البدع مهما كان نوعها، ومهما كان الدافع لها، ويقولون: إن المحبة للرسول هى الاهتداء بهدى الرسول واتباعه، أما الابتداع وتعطيل الشريعة وتقديم الأهواء فهو كراهة لا محبة. وفى القرآن الكريم «قل إن كنتم تحبون الله فاتّبعونى».

ومما ينسب إلى أهل نجد: تكفيرهم من عداهم، وهو بلا شك تزوير من خصومهم، وإن وقعت بعض أشياء من بعض جفاة الأعراب والجهال. فليس من الإنصاف أن ينسب ذلك إلى أهل نجد.

أما الشيخ ابن عبد الوهاب وتلاميذه: فإنهم لا يكفرون من صحت ديانته، واشتهر صلاحه، وحسنت سيرته، وإن أخطأ فى بعض المسائل. ولكنهم يكفرون من بلغته دعوة الحق ووضحت له الحجة وقامت عليه وأصر مستكبراً، هذا فى الأفراد. أما فى البلاد (ما يعتبر منها بلاد إسلام وبلاد كفر) فإننا نقتبس ما كتبه العلامه الشيخ حَمَد بن عَتِيق من رسالته التى وضعها عن مكة: هل هى بلاد كفر، أو بلاد إسلام؟ فقال: هنالك أصلان لاعتبار البلدة مسلمة:

(١) التوحيد: وهو أن يكون الله معبود الخلائق لا سواه، والتوحيد لا يصح مع وجود الشرك.

(٢) طاعة النبى فى أمره وتحكيمه فى دقيق الأمور وجليلها. وتعظيم شرعه ودينه والإذعان لأحكامه فى أصول الدين وفروعه.

فإذا تحقق وجود هذين الأصلين، علماً وعملاً ودعوة، وكان هذا دين أهل البلد، أى بلد كان، بأن عملوا به ودعوا إليه، وكانوا أولياء لمن دان به، ومعادين لمن خالفهم، فهم موحدون.

أما إذا كان الشرك فاشياً، مثل دعاء الكعبة والمقام، ودعاء الأنبياء والصالحين، وفشا

مع ذلك الربا والظلم ، ونبذت السنن ، وفشت البدع والضلالات ، وصار التحاكم إلى الظلمة وصارت الدعوة إلى غير القرآن والسنة . فلا شك أن هذا البلد يعتبر بلد كفر . ولا عبرة بالصلاة والحج والصوم والصدقة .

إن التوحيد قد تقرر فى مكة بدعوة إسماعيل بن إبراهيم عليهما السلام ، واستمر أهل مكة عليه ردحاً من الزمن . ثم فشافيهم الشرك فصاروا مشركين وصارت بلادهم بلاد شرك ، مع أنهم قد كانوا على بعض أشياء من الدين ، فكانوا يحجون ويتصدقون على الحجاج وغير الحجاج .

أثر التمسك بالشريعة الإسلامية فى الحياة العامة
وأثر الانصراف عنها

إن العقيدة الراسخة عند النجديين — أمرائهم وعلمائهم — أن الله مكنهم فى جزيرة العرب ، وأن سلطانهم فى تلك الجزيرة لإحياء معالم الشريعة ، وإظهار دين الله . وجعل سلطان التوحيد فى الجزيرة هو السلطان الأول ، وإزالة كل أثر من أثار الشرك .

ولقد قال الإمام سعود فى خطبته بعد دخول مكة سنة ١٢١٨ هـ « إنا كنا من أضعف العرب ، ولما أراد الله ظهور هذا الدين دعونا إليه ، وكل يهزأ بنا ويقاتلنا »

وكان الملك عبد العزيز رحمه الله فى كل مناسبة يشير إلى هذا ، ذاكراً فضل الله عليه وعلى أجداده من قبل ، وأن ماوقع على آل سعود فى أيامهم الأولى لم يكن إلا عقوبة لهم من الله لتهاونهم فى أمر المحافظة على الدين والانصراف إلى أمور الدنيا . وكذلك جلالة الملك سعود مد الله فى عمره .

ولذا فإن المشايخ — من وقت لآخر — ما زالوا يقدمون النصيحة لإمامهم ويوصونه بالمحافظة على الدين ، والأخذ على أيدى المتهاونين به ، إذا رأوا شيئا من التراخى والتهاون من ذوى النفوذ والسلطان .

ففى أيام الإمام فيصل كان الشيخ عبد الرحمن بن حسن وولده الشيخ عبد اللطيف لايتوانيان عن النصيحة ولفت نظر الامام إلى عماله ورعاياه ، وتذكيره بعاقبة التفريط ، وأن الله لايغير مابقوم حتى يغيروا مابأنفسهم .

المراجع العربية

أخبار مكة — للأزرقى

تقويم البلدان — لأبى الفداء

معجم البلدان — لياقوت الحموى

رحلة ابن بطوطة

رحلة ابن جبير

القاموس المحيط — للفيروزابادى

تاريخ ابن غنام — (نسخة مخطوطة بالمكتبة الملكية البريطانية)

تاريخ ابن بشر — مطبوع بمكة

لم الشهاب فى سيرة محمد بن عبد الوهاب (نسخة خطية بالمكتبة الملكية البريطانية)

مقدمة ابن خلدون .

تاريخ الجبرتى

المغنى والشرح الكبير

فتح البارى شرح صحيح البخارى — لابن حجر العسقلانى

مجموعة المسائل والرسائل النجدية

تاريخ مكة — لزينى دحلان

العقد الثمين — للفاسى

الإعلام بأعلام بلد الله الحرام — لقطب الدين المكى

تاريخ العصامى

مسالك الأبصار — لابن فضل الله العمرى

الـكتب الإنجليزية

Travels through Arabia, M. Niebuhr, 1792, Vol. 2.

Nates on the_Beduins and Wahabiays, J. S. Burckhordt, 1831, Vol. 1.

Travel in Arabia, J. S. Burckordt, 1829, Vol. 2.

A. Brief History of Wahauby, Sir H. J. Brydges, 1834 (One Vol.)

Historical Geography of Arabia, C. Fastee, 1844 (Two Vol.)

Central aud Eastern Arabia, W.G. Palgrane, 1877.

The Southern Arabia, J. T. Bent, 1900.

The Penetration of Arabia, T. G. Hagarth, 1904.

History of Arabia, Andrew Crichton, 1833 (Two Vol.)

The Heart of Arabia
Arabia of the Wahhabis } H. stj B. Phiby.

Arabia Deserta, Charie Daughty.

In unknown Arabia, R. E. Chessman, 1926 (One Vol.)

The Persian Gulf, Sir A Welson, 1928 (One Vol.)

Revolt in the Arabia, T. E. Lawrance, 1927.

The independen Arab, Young, 1933.

Northern Negd, A. Mucil. 1928.

Hand book of Arabia, 1920.

(وهذا غير المجلات والصحف)



خاص بالوثائق والمعاهدات التي جاء ذكرها في مواضع من الكتاب

المعاهدة الإنجليزية مع عبد العزيز بن السعود

في ٢ كانون أول (يناير) سنة ١٩١٥ ميلادية

النص

بسم الله الرحمن الرحيم

بين الحكومة البريطانية من جهة ، وبين عبد العزيز بن عبد الرحمن بن فيصل آل سعود أمير نجد والإحساء والقطيف وجبيل وجميع المدن والمرافئ التابعة لهذه المقاطعات من جهة أخرى .

الحكومة البريطانية باسمها وعبد العزيز باسمه وباسم ورثته وأخلافه ورجال عشيرته ، عينت الحكومة البريطانية الكولونيل السير برسي كوكس معتمدها في سواحل خليج العجم مفوضاً لأجل أن يعقد معاهدة مع عبد العزيز بن عبد الرحمن الفيصل آل سعود ضمن المقصد الآتي :

توطيد وتوكيد الصداقة الموجودة بين الطرفين منذ زمن طويل ، وتأييد منافعهما المتقابلة : إن الكولونيل السير برسي كوكس ، وعبد العزيز بن عبد الرحمن بن فيصل آل سعود — المعروف بابن السعود — اتفقا وتعاقدا على المواد الآتية :

أولاً : إن الحكومة البريطانية تعترف وتقبل بأن نجداً والأحساء والقطيف وجبيل وملحقاتها ، التي تعين هنا ، والمرافئ التابعة على سواحل خليج العجم — كل هذه المقاطعات هي تابعة للأمير ابن سعود وآبائه من قبل ، وهي تعترف بابن سعود حاكما

مستقلا على هذه الأراضي ، ورئيساً مطلقاً على جميع القبائل الموجودة فيها ، وتعترف لأولاده وأعقابه الوارثين من بعده ، على أن يكون خليفته منتخباً من قبل الأمير الحاكم ، وأن لا يكون مخاصماً لإنجلترا بوجه من الوجوه ، أي أنه يجب أن لا يكون ضد المبادىء التي قبلت في هذه المعاهدة .

ثانياً : إذا تجاوزت إحدى الدول على أراضي ابن سعود أو أعقابه من بعده دون إعلام الحكومة البريطانية ، ودون أن تمنح الوقت المناسب للمخابرة مع ابن سعود لأجل تسوية الخلاف ، فالحكومة البريطانية تعاون ابن سعود ضد هذه الحكومة ، وفي مثل هذه الظروف يمكن للحكومة البريطانية بمساعدة ابن سعود أن تتخذ تدابير شديدة لأجل محافظة وحماية منافعه .

ثالثاً : يتعهد ابن سعود أن يمتنع عن كل مخابرة أو اتفاق أو معاهدة مع أية حكومة أو دولة أجنبية ، وعلاوة على ذلك فإنه يتعهد بإعلام الحكومة البريطانية عن كل تعرض أو تجاوز يقع من قبل حكومة أخرى على الأراضي التي ذكرت آنفاً

رابعاً : يتعهد ابن سعود — بصورة قطعية — أن لا يتخلى ولا يبيع ولا يرهن ولا بصورة من الصور يقبل بترك قطعة أو التخلي عن الأراضي التي ذكرت آنفاً ، ولا يمنح امتيازاً في تلك الأراضي لدولة أجنبية أو لتبعية دولة أجنبية دون رضا الحكومة البريطانية ، وأنه يتبع نصائحها التي لا تضر بمصالحه .

خامساً : يتعهد ابن سعود بأن يبقي الطرق المؤدية إلى الأماكن المقدسة مفتوحة ، وأن يحافظ على الحجاج أثناء ذهابهم إلى الأماكن المقدسة ورجوعهم منها .

سادساً : يتعهد ابن سعود كما تعهد والده من قبل بأن يمتنع عن كل تجاوز وتداخل في أرض الكويت والبحرين وأراضي مشايخ قطر وعمان وسواحلها وكل المشايخ الموجودين تحت حماية انجلترا والذين لهم معاهدات معها .

سابعاً : الحكومة البريطانية وابن سعود يتفقان فيما بعد بمعاهدة على التفصيلات التي تتعلق بهذه المعاهدة .

٣ يناير سنة ١٩١٥   التوقيع

المعاهد المعقودة

بين السيد الإدريسى وبريطانيا العظمى

في ٣٠ نيسان (ابريل) سنة ١٩١٥

(١) إن هذه المعاهدة التى هى معاهده صداقة وولاء قد وقع عليها الماجور جنرال شو Shaw المعتمد فى عدن باسم حكومة بريطانيا العظمى ، والسيد مصطفى بن السيد عبد الله باسم حضرة السيد محمد على بن محمد بن أحمد بن إدريس — السيد الإدريسى أمير « صبيا » وأطرافها .

(٢) المقصود من هذه المعاهدة : هو إعلان الحرب على الأتراك وتوطيد عرى الصداقة ما بين حكومة بريطانيا والسيد الإدريسى المذكور آنفاً وأعضاء قبيلته .

(٣) الإدريسى يتعهد بقتال الترك ، وأنه سيجتهد لطردهم من مواقعهم فى اليمن ، وأن يتعقبهم ، وله أن يوسع أراضيه على حساب الأتراك .

(٤) عمل السيد الأساسى يتجه ضد الترك فقط . ويمتنع عن كل حركة عدائية ضد الإمام يحيى ما دام هذا لا يضع يده بيد الترك .

(٥) تتعهد الحكومة البريطانية بالمحافظة على أراضى السيد الإدريسى من كل اعتداء يقع من قبل أى عدو كان على السواحل ، وبضمانة استقلاله فى أراضيه الخاصة ، وباستعمال كل الوسائط السياسية عند ختام الحرب فى سبيل تأليف مطالب السيد الإدريسى مع الإمام يحيى أو أى خصم آخر .

(٦) إن الحكومة البريطانية لا تقصد توسيع أراضيها فى غرب البلاد العربية . ولكنها تتمنى بصورة صريحة أن ترى رؤساء العرب فى حالة سلمية وأخوية ، كل منهم فى منطقته . وكل موال للحكومة البريطانية .

(٧) إنه — كدليل على تقدير الحكومة البريطانية للأعمال التى سيقوم بها السيد الإدريسى — فهى ستعاونه بالمال والمؤونة ، وتستمر على معاونته طول الحرب . وستكون

هذه المعاونة متناسبة مع ما يقوم به السيد الإدريسى من الأعمال .

(٨) تسمح الحكومة البريطانية للإدريسى — أثناء الحصار البحرى المضروب على سواحل تركيا فى البحر الأحمر — أن يتاجر مع عدن وسواحلها . وهى تضمن استمرار هذه الحالة ما دامت العلاقات الحسنة موجودة بين الطرفين .

(٩) تكون هذه المعاهدة نافذة المفعول على إثر موافقة الحكومة الهندية عليها .

يوم الجمعة ٣٠ نيسان (ابريل) سنة ١٩١٥

الموافق ١٥ جمادى الثانية سنة ١٣٣٣

التوقيع

السيد مصطفى بن السيد عبد العلى

التوقيع

B. G. L. Shaw

متعهد بريطانيا فى عدن

توقيع

هاردنج

حاكم الهند العام

ملحق : تعطى جزيرة فرسان للإدريسى منعاً لمطالب إيطاليا .

معاهدة سايكس – بيكو سنة ١٩١٦

ترجمة عن الإنكليزية

قد تم التفاهم بين كل من الحكومتين الفرنسوية والبريطانية .

(١) إن فرنسا وبريطانيا العظمى مستعدتان أن تعترفا بحكومة عربية مستقلة أو حكومات عربية متحدة أو مستقلة وتؤيداها فى الأماكن المشار إليها بحرف (A) وحرف (B) على الخريطة الملحقة بهذا ، وأن تكون هذه الحكومة أو الحكومات تحت سيادة زعيم عربى ، وأن يكون لفرنسا فى المكان المشار إليه بحرف (A) ولبريطانيا العظمى فى المكان المشار إليه بحرف (B) أولية الحق فى المشاريع والقروض المحلية ، وأن كلا من فرنسا فى حرف (A) وبريطانيا فى حرف (B) تقدم وحدها المستشارين والموظفين الأجانب الذين تطلبهم الحكومة العربية أو الحكومات العربية المتحدة .

(٢) يسمح لكل من فرنسا فى المنطقة الزرقاء وبريطانيا فى المنطقة الحمراء أن تنشئ من الإدارة أو الحكومات مباشرة أو غير مباشرة ، ما تريد أوما ترى تدبيره موافقاً مع الحكومة العربية أو الحكومات العربية المتحدة .

(٣) أن ينشأ فى المنطقة الخضراء إدارة دولية مشتركة يقرر شكلها بعد استفتاء روسيا أولا ، ثم استفتاء الحلفاء الآخرين واستفتاء مندوبى شريف مكة .

(٤) أن يعطى لبريطانيا العظمى ثغر حيفاء وثغر عكاء ، ويضمن لها القدار الكافى من مياه دجلة والفرات فى منطقة (A) لإرواء منطقة (B) وتتعهد حكومة جلالة الملك أن لا تخابر فى أى زمن كان دولة من الدول للتنازل لها عن جزيرة قبرص بلا موافقة حكومة فرنسا .

(٥) تكون الإسكندرونة ميناء حراً فيما يتعلق بتجارة الإمبراطورية البريطانية ، وأن لا يكون فيها تمييز فى تعيين ضرائب الميناء أو التسهيلات فيما يتعلق بالبضائع أو السفن البريطانية ، وأن يكون للبضائع البريطانية حرية المرور فى الإسكندرونة وفى

سكك الحديد التى فى المنطقة الزرقاء ، سواء كانت هذه البضائع صادرة عن المنطقة الحمراء أو المنطقة حرف (B) أو المنطقة حرف (A) أو واردة إليها ، وأن لا يكون تمييز سواء كان ذلك مباشرة أو غير مباشرة ضد البضائع البريطانية على أية سكة حديد كانت أو ضد البضائع البريطانية والسفن البريطانية فى أى ميناء من الموانى المذكورة سابقاً لهذه المناطق ، وأن تكون حيفاء ميناء حراً فيما يتعلق بتجارة فرنسا وممتلكاتها ومحمياتها ، وأن لا يكون فيها تمييز بتعيين ضرائب الميناء أو التسهيلات فيما يتعلق بالسفن الفرنساوية والبضائع الفرنساوية ، وأن يكون للبضائع الفرنساوية حرية المرور فى حيفاء . وفى السكك الحديد البريطانية التى فى المنطقة السمراء سواء كانت هذه البضائع صادرة عن المنطقة الزرقاء أو المنطقة حرف (A) أو المنطقة حرف (B) أو واردة إليها ، وأن لا يكون تمييز سواء كان ذلك مباشرة أو غير مباشرة ضد البضائع الفرنساوية على أية سكة حديد كانت ، أو ضد البضائع والسفن الفرنساوية فى أى ميناء من موانى المناطق المذكورة آنفاً .

(٦) أن لا تمتد سكة حديد بغداد جنوباً فى منطقة (A) إلى ما وراء الموصل ولا تمتد شمالا فى منطقة (B) إلى ما وراء سامرا إلى أن يتم إنشاء سكة حديد تصل ما بين بغداد وحلب فى وادى الفرات وذلك بموافقة الحكومتين .

(٧) أن يكون لبريطانيا العظمى وحدها الحق بأن تنشئ وتدير وتملك سكة حديد توصل حيفا بالمنطقة (B) ويكون لها الحق الدائم فى نقل الجيوش عليها فى أى وقت كان . والمفهوم بين الحكومتين أن هذه السكة هى لتسهيل المواصلة بين بغداد وحيفا . والمفهوم أيضاً أنه إذا حالت الصعوبات الهندسية والنفقات دون إنشاء هذا الخط فى المنطقة السمراء وحدها فإن الخطوط الآتية وهى : بانياس . نيس معرب . صلخد . نذا . صدى ومسمية تصل إلى المنطقة (B) .

(٨) تبقى الرسوم الجمركية معمولا بها عشرين سنة فى جميع أنحاء المنطقتين الزرقاء والحمراء كذلك فى المنطقة (A) والمنطقة (B) ، ولا تزاد الرسوم إلا بعد اتفاق الحكومتين

ولا تضرب رسوم داخلية تكون عائقة بين المناطق المذكورة آنفاً . أما الرسوم على البضائع الواردة فتؤخذ فى الميناء التى تصل إليها البضائع ، وتسلم إلى حكومة المنطقة الواردة إليها .

(٩) لا يجوز للحكومة الفرنسوية فى أى زمن من الأزمان أن تخابر دولة ثانية فى أمر التنازل لها عن حقوقها ، ولا يحق لها التنازل عن هذه الحقوق لغير الحكومة العربية أو الحكومات العربية المتحدة إلا إذا وافقت الحكومة البريطانية على ذلك . وعلى الحكومة البريطانية مثل هذه العهود للحكومة الفرنسوية فيما يتعلق بالمنطقة الحمراء .

(١٠) تتعهد كل من حكومة فرنسا وحكومة بريطانيا العظمى أن لا تمتلك أرضاً فى جزيرة العرب ، وأن لا توافق على امتلاك دولة ثالثة لأرض هناك سواء كان ذلك على السواحل الشرقية منها أو جزر البحر الأحمر . على أن هذا لا يمنع من تعديل حدود عدن بسبب اعتداء الترك .

(١١) إن المخابرات مع العرب لوضع حدود للحكومة العربية أو الحكومات العربية المتحدة يستمر كما كان بالنيابة عن الحكومتين الفرنسوية والبريطانية .

(١٢) قد وقع الاتفاق على أن الوسائل اللازمة للسيطرة على توريد السلاح إلى الأراضى العربية تستشار فيها الحكومتان .

كتاب من أمير نجد إلى الشريف حسين

بسم الله الرحمن الرحيم

حضرة جناب الأجل الأفخم بهىّ الشيم أمير مكة المكرم سيدنا الشريف حسين باشا ابن السيد على دام مجده وعلاه آمين .

بعد إهداء مزيد السلام عليكم ورحمة الله وبركاته على الدوام مع السؤال عن شريف خاطركم العاطر . لا زلتم بكمال الصحة والسرور حائزين الأوصاف الحميدة . أحوالنا من كرم الله جميلة ، وتقدم لسعادتكم قبل هذا كتاب نرجو أنه وصل وأنتم مسرورون . ثم نعرض لدولتكم العزيز : أنه بموجب شفقتكم وعلو همتكم وأنظاركم العالية قدمنا أخانا عبد العزيز عبد الله السعود لموجب خدمتكم وأحببنا المصاوغة معه لموجب التبرك باقدامكم ، وأرسلنا معه الصقلاوية والحمدانى وكحيلان ، ولا والله قصدنا فى إرسالها لأنكم بحاجتها ولا شك فى

غايتنا نبى «نبغى» نقرب منكم . فإننا هنا حاسبين أنفسنا من خواصكم ، ولله ثم لـكم ، وإلا هديتنا لحضرتكم رؤسنا وما تحت أيدينا ، ولـكنها هى صوغة للأولاد والـكرام ، وحررنا هذا الـكتاب لموجب التعرض لخدمتكم وما يبدو منه اللازم ، وإلا أمرك علينا تام على كل حال ، ومهما تفعلوه معنا وتحطوا أنظاركم علينا تجـدوه إن شاء الله مضاعفاً بالخدمات والسمع والطاعة . هذا مالزم تعريفه . والولد برسم الخدمة مع إبلاغ السلام حضرة الإخوان السادات الـكرام على وفيصل وزيد ، ومن عندبا أولادنا محمـد وسعود وكافة السعود يسلمون ودمتم محروسين ؟ :

١٨ من سنة ١٣٢٨

خادم الدولة والملة والوطن
أمير نجد ورئيس عشائرها
عبد العزيز السعود

(ختم)

من أمير نجد إلى الشريف حسين

بسم الله الرحمن الرحيم

حضرة جناب الأجل الأمجـد الأفخم بهى الشيم أمير مكة المـكرمة سيدنا الشريف الحسين باشا بن السيد على دام مجده وعلاه آمين .

بعد إهداء مزيد السلام التام عليكم ورحمة الله وبركاته على الدوام مع السؤال عن شريف خاطركم العاطر لازلتم بكمال الصحة ووافر السرور حائزين الأوصاف الحميدة ، أحوالنا من كرم الله جميلة . بأشرف وقت أخذنا مشرفكم المـكرم . فسرنا ما تضمنه من صحة أحوالـكم واعتدال أوقاتكم ، وما عرف جنابكم كان لدى ابنكم معلوما خصوصاً ما عرف جنابكم من جهة عتيبة والقصيم وأنهم يلقون إليكم من الأكاذيب الذى ليس لهـا حقيقة ويتظلمون عند حضرتكم . فنحن نقول عما قالوا سبحانك هذا بهتان عظيم ، فأما من جهة نظركم علينا وعليهم فهذا شأن مثلـكم وهو مقامكم العزيز ، ونحن متيقنون أن حِنّا بأنفسنا أقرب منهم ومن غيرهم لسعادتـكم ، وأدنى جواب يصدر منكم إلينا بمنع السوء عنهم إذا

كان صادر منا شيء فنحن نمتثل به لموجب رضا الله ثم لخدمة سمانكم . مع أنى والله ما أعلم أن أحداً من أهل نجد يطالب بنى مثقال حبة من خردل من ظلم ، إلا إن كان عدو ضعيف جانى ولجنايته سبب ، وقول العدو مايؤخذ فى عدوه ، وإلا أدام الله وجودكم نجد يوم جيته مافيه من جميع مأموريته أحد . كلها مناصيب لابن رشيد ، وولانا الله عليه بهداية الله ثم هدايتكم ، وأمرنا كل فى منصبه ، فنهم من أطاع واستقر وإلى الآن بمكانه ، ومنهم من ظلم الرعية وبنا غدر وأعاننا الله عليه وأحسنا فيه ، فالآن ابنكم وخادمكم ومملوك فضلكم ثانى نفسه سامع مطيع لله ثم لحضرتكم لأدنى واحد من أهل القصيم أو من عتيبة يدعى على بأدنى شيء منه ظلم . فكما تأمرون أفعل امتثالا لأمر الله ثم أمركم ، وجميع ما زوروه على حضرتكم دواء الكذب المقابل ، فإن كنت المجرم فأنا تحت أمركم كما تأمرون أفعل ومصطبر لأدبكم . فإن كانوا هم الكاذبين وتحقق عند جنابكم ذلك ، فنحن قد دحنا لهم من الزلات أكثر . وحقنا على جنابكم أن تكونوا على حذر من أقوال الغاشين الإسلام والمسلمين ، وأنا والله وبالله وتالله إن رضاكم وامتثال خدمتكم عندى أعز من رضا عبد الرحمن وخدمته ، ثم أنا معطيكم عهد الله وأمان الله ، أنى ولد لك سامع مطيع ماأخالف شوفتك فى جميع أمر ، وأنا تحت أمركم تريدون المقابلة بينى وبين المزورين فى أى وقت تبغونه أحضر ، فإن كان تحبونه من بعيد فالمراجعة بيننا ونحن تحت تدبير الله ثم تدبيركم ؛ وإنما لايزورون على حضرتكم أنى مستفزى أهل نجد قصدى محاربتكم أو مكاربتكم لا والله لا والله ، لا والله . إنى ما استفزيتهم إلا لموجب بنى خينا وبعض الفساد إلى مايخفى جنابكم . ولا يقطع عقلكم أن قدومى بها المحل قصدى محاربة أو أمر يغضب خواطركم ، إلا إنما هو تقرب لخدمتكم وعن البعد الذى يحصل به الاتحاد للأعداء ، ويزورون أعظم مما زوروا سابق ، واجبنا تعجيل الطارش لموجب رد جوابكم العزيز ، ونحن بانتظار تدبير الله ثم تدبيركم ، وتحت الأمر . هذا مالزم . والرجا ابلاغ سلامنا الإخوان السادات الكرام ومن عندنا أولادكم محمد وسعود ، وكافة السعود يقبلون أياديكم ودمتم محروسين م ؟

١٥ ل سنة ١٣٢٨

خادم الدولة والملة والوطن
أمير نجد ورئيس عشائرها
عبد العزيز السعود
(ختم)

مشروع الوحدة العربية كما كان يفهمها الملك حسين

(صورة وثيقة)

الأساسات المتعلقة بنجد التي يتمكن معها سكون البلاد وصيانتها من كل موانع الترقي والسعادة والفلاح المطلوبة لها حسب فكرى المخصوص ، فالأصل الأصيل الذى يمكن قبله تقرر عمل هو تفريق سكان الغطغط والإرطاوية والفرونى وفريشان ونحوهم من المنازل التى يسكنها الزمرة الموسومة بالإخوان الحادثة من سنتين التى هى عبارة عن معسكرات ، وقبل هذا والتعهد به أى بتفريق سكنة تلك المنازل ، وأن كل شخص يذهب إلى قبيلته المنسوب إليها لا ثمرة لأى عمل كان كما أشير برقيمنا ١٢ الحجة سنة ١٣٣٦ ه ، ومع ذلك فعلى سبيل المعلومات والتسهيل لا بأس من الإتيان بما سيذكر أدناه على وجه الاختصار

(١) الأحكام بكتاب الله وسنة رسوله .

(٢) أمراء نجد يكون تعيينهم على تعاملهم وقاعدتهم الجارية المعرفة .

(٣) إلغاء الضريبة التى تؤخذ على جمال المتسعرة بصورة كلية وهو المعروف بالباج

(٤) أمير نجد له حق تعيين صنوف المأمورين فى داخل إمارته .

(٥) لا حق لأمير نجد أن يخابر أى دولة كانت فى أى مسألة كانت بأى شكل وصورة ، وهذه أيضاً من حقوق المركز وعائد إليه ، وتكن برأيه وواسطته واستحسانه .

(٦) الحدود من الجنوب والجنوب الشرق والغربى الجبل المعروف بالعرض وما سامته والشقرا ومسكة وتربه ووادى الدواسر تكون جميعها تابعة للمركز ، والغرب والغرب الشمالى حدود عنيزة والقصيم والشمال والشرق معلومة .

(٧) القبائل السهول وسبيع الأسفلين تابعون للمركز .

(٨) لا يمنع القبائل التابعين للمركز ولا سواهم من أى أرض يحتلونها للرعى أو أن يمتاروا من أى قرية من القرى التابعة لأمير نجد وإن وقع من القبائل المذكورة تعدى فى الحال يرفع خبره للمركز لإجراء مقتضاه .

(٩) امتثال أوامر المركز وتنفيذها فى حق من يرد إلى داخل حدود الإمارة المذكورة ممن لم يكونوا من أهلها .

(١٠) كل من يرد من أهالى نجد إلى المركز أو إلى أى بلاد فى داخلية المملكة يعاملون بمثل معاملة أهالى تلك البلاد فى كل شئونهم .

(١١) المحافظة على كل حقوق وكافة معاملات من يكونون فى الخارج من أهالى نجد أى فى بلاد أجنبية فهى عائدة للمركز ومن حقوقه .

(١٢) المركز يتعهد بحفظ كيانه وصيانة أدنى حقوقة من كل تعدى .

(١٣) يجتنب بكل حذر واهتمام ما يوجب القلاقل والشغب فى داخليته أو فيما جاوره من المملكة .

هذا يكون دستوراً لكافة الأمراء ومن يكونون أمثال أمير نجد ، على أن الإدريسى حدوده قضاء صبية المعروفة فى زمن الترك ، وكذا إمام صنعاء ما كان يتصرف فيه من الأراضى فى زمنهم هذا ملخصه . ولكل من تأمل مسلكى وخطتى فى ظروف هذه الأعوام نحو الإمارة المذكورة رغماً عن مجروفاتها ، وخطتى عند ما توجهت لأبها ، ونهج ابنى فيصل على ذلك الأثر عند توجهه إلى تهايم عسير لعين تلك الغاية التى توجهت إليها يدرك لأول وهلة سلامتنا من شوائب المقاصد بما تدون أعلاه . أما عنيزة والقصيم — أى بريدة وملحقاتها — فلهم الرأى ينتخبون ابن سعود للالتحاق به أو ابن الرشيد أو يكونون مستقلين على أنفسهم . الخيار لهم فى ذلك ، ولزيادة الإقناع والسلامة من الشوائب فإنهم إذا انتخبوا المركز فهو لا يقبلهم . وعلى أى حال فهم تحت ما ذكر من الشرائط ، على أن مسألة تفريق سكان الغطغط والارطاوية القرى المذكورات أعلاه من أمهات المواد المتعلقة بقبول البقاء فى رياسة البلاد ؟

١٧ صفر سنة ١٣٣٧

صورة بلاغ من المعتمد البريطانى بجدة
عما أشاعه الأتراك من تقسيم البلدان العربية

جدة فى ٨ فبراير سنة ١٩١٨ .

جلالة صاحب السيادة العظمى ملك الحجاز وشريف مكة وأميرها المعظم .

بعد بيان ما يجب بيانه من الاحترام والتوقير ، قد أمرنى جناب فخامة نائب جلالة الملك أن أبلغ جلالتكم البرقية التى وصلت إلى فخامته من نظارة الخارجية البريطانية بلندن ، وقد عنونتها حكومة جلالة الملك ملك بريطانيا العظمى باسم جلالتكم ، وهذا نصها بالحرف الواحد :

إن الرغبة والصراحة التامة التى اتخذتموها جلالتكم فى إرسالكم التحريرات التى أرسلها القائد التركى فى سوريا إلى سمو الأمير فيصل وسمو الأمير عبد الله إلى جناب نائب جلالة الملك كان لها أعظم التأثير الحسن لدى حكومة جلالة ملك بريطانيا العظمى ، وإن الإجراءات التى اتخذتموها جلالتكم فى هذا الصدد لم تكن إلا رمزاً يعبر عن تلك الصداقة والصراحة التى كانت دائماً شاهد العلاقة بين كل من الحكومة الحجازية وحكومة جلالة ملك بريطانيا العظمى . ومما لا يحتاج إلى دليل أن السياسة التى تنسج عليها تركيا هى إيجاد الارتياب والشك بين دول الحلفاء والعرب ، الذين هم تحت قيادة وعظيم إرشادات جلالتكم ، قد بذلوا الهمة الشماء ليظفروا بإعادة حريتهم القومية . إن السياسة التركية لا تفتأ تغرس ذلك الارتياب بأن توسوس للعرب أن دول الحلفاء يرغبون فى الأراضى العربية ، وتلقى بأذهان دول الحلفاء أنه يمكن إرجاع العرب عن مقصدهم ، ولكن أقوال الدساسين لن تقوى على إيجاد الشقاق بين الذين اتجهت عقولهم إلى فكر واحد وغرض واحد .

إن حكومة جلالة ملك بريطانيا العظمى وحلفاءها ما زالت واقفة موقف الثابت لكل نهضة تؤدى إلى تحرير الأمم المظلومة . وهى مصممة أن تقف بجانب الأمم العربية فى جهادها ،

لأن تبنى عالماً عربياً يسود فيه القانون والشرع بدل الظلم العثمانى ، ويتحد التنافس الصناعى الذى أحدثته الصفات الرسمية التركية .

إن حكومة ملك بريطانيا العظمى تكرر وعدها السالف بخصوص تحرير الأمم العربية ، وإن حكومة جلالة ملك بريطانيا العظمى قد سلكت مسلك التحرير ، وتقصد أن تستمر عليه بكل استقامة وتصميم بأن تحفظ العرب الذين تحرروا من السقوط فى وهدة الدمار ، وتساعد الذين لا يزالون تحت نير الظالمين لينالوا حريتهم .

وفى الختام ألتمس قبول خالص التحيات وعظيم الاحتشامات والتمنيات ؟

نائب المعتمد البريطانى بجدة

الـكولونيل باست

صورة ما تحرر لفخامة نائب الملك بمصر

من الملك حسين وشرح أغراضه من الثورة العربية

ما رأيته خصوصاً بهذا الأثناء عن اعتناء فخامتكم وتأكيداتها فى إزالة أسباب دواعى سوء التفاهم الذى لا أرتاب بأن المقصود بذلك الاعتناء هو صيانة تأثير حسيات مخلصكم خاصة لنا ولما تكون المواد البسيطة أيضاً من ذلك المعنى رأيت أن أتبين من حكومة جلالة الملك فى الأساس المقرر مع عظمتها فى النهضة وما بنيت عليه من مواد الاتفاق المقدم طيه بيانها بأنى ما طلبت للبلاد أمام حكومة جلالة الملك ما طلبته من المواد التى تعهدت عظمتها بها رغبة منى فى تأسيس حكومة ، أو تشكيل دولة لأستأثر بحاكميتها ، أو حرصاً على جاهها أو رياستها ، ولـكن عند ما دعتنى بريطانيا إلى ما دعتنى إليه ، وعلمت أن مقاصدها بهذا أيضاً تأمين مصلحة المسلمين عامة والعرب خاصة ، لم يسعنى إلا الإجابة وطلبها أقله تلك المواد المؤدية فى اعتقادى لما يأتى :

أولا — لمحافظة الـكيان الإسلامى بالنظر لما حل وما سيحل بتركيا .

ثانياً — صيانة العظمة البريطانية من الاستهداف مما سترمى به عكس مقاصدها .

ثالثاً — سلامتي من الاتهام بالتواطؤ معها ضد الأساس المقصود بالنهضة .

ثم إنى لم أجد من جناب الفاضل الأديب المستر استيورس عند اجتماعى بحضرته فى السنة الأولى بجدة ، ثم بعده بحضرة الشهم الهمام السير مارق سايكس ، ثم فى السنة الماضية بالقمندان الهمام هوغارت الموقر ما يشير إلى ما يخالف أو يخل بتلك المقررات ، غير أن ما فى طبيعة مشروعنا وتمامه الحياتية من الرقة وما يتصادف من بعض حالات يستدعى سياقها زيادة تعيين الأمر وتأكيد الحقيقة عن الحدود فقط ، وإلا باقى المواد فإنا نعجز عن أداء شكر الوفاء بها شكراً يملأ الخافقين ، خصوصاً أمر الإعانة عما لو فهمت الغلط فى مقرراتنا المذكورة أساساً ، أو حدث ما يوجب تعديلها ، الأمر الذى لا أقول إنه يمس كيان العالم الإسلامى ، ولكن أظن — وبعض الظن إثم — أنه لا يخلو من شىء من ذلك . هذا على فكرى الخصوصى . فمتى أضفنا عليه تظاهر عجزى بعدم حصول ما كان يؤمل من النتائج يتحتم على الانسحاب من الأمر والتنازل عنه ، لاعتقادى الشخصى أن تعديل مقرراتنا المذكورة ، بصرف النظر عما فى إخلاله بالغايات المقصودة ، وعرضتنا لحذر موادنا الثلاثة آنفة البيان وطمس صحيفة تاريخى ، فهو يزيل ويسقطنى من ثقة واعتماد بلادى وأقوامى الأقربين ، حينما يظهر لهم عكس تلك المقررات التى أعلنتها لهم ، وصرحت به شفاهاً وتحريراً فى ظروف هذه المدة . وأسست عليه الأعمال ، وأكون خدعت نفسى وغششتكم يا أصدقائى بما وراء هذا من اضطراب البلاد بالفتن والثورات ونحوه ، مما لا يمكن لى معه حتى الاستفادة لذاتى وما يزيل كل ظن حكومة جلالة الملك بى ، وأكيد إخلاصى يجبرنى أن أقول من الآن إن مبادئ هذه الخطرية على وشك التحسس بها بالنسبة للطلبات المتكررة المختلفة عن أمرهم بإعلان استقلال بلادهم ، ولم أجد ما أدفعهم به إلا قولى إن استقلالى هو استقلال عموم أنحاء البلاد ، ولكنهم يقيموا الحجة على دفعى هذا بأوجه أخر ، وعليه فإن كان ولا بد من التعديل فلا لى سوى الاعتزال والانسحاب ، ولا أشتبه فى مجد بريطانيا بألا يتلقى هذا منا إلا أنه أمر يتعلق بالحياة ، لا لقصد عرضى أو فكر غرضى ، وإنها لا ترتاب فى أنى وأولادى أصدقاؤها الذين لا يتغير ولاؤهم وإخلاصهم ، ثم تعينوا البلاد التى تستحسن إقامتنا فيها للسفر إليها فى أول فرصة وإن رأت ذلك ، ولكن مشاكل الحرب

الحاضرة تقضى بتأجيله إلى ختامها ؛ فمعروفها وجميـل مكارمها يفرض علينا الثبات أمام ما سيتضاعف علينا من المهمات ونحوه من العموم مما لامقاومة لدينا أمامها إلا حسن النية فالأمر إليها . أما عطف الأمر وتعليقه بمؤتمر الصلح فالجواب عليـه من الآن بأن لا علاقة لنا به ولا مناسـبة بيننا وإياه ، حتى ننتظر منه سلباً أو إيجاباً ، ولو قرر المؤتمر المذكور أضعاف مقرراتنا وكان ذلك عن غير وساطتكم وقبلناها فنكن من المطرودين من رحمة البارى جل شأنه الرقيب على قولى . هذا الذى أتوسل إليه الآن أن يتولانا جميعاً بعنايات رأفته الأحدية ، وقبول ما أقدمه لفخامتك فى الختام من جزيل احتشاماتى هو من سجايا شيمكم م ٠

٢١ ذى القعدة سنة ١٣٣٦

٢٨ أغسطس سنة ١٩١٨

الإعانة الانكليزية

جدة فى ١٣ إبريل سنة ١٩١٩ — رجب سنة ١٣٣٧ .

صاحب السيادة العظمى جلالة ملك الحجاز وشريف مكة وأميرها المعظم صاحب الجلالة

بعد بيان ما يجب بيانه لجلالتكم من التوقير . أتشرف بإحاطة علم جلالتكم بأن حكومة جلالة الملك قد رخصت بدفع مبلغ ٠٠٠و١٠٠ جنيه (مائة ألف جنيه) لإعانة شهر إبريل ، وهذا بتنقيص ٠٠٠ر٢٠ جنيه (عشرين ألف جنيه) ، أما الثمـانين ألف جنيه الشهرية الجارى دفعها طبعاً إلى دمشق علاوة على المـائة ألف . ومن حيث هذا التخفيض لا يخفى على جلالتكم أنه عنـد ما تشرفت بالبحث مع جلالتكم فى مسألة الإعانة فى شهر فبراير المـاضى قد أخبرت جلالتكم أن حكومة جلالة الملك رغبت فى عمـل تخفيض عظيم فى إعانة شهر مارس بناء على ما كنتم جلالتـكم قد وافقتم عليه مع ذلك طلبتم جلالتكم أن إعانة شهر مارس يجب أن تبقى كما كانت بلا تغيير إلا أنكم وعدتم بتنقيص كبير فى إبريل فعرضت رغائب جلالتكم على حكومة جلالة الملك فصارت موافقة خصوصية على صرف إعانة شهر مارس بتمامها ، مع العلم بأنه كان مفهوماً أن تنقيصاً عظيماً قد عمل لشهر إبريل

بناء على وعد جلالتكم ، وعندما كنت بمصر كانت حكومة جلالة الملك قد عينت هذا التخفيض إلى أربعين ألف جنيه ، إلا أن فخامة نائب جلالة الملك رأى أنه لمناسبة الأحوال الحاضرة يحتمل أن جلالتكم تتفضلون أن يخصم من إبريل عشرين ألف جنيه فقط ، وقد صارت الموافقة بذلك من قبل حكومة جلالة الملك على شرط أن جلالتكم تعملون كل سعى لتخفيض مبلغ شهر مايو إلى ثمانين ألف جنيه وأن تعطونى الميزانية ببيان مطاليب جلالتكم المتنوعة ، وإنى قد أخبرت حكومة جلالة الملك منذ بضعة شهور أن جلالتكم قد وعدتمونى بالميزانية بعد سقوط المدينة مباشرة . وأؤمل أن جلالتكم تتمكنون من إعطائى التفاصيل عن الإيراد والمصاريف المنتظرة للحجاز عندما أتشرف بمواجهة جلالتكم قريبا . وعندئذ أستطيع أن أرفع طلبات جلالتكم بصورة فعلية ، وإنى سوف أستطيع طبعاً البحث مع جلالتكم فى جميع التفصيلات ، إلا أن الميزانية المطلوبة من قبل حكومة جلالة الملك لاتشمل مثل تلك المفردات ، كتصليح الخط والاحتياجات الخصوصية (خلاف الإدارية) للمدينة وخلافها التى لا تدخل فى ميزانية اعتيادية . ولكنها تكون فى الواقع ونفس الأمر مختصة بقروض مخصوصة وما شاكل ذلك ، ولا تشمل أيضاً مصاريف الإدارة العربية بدمشق ، لأن تلك الإدارة تتناول اليوم مائة وخمسين ألف جنيه شهريا ، وإنى لمتطلع باشتياق لمشاهدة جلالتكم ثانياً ، وأرجوا الله أن تكونوا جلالتكم بصحة جيدة وتفضلوا بقبول خالص تمنياتى الطيبة وعظيم احتراماتى ؟

مخلصكم

ولسن باشا

جدة فى ١٧ يونيه سنة ١٩١٩ موافق ١٨ رمضان سنة ١٣٣٧ .

صاحب السيادة العظمى جلالة ملك الحجاز وشريف مكة وأميرها المعظم صاحب الجلالة

بعد بيان ما يجب بيانه من التوقير قد اندهشت جداً عند تلقى تحرير جلالتكم نمرة ١٥٣٤ بتاريخ ١٦ يونيه ؛ وإنى لم أفهم السبب الذى جعل جلالتكم تكتبون أنكم يلزمكم طلب الاستقالة والانسحاب رداً على خطابى بخصوص الإعانة ، وإنى قد أبرقت لجلالتكم عند ما اطلعت على برقيتكم لسمو الأمير زيد التى تقولون فيها : أن لا إعانة تدفع بعد الشهر القادم ، وذلك أكد لى أن خطابى لم يكن كامل الوضوح أو غير ظاهر العبارات الأمر الذى أبدى مزيد أسفى عليه . وأن جلالتكم تتذكرون أن حكومة جلالة الملك رغبت فى تنقيص الإعانة وجعلها ثمانين ألف جنيه فى شهر أبريل الماضى ، وسألتكم عن تفصيلات لميزانية الحجاز ، وقد أعطيتمونى جلالتكم ذلك وقد أرسلت إلى لندرة ، وبعد ذلك قررت حكومة جلالة الملك عدم جعلها ثمانين ألف وصدقت على استمرارها مائة ألف جنيه إلى نهاية شهر يوليو ، وهذا ماقصدت إبداءه لجلالتكم فى تحريرى ، وهذا لايدل على أنه بعد شهر يوليه لم يكن فيه إعانة كما ذكرتم جلالتكم فى برقيتكم لسمو الأمير زيد ، وعليه التمس أمركم بأنى أرفع العبارة الخاصة بالإعانة من البرقية ؟ وإننا اليوم فى وقت حرج . ولذا أرجو جلالتكم رجاء صميما أن تطرحوا فكرة طلب الاستقالة فى هذا الوقت الذى فيه بلادكم ، وأمر الإسلام فى أشد الحاجة لكم . وأحب أن أطلب من جلالتكم أن تستمروا على ائتمانكم لحكومة جلالة الملك ولفخامة الجنرال اللنبى ولنفسى كما فعلتم على الدوام ، وقد طلبت نفس هذا الطلب فى خطابى بتاريخ أمس ، فرغماً من عظيم ارتياحى لاشتغالى لأجل النهضة العربية ، ثم وعظيم سرورى لاشتغالى فى هذه السنين كلها مع جلالتكم ، كما ورغماً عن افتخارى بتمثيل بريطانيا العظمى مع جلالتكم ، فاننى مشتاق للتمكن من القيام للإجازة والاستراحة قليلا ، ولكن هو واجبى أن أبقى كل ما أمكن من الزمن ، وبذلك أؤمل أن أكون مقدماً بذلك بعض الخدمات الصغيرة لجلالتكم ، نعم إنه بعد عناء الثلاثة سنين الماضية الشديد ، أنا أعلم أنه من المتعب جداً لجلالتكم ملافاة هذا!

الوقت الحرج الحالى ، ولكننى أطلب من جلالتكم طلباً صميماً أن تطرحوا ظهرياً كل فكرة خاصة بترككم مركزكم العظيم مهما صعبت الوضعية ، ولا شك حيث إن جلالتكم قائد النهضة العربية العظيم ، بل وحليف بريطانيا العظمى المخلص إذا تنازلتم عن الأعمال فى الآونة الحاضرة كان فى ذلك البلية العظمى ، وقد عرفتمونى جلالتكم هذا الزمن الطويل ، وأنا على يقين أن جلالتكم تعتقدون فى صدق إخلاصى ، وأن هذا الخطاب لم يكتب إلا بكمال الإخلاص المحض ، ومالى إلا أن أرفع أكف الرجاء إلى حضرة ذى الجلال أن يمن على جلالتكم بالقوة والمقدرة على الاستمرار على العمل . وفى خاتمة خطابى ألتمس قبول خالص تمنياتى وعظيم احتشاماتى القلبية الخالصة ؟

مخلصكم

ولسن باشا

مذكرة المستر لويد جورج

رئيس الوزارة البريطانية

عن الاحتلال المؤقت لسورية وفلسطين والعراق ريثما يبرم أمر الانتداب

(١) تتخذ التدابير اللازمة حالا لإجلاء الجنود البريطانية عن سورية وكيليكية ومن جملتها نفق جبال السلسلة (طورس) .

(٢) لقد أعلن كل من الأمير فيصل والحكومة الافرنسية أن فى القدرة الشروع فى الإجلاء عن سورية وكيليكية فى أول نوفمبر سنة ١٩١٩ .

(٣) إن المسئولية فى وضع الحاميات فى المقاطعات التى يتم إخلاؤها يكون على مقتضى عهود وتصريحات الحكومة البريطانية والحكومة الافرنسية ليس فقط بينهما بل بين كل منهما و بين العرب .

(٤) تستبدل على مقتضى ذلك حاميات سورية فى غربى خط (سايكس —

بيكو) وحاميات كيليكية بجنود فرنساوية ، وتستبدل حاميات دمشق وحمص وحماة وحلب بجنود عربية .

(٥) إنه بعد انجلاء الجنود البريطانية لا تبقى مسئولية ما على الحكومة البريطانية ولا على القائد البريطانى العام فى المناطق التى أخلتها الجنود .

(٦) القاطعات التى تبقى فيها الجنود البريطانية هى فلسطين وتكون حدودها مطابقة للحدود القديمة المسماة (دان — إلى بئر السبع) والعراق ومن جملتها الموصل ، فيكون هذا الاحتلال مطابقاً للاتفاق المعقود فى ديسمبر سنة ١٩١٨ بين الموسيو كليمنصو والمستر لويد جورج .

(٧) إن الحكومة البريطانية مستعدة فى أى وقت كان أن تبحث فى أمر الحدود بين فلسطين وسورية ، و إذا وقع خلاف بشأن هذه الحدود فالحكومة البريطانية مستعدة أن تقبل تحكيم (حكم) يعينه الرئيس ولسون .

(٨) إنه بمقتضى مبادئ إتفاق (سايكس — بيكو) يحق للحكومة الفرنساوية أن تعترض على منح الحكومة العربية للحكومة البريطانية الحق فى إدارة و إنشاء وامتلاك خط حديدى يصل ما بين حيفا والعراق . وذلك فى طريق تقرر بدل التخطيط فى أى جهة كانت إلى موازاة (دير الزور) شمالاً ، ويحق كذلك للحكومة البريطانية أن تنشىء أنابيب للبترول ، كما يحق لها إنشاء سكة الحديد ، ويكون للحكومة البريطانية علاوة على ذلك حق دائم فى جميع الأزمنة للقيام بتحسين التسهيلات لسكة المذكورة والأنابيب وأن تنقل الجيوش على السكة الحديدية ، ويمكنها أن تتمتع بهذه الحقوق حتى فى زمن الحرب ، وذلك بدون خرق حياد الحكومة الفرنساوية والحكومة العربية ؛ و إذا وقع خلاف فى رسم الطريق لسكة الحديد وأنابيب الزيت (البترول) فالحكومة البريطانية مستعدة أن تقبل تحكيم (حكم) يعينه الرئيس ولسون .

(٩) الحكومة البريطانية تعلن الحكومة الافرنسية والأمير فيصل أن غايتها الإسراع فى الرسم لتجد طريقاً إن أمكن لسكة الحديدية ولأنابيب البترول فى الأراضى التى هى تحت الوصاية البريطانية حتى تجتلب بذلك التمتع بالحقوق المذكورة آنفاً (أى حتى لا تستعمل حقها فى المرور فى الأراضى العربية) .

(١٠) — إنه إلى أن تقرر الحدود بين فلسطين والعراق — يكون القائد العام البريطاني الحق في احتلال مخافر أمامية على الحدود التي تدعيها الحكومة البريطانية .

(١١) لما كانت الحكومة الفرنساوية قد اتخذت على عاتقها حماية الشعب الأرمني فالحكومة البريطانية توافق على إرسال جنود فرنساويين حالا عن طريق مرسين والاسكندرونة لهذا الغرض ؟

باريس ١٣ سبتمبر ١٩١٩

رد سمو الأمير فيصل بن الحسين على مذكرة المستر لويد جورج الأولى

« النص »

لندن في ٢١ سبتمبر ١٩١٩

حضرة صاحب الفخامة :

لي الشرف بأن أضع بين يدي فخامتكم خلاصة جوابي على المذكرة التي تفضلتم باعطائي صورة منها يوم الجمعة في ١٩ سبتمبر ١٩١٩ وذكرتم أنكم رفعتم المسيو كلمنصور في ١٣ سبتمبر نسخة منها أيضاً ، وكذلك للمندوب الأميركي المستر فولك في ١٥ منه فأقول :

(١) إن هذا الاتفاق الأخير مجحف تماماً بحقوق العرب . ويخالف ما كانوا يتوقعونه من الحكومتين الجليلتين خاصة . ومن العالم المتمدن عامة ، بعد الذي قاموا به من مقاتلة الخلافة وجعل البلاد المقدسة ميداناً للحرب ، انتصاراً لمبدأ جاهر به الحلفاء رسمياً وفي محافلهم وكتاباتهم المأثورة .

(٢) إن العرب الذين جرى الاتفاق على بلادهم ، وبدون علم منهم ألبتة ، لا يمكنهم أن يعترفوا بما وقع ، ولا أن يتحملوا تبعة الرضى بما يفضي إلى بوارهم على غير مأثم اجترحوه

(٣) إن معاهدة سنة ١٩١٦ التي جعلت دعامة هذا الاتفاق ليست معروفة رسمياً عند العرب ، ولا هي مما يسوغ أن يعول عليه بعد الذي وقع من إجماع الحلفاء والدول المشتركة على محو المعاهدات السرية وبعد الذي تلقاه العرب ... ... بشأنها من وزارة خارجية

خارجية جلالة الملك نفسها رداً على اعتراض والدى عليها ، عند ماوقعت إليه نسخة منها منشورة فى جريدة (المستقبل) الباريسة نقلا عن صحف الشام التى أذاعها فيها جمال باشا التركى فى يونيو سنة ١٩١٨ لإثارة الخواطر ، وهذا نص البرقية :

« إن البولشفيك لم يجدوا فى وزارة الخارجية فى بترغراد معاهدة معقودة ، بل محاورات ومحادثات مؤقتة بين انجلترا وفرنسا وروسيا فى أوائل الحرب لمنع المصاعب بين الدول أثناء مواصلة القتال ضد الترك . وذلك قبل النهضة العربية ؛ وإن جمال باشا — إما من الجهل أو الخبث — غير فى مقصدها الأساسى . وأهمل شروطها القاضية لضرورة رضى الأهالى ، وحماية مصالحهم . وقد تجاهل ماوقع بعد ذلك من أن قيام الحركة العربية ونجاحها الباهر ، وانسحاب روسيا قد أوجد حالة أخرى تختلف عما كانت عليه بالكلية منذ أمد مضى » .

وقد زكى هذا القول المنوط برضى الشعب ومشيئته مافعلته الدولتان المعظمتان (انجلترا) و (فرنسا) من تأكيد ذلك بالمنشور الذى أصدرتاه معاً فى نوفمبر سنة ١٩١٨ فضلا عن قانون جمعية الأمم ، الذى لم ينضب مداده بعد ، وآخرها بلاغ الكولونيل ماينس هارجن بحضور المسيو لافوكارد « إن الحكومة البريطانية لا ترغم أى شعب على قبول انتداب لا يريده » .

(٤) إن القائد العام الذى يقود جيوش الحلفاء المشتركة قد بلغنا رسمياً فى أوائل احتلال سورية وغيرها ، مرة عن طريق المندوبين السياسيين بالقول والكتابة : إنه المسئول الرسمى الوحيد عن إدارة البلاد جميعها باسم الحلفاء ، ولدى مؤتمر السلام بواسطة نظارة الحربية البريطانية . وقد أيد هذا القول الضابط السياسى الأعلى البريطانى الكولونيل (ماينس) أثناء الاجتماع الرسمى فى الشام يوم الثلاثاء ٩ سبتمبر سنة ١٩١٩ بحضور المعتمد الإفرنسى المسيو لافوكارو . وقد دام هذا الاحتلال سنة كاملة . ولا أرى من الأسباب الكافية مايدعو إلى تغيير هذا النظام فى هذه البرهة القصيرة الباقية لعقد الصلح — كما تقولون — مع تركيا .

(٥) يأبى العرب أن يعترفوا بأمر لاعلم لهم به ، وباجتماع لم يشهده أحد منهم

و بقرار لم يشتركوا فيه فى الوقت الذى تستوى فيه مسئولية الجميع لدى القائد العام لجيوش الحلفاء .

(٦) إن المعروف رسمياً أن التدابير الحاضرة المتخذة فى سورية مؤقتة . وقد جاء فى تلك (المذكرة الملحقة) أيضاً أن التدابير المقصودة مؤقتة . فما معنى استبدال أمر مؤقت بمثله ؟ وما الفرق بين التدبيرين حتى يقوم أحدهما مقام الآخر ، و يعمل بموجبه فى وقت غير مناسب ، ومع سهولة إبقاء الحالة حتى القرار الأخير ؟ و إنى أحذر أولى الشأن من قادة الأمم أن تنفيذ هذه الخطة الجديدة سيؤدى إلى ما لا تحمد عقباه فى البلاد العربية . وتقع المسئولية على عاتق الذى أبرم ذلك القرار الظالم الممقوت .

(٧) جاء فى الفقرة الثالثة من المذكرة المحقة بأن هـذا التدبير والتغيير فى مواقع الحاميات العسكرية قد جرى على مقتضى عهود وتصريحات إنجلترا وفرنسا ، ليس فقط بينهما ؛ بل بين كل منهما و بين العرب . وبما أننى لا أملك نسخة من هذه العهود والتصريحات القاضية بتمزيق وحدة البلاد . ولا سيما بين العرب وفرنسا مباشرة ، فأرجوكم أن تتفضلوا باعطائى نسخة منها موقعة . فإنه لا علم لى بغير المعاهدة المعقودة بين بريطانيا العظمى والعرب . وعلى خلاف ما يقضى به الاتفاق الأخير و بالتصريح الذى أصدرته الحكومتان معاً لإعطاء الشعب حرية الاختيار (١٩١٨) .

(٨) ومع أن المعاهدة تذكر أن التدبير مؤقت . فإنى أحتج بشدة على ما ورد فى المذكرة الملحقة بشأن التخوم وتحديدها . و إنى أرى فى ذكر الحدود واستعداد الحكومة البريطانية لقبول التحديد برهاناً قاطعاً على تجزئة البلاد ، ودخولاً لا مسوغ له فى شأن مصيرها قبل أن يصدر أى قرار من مؤتمر السلام عنه .

(٩) إنى أسأل بريطانيا العظمى التى صرحت أنها لا تقبل انتداباً فى سورية عما جرى بعهدها السابق الذى بنت عليه معاهدتها مع العرب . فإنها أكدت لهم (أنها تعترف باستقلال العرب وتأخذ بناصره) فهل ترضى بريطانيا العظمى أن تقول للعرب : لا شأن لى معكم بعد . فإن مصالحى اليوم غير مصالحى بالأمس ، وهى التى قد طالما جاهرت بإنصاف الشعوب المظلومة ، وقاتلت دون الضعيف المستهدف للمطامع الخسيسة الأشعبية ؟ ذلك

ما أترك الحكم فيه لوجدان فخامتكم وللرأى العام البريطانى الكريم .

(١٠) إذا كان لا بد من (انسحاب) الجيوش البريطانية فى سورية ، فلماذا لا تنسحب أيضاً سائر الجيوش الأوربية ، وتترك المسئولية للحكومة العربية المستعدة لقبول تلك المسئولية لدى الحلفاء والدول المشتركة معهم لحماية الأمن العام فى البلاد ريثما يبرم مؤتمر السلام قراره بشأن مصير سورية .

(١١) هذه هى الملحوظات الابتدائية التى أردت بسطها لفخامتكم .

وفى الختام أطلب إلغاء ذلك التدبير المقترح بين فرنسا وانجلترا بالكلية . لأنه يخالف المراد من قانون جمعية الأمم . ويناقض العهود المبنية على أساس الشرف القومى ؛ وإنه فوق ذلك رجوع غير عادل إلى سياسة الاستعمار الأشعبى الذى ينبغى هدم بنيانه بعد هذه الحرب هدماً لا قيام بعده . وسيضطر العرب من أن يدافعوا عن وحدتهم ووجودهم بأقصى ما لديهم من قوة وحمية ، ثم إنهم لا يعدمون وسيلة ينشرون فيها للعالم المتمدن أجمع ما جرى من تمزيق المعاهدات وتبديل الخطة الموضوعة ، مهما قيل فى شأنها إنها مؤقتة ، فإن الحالة النفسية لأهالى البلاد تحملهم على الاعتقاد بأن هذا الترتيب مقدمة إلى تقسيم واقع ، ولن يقبلوا فى ذلك معذرة أو حجة . ولا أدرى كيف رضى القائد — مع معرفته بتلك الحقائق — أن يعرض البلاد التى ساعد على تحريرها إلى قلاقل مؤكدة . ولا جرم أنه من الأنفع ترك الحالة على ما هى عليه ، أو انسحاب الجيوش الأوربية برمتها ريثما يبرم القرار الأخير .

هذا ما أردت بيانه لفخامتكم تخلصاً من كل مسئولية لديكم ولدى العالم أجمع وتفضلوا بقبول فائق احتراماتى وتعظيماتى ؟

التوقيع

......

نص الكتاب الإضافى

لندن فى ٢٣ سبتمبر سنة ١٩١٩

رئيس الوزارة البريطانية المعظم :

حضرة صاحب الفخامة :

لى الشرف أن أقدم لفخامتكم الملحوظة التالية — علاوة على المذكرة التى قدمتها لفخامتكم بالأمس والمؤرخة ٢١ سبتمبر ١٩١٩ .

استدعانى حضرة القائد العام للجيوش المتحالفة فى سوربة ، وسألنى بالأمس أن أبحث معه بشأن (انسحاب) الجيوش البريطانية من البلاد . وقد أنبأت فخامته بأنى أرفض البحث فى هذا الموضوع ، وبينت الأسباب لذلك الرفض .

وها إنى أذكر فخامتكم أيضاً بأن الجنرال البريطانى فى بيروت عند ما أجبر الجيوش العربية على الإنسحاب من المنطقة الساحلية قد كتب لقائدها العربى الجنرال شكرى باشا بأن الموجب لهذا التغيير عسكرى محض ومؤقت إلى أن يصدر قرار مؤتمر السلام بشأن مستقبل البلاد . والقوات البريطانية هى التى تولت بنفسها إنزال الأعلام العربية المرفوعة على بنايات الحكومة وغيرها بواسطة الأهلين .

ولهذه الأسباب أطلب أحد أمرين : إما إعادة السواحل إلى الجيوش العربية كما كانت عليه الحاله فى أوائل الاحتلال . وهى تتولى مسئولية الأمن وحماية البلاد إلى أن تبرم النهاية ، وإما بقاء الحالة على ماهى عليه الآن إلى الحين المذكور . وتفضلوا بقبول فائق الاحترام والاجلال ؟

التوقيع

. . . . . .

كتاب آخر من الأمير فيصل لرئيس الوزارة البريطانية

٩ أكتوبر سنة ١٩١٩ .

رئيس الوزارة البريطانية المعظم :

حضرة صاحب الفخامة :

لقد تفضلتم فأنبأتمونا عند اجتماعنا فى (جيلد هول) منذ يومين : أن الأزمة الأخيرة حالت بينكم و بين الرد على مذكرتى المؤرخة فى ٢١ سبتمبر سنة ١٩١٩ وأنكم عازمون على إرسال الجواب فى أقرب مدة . فأشكركم على ذلك اللطف الجزيل ، وإنما لما كانت الأزمة قريبة الوقوع تجاسرت على تقديم هذا الكتاب سلفاً . وإنى أضع فيه أمامكم المطالب الآتية .

لقد بسطت لكم سابقاً آرائى عن الوفاق الأخير فى باريس ، ولا أقصد الآن إلا أن أؤكد لكم بأنى لم أزل على ذلك الرأى . ومهما يكن فى ذلك الوفاق من حسن أو قبح ، فالواقع أنه سينظر إليه من جمهور السكان بسخط عظيم . والأرجح أن انسحاب الجيوش البريطانية من سورية يؤدى إلى كارثة عظيمة ، يكون فيها القضاء على العالم العربى وعلى المشروع العمومى الذى يذود عنه الحلفاء ، وإنى شديد الرغبة أن أتجنب كل ما يؤدى إلى إحراج المركز ، أو ما يؤول إلى اضطراب الحبل بين الحلفاء والعرب ، وما يمكن أن يفضى أيضاً إلى جعل التسوية على قاعدة مقبولة من المستحيل ، وأريد أن أبذل جهدى لأؤيد الوفاق المكتوب بالدم المراق من الجميع نصرة للحق والعدل . ورغبة فى منع أى حادث يؤدى إلى زيادة الخطورة فى المركز رأيت أن أعرض لفخامتكم ما يأتى :

(١) إلغاء القرار الباريسى ، أو فى الأقل إرجاء العمل به .

(٢) أن تعرض المسألة كلها على مؤتمر السلام لتسويتها النهائية بدون تأجيل ، والنظر فيها من قبل المؤتمر بأجمعه ، أو من لجنة أخرى فرعية يعينها المؤتمر ، تؤلف من أعضاء بريطانيين وفرنساويين وعرب تحت رئاسة أحد الأمريكان للبحث فى هذه المسألة الخطيرة ولتقديم قرار عن ذلك إلى مؤتمر السلام .

إنى أعتبر إلغاء ذلك القرار الباريسى من الأوليات الحيوية للوصول إلى حل مرضى . وإنه إن لم يعمل بذلك فالكارثة فى سورية يعجل وقوعها . وربما تطرأ أمور تمنع المباحثات الودية . ولذلك فأنا أثق بأن مطالبى هذه التى هى جوهرية لمصالح الجميع تقابل من فخامتكم بالاستحسان ، وإنى معتمد على مساعدة الحكومة البريطانية لتأكيدها . وأرجو من فخامتكم أن تتكرموا على بالجواب فى أسرع أوان ، وتفضلوا بقبول فائق الاحترام .

التوقيع

. . . . . .

صورة الكتاب الوارد من رئيس الوزارة البريطانية

١٠ دوننج ستريت

(لندن) ١٠ أكتوبر سنة ١٩١٩

يا صاحب السمو :

وصلنى كتابكم المؤرخ فى ٩ أكتوبر الذى ترتأون فيه أن الاقتراحات عن احتلال سوريا بعد الانسحاب البريطانى ينبغى أن تلغى ، أو على الأقل تؤجل ، وأن القضية كلها تعرض على مؤتمر الصلح ، أو على مؤتمر فرعى يعينه المؤتمر لأجل التسوية النهائية بدون تأخير .

لا أظن أنه يجب على أن أبحث مرة ثانية فى الدواعى التى حملت حكومة جلالته على عرض الاقتراحات المذكورة فى المذكرة ، لأنها قد أوضحت كفاية فى الكتاب المرسل إليكم من قبل وزير الخارجية . ولتلك الأسباب المذكورة لا يظهر لى أن الاقتراح الذى تبدونه الآن يمكن العمل به . فحكومة جلالته قد أقرت عزمها على أنه يستحيل عليها أن تداوم على احتلال سورية بالجيوش البريطانية . وقد أعلنت منذ ستة أشهر مضت لمؤتمر السلم ولذاتكم أيضاً أنها لا تقبل انتداباً فى سورية فى أية حال من الأحوال ، فاحتلالها للبلاد الذى كبدها نفقات طائلة قد طال أكثر مما كان فى انتظارها على أمل أن مؤتمر السلام يقدر على مباشرة البحث فى القضية التركية بعد بضعة شهور ، ومرض الرئيس ولسون المكدر الذى بدون مشاركته بالعمل معنا لا يمكن الوصول إلى بت نهائى

سيؤجل عوضاً عن أن يعجل البت فى هذه القضية .

وعليه فمن المستحيل لحكومة جلالته أن تسحب الاقتراحات التى أبدتها للعمل فى القضية السورية أثناء التأجيل إلى أن يفصل فيها مؤتمر السلام .

على أنها تسر جداً بأن تدبر سريعاً اجتماعاً بين ذاتكم ومفوض فرنساوى وأمريكانى وبريطانيا لتسوية القضايا المتعلقة بالانسحاب المنوى وقوعه للجيوش البريطانية فى أول نوفمبر على أحسن طريقة حبية مرضية للجميع .

وكما أنبأتكم قبلاً أنى أرغب فى استماع مطالعات سموكم شخصياً فى مواجهة ثانية عن هذه المسألة نهار الاثنين القادم الساعة الرابعة فى ١٠ دوننج ستريت ، وإن لى الشرف أن أكون خادم سموكم المطيع .

لويد جورج

رئيس الوزارة البريطانية

مذكرة من وزارة الخارجية الانكليزية للأمير فيصل

نظارة الخارجية البريطانية .

لندن فى ٩ أكتوبر سنة ١٩١٩ :

ياصاحب السمو :

لى الشرف أن أنبئكم بوصول الملاحظات الابتدائية التى تفضلتم بتعليقها على مذكرة رئيس الوزارة التى قدمها للموسيو كليمنصو ولشخصكم عن الاحتلال العسكرى فى سورية وفلسطين والعراق ريثما يبرم مؤتمر السلام قراره بشأن الانتداب . ولقد أرسلنا نسخاً منها أيضاً إلى كل من المستر فولك مندوب الولايات المتحدة الأميركية وإلى السنيور تيتونى مندوب المملكة الإيطالية :

وبناء على مايلوح لنا من أن هنالك سوء تفاهم فى مغزى المذكرة فانى أريد — قبل كل شىء — أن أبين أن تلك الوثيقة المذكورة لاتمثل بأى وجه من الوجوه اتفاقاً بين الحكومتين

الإفرنسية والبريطانية ، بل تشتمل على مقترحات قدمتها الحكومة البريطانية من تلقاء نفسها عن الاحتلال العسكرى فى الولايات التى كانت فيما سبق من الزمن تابعة لتركيا — إلى يقرر مؤتمر السلام مسألة مستقبلها نهائياً .

وهذه المقترحات التى تتمسك بها الحكومة البريطانية لم تضعها إلا بعد أن قررت أنه يستحيل أن تستمر على احتلال سورية بالجيوش البريطانية . وقد دعتكم الحكومة البريطانية إلى أوربا . وأسرعت فى تدبير أمر سفركم قبل أن تبلغ هذا القرار للحكومة الفرنساوية أو المؤتمر ، ووضعت تلك المقترحات فى يدكم للنظر فيها على أثر وصولكم .

ويظهر أن سموكم تنظرون إلى هذا التدبير المقترح لاستبدال الجيوش البريطانية بالإفرنسية والعربية كأنه من بعض الوجوه مغاير للعهود التى عقدتها حكومة جلالة الملك مع والدكم الجليل جلالة الشريف حسين ملك الحجاز .

ودفعاً لحصول أدنى سوء تفاهم بشأن هذا الأمر فإنى أبعث إليكم بالمراسلات التى دارت بين والدكم الجليل ملك الحجاز وبين نائب جلالة الملك بمصر وأدت بموجب الشروط التى تشتمل عليها إلى دخول العرب فى الحرب ضد تركيا . وهذه الأوراق تحتوى على جميع المكاتبات المختصة بهذا الموضوع وهى فى حيازة حكومة جلالة الملك .

أما الوثيقة التى قدمتموها سموكم لرئيس الوزارة فى الاجتماع الذى انعقد منذ بضعة أيام فهى فقط خلاصة الشروط التى طلبها الملك حسين فى وقت سابق ، ولكنها لم تؤخذ بعين الاعتبار ولم تُقْبَل . ولذلك لا دخل لها فى المسألة الموضوعة على بساط البحث .

وإنه لمن الواضح لسموكم من المكاتبات المرسلة طيه أن حكومة جلالة الملك بيَّنَتْ من الأول : أنه فى رأيها أن مقاطعات — مرسين واسكندرونة وبعض أقسام سورية الواقعة إلى غرب مقاطعات دمشق وحمص وحماة وحلب — لا يمكن أن يقال عنها : إنها عربية خالصة ، وإنه ينبغى إخراجها من الحدود المقترحة والتخوم التى كانت الحكومة البريطانية مستعدة أن تعترف باستقلال العرب فيها ، ولها ملء الحرية أن تتصرف فيها بما لا ينافى مصالح حليفتها فرنسا . وهذه الفقرات واردة فى كتاب السر هنرى مكماهون إلى جلالة الشريف بتاريخ ٢٥ أكتوبر سنة ١٩١٥ . وقد أجاب جلالة الشريف حسين عن هذا الكتاب فى ٥ نوفمبر بقوله .

« إنه يتنازل عن الحاجة بإدخال ولايتى مرسين وأطنة فى المملكة العربية »

ولكنه صرّح بأن :

« ولاية حلب و بيروت وسواحلهما إنما هى ولايات عربية خالصة »

ورداً على هذا الكتاب قال نائب جلالة الملك بمصر فى ١٤ ديسمبر ما يأتى :

« إنه يرحب بموافقة جلالة الشريف على استثناء ولاية مرسين وأطنه من حدود الأمصار العربية » .

وزاد على ذلك ما يأتى :

« أما فيما يختص بولاية حلب و بيروت : فحكومة بريطانيا العظمى قد نظرت بعين الاعتبار إلى ملاحظتكم . ولكن بما أن مصالح حليفتنا داخلة فى هذه المسألة فيقتضى لذلك اعتبارات مهمة ، ومراسلات أخرى عن الموضوع تقدم لكم فى حينها » .

وأما الحاجة إلى مكاتبة جديدة فقد استغنى عنها ، لورود كتاب من جلالة الشريف حسين مؤرخ فى أول يناير سنة ١٩١٦ يقول فيه :

« إنه بخصوص الأقسام الشمالية وسواحلها قد أوضحنا قبلاً فى كتابنا السابق ما يمكننا القبول به من التغييرات ، وقد وجب ذلك لإتمام المطالب التى بلوغها منوط بمشيئته سبحانه وتعالى ، إن هذا الشعور ذاته . وهذه الرغبة التى تبعثنا على تجنب كل ما يمكن أن يضر بالمعاهدة بين إنجلترا وفرنسا والاتفاق المعقود بينهما مدة الحرب ورزاياها ، على أننا نجد أن من واجبنا أن نؤكد لحضرة الوزير أنه عند سنوح أول فرصة بعد انتهاء الحرب نطالبكم بما نغض النظر عنه الآن لفرنسا فى بيروت وسواحلها »

وقد شرح جلالته ذلك الرأى بقوله فيما بعد :

« من المؤكد أن الأهلين فى بيروت لن يقبلوا هذه الاستثناءات وربما أجبرونا أن نتخذ أمورا جديدة قد تعود على بريطانيا العظمى بما لا يقل عن مشاكلنا الحاضرة ، لأننا نعتقد ونؤكد أن مصالحنا متبادلة . وهذا الأمر هو الذى جعلنا أن لا نخاطب دولة غيركم ، ولذلك يستحيل علينا أن نسمح بأى تحوير يخوّل فرنسا أى نفوذ أو أى شبر واحد من الأرض فى تلك البقاع » .

وفى ٢٥ يناير أجاب نائب الملك بمصر بما يأتى :

« أما عن الأقسام الشمالية : فقد لاحظنا بمزيد الرضى أنكم ترغبون أن تتجنبوا كل مايضر بالمعاهدة بين بريطانيا العظمى وفرنسا . لأن ذلك كما تعلمون عزمنا الأكيد ، وأنه لايمكن أن يطرأ أى شخص يخفف ولو فى أقل الدرجات تضامننا على مداومة الحرب إلى نتيجة النصر . وعلاوة على ذلك فالصداقة بين بريطانيا العظمى وفرنسا متى تقرر النصر تزيد رسوخاً وثباتاً . لأنها تكون موثقة بدماء الإنجليز والفرنسيس الذين ماتوا جنباً لجنب ذائدين عن العدل والحرية »

تلك كانت آخر المكاتبات التى دارت عن هذا الموضوع قبل الهاجمة المشتركة التى انتهت فى نوفمبر سنة ١٩١٨ باندحار الجيوش التركية التام .

ويتضح من هذه المراسلات أمران :

الأول « أن الحكومة البريطانية مرتبطة بمواثيقها مع الملك حسين أن تعترف بتأسيس مملكة عربية مستقلة ، تشتمل حدودها على المدن الأربع ، وهى الشام وحماة وحمص وحلب »

الثانى : « أن الحكومة البريطانية قد أوضحت بلا إبهام لجلالة والدكم قبل دخول العرب فى الحرب أنهم يعتبرون أن لفرنسا حقوقاً خاصة فى البقاع الواقعة إلى غرب هذه المدن الأربع »

وحكومة جلالته تحب أن تزيد على هذا : أنه فى سنة ١٩١٦ حينما اقتضت المصلحة الحربية العمومية أن يبرم اتفاق مع فرنسا وروسيا على احتلال الولايات التركية — عند سقوط تركيا — ألحت حكومة جلالة الملك على الاحتفاظ باستقلال العرب فى الولايات التى وعدت أن تحتفظ بها فى مراسلاتها مع الملك حسين . ولم تبلغ هذا الاتفاق للملك حسين . لأنه كان مطابقاً للعهود التى دخلت معه بموجبها من قبل .

وقد كان موقف حكومة جلالة الملك فى كل هذه المخابرات واضحا دائما وغير متبدل ، وقد دخلت مع حليفيها الفرنسيس والعرب بموجب شروط لاتتغاير ، بل كل واحد منها متمم للآخر . وحكومة جلالته تعلق اهتماماً عظيما على صداقة حليفيها واشتراكهما فى العمل ، وتنوى أن تقوم بتعهداتها لكل واحد منهما .

وأما الآن : فأقول شيئا عن سؤال سموكم عن السبب الموجب لنهاية الاحتلال العسكرى البريطانى لسورية ، عوضاً عن تأجيله حتى يتقرر الصلح مع تركيا وحلفائها .

إن حكومة جلالة الملك يسرها أن تعترف اعترافاً تاماً بالمساعدة التى لم يكن غنى عنها والتى بذلها الملك حسين وشخصكم الكريم والجيش العربى الباسل تحت قيادتكم تأييداً لقضية الحلفاء . فإن حماسة ونشاط جيوش سموكم كانت عضداً مهماً فى الحرب التى انتهت بقهر الاستبداد التركى . ولكن حكومة جلالة الملك لايمكنها أن تنسى أن الحصة الكبرى فى قهر تركيا قد كانت من نصيب المملكة البريطانية . فإنها منذ البداية إلى النهاية قد أرسلت إلى ميدان الحرب الشرقى مايَنيف على مايون وأربعمائة ألف جندى ، وأنفقت سبعمائة وخمسين مليوناً من الجنيهات . وقد كانت هذه الأثقال علاوة على الضحايا الكبرى التى اضطرت إليها فى أوربا لحطم قوة الألمان التى كانت تدعم الإمبراطورية العثمانية . فشعوب الإمبراطورية البريطانية قد خسرت أكثر من تسعمائة وخمسين ألف نسمة فى ذلك السبيل . وجرت على نفسها ديناً فادحاً يبلغ تسعة آلاف مليون جنيه لتأييد حرية أمم أوربا والشعوب التى كانت من قبل تئن تحت النير التركى . وقد تمكنت شعوب الإمبراطورية البريطانية بهذه النفقات من مساعدة الشعوب العربية والأمم الأوربية المستبد بها . وحطمت نير المستبد ، لتسير فى الطريق المؤدية إلى النجاح والاستقلال والنفوذ فى العالم ؛ وعلاوة على هذا الجهد أثناء الحرب ، فالامبراطورية البريطانية قد تركت حاميات فى الولايات المحتلة مدة سنة منذ إمضاء الهدنة . واحتملت الأثقال العظيمة والمتعبة لتأييد النظام والسلام فى البلاد التى تحررت من الحكم الأجنبى ، راجية أن مؤتمر الصلح يأتى بحلّ مرض عاجلا لجميع المشاكل الصعبة المتعلقة بمستقبل الشرق الأوسط . ولكنه ليس من الإنصاف أن يسأل « المكلف » الانجليزى بأن يتحمل أكثر مما تحمل من أثقال احتلال الولايات التى لاتنوى الإمبراطورية أن تقبل فيها مسئولية دائمة . وقد جاهرت حكومة جلالته فى مارس الأخير لمؤتمر السلام ولذاتكم أيضاً : أنها لاتقبل انتداباً فى سورية فى أية حال كانت . والآن بناء على تأجيل الولايات المتحدة الأمريكية قرارها باستعدادها لقبول أو رفض المشاركة فى تأييد خير ونجاح شعوب الشرق الأوسط . فلا أمل فى تقرير سلم نهائى مع تركيا قبل مضى بعض الوقت من السنة المقبلة .

وعلى هذه الحالة قد قررت حكومة جلالة الملك : أنه يستحيل عليها إبقاء جيوشها بعدُ في سورية . وأعلنت المؤتمر بذلك . وهى تنوى سحبهم فى أول نوفمبر القادم .

وقد ذكرتم سموكم فى مذكرة أخرى مؤرخه فى ٢٣ سبتمبر مسألة الشروط التى عليها أخلت القوات العربية مدن الساحل حين تقدُّم الجيش . فحكومة جلالته لا تريد أن تفكر بأن سموكم تعتبرون امتثال أوامر القائد العام الذى كنتم تحت أمره (وهى أوامر كانت عنده قوة كافية لإنفاذها) نتيجة مقاولة . أما إن سموكم قد اعتقدتم أن الاحتلال البريطانى سيدوم إلى إمضاء السلام فأمر أفهمه جيداً . لأن ذلك كان أيضاً فى رأى حكومة جلالته فى ذلك الوقت . وقد أطالت أجل الاحتلال البريطانى أكثر مما كانت تظن هى أو غيرها فى الأرجح ، لكن بالنظر إلى العبء الفادح الواقع عليها فمن حقها أن تلحّ أن احتلالها ينبغى أن ينتهى . وهى عند ما أنبأت مؤتمر السلام بما سبق ذكره عن عزمها على سحب جيوشها حالاً عرضت حكومة جلالته مشروع الاحتلال المؤقت البقاع التى كانت سابقاً تركية ، كما هو منشور فى المذكرة . وهى لا ترى أن هنالك اقتراحاً يمكن العمل به فى خلال هذه المدّة . ولا يوجد رجل ثقة يعتقد بقدرة الشعب السورى على القيام بشئون نفسه فى الوقت الحاضر ، فتجربة هذا الحل الذى تشيرون به يكون مضراً لترقى الشعب السورى سريعاً ، وبملء الحرية . وبالنتيجة لاستقلال الشعوب السورية والعربية ، وعلاوة على ذلك فإنه ينبغى — ريثما يتقرر الصلح مع تركيا — أن تحتل قوة أوربية من الدرجة الأولى البقاع الواقعة إلى الجنوب الشرقى من الأناضول ، وبعرضها هذا الاقتراح ، كما هو مفصل فى المذكرة ، قد نظرت حكومة جلالة الملك إلى التعهدات التى تحتملها نحو حلفائها العرب والافرنسيس . وهى تعهدات — كما سبق إيضاحه — قد بُينت للملك حسين قبل دخوله فى الحرب . وهى لم تستطع إلا بعد صعوبة أن توطد لسموكم تأسيس مملكة عربية مستقلة فى ذلك القسم من سورية المشتمل على دمشق وحماة وحمص وحلب كما سبق الوعد للعرب مع الملك حسين .

أما فيما يتعلق باحتلال فرنسا لبقية سورية فهى تسأل سموكم : أن تذكروا أن العرب مديونون بنيل حريتهم بدرجة عظمى للضحايا العظمى التى تكبدتها الأمة الفرنساوية

فى هذه الحرب . وحقيق أن المساعدة الفرنساوية فى سوريا عينها لم تكن عظيمة لاشتغال فرنسا بالعراك فى جهات أخرى غيرها ، ولكنها فى ميادين الحرب الحيوية فى أوربا قد خسرت مليون وأربعمائة ألف جندى ، وتكبدت ديناً لا يقل عن الدين الذى تكبدته بريطانيا العظمى لسحق القوة التى أيدت الاستبداد التركى ، والتى لولا معونتها لم تستطع القوة الحربية التركية من أن تدوم أكثر من بضعة أسابيع .

ولذلك فحكومة جلالة الملك تؤمل من سموكم أن ترضوا بالاقتراحات التى بيّنتها فى مذكرتها عن احتلال سورية ريثما يتم الصلح مع تركيا . وأما الاعتبارات التى تذكرونها عن مستقبل الشعب السورى والعربى ستطلب بإلحاح من مؤتمر السلام — الذى أنتم أحد أعضائه الموقرين — والذى يكون له القوة التامة للبت فى المسألة العربية كلها ، والذى لا يقتصر فى أعماله على رأى سموكم ورأى الشعب العربى فقط ؛ بل يتناول سائر التعهدات والمجاهرات الصادرة من الدول العظمى .

وإن حكومة جلالة الملك لا تشك أبداً فى أن أحسن الطرق للشعب العربى : هو أن يقبل التدبير المؤقت المقترح ، وأن يدخل فى تدابير حبية عملية لأجل إنفاذها مع حليفتيه بريطانيا العظمى وفرنسا ، وهى كما أشارت سابقاً تلح الآن بأن سموكم تبحثون حالا فى هذه التدابير مع الحكومة الفرنساوية ، وحكومة جلالته تعمل ما فى وسعها بكل سرور لتسهيل اتفاق مرضٍ حبى بين حليفيها فيما يتعلق بالاحتلال سحابة هذه المدة .

وتعتبر الحكومة البريطانية أنها مقصرة بواجبها نحو حلفائها العرب إذا لم توضح بحرص وبكل مودة أنها لا تقدر أن تتصور شيئاً أشد فشلا لآمال العرب ونجاحهم فى مؤتمر السلم وبعده من طريقة المقاومة العسكرية الملمح إليها فى كتاب سموكم ، وهى بصفتها صديقة العرب المخلصة والمريدة لهم كل خير تدعوهم إلى قبول التدبير المقترح .

وعلاوة على ذلك أرجو أن يكون هذا الكتاب معيناً على نجاح محادثاتنا فى المستقبل مع سموكم ، والتى أتطلع إليها بكل سرور ، وإنى أثق أنه يكون وسيلة لتمهيد الملاقات بين هذه البلاد وحليفيها الفرنسيس والعرب .

وإنى ألتمس من سموكم أن تثقوا بأن للحكومة البريطانية العاطفة والإعجاب بالشعب العربى اللذين حملاها على تأييد جلالة الملك حسين فى ثورته ضد الترك ، واللذين يمثلان

طرق العلاقة مع سموكم فى الحرب العظيمة الظافرة التى اشتركتم سموكم فى الجهاد فيها زمناً طويلا .

ولى الشرف أن أكون خادم سموكم الخاضع المطيع ؟

اللورد كرزون اوف مدلتون
وكيل خارجية حكومة جلالة الملك

مذكرة

إلى المجلس الأعلى لمؤتمر السلام فى فرساى

استدعانى فخامة رئيس الوزارة البريطانية من دمشق فى خلال شهر سبتمبر لمفاوضة الدول العظمى فى المسألة السورية . وسلمنى فخامته فى لوندرة مذكرة تحتوى على تغييرات معينة فى الإدارة الحالية فى سورية . وقال إن نسخاً منها سلمت لمندوبى فرنسا وأمريكا وإيطاليا . وقد فهمت من المكاتبات والمعاملات التى تبعت ذلك أن المذكرة المشار إليها لم تكن مبنية على اتفاق بين بريطانيا العظمى وأية دولة أخرى . وإنما هى بيان لقرار اتخذته بريطانيا العظمى لأسباب اقتصادية فيما يتعلق بانسحاب جيوشها من بعض الولايات العربية ، ويقال إن المسألة كلها اتفاق عسكرى مؤقت . وليس له صفة إدارية أو سياسة ، وإنما اتخذ لحفظ النظام إلى القرار النهائى الذى سيصدره مؤتمر السلام عن حكومة البلاد المستقلة .

فأنعمت النظر فى هذه المكاتبات ، ولما كنت أراقب عن كثب الحالة العامة فى البلاد العربية منذ عقدت الهدنة مع الترك . ولا يخفى على حضرتكم أنى فى موقف يؤهلنى للحكم بأحوال بلادى . فقد وصلت إلى النتيجة الآتية :

إن تنفيذ هذا المشروع مخالف لحقوق الأمم ، ومجحف بحقوق شعبى وبلادى ، ومخل بالأمن العام فى الشرق كله ، وإنى واثق أن الدول العظمى ذات المصالح فى الشرق يصيبها من الضرر بقدر مالها من المصالح هناك ، وأن الدولتين لايمكن أن تكونا عالمتين

بالمشاكل التى قد تقع من تغيير الحالة الحاضرة المؤسسة منذ الاحتلال ، لأن هذا الاتفاق يغير الإدارة المؤقتة منذ الاحتلال بلا اتخاذ تدبير مؤقت يقوم مقامه .

لما أخبرتنى الحكومة البريطانية عن هذا المشروع الذى يسمونه (مشروعا مقترحا) مبنيا على معاهدة سايكس — بيكو سنة ١٩١٦ احتججت ودونت الأسباب التى دعتنى إلى ذلك . فلما تحققت الحكومة البريطانية حرج الموقف قبلت اقتراحى بتعيين لجنة أمريكية و بريطانية وفرنسوية وعربية للنظر فى المسائل المتعلقة بالجلاء الآنى ، ولتأسيس إدارة واحدة مؤقتة تقوم مقام الإدارة الحاضرة . فلما عرض هذا الاقتراح على الحكومة الفرنسوية أخبرنى اللورد كرزن وزير خارجية بريطانيا العظمى أن المسيو كلمنصو لم يستحسن هذا الاقتراح ، وأعرب عن رغبته فى أن يرانى فى باريس ، وعلاوة على ذلك فإن الحكومة الفرنسوية رفضت الموافقة كما هى وأخبرتنى بنفسها على اقتراح بريطانيا إلا فيما يختص بجلاء الجيوش البريطانية فى أول نوفمبر ، فالحكومتان نظرتا فقط إلى مايختص بمصالحها فى المسألة ولم تقدر التقدير اللازم لما يكون لذلك من التأثير فى الشعب السورى ، ولما كانت علىّ مسئولية سلامة ونجاح بلادى فقد أخبرت الحكومة الفرنسوية كذلك عن الأسباب التى تمنعنى عن الموافقة على هذا الاتفاق ، وأعدت عليها الاقتراح بتأليف اللجنة المختلطة ، فرئيس الوزاره الفرنسوية فى رده علىّ رفض قبول أى اقتراح من اقتراحاتى ، اعتقاداً منه أن المجلس الأعلى قد اتخذ قراراً فى هذا الأمر . وقال إن : الجنود الفرنسوية مستعدة لحفظ النظام فى منطقتها ومساعدتى على ذلك فى منطقتى حالما أطلب ذلك منها . وأظن أن المسيو كلمنصور يعتقد أن الحركة التى نخشاها يكون سببها المحرضون ، وليس انفجاراً ذاتيا لشعور وطنى . وإنى فى ريب من أن المجلس الأعلى والرأى العام فى العالم المتمدن أجمع يوافق على اتخاذ الوسائل لاخماد الحركات الوطنية المشروعة مما لا يكون من نتائجه إلا سفك الدماء . وقد فهمت أن المجلس الأعلى لم يتخذ أى قرار فى هذا الأمر . والذى أعلمه أن غاية مافعله : أنه دون هذا الاتفاق فى ١٥ سبتمبر . ويظهر أن المجلس الأعلى فهم أن هذا المشروع المقترح لم تكن الغاية منه سوى استبدال الجيوش ، وأنه لم يشمل أى تغيير سياسى أو إدارى فى بلاد العدو المحتلة التى تدار شئونها الآن باسم الحلفاء . فمن الواضح إذن أن المشروع المقترح لم يوافق عليه أولو الأمر المناط بهم ذلك ، ويجب

أن يعاد النظر والمناقشة فيه فى المجلس الأعلى ، وإنى أعرض فيما يأتى الأسباب الجوهرية التى قد تدفع الشعب إلى اليأس من مستقبله ، والتى أبنى اعتراضى عليها على الاقتراح :

(١) يصعب علىّ أن أفهم أن المشروع عسكرى محض ، ويظهر لى أنه يحتوى على أمور اقتصادية وسياسية لا يمكن البت فيها إلا فى مؤتمر السلم ، فإن مجرد نزع السلطة العليا فى الإدارة من يد واحدة ، وقسمة البلاد إلى ثلاث مناطق مختلفة مرجع كل منها حكومة دون غيرها ، وكل منها تعمل على نظام مختلف — لهو بلا ريب تغيير ذو شأن . لا يمكن أن يقال إنه إجراء عسكرى . فإن بعض المسائل كالاتفاق على السكك الحديدية ومناطق النفوذ وغير ذلك لا تدخل فى جملة الوسائل المتخذة لحفظ النظام حتى يصدر القرار النهائى فى المسألة السورية من قبل مؤتمر السلم .

(٢) إنه بموجب التدبير المقترح تقسم الولايات العربية إلى ثلاث مقاطعات : واحدة منها تحت الإدارة البريطانية ، والثانية تحت الإدارة الفرنسوية ، والثالثة تحت الحكومة العربية . ومعنى ذلك : أن الأمة السورية التى طالما تاقت إلى وحدة الإدارة قد تقطعت أوصالها وجعل لكل جزء منها حكومة خاصة ؛ فالضرر الناشىء عن ذلك هو ضربة قاضية على البلاد ؛ فإن المنازعات بين سكان المقاطعات المختلفة التى قد تكون تحت رحمة — أو جهل — الموظفين الذين قد ينشطوا منها ، أو تزداد المزاحمة بين الحكام المختلفين ؛ فيقف ذلك فى سبيل الفوائد التى تنجم عن وضع البلاد تحت إدارة واحدة .

ثم إن الجزء الذى ترك للحكومة العربية يقال : إنه ولاية عربية مستقلة ، ومع ذلك فقد وضع تحت نفوذين مختلفين : أحدهما بريطانى . والآخر فرنسوى ، وكل مساعدة لأحد هذين الجزأين يجب أن تطلب من الدولة التى لها النفوذ هناك . فهل سمع فى تاريخ العالم أن أمة من الأمم أمكنها الرقى فى أحوال معاكسة كهذه ؟ ولا شبهة أن هذا التدبير يثبط عزائم الأمة ، ويكون مدعاة لحنقها ، فتزول ثقتها بالحلفاء ، وتبذل جهدها فى الدفاع عن وحدة البلاد . نعم إن الأمة ضعيفة ، ويتعذر عليها المقاومة الطويلة ، لكنها لا تحجم عن الموت فى سبيل مطالبها العادلة ؛ فمن يكون مسؤولاً أمام العالم المتمدن عن مسئولية كهذه ؟ ولا يستطيع أحد أن يقنع الأمة أنها على ضلال فيما قد وضعته نصب أعينها . وكل من

اختبر الشعور الغالب على الأمة لا بد من أن يعتقد بأن الأمن العام يمكن توطيده بدون إراقة الدماء .

(٣) قد اقترح سحب الجيوش البريطانية على أساس لا يعترف به العرب ولا حكومة الولايات المتحدة التى أعلنت عند دخولها الحرب أنها لا تعترف بأى اتفاق سرى ، وأنا أشير بهذا إلى اتفاق سايكس — بيكو المبرم سنة ١٩١٦ م الذى تصرف بالبلاد كأنها ضيعة من الضياع ، أو سلعة من السلع فى زمن كان فيه فتيانها يهرعون من سورية إلى الصحراء لبذل نفوسهم فى سبيل استقلالها . فإن كل عمل يكون أساسه غير معترف به فى مؤتمر السلم لا يمكن تنفيذه بلا مناقشة خاصة فى ذلك المؤتمر .

(٤) لما احتل الحلفاء سورية أمرنى القائد العام أن أستدعى عمالى من السواحل ، وصرح للشعب السورى : أنه يريد احتلال البلاد وتأسيس حكومة موحدة فيها باسم الحلفاء وأن تبقى إدارته المشكلة على هذا النمط معمولاً بها إلى أن يحين الزمن الذى يمضى فيه مؤتمر السلم قراره النهائى ، وقد اعتبر السوريون هذا التصريح عهداً من الحلفاء ، وأن بلادهم تكون أمانة فى ذمة القائد نيابة عن الحلفاء ، وأن ذلك يكون أساساً لحكومة واحدة ، وُعِد على القيام بها كما ذكر آنفاً . وإنى أعتقد أنه لا يمكن تغيير القواعد الأساسية فى هذا التدبير قبل حلول الأجل ، أو قبل إنشاء إدارة أخرى مبنية على المبادئ عينها . أما بريطانيا العظمى فإنها تعترف بهذا العهد ، ولكنها تقول : إنها لم تكن تحسب حساباً لطول الزمن إلى أن يمضى مؤتمر السلم قراره . فهل هذا التأخير واقع ذنبه على الأمة العربية السورية ، أوهل ظهر منا أقل إخلال بولائنا نستحق عليه هذا العقاب ، فقد كنا دائماً على تمام الولاء للحلفاء من اليوم الذى ثرنا فيه على الترك ، وأقل ما نرجوه هو القيام بوعد القائد العام .

(٥) إن ثورة العواطف الشاملة الآن للولايات العربية وجميع الولايات الإسلامية فى تركية الأسيوية التى أعظم أسبابها المداخلة الأجنبية بلا تروٍّ لم تعد خافية على أحد ، وكل من له أقل إلمام بما هو جار فى المقاطعة السورية لهو فى أشد الاقتناع أنه لا بد من وقوع المشاكل وفى أماكن متعددة إذا تغيرت الحالة الراهنة فى الإدارة الحاضرة .

فإنى لذلك أتوسل إليكم باسم الإنسانية ، وحفظاً للسلام ، وباسم الأمة العربية وباسم

المصالح المتعددة التي لفرنسا و بريطانيا و إيطاليا وأمريكا فى الشرق : أن لا تفتح أبواب جديدة لمشاكل أخرى قد ترى أوائلها ولا يعلم أواخرها إلا الله ، وإن حوادث إزمير وغيرها لا تزال حديثة العهد ، وأنا أخشى أن يمتد الشر إلى جميع العالم الإسلامى ظناً من الناس أن هنالك غاية معلومة للنكاية بالإسلام ، ولعلكم تفكرون أن قيام العرب بزعامة والدى الملك كانت الضربة الأولى على سياسة التعصب الذميمة . فالعرب حاربوا الترك المسلمين لأنهم كانوا ظالمين ، وانضموا إلى صفوف الحلفاء لاعتقادهم أنهم يحاربون دفاعاً عن الحق والعدل بلا نظر إلى الأديان ، وطالما حاربت التعصب فى كل زمان ومكان مدة الحرب ، فاجتمع العرب حولى من كل صوب ودين . وكان اتحادنا وطنياً لادينياً ، وعدد كبير من العاملين معى الآن فى سبيل الوطن ليسوا من دينى ، هذا كاف ليبرهن لكم مقدار أسفى إذا انحلت هذه الفكرة الوطنية ، وتحولت إلى نزاع دينى بسبب سوء التفاهم والتدبير . فينبغى إذن أن توافقونى على قولى : إن من مصلحة الجميع حفظ السكينة التامة فى الزمن القصير الباقى قبل القرار النهائى فى المؤتمر لإثارة الفتنة لسبب غير معقول . وأرى أنه يجب أن تعلم الدول العظمى خطورة الموقف ليتخذ الحلفاء أصحاب المصالح وإخواننا فى الحرب التدبير اللازم للنظر فى مصلحة كل حكومة على مقتضى مبادىء العدل التى اشتركنا فى الدفاع عنها . وأصر على طلبى : أن أعرض بنفسى بياناً وافياً عن قضيتى التى تهم بلادى أكثر من سواها ، لأن نتائج كل عمل يقام به ، تقع علىّ وعلى بلادى ، سواء كان ذلك شراً أو خيراً .

التوقيع : (فيصل)

قرار

إشغال كليكيا وسورية العسكرى

لقد قبل موسيو كلمنصو باسم الحكومة الفرنسوية اقتراحات موسيو لويد جورج بجلاء الجيش البريطانى عن سورية وكليكيا ، واستبدال هذه القوى بجنود فرنسية فى كليكيا ، وفى غرب خط سايكس — بيكو فى سورية . ومن المفهوم الصريح : أن الحكومة الفرنسية بقبولها هذه الاقتراحات لم تتعهد بقبول أى قسم آخر من الاتفاقات المقترحة فى مذكرة لويد جورج

المؤرخة فى ١٣ أيلول سنة ١٩١٩ والمتعلقة باحتلال سورية وفلسطين والعراق لحينما يصدر القرار بقضية الانتداب .

فالمؤتمر دون هذا الاتفاق المنوه عنه بصفة اتفاق مؤقت لاغير ، لتسوية الاحتلال العسكرى فقط . وهو لايؤثر على حل قضايا الانتداب والحدود التى يجب رؤيتها بصفتها جزءاً من قضية الصلح العامة مع تركيا .

صورة البرقية المرسلة إلى جلالة الملك حسين فى مكة

٢٢ نوفمبر سنة ١٩١٩ .

الحكومة الفرنسوية رفضت اقتراحى باسم جلالتكم بشأن سورية ، مع أن إنجلترا قبلته . وهى مصرة على إشغال أقسام مهمة من مقاطعات دمشق وحلب تمسكا بمذكرة لويد جورج التى قدمها للمؤتمر فى أيلول . وأخبرت جلالتكم عنها . ولما كان هذا مخلا بالحقوق والعهود بين بريطانيا وجلالتكم عزمت على تبليغ الدول بأن جيشكم فى سورية سيقاوم كل تجاوز يخل بحدود المناطق الحاضرة . وإنى حررت لحكومة بريطانيا اليوم أؤكد لها عظيم ثقتنا بإخلاصها ، وأذكرها بعهودها لجلالتكم فى ٢٤ أكتوبر . أننا لانريد إلا أن نكون على وفاق تام مع حليفتنا الأولى بريطانيا ، التى هى سند نجاحنا ، ومع سائر الحلفاء ، وفرنسا أيضاً إذا رضيت باقتراحى الأخير الذى لاحياة بدونه الآن . وهو إبقاء الحدود الحاضرة كما هى ، وتأليف لجنة تحفظ وحدة الإدارة بين المناطق الثلاث ، حتى قرار المؤتمر النهائى ؟

* * *

الموضوع : احتجاج على الاحتلال البقاع

من : سمو الأمير فيصل المعظم

إلى : رئيس وزارة فرنسا المسيو كليمنصو

التاريخ : ١٩ ديسمبر سنة ١٩١٩

(النص)

فخامة الوزير :

أخبرنى المسيو غورو اليوم شفهياً ، الساعة الثالثة بعد الظهر : أنه على إثر حادثة ضابط الارتباط الفرنسى ، وجرح جاويشه ، بتاريخ ١٤ ديسمبر ، مشت الجنود الإفرنسية فى اليوم الثانى للحادثة نحو بعلبك ، بحجة تأمين النظام والأمن . ولعمرى إن هـذا القرار الذى اتخذه الجنرال غورو دون أن يدع لحكومة دمشق فرصة لاتخاذ التدابير اللازمة بهـذا الشأن مما يخالف الاتفاق المعقود بيننا ، والذى ينطق صراحة بأن القوة الموجودة فى تلك الجهات إذا كانت غير كافية يؤتى بالمدد من دمشق ، تأميناً للنظام ، وإعادة الأمن الذى تسأل عنه الحكومة العربية دون سواها . إنى واثق بأن الحكومة الإفرنسية لا يمكنها أن ترضى عن مثل هذا العمل الذى يناقض علناً نص اتفاقها ، وإنى لا أشك أبداً أن الحكومة الإفرنسية لابد أن تعمل بما يوحى إليها شرف تعهدها . وأن تصدر الأوامر اللازمة للجنرال غورو ليسحب هذه الجنود من الأماكن المحتلة خلافاً لاتفاقنا السابق ، وحباً بالمحافظة على مواده . ومع أنى أرجو أن تطمئنونى عن هذا الأمر ، فلى الشرف أن أقدم لفخامتكم فائق تحياتى ؟

المخلص

فيصـــــل

صورة كتاب

من المسيو برتلو إلى سمو الأمير فيصل

باريس — بلا تاريخ

أخذ يوم الجمعة ٢٨ نوفمبر سنة ١٩١٩

مولاى .

أريد أولا أن أبين لكم السرور الذى خامر رئيس مجلس الوزارة عند ما أخـذ علماً

بالاتفاق الذى أوصلتنا إليه روح التآلف ، المتبادل بشأن اللجنة العسكرية التى ينبغى أن تفصل فى الاختلافات التى قد تحدث بين مناطق الاحتلال المختلفة ، وبشأن الموقف المؤقت فى البقاع .

أما من حيث هذه النقطة الأخيرة : فإنى أعتبر أن الصراحة التامة التى ينبغى أن تكون رائد محادثاتنا تقتضى أن يكون معلوماً فيما بيننا : أنه مقابلة لرغبة شخصية أظهرتموها ، واحتراماً لعواطفكم الودية الخالصة التى أبديتموها ، تنازلت الحكومة الفرنسوية مؤقتاً عن حقها الذى صادق عليه المؤتمر بخصوص احتلال أراضى البقاع بجنود فرنسوية .

و إذا لم يؤكد هذا الاتفاق المؤقت الذى وصلنا إليه باتفاق مرض وقاطع إلى ثلاثة أشهر . فليكن معلوماً أن الفريقين يستأنفان حرية العمل . ومع هذا فإنى لا أشك فى أن روح الائتلاف التى يشعر بها الفريقان لا تسمح لهذا الاتفاق القاطع إلا أن يبرم لخير منافع الجميع قبل انتهاء هذه المدة .

وأرجو أن تعتقدوا يامولاى بشعائر الاحترام العالى ، والعاطفة الحبية التى أدين بها لسموكم الملكى ؟

برتلو

صورة كتاب

من سمو الأمير إلى المسيو برتلو مدير الأمور السياسية العام
فى نظارة الخارجية الفرنسوية — باريس ٢٦ نوفمبر سنة ١٩١٩

عزيزى حضرة المدير .

أتشرف بإبلاغكم طيه نص البرقيـة التى أرغب إرسالها إلى الأمير زيد ، وفقاً لمنطوق اتفاقنا .

و إنى أشكركم على المساعى التى بذلتموها فى سبيل الوصول إلى ائتلاف صميم بين فرنسا وسوريا . وفى هذا الصدد لا يسعنى إلا أن أرجوكم بأن تتفضلوا وتخبروا حضرة رئيس مجلس الوزارة باعترافى بجميله لقبوله اقتراحاتى بخصوص قضية الاستبدال .

و إنك ياعزيزى المدير لا تشك بأننى سعيد لتمكنى بفضل معاونتكم الناجحة من

الوصول لهذا الائتلاف الأول ، الذى أؤمل أن يتبعه فى القريب العاجل ائتلاف أعم ، وانفع أعظم لخير الجميع . وإنى لم أزل منذ وصولى إلى باريس أصر — كما هو معلوم لديكم — على هذه النقطة . وهى أن قصدى كان الوصول إلى عقد ائتلاف مع الحكومة الفرنسوية التى مع قبولى ما يضمن للشعب السورى سيادته الوطنية ستمنح البلاد — بطلب منى — معونتها المالية ومستشارين بقصد التعاون الودى مع الحكومة الوطنية المؤسسة من قبل الأهلين .

وتقبل ياحضرة الرئيس بيان احترامى العالى ؟

فيصل

صورة البرقية

المرسلة بتاريخ ٢٧ نوفمبر سنة ١٩١٩

إلى سمو الأمير زيد فى دمشق

أخبركم بكل ارتياح وسرور أن الحكومة الفرنسوية قبلت بتأليف اللجنة التى طلبتها والتى ستكون مؤلفة من فرنسى وإنجليزى وعربى لأجل تسوية المشاكل التى قد تحدث بين المناطق ، وابتغاء لتطمين أهالى سورية بأن الاتفاق الأخير هو عسكرى محض ومؤقت ، فالجنود الفرنسوية لا تحتل البقاع ، ولا محلا آخر من منطقتنا الحاضرة ، والجنود العربية سوف تنسحب من البقاع دليلا على ثقتنا المتبادلة . ويبقى الدرك العربى هناك مكلفاً بحفظ النظام والأمن تحت أوامر القائمقام . وعند اللزوم يؤتى بمفرزات دركية من دمشق ، هذا إذا كانت القوى الموجودة غير كافية .

وسيعهد إلى هيئة مؤلفة من ثلاثة ضباط فرنسويين وثلاثة عرب معاً أن تلاحظ بالاتفاق حسن تنفيذ وظائف الشرطة والدرك فى تلك الجهة ، وترفع تقريرها إلى القائمقام . المفاوضات جارية مع الحكومة الفرنسوية بإخلاص وثقة متبادلة . فليطمئن الأهلون وليهدأ بالهم . وقد بلغت الحكومة الفرنسوية هذا الاتفاق إلى الجنرال غورو ؟

فيصل

صورة كتاب

من سمو الأمير إلى المسيو برتلو مدير الأمور السياسية العام

فى نظارة الخارجية الفرنسوية

باريس ٢٨ نوفمبر سنة ١٩١٩

حضرة المدير العام

تشرفت بإعرابى لكم فى كتابى الأخير بتاريخ ٢٦ الجارى عن امتنانى وشكرى على الاتفاق الذى مكننا — بفضل وساطتكم السعيدة — من حل المشكلة التى نجمت عن انسحاب الجيش البريطانى . وقد بعثت إليكم بصورة البرقية المحتوية على التعليمات التى أرسلتها لأخى زيد واقترنت بموافقتكم .

وإنى بهذه المناسبة أسمح لنفسى بتذكيركم بأن البرقيات التى أرسلت إلى سورية لم يرد فيها مسألة سحب المفرزة المدفعية الفرنسية التى يجب أن تنسحب مع الجيوش البريطانية من دمشق فى وقت واحد .

وعلى كل أكون شاكراً إذا بلغتم الجنرال غورو معتمد الجمهورية العالى كى يأمر بتنفيذ هذا الانسحاب .

إن هذا كله لهو فى الحقيقة فأل خير ، يؤملنى بأن الائتلاف الذى ألمحتم إليه فى برقيتكم المرسلة إلى الجنرال غورو ، وإن لم نتعرض له حتى الآن ، فإنه لا يلبث أن ينجلى بفضل مذاكرات تؤدى بنا إلى اتفاق مبنى على منافعنا المشتركة .

وتفضلوا ياحضرة المدير بقبول فائق احترامى ؟

فيصل

صورة كتاب

من سمو الأمير فيصل إلى المسيو برتلو

باريس فى ٤ ديسمبر سنة ١٩١٩ .

حضرة المدير العام .

لى الشرف أن أقدم لكم طى هذا الكتاب برقية لأخى الأمير زيد . فأرجوكم أن تتلطفوا بإرسالها إلى الشام . وأن توصوا بإبلاغى جوابها سريعا .

وإنى مع الانتظار أكون لكم شاكراً إذا تفضلتم بإعطائى ما لديكم من المعلومات التى تهمنى بشأن الحالة الحاضرة فى سورية .

وتفضلوا ياحضرة المدير العام بقبول فائق احترامى ؟

فيصل

صورة البرقية

الأمير زيد — دمشق .

إن خبر إبعاد الجنرال الهاشمى استوجب عظيم استغرابى . انتظر بكل سرعة المعلومات المفصلة ؟

فيصل

صورة كتاب

من سمو الأمير إلى المسيو كلمنصو

باريس فى ٢٢ ديسمبر سنة ١٩١٩ .

ياحضرة الرئيس :

لاأزال تحت حسن تأثير الاستقبال الجميل الذى تلطفتم به علىّ ، وإنى أحسب من أعز واجباتى أن أشكركم على ذلك .

وقد وافقت — امتثالا لرغبة حضرتكم — على تأخير سفرى إلى أن يعود المسيو برتلو ، وذلك أملا أن نحل فى هذه البرهة مسألة حدود لبنان . وإنى كنت سعيداً جداً لتمكنى من أن أقدم فى هذه المناسبة دليلا جديداً على رغبتى القوية فى الوصول إلى اتفاق حقيقى .

ولاشك أن العطف والاهتمام اللذين أظهرتموهما لى بعثا لى جسارة على أن أعرض بكل إخلاص على سعادتكم مايخامرنى من القلق الذى لم تكن وضعية الجنرال غورو فى البقاع إلا لتزيده شدة ، ورغماً من محاذرتى فى إضاعة وقتكم الثمين فانى لا أرى مندوحة عن أن ألخص لحضرتكم الموقف الحاضر كما هو :

إنه من مقتضى الاتفاق الذى عقدناه فى الخامس والعشرين من الشهر المنصرم أن « لاتحتل الجنود الفرنسوية البقاع ، وأن تنسحب منه الجنود العربية . ولا يبقى محتلا وخاصة فى بعلبك وحاصبيا وراشيا ، إلا الدرك التابع لأوامر القائمقاميين ، وستؤلف بعثة تفتيشية من ثلاثة ضباط عرب وثلاثة ضباط افرنسيين يرسلون معاً إلى تلك النواحى كى يلاحظوا بالاتفاق حسن تنفيذ وظائف الدرك والشرطة المسئولين عن الأمن . وإذا وجد ضباط العرب والفرنسيون قوة الدرك الموجودة هناك غير كافية فتعزز بقطعات دركية أخرى يؤتى بها من دمشق »

فهل التجاوز الذى وقع على الضابط الفرنسى وجاويشه يبرر الإخلال بهذا الاتفاق ويجيز القرار الذى اتخذه الجنرال غورو؟ خصوصاً أن السلطة المحلية هى المسئولة وحدها عن إرجاع الأمن ، وأن جلب القوى من دمشق عند الضرورة منصوص عنه فى الاتفاق !

لذلك فانى أرى من واجبى أن أصر على لزوم الاحتفاظ بهذا الاتفاق الذى هو أول اتفاق عقد بيننا ليكون له وقع حسن فى نفوس الأهلين ، وليسهل لى القيام بمهمتى ، ويزيد فى الثقة المتبادلة بيننا ، اللازمة لتنمية مناسباتنا المستقبلة .

وقبل أن ننظر فى فصل مسألة حدود لبنان التى نعمل الآن على حلها ، فإن حضرتكم إذا أعطيتم أمراً بسحب الجنود من المحلات التى احتلتها خلافاً لاتفاقنا تكونون قد أظهرتم دليلاً جديداً على اهتمامكم العالى بنجاح مذكراتنا ، وخففتم بذلك عنى عبئاً ثقيلا .

وأرجو بأن يجد طلبى هذا قبولا حسناً لدى سعادتكم . فانى أرجوكم أن تتفضلوا بقبول فائق شعائر احترامانى الخالصة ؟

فيصل

مشروع المعاهدة الهاشمية — الانكليزية

بسم الله الرحمن الرحيم

لما كان صاحب الجلالة الهاشمية الملك حسين الناهض بأقوامه العرب مؤسس الدولة العربية الهاشمية ومليكها ، حامى حمى بلد الله الأمين ، ومدينة جده سيد المرسلين ، وجلالة ملك البلاد المتحدة بريطانيا العظمى وايرلند والأملاك البريطانية فيما وراء البحار و إمبراطور الهند ، بالإصالة عن نفسيهما ، وبالنيابة عن ورثائهما وخلفائهما — مدفوعين بالرغبة الخالصة لتوطيد وتقوية عرى الصداقة والولاء المؤسسة بين بلاديهما أثناء الحرب التى اقتحماها معاً على الدول الجرمانية وتركيا ، محمولين أيضاً برغبة تمكين مصالحهما وتأييد السلام الدائم والاتحاد بين الشعوب العربية .

ولما كان صاحب الجلالة الهاشمية قد سمى وعين صاحب السمو الملكى الأمير زيد وحضرة صاحب الإقبال الشيخ فؤاد الخطيب وكيل خارجية جلالته الهاشمية مفوضين من قبل جلالته لعقد معاهدة مع صاحب الجلالة البريطانية للوصول إلى هذه الأغراض .

ولما كان صاحب الجلالة البريطانية قد سمى وعين جناب الميجر و . ا . مرشال M.E.R.A.M.C. معتمد وقنصل جلالته بجدة مفوضاً من قبل جلالته لعقد معاهدة للوصول إلى هذه الأغراض مع صاحب الجلالة الملك حسين .

قد اتفق صاحب السمو الملكى الأمير زيد والشيخ فؤاد الخطيب وجناب الميجر مارشال على المواد الآتية وتعاقدوا عليها :

المادة الأولى — سيكون السلام والمودة دائمين بين صاحب الجلالة الهاشمية وصاحب الجلالة البريطانية وورثائهما وخلفائهما . وقد اتفق كل من الفريقين العاليين المتعاقدين على استعمال جميع الوسائل التى تبيحها قوانينه لمنع استخدام بلاده كقاعدة لحركات موجهة ضد مصالح الآخر الحالية أو المستقبلة وقد وعدوا بذلك .

المادة الثانية — تتعهد الحكومة البريطانية العالية بأن تستعمل نفوذها فى المساعدة على تسوية أى خلاف على الحدود يحدث بين صاحب الجلالة الملك حسين وأحد جيرانه

الذين بينهم و بين صاحب الجلالة البريطانية صلات معاهدة ، وسيكون صاحب الجلالة الهاشمية الملك حسين حراً فى كل الأوقات أن يطلب وساطة صاحب الجلالة البريطانية فى حالة حدوث مثل هذا الخلاف .

المادة الثالثة — تتعهد الحكومة البريطانية العالية بأن تمنع بجميع الوسائل السلمية المتيسرة لديها — وخصوصاً بإيقاف الإعانات من أى نوع كان — كل تعد على بلاد صاحب الجلالة الهاشمية من المقاطعات المجاورة التى بينها و بين صاحب الجلالة البريطانية صلات معاهدة .

المادة الرابعة — قد بلغت لجلالة الملك حسين المعاهدات المعمول بها الآن بين الحكومة البريطانية العالية والسيد محمد بن على الإدريسى ، وكذا بين الحكومة البريطانيه العالية ، والسيد عبد العزيز بن عبد الرحمن بن فيصل السعود .

يعترف بهذا جلالة الملك حسين بالمعاهدات المذكورة الموجودة الآن بين الحكومة البريطانية العالية والسيد محمد بن على الإدريسى ، وكذا بين الحكومة البريطانية العالية والسيد عبد العزيز بن عبد الرحمن بن فيصل السعود . و يتعهد جلالته بأن يمتنع عن الإتيان بأى عمل يعرقل — أو يمكن أن يعرقل — تنفيذ هذه المعاهدات الكلى بواسطة الطرفين المتعاقدين .

المادة الخامسة — يتعهد جلالة الملك حسين بأن يحافظ بكل ما فى وسعه وقوته على السلام والصلات الودية مع جيران جلالته الذين بينهم وبين صاحب الجلالة البريطانية صلات معاهدة ، وأن يمتنع عن التعدى بدون موجب فعلا أو شكلا على هذه البلدان المجاورة ، وأن يعارض ويمنع بقدر استطاعته أى مؤامرة أو دسيسة داخل بلاد جلالته الهاشمية تكون موجهة ضد هذه البلدان أو ضد مصالح حكامها .

فى المسائل الهامة التى تحدث بين حكومة صاحب الجلالة الهاشمية والمقاطعات المجاورة يكون لصاحب الجلالة الملك حسين الخيار فى طلب وساطة صاحب الجلالة البريطانية كما ذكر فى المادة الثانية .

المادة السادسة — اتفق وتواعد كل من الفريقين المتعاقدين العاليين على قبول معتمد الآخر والاعتراف به ، فيجوز لجلالة الملك حسين أن يعين معتمداً للحكومة العربية الهاشمية

فى لندن ، ولصاحب الجلالة البريطانية أن يعين معتمداً بريطانياً يقيم فى جدة ، أو أى مدينة أخرى على ساحل بلادصاحب الجلالة الهاشمية . ولايعين صاحب الجلالة البريطانية معتمداً بريطانياً بمكة المكرمة والمدينة المنورة احتراماً لصفتهما المأثورة .

وكذا سيكون لجلالة الملك حسين إذا أراد ذلك أن يعين وكيلا قنصلياً فى انجلترا والقطر المصرى والهند ، ولصاحب الجلالة البريطانية أن يعين وكيلا قنصلياً فى جدة وفى موانى أخرى لصاحب الجلالة الهاشمية التى تراها الحكومة البريطانية من آن لآخر مناسبة وسيتمتع هؤلاء المعتمدون والوكلاء القنصليون بالامتيازات السياسية والقنصلية المعتادة .

المادة السابعة — يعترف بهذا جلالة الملك حسين بالاحتياطات المؤقتة للكورنتينا التى اتخذتها الحكومة البريطانية العالية فى القمران ، كما تقتضيه شروط الاحتياطات الطبية المسنونة فى العقد الدولى الصحى لعام ١٩١٢ أو أى عقد صحى آخر يكون مقيداً للحكومة المذكورة :

ومن جهة أخرى فإن بريطانيا توافق على الاعتراف بالاحتياطات التكميلية التى يلزم اتخاذها فى جدة ، وفى موانئ أخرى من بلاد صاحب الجلالة الهاشمية ، تطبيقاً للنصوص الطبية الواردة فى الاتفاق أو الاتفاقيات المذكورة ، وذلك بمقتضى لوائح يصدرها جلالة الملك حسين .

المادة الثامنة — تتعهد الحكومة البريطانية العالية بأن لا تتدخل بأى حال من الأحوال فى الإجراءات التى يتخذها جلالة الملك حسين لراحة الحجاج والاعتناء بهم داخل بلاد جلالته الهاشمية ، مع مراعاة ماجاء فى المادة العاشرة .

ويتعهد جلالة الملك حسين من جهته بأن يساعد كل مجهود يبذله الرعايا البريطانيون المسلمون ، والأشخاص أو الجمعيات المشمولون بحماية صاحب الجلالة البريطانية للاشتراك فى سبيل رفاهية الحجاج فى الحجاز ، وصحتهم وتموينهم ، كما يفعل جلالته فيما يختص بعين زبيدة .

المادة التاسعة — قد اتفق كل من الفريقين العاليين المتعاقدين على أن يحدد مبلغ معين على كل حاج بصفة رسوم ، وأن يعين مقداره لغاية أول يوم من جمادى الأولى من

كل سنة ، وذلك للاحتياطات الصحية التي يتخذها كل منهما . وستكون هذه الرسوم شاملة لمصروفات جميع الاحتياطات الصحية لحين يوم نزول الحجاج إلى البر . وتكون داخلة في ثمن تذكرة السفر التي تصرف من شركات الملاحة المختلفة .

ويستولي الملك حسين على الرسوم المفروضة للاحتياطات التي تتخذ في موانئ جلالته الهاشمية ، وبالمثل تستولي الحكومة البريطانية العالية على الرسوم المفروضة للاحتياطات التي تتخذ في القمران .

المادة العاشرة — وافقت الحكومة البريطانية العالية على أن تعترف بالتبعية الهاشمية لجميع رعايا جلالة الملك حسين الذين يوجدون في أي وقت كان داخل بلاد صاحب الجلالة البريطانية ، أو البلاد المشمولة بالحماية البريطانية ، أو الواقعة تحت الانتداب البريطاني شرطاً أن يكون هؤلاء الرعايا الهاشميون حائزين على أوراق صادرة من جلالة الملك حسين تثبت التابعية الهاشمية لحاملها .

ووافق جلالة الملك حسين من جهته على أن يعترف بالتبعية البريطانية لجميع رعايا البريطانيين أو الأشخاص المشمولين بحماية صاحب الجلالة البريطانية الذين يوجدون في أي وقت داخل بلاد صاحب الجلالة الهاشمية . مادامت أسماء هؤلاء البريطانيين — أوالأشخاص المشمولين بحماية بريطانيا العظمى — مسجلة في قنصلية بريطانية في البلاد الهاشمية .

ومع ذلك فإن أحكام هذه المادة لا تسري على الرعايا البريطانيين أو الأشخاص المشمولين بحماية صاحب الجلالة البريطانية الذين يقيمون عادة في بلاد صاحب الجلالة الهاشمية خارج جدة وغيرها من الموانئ التي يمكن أن يعين صاحب الجلالة البريطانية وكيلا قنصليا فيها .

المادة الحادية عشرة — وافق جلالة الملك حسين على أن ممتلكات الرعايا البريطانيين أو الأشخاص المتمتعين بحماية صاحب الجلالة البريطانية تسلم في حالة موتهم في بلاد صاحب الجلالة الهاشمية إلى الممثل البريطاني فيها ، أو إلى أي سلطة يعينها لهذا الغرض ليتصرف حسب القوانين التي تنطبق على الحالة . ويراعي ممثل بريطانيا في البلاد المذكورة أن الرسوم والضرائب الواجبة على تلك الممتلكات بمقتضى الشرائع الهاشمية تسدد في حينها

المادة الثانية عشرة — وافق بهذا صاحب الجلالة الملك حسين على أنه فى جميع القضايا التى تنشأ فى البلاد الهاشمية ، ويكون أحد الرعايا البريطانيين أو الأشخاص المشمولين بحماية صاحب الجلالة البريطانية مدعياً فيها أو مدعى عليه يحضر ممثل قنصلى بريطانى فى المحاكم الهاشمية أثناء سماع القضايا ، وفى الأحوال التى يظهر فيها المعتمد البريطانى رغبته فى إجراء مخابرات سياسية مع صاحب الجلالة الهاشمية ، فلا تذاع الأحكام . ولا تنفذ خلال مدة المخابرات المذكورة ، ولا تسرى أحكام هذه المادة على الرعايا البريطانيين ، أو الأشخاص المشمولين بحماية صاحب الجلالة البريطانية ، الذين يقيمون عادة فى بلاد صاحب الجلالة الهاشمية خارج جدة وغيرها من الموانئ التى يعين صاحب الجلالة البريطانية وكيلا قنصلياً فيها .

المادة الثالثة عشرة — وافق جلالة الملك حسين على أن يأمر بتسليم الرعايا البريطانيين أو الأشخاص المشمولين بحماية صاحب الجلالة البريطانية المقبوض عليهم بأمر من الحكومة الهاشمية إلى السلطة القنصلية البريطانية فى الأحوال التى تضمن فيها السلطة المذكورة استحضارهم متى طلبتهم منها الحكومة الهاشمية .

ولا تسرى أحكام هذه المادة على الرعايا البريطانيين أو الأشخاص المشمولين بحماية صاحب الجلالة البريطانية الذين يقيمون عادة فى بلاد صاحب الجلالة الهاشمية خارج جدة وغيرها من الموانئ التى يمكن أن يعين صاحب الجلالة البريطانية وكيلا قنصلياً فيها .

المادة الرابعة عشرة — وافق جلالة الملك حسين على أن تنظر السلطة القنصلية البريطانية فى القضايا التى تقع بين الرعايا البريطانيين أو الأشخاص المشمولين بحماية صاحب الجلالة البريطانية ، والتى لا تمس مصالح الرعايا الهاشميين .

ولا تسرى أحكام هذه المادة فى الأحوال التى يرغب فيها الفريقان المتقاضيان أن يرفعا القضية إلى المحاكم الهاشمية ، كالمنصوص فى المادة الثانية عشرة ، وكذا لا تسرى أحكام هذه المادة على الرعايا البريطانيين أو الأشخاص المشمولين بحماية صاحب الجلالة البريطانية الذين يقيمون عادة فى البلاد الهاشمية خارج جدة أو الموانئ التى يمكن أن يعين فيها صاحب الجلالة البريطانية وكيلاً قنصلياً .

المادة الخامسة عشرة — وافق جلالة الملك حسين على أن يشعر المعتمد البريطانى فى جميع الأحوال التى يحتاج فيها إلى نفى أحد الرعايا البريطانيين — أو شخص متمتع بحماية صاحب الجلالة البريطانية — من بلاد جلالته الهاشمية ، وأن المعتمد البريطانى يكون مسئولا عن نفى الشخص المعين فى مدة معقولة .

المادة السادسة عشرة — وافق صاحب الجلالة البريطانيـة على أن يتنازل فى بلاد صاحب الجلالة الهاشمية عن جميع الامتيازات والاستثناءات التى يتمتع بها الرعايا البريطانيون ، أو الأشخاص المشمولون بحماية صاحب الجلالة البريطانية بمقتضى الامتيازات الأجنبية بين بريطانيا العظمى والحكومة العثمانية إلا ما ذكر فى هذه المعاهدة .

المادة السابعة عشرة — يعترف جلالة الملك حسين بموقف صاحب الجلالة البريطانية الخصوصى فى العراق وفلسطين . ويتعهد أنه فى المسائل الواقعة تحت نفوذ جلالته الهاشمية فى تلك البلاد يفرغ استطاعته لمساعدة صاحب الجلالة البريطانية .

المادة الثامنة عشرة — تثبت بهذا الحكومة البريطانية العالية اعترافها بعلم صاحب الجلالة الهاشمية ، شرطاً أن المراكب غير مراكب الحكومة الهاشمية التى ترفع العلم المذكور تكون مسجلة فى جدة أو ينبع أو فى أى ميناء محدد معلوم من بلاد صاحب الجلالة الهاشمية وأن تكون حائزة على أوراق صادرة من جلالة الملك حسين . وتنطبق بصفة عامة على الشهادات والأوراق الرسمية التى تعطيها عادة الممالك البحرية الرئيسية لمراكبها .

ويثبت جلالة الملك حسين من جهته بهذا اعترافه بالأعلام التى ترفعها المراكب التجارية التابعة لأى قسم من أملاك صاحب الجلالة البريطانية ، أو البلاد المشمولة بالحماية البريطانية ، أو الواقعة تحت الانتداب البريطانى ، بشرط أن المراكب التى ترفع هذه الأعلام تكون حائزة على الشهادات والأوراق الرسمية التى تعطيها عادة الدول البحرية الرئيسية إلى مراكبها .

المادة التاسعة عشرة — يصرح بهذا كل من الفريقين المتعاقدين العاليين أنه أثناء مدة هذه المعاهدة لا يدخل فى أية معاهدة أو تفاق أو اتفاق مع فريق ثالث يكون الغرض منه موجهاً ضد مصالح الفريق الآخر المتعاقد العالى .

المادة العشرون — لايتغلب أى شرط من الشروط الواردة فى هذه المعاهدة على أى قيود تكون قيدت بها ، أو ستقيد فى المستقبل أحد الفريقين المتعاقدين العاليين بأحكام عهد عصبة الأمم ، أو بأى عهد آخر يكون لعصبة الأمم أن تتخذه ويدخل فيه أحد الفريقين .

المادة الحادية والعشرون — يعمل بهذه المعاهدة من تاريخ التوقيع عليها . وتبقى نافذة المفعول مدة سبع سنوات من ذلك التاريخ . وإذا لم يخبر أحد الفريقين العاليين المتعاقدين الآخر قبل مضى السبع السنوات المذكورة بستة شهور بعزمه على فسخ المعاهدة فيستمر معمولاً بها لحين مضى ستة شهور من اليوم الذى يرسل فيه أحد الفريقين العاليين المتعاقدين إعلانا كهذا .

حررت هذه المعاهدة الحالية باللغتين العربية والإنجليزية ، وستحفظ صورة من كل منهما فى سجلات الحكومة الهاشمية . وأيضاً صورة من كل منهما فى سجلات حكومة صاحب الجلالة البريطانية ، وقد وقع عليها بجدة المفوضون المذكورون بعاليه فى اليوم الحادى والعشرين من شهر أكتوبر سنة ألف وتسمائة واحد وعشرين ميلادية الموافق لليوم التاسع عشر من شهر صفر سنة ألف وثلاثمائة وأربعين من التاريخ الهجرى .

بسم الله الرحمن الرحيم

بحمد الله وتوفيقه :

نحن الحسين بن على الناهض بأقوامه العرب ، مؤسس الدولة العربية الهاشمية ومليكها ، حامى حمى بيت الله الأمين ومدينة جده سيد المرسلين ، نسدى السلام على من يقرأ هذه الوثيقة .

لما كان قد عقدت معاهدة بيننا وبين دولة بريطانيا العظمى تشتمل على إحدى وعشرين مادة . ووقع عليها فى مدينة جدة فى اليوم التاسع عشر من شهر صفر عام ألف وثلثمائة وأربعين هجرى الموافق لليوم الحادى والعشرين من شهر أكتوبر عام ألف وتسمائة وواحد وعشرين ميلادى حضرة صاحب السمو الملكى الأمير زيد وحضرة صاحب الإقبال الشيخ فؤاد الخطيب وكيل الخارجية اللذان خولناهما الإذن بذلك .

فنحن بعد إمعان النظر فيها نؤكد التوقيع عليها بالأصالة عن أنفسنا وبالنيابة عن ورثائنا ، ونعد أننا سنرعى بكل إخلاص وأمانة الأمور المدونة فى تلك المعاهدة ، وأننا

لانتحمل أن ينقضها أحد أو يتعدى عليها بأى حال من الأحوال مادام ذلك فى طاقتنا .

وتزكية لجيع ذلك وتأكيداً لقانونيته ، قد أمرنا بإمضاء هذه الوثيقة بختمنا ووقعنا عليها بيدنا الملوكية .

حرر فى ديواننا الملوكى فى جدة فى اليوم التاسع عشر من شهر صفر سنة ألف وثلثمائة وأربعين هجرية . الموافق لليوم الحادى والعشرين من شهر أكتوبر سنة ألف وتسعمائة واحد وعشرين ميلادية م؟

الوكالة البريطانية . نمرة ١٥٢١ م — ١٥

جدة فى ١٣ ديسمبر سنة ١٩٢١ م سرى

إلى صاحب السعادة الشيخ فؤاد الخطيب وزير الخارجية بمكة .

سيدى :

أتشرف بأن أرسل لكم طىهذا نسخة عربية من المعاهدة كما حضرناها نحن ، ونسخة إنجليزية من كتابكم إلى الكولونيل ت . ا . لورنس حسب طلبكم .

ولى الشرف أن أكون ياسيدى خادمكم المطيع م؟

و . ا . مارشال

وكيل بريطانيا وقنصلها

من وزير الخارجية بجدة .

إلى الكولونيل ت . ا . لورنس .

أتشرف بأن أرسل لكم للاطلاع نسخة من محاضر المناقشات التى جرت بين الأمير على : نائبا عن الملك حسين وبينكم فى ٧ سبتمبر سنة ١٩٢١ م

نجد :

أقام الأمير على البرهان على أن رانية وخرمة وتربة وبيشة وما حولها تابعة لمقاطعة

الحجاز ، فتقبل الكولونيل لورنس هذه الحجج ، ووافق على عرضها على وزارة الخارجية ووزارة المستعمرات لإرسالها لابن سعود لإبداء ملاحظاته ، وإذا سلم بصحة هذه الحجج لإعلانه أن هذه الأماكن كانت تابعة وتتبع الآن للحجاز ، وأنه إذا كان لا يزال له ممثلين هناك فيسحبهم ، وبعد ذلك فأى السكان أبى الطاعة للحكومة الهاشمية فيعامل كثائر ، وإذا رفض ابن سعود أن يقبل هذه الحجج فالحكومة البريطانية تبلغ رده للملك حسين ليبدى ملاحظاته عما يرى اتخاذه من الخطط .

اليمن :

أبان الكولونيل لورنس الموقف الحالى فى اليمن وشاطىء البحر الأحمر بين عدن والحجاز ، والظروف التى احتل فيها السيد الإدريسى الحديدة وأن احتلاله الحديدة مؤقت كوصى على حقوق الحلفاء ، إلى أن يتقرر مصيرها الأخير بمعاهدة الصلح مع تركيا ، وأن الحكومة البريطانية تكون سعيدة أن ترى حداً مشتركاً بين الحجاز واليمن بالطرق الدبلوماتيكية ، وقال الأمير على : إنه يعتقد أن هذه النتيجة تتم متى احتلت الحكومة العربية الهاشمية ثانية : خرمة ورانية وبيشة .

وأوضح الكولونيل لورنس أن بريطانيا العظمى لم تعترف ولن تعترف الآن بأى سيادة فى عسير ، وليست مرتبطة بأى شىء يحدد حريتها فى هذا الصدد سوى مادة واحدة فى المعاهدة مع السيد الإدريسى تقره على كل أرض أخذها من الأتراك فى أثناء الحرب . وقال الأمير على : إن هذا التأخير سيعطى الحكومة العربية الهاشمية الفرصة لمد نفوذها جنوباً بالطرق السلمية .

بلاد العرب :

وقال الأمير على : إنه ليس هناك مسائل متعلقة بشاطىء بلاد العرب من عدن إلى أعلى الخليج الفارسى ، لأن معظم هذه الأماكن تشملها معاهدات عقدت مع حليفته بريطانيا العظمى تضمن لها استقلالها .

فلسطين :

أثار الأمير على مسألة أهالى فلسطين العرب ، فأجابه الكولونيل لورنس بأن الوفد الإسلامى المسيحى يتناقش فى هذه اللحظة مع الحكومة البريطانية فى مصيرهم السياسى ، وأنه لا يمكن أن يعمل أى تصريح عن فلسطين إلى أن تظهر نتيجة هذه المناقشات . فإذا حصل الوفد على حل مرض لهم فلا تبقى مسئولية على الملك حسين ، فوافق الأمير على على ذلك ، وقال : وإذا أخفق الوفد فالملك حسين يستأنف الدفاع عن مطالب العرب القومية فى تلك البلاد . لأن أهالى فلسطين طلبوا منه المساعدة ، ومبدأه هو تأييد رغبات الأهالى بصرف النظر عن الأشخاص .

ابن رشيد :

قال الأمير على : إن أمير جبل شمر الجديد — محمد بن رشيد — قد دخل فى علاقات ودية مع الحكومة الهاشمية . فأشار عليه الكولونيل لورنس بأنه إذا كان قد حصل اعتراف أو اتفاق رسمى فيجب على الحكومة العربية الهاشمية أن تبلغه الدول مباشرة .

الوحدة :

قال الكولونيل لورنس : إن الحكومة البريطانية ترحب بأى خطوات يتخذها العرب لتوحيد البلاد العربية ، ولكن يجب أن يكون القائم بهذه المسألة هم العرب أنفسهم .

أكد الأمير على أهمية عقد معاهدة تسليم المجرمين بين الحكومة العربية الهاشمية وابن سعود بمجرد تقرير حدودها .

العلاقات النجدية ــ الحجازية

نمرة ٢٣٤ م — ١١/٧/١

جدة فى ٢ مارس سنة ١٩٢٣

حضرة صاحب الجلالة الهاشمية الملك الحسين المعظم أيده الله

بعد أداء فائق التحية وعظيم التوقير ، فقد وصلني يامولاى خطاب جلالتكم نمرة ٧٤ رقم ٨ رجب سنة ١٣٤١ الموافق ٢٤ فبراير سنة ١٩٢٣ ، ووردت إلى أيضاً مكاتبة وكيل الخارجية وضمنها البرقية المرسلة إلى أعتابكم من قبل أمير جهينة . وها أنا ذا أبلغ فحوى الاثنين للجهات الاختصاصية . وإنى أشكر جلالتكم على تفضلكم بإفادتى عما وقع وعما تخشون أن يقع فى المستقبل . وأما عن أولئك الذين كانوا يعتدون على بلى ، فالحمد لله على ما رجعوا مقهورين خاسرين ، ولكن اعذرنى يامولاى إن قلت : إن ذلك ليس بعداء بريطانى ، كما يصفه وكيل الخارجية . إن بريطانيا العظمى لا تربح من أى اعتداء فى شبه الجزيرة ولكن بالعكس ، فإنه من صالح بريطانيا العظمى أن يسود السلام فى جميع بقاعها ، وأن تلتحم تلك المراكز التى فرقها النزاع فى الوقت الحاضر بفضل العلاقات الودية . وإنه لا يخفى على جلالتكم مقدار شدة الاهتمام ورغبة حكومة جلالة الملك بأن ترى أن مسائل الخلاف فيما بين جلالتكم ونجد قد انحلت ، وأن صحيفة جديدة فى التاريخ العربى قد ابتدأت ، فهل تمنى ذلك شيء سخيف ، أو غير مرغوب فيه ، أو هل من المستحيل إنجازه ؟

إن هناك بعض أشخاص يفتكرون أن مصالح شبه الجزيرة وسلامها وخيرها أهم بكثير جداً من هـذا الشرط أو ذلك الشرط ، وإن أولئك الذين يفتكرون ذلك لا يسعهم إلا التأسف عند ما يرون أن الآمال من المفاوضات والمباحثات التى قد تنشأ منها فائدة عميمة نهائية تتحطم دائماً عند عقبة الشروط . وتتذكرون جلالتكم ما قيل وكتب حينما أعطى لحجاجهم امتياز زيارة مكة فى العام الماضى . وإنى لا أريد أن أدعى أن ليس لجلالتكم الحرية فى التمسك بالرأى بأن إيفاء الشروط التى تضعونها أهم بكثير من أى شيء ينتج من المفاوضات بين الحجاز ونجد ، بل إن لجلالتكم الحرية التامة فى التمسك بهـذا الرأى

أو استنكار التسليم بغيره ، إلا أن جلالتكم تضعون ثقة فى نتيجة البحث مع ابن سعود فى مصالح شبه الجزيرة وحدود البلاد وخلافه ، وأن تضعوا ثقة فى عدالة الحكم الذى إن احتاج الأمر إليه . فإن حكومة جلالة الملك يكون لها السرور والفخر بإيفاده ، وأن تكون هذه المباحثات أو هذا التحكيم العرفى بسيطة ومباشرة . وليست متوقفة على الإصرار بإجراء هذا الشيء أو ذاك أولا ، و بحيث أن يتقدم سلام وخير الجزيرة على كل اعتبار آخر . فهل فى ذلك عدم لياقة بالكرامة أو جبن ؟ أو هل هو عرضة لتأويلات الأعداء ؟ أما عن الأولى والثانية فلا ، وأما عن الثالثة فنعم . ولكن جميع الأعمال العظيمة عرضة للتأويلات ، وإنى لأعتقد أن عملاً كهذا من جلالتكم يكون له أعظم شأن وأجمل وأبدع مكانة من أعظم الأعمال العربية فى الحرب . وتفضلوا يامولاى بقبول خالص احترامى وعظيم أشواقى ؟

نائب معتمد وقنصل بريطانيا

وكيل قنصل

جرفتى سميث

العلاقات النجدية ـ الحجازية

(مستعجل) نمرة ٥٤٢ م — ٢/٢

جدة فى ٧ يونيو سنة ١٩٢٣ م

حضرة صاحب الاقبال وكيل الخارجية بمكة المحترم .

سلاماً واحتراماً . و بعد ، أتشرف بأن أخبركم بوصول تلغرافكم نمرة ٦٧ الذى وصلنى ليلة أمس عن موضوع حجاج نجد . إن هذه المسألة المهمة كانت موضوع خطاب الميجر مارشال نمرة ٨٤ بتاريخ ٢٨ يناير سنة ١٩٢٣ م الذى فيه قد تبلغتم إقبالكم بأنه خارج عن الموضوع . إن حكومة جلالة الملك تضغط بأى كيفية على ابن سعود لتخفيض عدد الحجاج النجديين حتى إلى سنة أخرى . فكم سنة الآن منعت أهالى نجد من أداء هذه الفريضة المقدسة بناء على الطلب الشخصي من صاحب الجلالة الهاشمية . وإنى لا أحتاج

أن أجمل شرح المساعى والمباحث التى عملتها حكومة جلالة الملك للتشجيع على تسوية حبية فى المسائل المعلقة بين حكومتكم وحكومة ابن سعود ، وأن هذه المجهودات التى كانت لتربية الصلات السلمية فى شبه الجزيرة لم تحرم من ملاقاة عقبة من جراء إصدار حكومتكم بأن المسائل التى تحت البحث يجب الحكم فيها مقدماً قبل أن تصير موضع تحكيم ما . وليس فى ذلك مبالغة بأن يقال : إن الإرجاء المستمر لأى سعى للمفاوضات الحبية مباشرة مع ابن سعود من أشد علائم تثبيط العزم بالأمور السياسية العربية الحاضرة . وإنى أذكر هذه النظرة السياسية فى الموضوع . لأنها هى التى يظهر أنها تضيف على هذا البحث — بحث الحج النجدى — إحساسات واعتبارات خارجة عن صفته الدينية المستثناة . وإنى أرجوكم أن تعتقدوا بأنى لست أكتب هذه الأسطر بروح المعارضة الصرفة ، أو كنصيحة ووعظ . فإن الموضوع أكبر من أن يكون موضوع شجار . وأهم من أن يجعل فى كلمات خفيفة الوزن . وهل هناك برهان على نموذج الكمال فى الاتحاد العربى أعظم من أنه يفوق ويسمو كل إدراك ، وأنه يحصل فى النظر بصفة تشمل شبه الجزيرة ليست تقصر على أقاليم . وهل هناك حدود صارمة جداً بحيث تحول بين المسلم وتأدية فريضة الحج المقدسة ؟

وتقبلوا عظيم التوقير ؟

نائب معتمد وقنصل بريطانيا فى جدة

وكيل قنصل

جرافتى سميث

الخاتمة

لكل أجل كتاب . ولكل بداية نهاية . وقيمة كل امرئ بما يحسن . فى ربيع الأول سنة ١٣٧٣ هـ ٩ نوفمبر ١٩٥٣ فارق هذا العالم إلى دار الخلود المرحوم الملك عبد العزيز بن عبد الرحمن الفيصل السعود ففقدنا بفقده رجلا عظيما مَدَّ رواق مملكته المترامية الأطراف و بنى صرحها الشامخ لبنة فوق لبنة بعد كفاح مرير وحروب دامية ونضال سياسى . ولئن مات عبد العزيز ، كما يموت كل بشر فان أعماله الخالدة ستبقى حية فى صفحات التاريخ .

وإنما المرء حديث بعده　　　فكن حديثا حسنا لمن وعى

لقد أدى عبد العزيز واجبه فى الحياة على خير وجه يمكن أن يؤديه رجل عظيم مثله . وترك الأمانة لأكبر أبنائه الملك « سعود » وهو خير من يحملها . وإنه ليس بغريب عن بلاده . فقد رافق والده فى كثير من حروبه ، كما حمل كثيراً من الأعباء والمسئوليات السياسية والإدارية بالنيابة عن والده .

ولقد أبدى فى السنة الأولى من حكمه نشاطا عظيما . فزار شمال بلاده فى الشتاء القارس وجنوبها فى القيظ الشديد للوقوف على حاجة البلاد وأهلها ، غير عابئ بما يلاقى من مشقة وتعب فى سبيل خدمة بلاده ، ورفع مستوى شعبه ، وتوفير جميع أسباب الرفاهية والرقى للأمة العربية من جميع النواحى الصحية والاجتماعية والعلمية .

والعالم العربى والإسلامى يبتهل إلى الله أن يسدد خطاه . ويجعل التوفيق حليفه . وأن يجعل عهده عهد سعادة ورخاء ، وسعادة وهناء . وأن يحقق فى أيامه ما يصبو إليه العرب من اتحاد وعزة وتقدم . والله الموفق المعين ، نعم المولى ونعم النصير .

قاموس الأمكنة والبلدان

(ح)

(خ)

(د)

(ر)

(ز)

(س)

(ش)

(ص)

(ض)

(ط)

(ظ)

(ع)

(غ)

(ف)

(ق)

(ك)

(ل)

(م)

(ن)

(هـ)

(و)

(ى)

أعلام الرجال

(ا)

(ب)

(ت)

(ج)

(ح)

(خ)

(د)

(ر)

(ز)

(س)

(غ)

(ف)

(ق)

(ك)

(ه)

(و)

(ى)

الأمم والقبائل والبطون والفرق

(أ)

(ب)

(ت)

(ث)

(ج)

(ح)

(خ)

(د)

(ذ)

(ر)

(ز)

(س)

(هـ)

(و)

(ى)

دار المصرى للطباعة
ت: ٣٨٣٦٥١٦ — الهرم